عملاق المحبّة
القدّيس ڤــنسان دي پــول

(مار منصور)

«الفقراء هم أسيادُنا ومعلّمونا»

الأب ڤـنسان دي پـول

(مار منصور)

سلسلة النوابغ
١١

عملاق المحبّة
القدّيس ڤنسان دي پول

(مار منصور)

أديب مصلح

٢٠١٩

طبعة أولى

٢٠١٩

*

جميع الحقوق محفوظة للمؤلّف

منشورات المكتبة البولسيّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب.: ١٢٥

هاتف: ٠٩/٩١٢٥٩٣ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦

بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣

زحلة – شارع سيّدة النجاة – مُقابل مُطرانيّة الروم الملكيّين الكاثوليك – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

إهـــداء

إِلى جَميعِ المنصُوريِّين والمنصُوريّات أينَما كانوا عامِلين،

إِلى جَميعِ مَن يحدُوهم روحُ القدّيس ڤِنسان،

وإلى جَميعِ مَن تقودُ سُلوكَهم موعِظةُ الجبَل!

تقديم

الأب علم علم

« كما تعلو السماوات عن الأرض،
كـذلك تعلو طرقي عن طرقـكم
وأفكاري عن أفكاركم، يقول الربّ ».
(أشعيا ٥٥: ٩)

آيةٌ كريمةٌ، سمعتها في طفولتي إثر التحاقي بالمدرسة الإكليريكيّة الصّغرى للآباء البولسيّين في حريصا عام ١٩٤٠ وستبقى محفورةً في قلبي ما حييت، لتواتر انطباقها على أحداث الحياة.

ولا ريب أنّ لنا في أخينا الأديب، أديب مصلح، مثالاً حيًّا يشهد بعُمق تلك الآية: كان أديب من رفاقي على مقاعد الدّراسة، يصبو لأن يصبحَ مرسَلاً بولسيًّا. بيد أنّ العناية الإلهيّة كانت تهيّئه للقيام بمهمّةٍ أُخرى ما كانت لتخطرَ له – ولا لنا – في البال: فقد صرَفته إدارة المدرسة بقرارٍ متسرّعٍ يستند إلى معلوماتٍ باطلةٍ. لكنّ الربّ سخّر ذلك الخطأ لما فيه الخير: "الله وحدَه قادرٌ على أن يستخرجَ الخير ممّا نحن البشر، بفهمنا المحدود، نسمّيه شرًّا." هذا ما قاله، عن خبرةٍ طويلةٍ، القدّيس جوزيف كُتُّلِنْـــچو، الذي اقتدى بمار منصور فأنشأ مبرّةً عامرةً لإغاثة البائسين في إيطاليا.

أجل، لو واصل أديب دراسته في حريصا وارتسمَ كاهنًا لكان برع، بنعمة الله، نظرًا لما يعمر صدرَه من حبٍّ أصيلٍ للربّ يسوع وأمّه العذراء مريم والأسرة

البولسيّة. لكنّنا، في هذه الحال، كُنّا حُرمنا من سلسلة الكتب الفذّة التي أغنى بها تراثنا الرّوحيّ والأدب العربيّ الرّفيع. أُبعِد قسرًا عن جوّ الرسالة التي عَشِقها، وتمنّى تكريسَ ذاته وحياته لها، ولكنّ عشقَ الرسالة كان قد تجذّر في أعماقه، وأخذَ بكلِّ أوتار كيانه، ويومًا فيومًا أضحى أشدّ عزيمةً على أدائها، بقلمه الذي أتقنَ استخدامَه، وفيًّا للشعار البولسيّ: الرسالة باللسان والقلم.

وفي الواقع، بقي أديب بولسيًّا بالقلب، وفيًّا للأمّ الرّوحيّة التي تعبَت على تنشئته، وأتاحت له أن يأخذ الأدب العربيّ من مناهله، عن يد الأستاذَين اللاّمعَيْن الأبوَيْن الأخوَيْن المرحومَيْن جورج وحنّا فاخوري.

إنّه لمن دواعي سروري واعتزازي أن ألبّي طلبه بالتّقديم لأحدث ما أنتج قلمُه الخصب: "عملاق المحبّة" (مار منصور)، لا سيّما وإنّي منذ صباي أكنّ للقدّيس ڤــنسان، أبي الفقراء، إعجابًا وحبًّا. وقفَ حياته لخدمة البائسين، وكان رائدًا مقدامًا في ابتكار طرقٍ جريئةٍ لإغاثتهم، فبارك الربّ مسعاه وانتشرت جمعيّاتُ مار منصور الخيريّة في شتّى الأقطار، تواصل رسالتَه في إسعاف المعوَزين والمنبوذين والمسنّين واللقطاء والسجناء، وذلك حبًّا للربّ يسوع الذي ساوى بين ذاته الإلهيّة وكلّ فقيرٍ: "الحقَّ أقولُ لكم، إنّ كلّ مرّةٍ صنعتم ذلك إلى أحد هؤلاء الصّغار، الذين هم إخوتي، فإليّ قد صنعتموه." (متّى ٢٥: ٤٠).

لا أذكر أنّي طالعت سيرة قدّيسٍ تحمّل ما تكبّده مار منصور من أهوالٍ جسديّةٍ ونفسيّةٍ: العاهات المضنية، الفقر المدقع، الوقوع في يد القراصنة، مرارة الأَسْر، هَوَان العبوديّة، ضيم الافتراءات، طغيان العظماء، فضلاً عن الكفاح الباطنيّ المستديم الذي كان يخوضه بلا هوادةٍ لترويض النّفس. ولعلّ أشدّ هذه المحن إيلامًا، النّزاع النّفسيّ المريع الذي انتابه سنواتٍ طوالاً من جرّاء الظّلام الرّوحيّ الدامس. ومع ذلك خرج من تلك المحَن ظافرًا بعون الربّ، وشقّ طريقه إلى ذرى القداسة،

وديعًا صبورًا زاهدًا، يرى وجه ربّه في وجه كلّ فقيرٍ، تحثّه محبّة المسيح الذي لم يكن له موضعٌ يسند إليه رأسه. (٢ كوره: ١٤// لوقا ٩: ٥٨).

ما أشبه أمسِ باليوم!

في خطاب الوداع الذي يُذيب القلبَ حنانًا، سأل الربّ يسوع أباه السّماويّ، لا أن يُخرج أتباعه من العالم بل أن يقيَهم شرّ العالم (يوحنّا ١٧: ١٥). ذلك أنّه أرسلهم نعاجًا بين ذئابٍ، ليرفعوا الإنسانَ المخلوق على صورة الله ومثاله، من عالم المادّة الزّائل إلى عالم الرّوح الباقي: "أُطلبوا أوّلاً ملكوتَ الله وبرَّه، وكل ما سوى ذلك يُزادُ لكم." (متّى ٦: ٣٣).

وعليه، لم يكتفِ مار منصور بإغاثة البؤس المادّيّ، بل أقدمَ أيضًا على مكافحة بؤسٍ آخر أخطر فتكًا من الأوّل، لأنّه يحطّم أسمى ما في الإنسان: الرّوح. فقد كان يدرك بثقابة نظره، أنّ القضاء على البؤس الرّوحيّ يُفضي إلى استئصال البؤس الماديّ، بينما العكس لا يصحّ.

عندما سِيمَ ڤـنسان كاهنًا، كان معظم رجال الدّين في أرياف فرنسا فقراء ماديًّا، وأُمّيّين لاهوتيًّا. أمّا في المدن، فكانوا يعيشون كأُمراء مترَفين يسعون إلى المال والمتعة ويزهون بالبذخ والنّفوذ. فنهض بإصلاحٍ جذريٍّ من القاعدة، على غرار ما فعل الأسّيزيّ، بوداعةٍ وتواضعٍ، وأسّس جمعيّة الرّسالة (اللعازريّين)، ليس لخدمة الفقراء فحسب، بل أيضًا لتخريج كهنةٍ صالحين، زاهدين في حُطام الدّنيا، متشرّبين روح الإنجيل، مُغرَمين بالخدمة، يَعِظون بالسّلوك قبل القول. فأنجح الربّ مسعاه وبذلك علّمَنا أنّ القدّيسين – وحدَهم – قادرون بنعمته على إصلاح الكنيسة.

عجيبٌ الله في أوليائه، والقدّيس العبقريّ مار منصور في طليعتهم. غمره الربّ بأنواره القُدسيّة، فأبدع في تنظيم أعمال الإغاثة بمنتهى الدقّة، وشقّ في هذا المضمار طرقًا جديدةً أدهشت العالم بجرأتها ولا تزال.

مَن يطالع سِيَر القدّيسين كمَن يعاشرهم. وعِشرتهم مُعدية، تحثّنا على الاقتداء بهم. وعليه، لا يساورني أيّ شكٍّ في أنّ أوّل مَن أُصيب بهذه العدوى المؤلّف ذاته! ولا أظنّ أنّه سيبرأ منها أبدًا. فهو لا يكاد يفرغ من وضع كتاب، إلاّ شرع في تأليف غيره. فقد نشر أديب حتّى الآن ثمانيةً وأربعين مؤلَّفًا، أحدثها "عملاق المحبّة" الذي نحن في صدده الآن. هذا فضلاً عن القصص القصيرة والمقالات الكثيرة التي شرع في كتابتها منذ سبعينات القرن الماضي لمجلّة المسرّة. وقد انفرد عن سائر الكتّاب بعرض كتبه كلّها مجّانًا لوجه الله، على الشّبكة الإلكترونيّة العالميّة، يرتوي من مَعينِها الزّاخرِ بحياة الرّوح، كلٌّ من في قلبه حنينٌ إلى عالم الرّوح.

حيَّا الله أخانا الأديب الحبيب، الذي أتاح لنا أن نلتقي، ليس فقط مشاهير القدّيسين، بل أيضًا وخصوصًا مصدر كلّ قداسةٍ، الربّ يسوع، الذي جعل أمَّه المجيدة مريم العذراء أمًّا لنا جميعًا. فقد خصّهما أديب بالنّصيب الأعظم من مؤلّفاته. ونِعمَ ما فعل!

إخوتي وأخواتي الأحبّاء، قرّاء هذه الكلمة، طالعوا "عملاق المحبّة"، بل كلّ ما جاد به قلم أديب الملهَم "وذوقوا ما أطيب الربّ!" (مزمور ٣٤: ٩).

* * * * *

- "إذا أمكَنَ القول:

"إنَّ جميعَ القدّيسين بعدَ إتمَامِهم مسيرَتَهم في الدنيا يظلّون أحياءً في ذاكرة البشَر، بالفضَائل التي كانوا لها مِثَالاً، وبالمؤسَّسات التي أنشأوها...".

فمن الحقّ أن نعزو، عَلنًا، هذا الشرف للقدّيس فِنسَان دي پول، الذي حمَلتْ ذرّيَّتُه الخصِبَة، إلى كلّ مكانٍ، ثمارًا مُبارَكةً مميّزةً!".

البابا القدّيس بيّوس العاشر

- "إنَّ القدّيس فِنسَان دي پول، هو رجلُ عمَلٍ وصَلاةٍ، وتنظيمٍ وخيَالٍ، وإدارةٍ، وتواضعٍ...

إنّه رجلُ الماضي، ورجلُ اليوم".

البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني

الفَصْلُ الأوَّلُ

مسيرةٌ شاقّةٌ نحو الكهنوت

« لا يكفي أن يكونَ المرء كاثوليكيًّا، بل يجب أن ينخرطَ في الأمور الزمنيّة، إذا شاء تحريرَ المستقبلِ من طغيان الزمنيّات ».

"شارل پيغي"

نشأته: الراعي الصغير

وفق مؤرّخ سيرته الأوّل، الأُسقف "أبيلّي" (Abelly) وُلِد ثالث أيّام عيد الفصح من عام ١٥٦٧. ولكن يبدو أنّ المؤرّخ سبّق هذا التاريخ بقصد تلافي اللغط الذي أُثير حول سيامته الكهنوتيّة، قبل بلوغه العشرين من سنيه.

ومن المتّفق عليه أنّ تاريخ ميلاده الحقيقيّ هو ١٥٨١/٤/٢٤.

كان ثالث أبناء أُسرةٍ تألّفت من أربعة صبيانٍ وابنتين. هذا العدد من الأبناء كان يُعدّ كبيرًا، في حقبةٍ حافلةٍ بالاضطرابات السياسيّة والاجتماعيّة، والحروب الداخليّة والخارجيّة، وما تجرّه من مواكب حرمانٍ ومجاعةٍ.

والده "جان دي پـــول"، وأُمّه "بيرتراند دي موراس" (Bertrande de Moras) كانا يمتلكان مزرعةً في قرية "پوي" (Pouy)، القريبة من مدينة "داكس" (Dax) الغافية على سفوح الـــپـــيرينيه.

ولا بدّ من التنويه بأنّ لفظة "دي" (de) التي تسبق كنيتي الوالدين لم تكن دلالةً على محتدٍ كريمٍ، مثل تلك التي تسبق كنية النبلاء والعظماء، بل كانت مجرّد دلالةٍ على مسقط رأس أجداد العيلة، وهي تحاكي ياء النسبة المشدّدة في لغتنا العربيّة مثل قولنا: الزحلاويّ، والمعرّيّ، والأسيزيّ. ولطالما كان ڤـــنسان يدغم اللفظتين فيكتب كنيته "ديـــپـــول" (Depaul)، حسمًا للالتباس. وإن هو ورث نسبة "دي پـــول"، فقد أهّلته مسيرته للانتساب إلى "بولس الرسول" الذي، إثر اهتدائه، لم يعد يعرف إلاّ يسوع، ولم يفخر إلاّ بانتسابه إليه.

واسم قرية "پـــوي" (Pouy) كان يعني باللهجة المحلّيّة "التلّة"، ويعني أيضًا المستنقع، إشارةً إلى مستنقعٍ منبسطٍ عند حواشي القرية. وكانت تلك القرية تتألّف

من خمسين بيتًا واطئًا، مسقوفةً بالقشّ. وسكّانها فلاّحون كادحون يستثمرون أراضي قليلة الخصب، مستعينين على العيش بتربية المواشي. ولم تكن تفصل مساكن الأهالي فيها عن زرائب بهائمهم إلاّ حواجز خشبيّةٌ رقيقةٌ. وكانت البيوت تحيق بساحةٍ محاطةٍ بسنديانات معمّرةٍ، وبأشجار كستناء عتيقةٍ، وأشجار بلّوطٍ تصدّ عنها رياح الشتاء، وتنشر عليها فيئًا يقيهم هجيرَ الصيف، وتُقدّم البلّوط لخنازيرهم مآدب لذيذةً. في تلك الساحة كان يلتقي الأهالي مساءً، إثر عودهم من الحقول والمراعي، وفي أيّام الآحاد، ويتناقلون الأنباء، ويتداولون شؤون القرية.

وكانت تحيط بالقرية غابةٌ صغيرةٌ يُسمح لأعضاء الرابطة الفلاّحيّة التي كان "جان ديـــپـــول" أحد أفرادها، أن يجمعوا منها الحطب اليابس واقتطاع أغصانٍ صغيرةٍ يستخدمونها للتدفئة والطهو وإصلاح سقوف بيوتهم. وكلّ خمس عشرة سنةً كان يُسمح لهم بأخذ جذوع أشجارٍ يصطنعون منها أدواتٍ زراعيّةً ومنـــزليّةً وكان يُرخّص لكلّ عيلةٍ بتربية حتّى ثلاثين خنـــزيرًا، تتغذّى ببلّوط الغابة، بين شهر أيلول وعيد الميلاد.

وكان أبناء تلك المنطقة يلقّبون بـــ "غاسكونيّين" (Gascons) المتميّزين بقسوة المظهر، وبصلابةٍ معجونةٍ بالطيبة، وببساطةٍ مقرونةٍ بالإقدام. وقد حمل فـــنسان على محيّاه قسماتهم الأصيلة: عينين يقظتين، وفكًّا متينًا، وجبينًا عريضًا، وإرادةً فولاذيّةً. وقد لحظ الواعظ الشهير "بوسّويه" (Bossuet) في عينيه نظرة أسدٍ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ فقر تلك المنطقة قد أنقذها من مطامع الغزاة والمحاربين ومن اجتياح البِدَع، مدمّرةِ التقاليد الأصيلة.

في تلك القرية، إذن، كان "جان ديـــپـــول"، الملقّب بالأعرج، يستثمر مزرعةً صغيرةً، ابتنى فيها له ولعيلته، بيتًا مؤلّفًا من قاعةٍ مشتركةٍ لإقامة العيلة وطعامها، مزوّدةٍ بموقدٍ للطهو والتدفئة، وفي أحد جدرانها كوّةٌ تُراقَب منها الأبقار والبهائم؛ وبهذه القاعة المشتركة تحيط ثلاث غرفٍ يحتلّ الوالدان إحداها، والصبيان أُخرى،

وتقيم البنتان في ثالثتهما. وفي الجانب الشماليّ من البيت كان مكانٌ للجدّين ومستودعٌ للأدوات الزراعيّة.

كان الوالد، "جان ديـــپـــول"، مستقيمًا، قاسيًا على ذاته وعلى أبنائه، وبسبب ضآلة موارده كان مقتّرًا. ومع عرجه، كان دؤوبًا على العمل يحسن تدبير أمور أسرته المادّيّة واستثمار أراضيه، رغم أنّها لم تكن شديدة السخاء، وأنّ الضرائب كانت باهظةً، فكان كلّ فردٍ في العيلة يتولّى عملاً يلائم طاقاته، إسهامًا في سدّ حاجات الجميع. وبذلك كانت العيلة تضمن استقلالاً، واكتفاءً ذاتيًّا، ولو متقشّفًا، يعفيها من شراء أيّ شيءٍ ما عدا ما لا تستطيع إنتاجه. فمن خنازيرها كانت الأُسرة تضمن مؤونة اللحم المجفّف والمملّح، والمدخّن أحيانًا، (الجنبون)، ومن دجاجها كانوا يحصلون على البيض كلّ يومٍ، وعلى وجبة لحمٍ مطبوخٍ في المناسبات النادرة؛ ومن زراعة الذرة البيضاء والدخن كانوا يصنعون الخبز والحساء اليوميّ، ومن الأبقار يحصلون على الحليب، ومن النعاج على الجبنة، ومن بيع البطّ والإوزّ في مدينة "داكس" المجاورة كانوا يظفرون بالنقود التي يبتاعون بها لوازم العيش الأُخرى، التي لا غنى لهم عنها، ولا قدرة لهم على إنتاجها. وكانوا، من نفايات المنـــزل، ومن روث بهائمهم، يصطنعون سمادًا يوفّر لأراضيهم شيئًا من الخصب الذي تفتقر إليه.

غالبًا ما وصف ڤـــنسان والده بالفلاّح الفقير والمسكين، ولطالما أشاد بما لقّنه إيّاه من خلال دأبه على العمل، وصبره، واستقامته، وعطفه على المحتاجين. ولكنّه، في غروب حياته عبّر عن ندمه السحيق بسبب خجله من مرافقته إلى مدينة "داكس" بسبب عرجه، ورثاثة ثيابه.

وعن والدته ذكر أنّه لم يكن لها قطّ خادمةٌ، فقد كانت هي خادمة البيت. وكان شديد الولَع بجدّته أمّ والدته، ويطيب له قضاء عطلاته عندها مؤدّيًا لها خدماتٍ صغيرةً. وعن عيلته قال: "لا يوجد، في أيّ مكانٍ، أكثر ممّا كان فيها من إيمانٍ، ومن

اعتمادٍ على الله، عندما تشتدّ الاحتياجات، ومن شكرٍ له في البحبوحة". وعن شقيقتيه قال: "كانتا تعودان إلى البيت من أجل تناول وجبةٍ متقشّفةٍ، منهكتَيْن، مبلّلتَيْن، ملطّختَيْن بالأوحال، وإذا كانت حالة الطقس تتيح العمل، وطلب منهما الوالد أو الوالدة العودة، فتعودان، في الحال، غير عابئتَيْن بتعبهما وبمظهرهما الزريّ".

وفي المساء كانت تلتمّ العيلة، في وسط الغرفة المشتركة، حول منضدةٍ واطئةٍ، يتصاعد منها بخار حساء ذرةٍ بيضاء أو دَخْنٍ، تضاف إليه خضراواتٌ وبقولٌ متنوّعةٌ، يختلط فيها الملفوف باللفت والبازلاّء، والفول. وفي أيّام الأعياد الكبرى، والمناسبات الاستثنائيّة، مثل زواجٍ، أو عماد طفلٍ وليدٍ، كانت تفوح بقتار الدجاج المطبوخ.

وكان كلٌّ من أفراد الأسرة يضطلع بنصيبه من توفير أسباب العيش للجميع. وفيما ينصرف الوالد وأبناؤه إلى الحقول، وتنصرف الوالدة وابنتاها إلى شؤون المنـــزل، كان ڤـــنسان يرتدي أسماله العتيقة، التي ورّثه إيّاها أخواه الأكبران، وقد مزّقتها الأشواك، ولطّختها الأوحال، وعكفت عليها الوالدة تنظيفًا، وترقيعًا، وإصلاحًا، كي يتزيّا بها الراعي الصغير؛ ويعلّق في عنقه مزودًا، أودعت فيه أُمّه كسرة خبزٍ، وقطعة شحم خنـــزيرٍ، ويمتشق سلاح الراعي: عصًا طويلةً يسبر بها متانة الأرض عقب هاطل الأمطار، ويلوّح بها للبهائم المتباطئة، ويردّ بها الشاردة. وغالبًا ما كان يعتلي عكاكيز خشبيّةً طويلةً، ويسير بها، متحاميًا التخبّط في وحل الطرقات، ومراقبًا بهائمه ومواضع الكلأ حتّى مسافاتٍ بعيدةٍ. ولم يكن يرافقه ويؤنس وحشته سوى كلبه الصغير الذي كان يطيب له ملاعبته في فترات فراغه.

قطيعه كان يتألّف من بضع بقراتٍ، وثلّةٍ من النعاج والخراف، وخنـــزيراتٍ مرضعاتٍ وصغارهنّ. وهو، في كبره، كان، للدلالة على وضاعة منشئه، يعرّف ذاته بأنّه كان راعي خنازير، مغفلاً ذكر الأبقار والخراف والنعاج، تجنّبًا للتشبّه بالملوك والأنبياء، الذين استهلّوا حياتهم رعاةً.

في الفلاة الشاسعة، وتحت قبّة السماء اللامحدودة، كان فكر الفتى يطوف، تاليًا الصلوات التي لقّنته إيّاها أُمّه، ويسرح في تمعّن أسرار الطبيعة، واستيعاب دروس الصمت. وفي البراري تمرّس بالصمت الذي كان يدعوه حديثًا مع الله، والذي ظلّ كلِفًا به طول حياته. ومن الوحدة تعلّم التخشّع والإنصات إلى صوت السماء.

لا مراء أنّ الحياة في وحدة الطبيعة قد تكون حُظوةً، وقد تكون امتحانًا. فالنفوس الجدباء لا تجني منها شيئًا، بل قد تتردّى إلى أحقر مظاهرها وأشدّها تفاهةً. أمّا النفوس المنيعة، العميقة، فتتزوّد منها بملء الحياة، وبدنيا من الصور والمبادئ التي تنغرس في وعيها ولاوعيها، وتنير وجودها.

وڤـــنسان تعلّم من كلّ طارئٍ التمرُّس بالصبر، خصلة الفلاّحين المميّزة التي بها يتغلّبون على مِحَنٍ كثيرةٍ، والتي طالما شهد ڤـــنسان والده يتذرّع بها على قسوة الطبيعة. وهو من ملامسته الدائمة للأرض، تمرّس بالتواضع، وألِف الواقع.

ولاحقًا تجلّت دلائل تلك المؤثّرات على سلوكه المتميّز الذي ارتقى به إلى أسمى المراتب. فمعظم الفرنسيّين الذين اشتُهروا بمساهمتهم في إصلاح الكنيسة الكاثوليكيّة، في مطلع القرن السابع عشر، أمثال "بيرول" (Bérule) و"أولييه" (Olier)، و"كوندرين" (Condren)، و"فرانسوا الساليزيّ" (François de Salles)، كانوا متحدّرين من الطبقات الأرستقراطيّة الثريّة، أمّا ڤـــنسان فكان ابن الأرستقراطيّة الحقّة، أرستقراطيّة الفلاّحين المتجذّرين في أرضهم وتقاليدهم.

صحيحٌ أنّه نشأ نشأةً متواضعةً، وساق في صغره حياةً متقشّفةً، بيد أنّ هذه النشأة أضفت على طباعه صلابةً ومناعةً. فغالبًا ما يسقي التقشّف النفوس الطيّبة، مثلما يُسقى الفولاذ بالنار والماء. والتقشّف المقترن بالقناعة والرضى ليس عدوًّا للسعادة، بل هو من أفضل مناخاتها. ومن المحقّق أنّ هذه النشأة لم تخلّف في نفسه أيّة عقدةٍ، ولم تلهمه أيّ حقدٍ على الميسورين، بل وطّدت تواضعه الذي كان

أساس قداسته. فحتّى عندما طبَّقت شهرتُه الآفاق، وبعد أن اتّخذه الملوك، والنافذون صديقًا، ومرشدًا، ومستشارًا، لم يخجل من الاعتراف، على الملأ، بأنّه لم يكن سوى ابن فلاّح، وراعي خنازير. ولم يستحيِ، أمام أُسقفٍ كان يحدّثه عن قصر ذويه، من التصريح بأنّه يعرف ذلك القصر، فقد كان يرعى قطيعه في جواره.

كان يحترم الحكّام، والملوك والملكات والوزراء، ولكنّه يكلّمهم بحرّيّةٍ وصراحةٍ وبساطةٍ، على نقيض متسلّقي المناصب بالزلفى والتآمر، وادّعاء النسب الرفيع الموروث. واصطبغت، دائمًا، ردود فعله بموروثه القرويّ، المنـــزّه من الانبهار بالألق الزائف، والحريص على إزاحة الأقنعة، واستجلاء الواقع الراهن، والمعتصم دائمًا بسداد الحكم الذي لا يملّ انتظار نضوج الثمار قبل مدّ اليد لاقتطافها، والاعتماد على الوقت صانع الأحداث.

لم يتوهّم، قطّ، أنّ غاية الوجود هي العاصمة، والبلاط، والجامعات، ولم يغرب لحظةً، عن خاطره أنّ ثمّة حقولاً تؤوي وتطعم ثمانين بالمئة من مواطنيه، وأنّ فيها سنابل وقطعانًا، وفلاّحين كادحين، ونفوسًا بسيطةً، تستحقّ أن تعرف الله وتحبّه.

لا ريب أنّه ورث من ذويه الورع والاستقامة، ولكنّ صباه لم يتميّز بالتقوى. ولكنّه، مذّاك، أظهر فكرًا يقظًا، ونضجًا مبكّرًا، وانفتاحًا على هموم الآخرين، وبرهن عن تعاطفٍ راسخٍ معها. فكان، وهو عائدٌ من المطحنة، لا يتوانى عن فتح أكياس الدقيق، ومنح حفناتٍ منه للمحتاجين الذين كان يصدفهم في طريقه. وقد استعطاه، يومًا، رجلٌ معدمٌ، فتخلّى له، دفعةً واحدةً، عن كلّ مدّخراته التي جمعها أسبوعًا عقب أُسبوعٍ، مدلّلاً على نموذجٍ فريدٍ من العطف والعطاء، لا يزين بقسطاسٍ، ولا يكتفي بالتخلّي عمّا لا يوجعه عطاؤه، بل يجود بكلّ ما يملك، بلا تحفّظٍ ولا حسابٍ. ولكأنّه رضع العطف والرحمة مع حليب أمّه.

وفيما كان الفتى فـــنسان من علوّ عكّازه الخشبيّ يراقب قطيعه، كان خياله يسرح في الآفاق النائية، فكانت رياح المحيط تبلّغه دعواتٍ إلى الانطلاق بعيدًا.

ڤِنسَان الطالب

غالبًا ما كان "جان ديـــپـــول"، الوالد، قبل إخلاده إلى النوم، يُعمِل الفكر في مستقبل أبنائه. فحقولُه، بفضل جهده وتقتيره، وتضامن جميع أبناء الأُسرة، تكفيه من العوَز، ولكنّها لا تفسح له أيّ أملٍ في تقدّمٍ اجتماعيٍّ.

وحينئذٍ كان يجول بخاطره قريبٌ له، كاهنٌ يُدعى "إيتيينّ ديـــپـــول"، مكلَّفٌ برئاسة ديرٍ ينعم بموارد سخيّةٍ، أتاحت له ولأفراد أسرته ترقّيًا اجتماعيًّا وماديًّا كان يحسده عليه. وكان يتساءل عن جدوى تعليم أحد أبنائه، وتوجيهه نحو منصبٍ كنسيٍّ كفيلٍ بأن يضمن له ولإخوته انتعاشًا وترقّيًا.

وذات ليلةٍ طرق باب بيته السيّد "كوميت"، وهو محامٍ وقاضٍ في محاكم "داكس"، وتربط زوجته بزوجة "جان ديـــپـــول" علاقات قربى. وكان ذلك المحامي كَلِفًا بالهواء الطلق، وكلّما نعم بفسحةٍ من النقاهة كان يمتطي فرسه، ويطوف في الجوار، واتّفق له أن صادف، في بعض نزهاته، الراعي الصغير ڤــنسان، وحادَثه، وقرأ في ألق عينيه، ونظره الثاقب، وسلوكه الناصع، ونشاطه الدائب، وليونة حركته، وكَلَفه بالوحدة، وزهده بمتاع الدنيا، وتطلّعه إلى البعيد المجهول، موهبةً جديرةً بخدمة الكنيسة والوطن.

انتشى "جان ديـــپـــول" زهوًا بتقدير شخصيّةٍ مرموقةٍ لابنه، ولكنّه بدافع فطرة الفلاّح الذي يقلّب التربة ويعرّضها للشمس والمطر، قبل أن يودع البذار في ثنايا أثلامها، استمهل ريثما يمحّص الأمر. وبعد إعمال فكرٍ متأنٍّ، وروز الأُمور من جميع جوانبها، بأدقّ ميزانٍ، وبعد تأمّله الحياة الهنيّة التي يسوقها قريبه، الأب "إيتيينّ"، والنهضة الاجتماعيّة التي حقّقها لنفسه ولذويه، في حين ما زال هو وأهل

بيته يكدحون من الفجر حتّى المغيب، ومع ذلك يحصلون، بمشقّةٍ، على قوتهم اليوميّ، ولا يلوح لهم طيف رجاءٍ في ترقٍّ. وبعد مقارنته الواجبات بالنتائج، قصد بيت السيّد كوميت. ومع أنّ منظره الرثّ جفّل خدم المحامي، غير أنّ السيّد كوميت استقبله بمودّةٍ واحترامٍ، وسُرّ بموافقته على تعليم ابنه ڤـــنسان. وتحسّبًا لإثارة المحامي قضيّة نفقات الدراسة اللاهوتيّة الباهظة، وربّما مبادرته إلى عرض مساعدةٍ، استَبَقه "جان ديـــپـــول"، وأعلن استعداده لبيع فدّان ثيرانٍ، من أجل تمويل تلك الدراسة. وأكبرَ المحامي تلك التضحية الجسيمة. فقد كان يقدّر كم يعادل فدّان ثيرانٍ، في حساب فلاّحٍ فقيرٍ، رأسمالاً قيّمًا، وكم كان فقدانه موجعًا.

كان "جان ديـــپـــول" قد استشفّ في نصح السيّد كوميت مشيئة الله، ولا سيّما أنّ الحروب الأهليّة قد خرست، وأنّ الملك هنري الرابع، بعد تخلّيه عن معتقداته البروتستانتيّة واستعادته إيمانه الكاثوليكيّ، بدا عازمًا على لأم وحدة الوطن، وترسيخ السلام، ونشر الطمأنينة. وقرّر الفلاّح الوالد إلحاق ابنه بثانويّةٍ داخليّةٍ في "داكس"، تمهيدًا لدراسة اللاهوت.

لم يُستشَر ڤـــنسان بشأن مستقبله، ولم تكن فكرة الكهنوت قد خطرت له قطّ ببالٍ. فربُّ العيلة كان يملك حقّ تقرير مصير أفراد أسرته. ولا ريب أنّ فكرة انسلاخ الفتى عن أُمّه وإخوته وشقيقتيه، وقطيعه، وكلبه الصغير، قد آلمته. ولكنّ رغبةً عنيدةً كانت تضجّ في أعماقه، رغبةً في التعلّم، واستكشاف العالم، والانطلاق إلى آفاقٍ بعيدةٍ. وربّما كان يلتهب في أعماقه، لاشعوريًّا، توقٌ إلى طرق أبواب المطلق، ذلك التوق الذي يصنع الصوفيّين والقدّيسين.

في سنّ الثانية عشرة هجر، إذن، الفتى ڤـــنسان العشّ الوالديّ، وكلّ ما ألِفه، مثبتًا أنّه "غسكوينٌّ" (Gascon) أصيلٌ، يقرن اللطف بالصلابة، ويواجه ببسالةٍ صروف الزمن. وكان تحدوه آمالٌ في إضفاء هالة فخرٍ على ذويه، غير نادمٍ على

ما هجر، ولا ملتفتًا إلى الوراء، بل متطلّعًا، بكلّ تفاؤله، إلى مستقبلٍ مشرقٍ، فاتحٍ له ذراعَيْه، مزهوًّا باقتحامه عالمًا قشيبًا.

انضمّ ڤــنسان إلى ثانويّةٍ داخليّةٍ في مدينة "داكس"، يديرها فرنسيسكانيّون. لم تكن مدرسةً رفيعة المستوى، وكان تعليمها يقتصر على ترسيخ معرفة القواعد اللغوية، ومبادئ اللغة اللاتينيّة. وبذل الطالب الجديد جدًّا وجهدًا، فأحرز نجاحًا وتقديرًا، بفضل دأبه، ونأيه عمّا يلهي العديد من أترابه عن واجباتهم المدرسيّة، من ارتياد حاناتٍ، وإثبات بطولاتٍ زائفةٍ، في عراكات الأزقّة، وبدافع نَهَمه المسنون إلى التعلّم، ورغبته الجيّاشة في تحقيق حلمه، وحلم أسرته.

وفي داكس كان يختلف إلى دار المحامي "كوميت"، ويزورها باطّرادٍ، فأعجبت زوجة المحامي بخصاله، وارتأت أنّه قد يكون خير مدرّسٍ لأطفالها الذين لم يكن الدرس يجتذبهم، علّه يساعدهم على مذاكرة دروسهم في البيت، وراقت الفكرة للسيّد "كوميت"، ورأى فيها مناسبةً لتقديم عونٍ لوالد ڤــنسان بإعفائه من مبلغ الستّين ليرةً التي كان يخصّصها لمدرسة ابنه الداخليّة، فقدّم للفتى سكنًا في منــزله، وأجلسه على مائدته مع أفراد عيلته، وأدّى له راتبًا متواضعًا يؤمّن له نفقاته الطارئة.

وقبل مضيّ ثلاث سنواتٍ كان ڤــنسان قد أنهى دراسته الثانويّة في "داكس". وتوسّم فيه المحامي "كوميت" مواهب نادرةً، ونضجًا يفوق سنّه، وأيقن أنّه لا يسوغ ترك ذلك المصباح خفيًّا، وأنّ الكنيسة خليقةٌ باحتضانه، ورفعه على مشكاتها كي ينشر نوره على العالم، فأقنع الفتى بتقديم ذاته لله، ولخدمة الكنيسة. وكان ڤــنسان يعدّ السيّد "كوميت" أبًا روحيًّا له، فامتثل لرغبته، واعتزم دراسة اللاهوت، تأهّبًا للكهنوت.

وجديرٌ بالملاحظة أنّ دماثة ڤــنسان كانت تفتح له قلوب الآخرين، وتجعل أياديهم تمتدّ لعونه، ولا سيّما أنّه كان واقعيّ التفاؤل، لا تلفته من الحاضر سوى وعوده الأكيدة، وكان متيقّظًا لدعوات المستقبل، جريء المبادرات، خلاّقًا.

ولكن يبدو أنّ شيئًا من الغرور قد تسلّل إلى نفسه من جرّاء تميّزه عن إخوته وأترابه وانتسابه إلى ثانويّةٍ خارج القرية. وقد جاءه والده، يومًا، راغبًا في تفقّد أُموره والاطمئنان عليه، ولّما أخبره بوّاب المدرسة أنّ في الخارج فلاّحًا أعرج، مهلهل الهندام، يرغب في رؤيته، رفض مقابلته، وأوعز إلى البوّاب بردّ الزائر. وهذا الفعل الحقير ظلّ في وجدان الأب قــنسان، خطيئةً كبرى، وجرحًا نازفًا، ما انفكّ ندمه عليه يثقل ضميره حتّى مماته.

وكان لا بدّ من الانتقال إلى مدينة تولوز، التي تحتضن جامعة لاهوتٍ كفيلةً بتأهيل قــنسان للكهنوت. وبما أنّ الدراسة الجامعيّة كانت تمتدّ على سبع سنين، وتستلزم نفقاتٍ باهظةً، وفى "جان ديــپــول" بوعده، وباع فدّان ثيرانٍ، مراهنًا على ذكاء ابنه واجتهاده، وموقنًا أنّ تلك التضحية سترتدّ على عيلته خيرًا عميمًا. وربّما، في الواقع، لم تؤتِ تلك التضحية عيلة "ديــپــول" عونًا ماديًّا يُذكر، ولكنّها كانت للكنيسة وللعالم هديّةً نفيسةً.

الطالبُ الإِكليريكيّ

لم يكن من شأن جامعة تولوز أن تُعدّ ڤـنسان للكهنوت فحسب، بل كانت كفيلةً بأن تفتح له أبواب الترقّي الاجتماعيّ، والمستقبل المريح، الذي يُعتِقه من عيشة التقتير والكدح التي لم يكن بوسع قريته أن توفّر له خيرًا منها؛ وكانت تمكّنه من عقد علاقاتٍ اجتماعيّةٍ، خليقةٍ بدمجه في مجتمعٍ راقٍ، وبالإجمال، تحقّق له ولذويه أحلام والده التي كبّدته تضحياتٍ جسيمةً، ولم يُكتَب له أن يقطف ثمارها، في حياته. فما كاد "جان ديـپـول" يقدم على التضحية بفدّان ثيرانٍ، حتّى لبّى نداء ربّه، قرير العين، بتعبيده الطريق لكاهن الغد.

وكان على ڤـنسان بذل جهودٍ بطوليّةٍ في سبيل تحقيق أحلام والده وعيلته، وأحلامه الخاصّة. فدراسة اللاهوت تقتضي قدرًا جمًّا من الاجتهاد والمثابرة، والتيقّظ، فضلاً عن نفقاتٍ باهظةٍ. وهو كان يملك الجهد، والمثابرة، والصبر، ولكن لم يكن بقدرة ثمن فدّان ثيرانٍ مدّه بالعون المادّيّ اللازم حتّى نهاية دراسته. وكان الجوّ العامّ ما زال مشحونًا بتأثير الصراعات الطائفيّة بين كاثوليكيّين وبروتستانتيّين، والانقسامات الحزبيّة والسياسيّة بين النظام الملكيّ، والأمراء النبلاء الطامعين في القبض على مقاليد السلطة، والاستئثار بمغانمها.

وكانت تولوز ما زالت تجيش برواسب تلك الصراعات التي غالبًا ما تُشعل معارك دمويّةً بين مدرسةٍ ومدرسةٍ، وبين كلّيّةٍ وأُخرى، وبين طلاّبٍ محازبين لفريقٍ وآخرين موالين لفريقٍ آخر. ولطالما تحوّلت الصراعات إلى قتالٍ دامٍ، ما أكره المسؤولين الأمنيّين على منع الطلاّب من حمل السلاح.

وكان ڤـنسان، بفطرته، ميّالاً إلى الصراع، ولكنّه رأفةً بتضحيات والده، ورأفةً بمستقبله، نأى بنفسه عن كلّ انحيازٍ حزبيٍّ، وعن كلّ صراعٍ فئويٍّ، وانصرف

بكلّيّته إلى الدراسة، استعجالاً في بلوغ هدفه. ابتعد عن الشارع وصراعاته، وعن الحانات ومجونها والتهامها للمال، وأمضى لياليه مكبًّا على كتبه ودفاتره، مستنيرًا بمصباحٍ شحيحٍ.

وإذ كانت الخبرة التي اكتسبها من تدريس أبناء السيّد كوميت في داكس قد ورّثته ولعًا بالتدريس، فقد افتتح، في محلّة "بوزيه" (Buzet)، غير البعيدة عن تولوز، مدرسةً داخليّةً صغيرةً، تهافتت أُسَرٌ ميسورةٌ، وأوكلت إلى رعايته أبناءها الذين كانت شتّى النـــزوات وضروب الولع بملاهٍ شتّى تصرفهم عن الدراسة الجدّيّة. واكتشف ڤـــنسان السبيل إلى اجتذاب اهتمام أولئك الصغار، وأحرز في هذا المضمار من النجاح ما دفع العديد من الأُسَر إلى إيكال أبنائها لرعايته. فازدهرت مدرسته الداخليّة، وتنامت ثقة الأهالي في المعلّم، بحيث لم يتوانَ العديد منهم على إرسال أبنائهم إلى تولوز، وإبقائهم تحت رعايته، لّما عاد إليها كي يتابع دراسته الجامعيّة. وظلّت تلك المدرسة الداخليّة الصغيرة تستولي على الكثير من اهتمام الإكليريكيّ، وأمست له مصدر دخلٍ رئيسًا، مكّنه من مواصلة دروسه. غير أنّ استعجاله الحصول على رتبةٍ كهنوتيّةٍ تؤهّله لتولّي رعيّةٍ توفّر له دخلاً يمكّنه من العيش الكريم، وتسديد ديونه المتراكمة، ولا سيّما أنّ أوضاع ذويه الماليّة كانت قد تخلخلت عقب وفاة ربّ الأُسرة، قد جعله يهمل المدرسة الداخليّة، ويضاعف جهوده في الدراسة. وتطلّعًا إلى تبوّؤ مراكز عليا استغرق في إتقان اللغات، فتملّك، فضلاً عن اللهجة الغسكونيّة، من اللغات الفرنسيّة والإسبانيّة والإيطاليّة واللاتينيّة، ولاحقًا ألّم بشيءٍ من العربيّة.

ويبدو أنّه سئم المناظرات اللاهوتيّة في جامعة تولوز، فعبر الحدود إلى إسبانيا. واختبر الدراسة في جامعة سرقسطة (Saragosse). ولكنّه لم يُطِلِ الإقامة فيها، لأنّه لم يستسغِ النقاشات العقيمة حول قضايا تافهةٍ، كانت شائعةً فيها، وعاد كي يتابع دروسه في جامعة تولوز.

وهكذا مُنح رتبة شمّاسٍ إنجيليٍّ، يوم ١٥٩٩/٩/١١، وفي العام التالي منحه

أُسقف "داكس" ترخيصًا بالسيامة الكهنوتيّة التي نالها عن يد أُسقف "پـيريغو" (Périgueux)، يوم ١٦٠٠/٩/٢٣، وكان في العشرين من عمره. أمّا الأُسقف الذي منحه سرّ الكهنوت "فرنسوا دي بورديّ" (M^gr. Fransois de Bourdeille) فكان قد تقدّم في السنّ، وتخطّى مرحلة التناحر على المناصب، وأشاع الهدوء في الرعيّة التي كان سلفه قد خضّها وأحدث فيها فضيحةً مجلجلةً من جرّاء جحوده العقيدة الكاثوليكيّة. وقد أثبت خلفه المذكور، فضلاً عن قوّة الشكيمة، وصلابة العقيدة، اندفاعه في مجال التجديد الكهنوتيّ؛ ولم يتوانَ عن تذكير الكاهن الجديد بالمبادئ التي التزم هو بها، وحرص على أن يتقيّد بها كلّ كاهنٍ مكرّسٍ لله، بحيث لا يسفر سلوكه كلّه، ولباسه، ومظهره، وأقواله، وأفعاله، وإيمانه، وكلّ شيءٍ فيه، إلاّ عن الجدّ، والوقار، والاستقامة، والقداسة، وضبط الذات، وعن كلّ خطأٍ قد يشكّك الآخرين، حتّى عن الهفوات التي قد لا يُعتَدّ بها عندما تصدر عن عامّة الناس، ولكنّها ترتدي حجمًا جسيمًا عندما يكون مرتكبها مكرّسًا للربّ. فعلى كلّ أفعال الكاهن وأقواله أن تفرض الاحترام، وعلى الكاهن، أن يلتزم الوفاء الدائم والدقيق لتعاليم الإنجيل، وأن يتجرّد عن متاع الدنيا، ويزدان بالعلم اللاهوتيّ المتين الذي يؤهّله لمقاومة البدع والانحرافات، والحؤول دون عودة المجتمع إلى العادات الوثنيّة التي طبعت نهاية القرن السادس عشر.

اختار الأب ڤـنسان للاحتفال بقدّاسه الأوّل مصلًّى صغيرًا مكرّسًا للسيّدة العذراء، معزولاً، في غابةٍ قريبةٍ من محلّة "بوزيه" (Buzet)، حيث اعتاد الاختلاء للصلاة والتأمّل أثناء تدريسه الصغار في تلك المحلّة. في هذا الخيار يمكن قراءة دلائل عديدةٍ، منها عرفان جميلٍ للسيّدة العذراء التي غرست في نفسه بذور الكهنوت والقداسة، ومنها تعلّقه بتلك المحلّة التي أولاه سكّانها ثقتهم، وأوكلوا إلى عنايته تعليم وتثقيف أبنائهم، وبسخائهم ساعدوه على مواصلة دراسته اللاهوتيّة، حتّى الكهنوت.

ويُقال إنّه، في اليوم التالي، احتفل بقدّاسه العلنيّ الأوّل في مسقط رأسه، وسط

ذويه، ولكم ارتجفت يداه، ووجف قلبه وهو يتلو فعل التكريس! ولكم ارتعد فَرَقًا وهو يروز عدم استحقاقه ممارسة سرٍّ مذهلٍ يرتعد أمامه الملائكة أنفسهم! وكم من دموعٍ فاضت بها عيناه، وهو يذكر تضحية والده من أجل إيصاله إلى مذبح الربّ!

في سنّ العشرين كان الأب ڤـــنسان ينعم بسلامة العقل، ونصاعة القلب، ولكنّه كان ما زال يفتقر إلى الاستقرار. فهو، إثر وفاة والده، كان قد فقد دعمه الماليّ. وتضاءل دخله من مدرسته الداخليّة التي أهملها، فتراكمت عليه الديون، وكان يتطلّع إلى تسلُّم أيّة رعيّةٍ تمكّنه من تسديد ديونه، وتيسّر له حدًّا أدنى من العيش المريح. كان ممزّقًا بين رغبته في الانصراف، كلّيّةً، إلى رسالته الكهنوتيّة، والحاجة إلى ما ينتشله من ديونه، ويوفّر له مقوّمات العيش.

لم يساور الكاهن الجديد أيّ وهمٍ بحصوله على منصبٍ رعويٍّ بيُسرٍ. فقد كان مئاتٌ من أترابه، وهم أرفع منه مكانةً اجتماعيّةً، وأقوى دعمًا وسندًا، يتنافسون على الرعايا الدسمة. وربّما حنّ على حاله أُسقف "داكس" الذي أُحيط علمًا بتضحية والده من أجل إيصاله إلى الكهنوت، وتخبُّطه، شخصيًّا، في شباك أزمةٍ ماليّةٍ متعبةٍ، فعرض عليه تسلّم رعيّة "تيل" (Thill) الشاغرة. وتوسّم الأب ڤـــنسان، في ذلك العرض، تحقيقًا لحلمه، وحلاً لمشكلاته، ولا سيّما أنّ تلك الرعيّة كانت قريبةً من مسقط رأسه، وتتيح له استعادة علاقاتٍ وثيقةٍ مع والدته وإخوته، وأُختَيْه، والتمتّع بمناخٍ قرويٍّ يُطربه، فيه، تغريد العصافير، وهمس النسيم في الأفنان، ووسوسة السواقي. ولكن سرعان ما تبيّن أنّ كاهنًا آخر كان قد تلقّى من روما وعدًا بتسلّم تلك الرعيّة عينها.

واتّفق أنّ روما كانت، في تلك الأيّام، تحتفل بيوبيلٍ مئويٍّ يستقطب إلى المدينة الخالدة، مواكب الحجّاج من كلّ صوبٍ، فانضمّ الأب ڤـــنسان إلى أحد تلك المواكب، رغبةً في اكتساب نِعَم اليوبيل، والسعي إلى استعادة حقّه في رعيّة "تيل" (Thill). ولا ريب أنّه تملّى من نعم اليوبيل، وملأ صدره بعبق القداسة الفائح من

أرض روما التي أخصبتها دماء الشهداء، وباركتها أضرحة القدّيسين، وخلّفت في نفسه ذكرياتٍ عذبةً ظلّ يتلمّظها حتّى سنواته الأخيرة.

أمّا بشأن رعية "تيل"، فقد اتّضح له أنّ استعادة حقّه فيها، تقتضي دعاوى قضائيّةً طويلةً ومُكلفةً، وهو لا يملك مالاً يمكّنه من تلك المخاطرة؛ فضلاً عن نفوره من خدمة رعيّةٍ يكون قد حصل عليها إثر خصامٍ، وبموجب حكمٍ قضائيٍّ، ويقينه بأنّ الله لن يبارك تلك الخدمة. فآثر العودة إلى تولوز لمتابعة دراسته اللاهوتيّة التي تؤهّله لخدمةٍ كهنوتيّةٍ مثلى. فأكبّ على تلك الدراسة، بجدٍّ مضاعفٍ، وحصل على بكالوريا في اللاهوت، بنهاية عام ١٦٠٠. ومع ذلك استمرّ في دراساتٍ لاهوتيّةٍ عليا حتّى نال دكتورا في اللاهوت عام ١٦٠٤، ورُخّص له بالتعليم في بعض الجامعات.

في هذه الأثناء كان نبيلٌ سبق لـفـنسان الطالب أن أنقذ ابنيه من ورطةٍ خطيرةٍ، قد رغب في أن يكافئه على صنيعه، فاستدعاه إلى مدينة بوردو. وأوضح له أنّ علاقاته بمقاماتٍ عليا تمكّنه من الحصول له على منصبٍ أُسقفيٍّ. عرضٌ أكبر من كلّ ما تصوّره، ومن كلّ ما تطاول إليه طموحه، ألهب مخيّلته، ولكنّه، في الآن عينه، أوقعه في دوّامة نزاعٍ داخليٍّ ممزّقٍ، فهو الذي كان يطمح – على غرار الأسقف الذي منحه سرّ الكهنوت – إلى إصلاحٍ كنسيٍّ نزيهٍ، لم يستسغْ منصبًا لم يفعل، بعدُ، شيئًا فيستحقّه، ويتأهّل له، وتجاذبته التساؤلات الممضّة بين فوائد ذلك المنصب المادّيّة الكفيلة بالقضاء على كلّ همومه، وعدم استئهاله له، وصغر سنّه الذي لا يتناسب مع عظمة المنصب، فاجتاح التشوّش فكره، وطارد السهادُ لياليه.

وفي حومة تخبُّطه في الحيرة وفي هموم الديون المتراكمة التي كانت تقضّ مضجعه، فاجأه نبأٌ بانفراجٍ غير متوقّعٍ. فقد أخطره كاتبٌ بالعدل أنّ عجوزًا كان الأب فـنسان قد واكب احتضارها، وزوّدها بالعزاء الروحيّ والزاد الأخير، كانت قد أوصت له، قُبَيْل وفاتها، بمبلغ ثلاث مئة دينارٍ، يدين به لها وغدٌ كان قد استلبه وفرّ به إلى مدينةٍ أُخرى، حيث استثمره وجنى منه أرباحًا طائلةً، ثمّ استقرّ في مرسيليا

حيث كان يسوق حياة لهوٍ. واستشار الأب ڤـنسان محامين أكّدوا له أنّ الوصيّة تخوّله سجْن المدين، إذا هو تمنّع عن دفع مبلغ الدين، ومن المرجّح أنّه سيؤثر الدفع على المكوث في السجن. وفي الحال استأجر الأب حصانًا وانطلق إلى مرسيليا، واستعاد مبلغ الوصيّة. وخُيِّل إليه أنّ صفحات مشاكله قد طُويت، وبات بمكنته المضيّ قدُمًا في دراساتٍ عليا في اللاهوت، بهدوءٍ. ولكنّ العناية الإلهيّة كانت تعدّ له امتحانًا أكثر تعقيدًا ومشقّةً، وتصهره في بوتقة المِحَن كي تنقّيه من شوائبه. ومنذ ذلك اليوم غاب الكاهن الجديد عن الأنظار مدى أكثر من سنتين، فاتحًا المجال لكلّ ضروب التخمينات، ولأبشع الاتّهامات المخزية الباطلة. وساهم صمتُه المطبق حول سرّ هذا الغياب في مضاعفة التكهّنات والتخرّصات. ولربّما كان ظلّ الغموض مخيّمًا على هذا الغياب المريب حتّى اليوم، لو لم تهتك الصدفة سرّه، بعد انقضاء خمسين سنةً عليه، عندما كان أحد ورثة المحامي كوميت يرتّب أوراقه ويفرزها، فعثر على رسالتين موجّهتَيْن إليه، عام ١٦٠٧، من مدينة "أڤـينيون"، وتحملان توقيع الأب ڤـنسان ديـپـول. وخُيِّل إلى الذي عثر عليهما أنّ الكاهن الشيخ سيسعد باستذكار صباه، فبعث له بنسخةٍ عنهما، بادر الكاهن إلى إحراقهما، في الحال، وطالب بأصلهما، وألحّ في المطالبة، ما أثار ريبة مالكهما فأعاد نظره في قيمتهما، ولا سيّما أنّ الأب ڤـنسان، كان حينذاك يحبو إلى حتفه بعد أن حقّق من الإنجازات الإنسانيّة والكنسيّة ما قلّما أنجز مثله كاهنٌ قطّ، واكتسب من الشهرة ما جعل اسمه يتردّد على كلّ لسانٍ. ومن ثمّ بعث بأصل الرسالتين إلى أُسقفٍ تاركًا له حقّ التصرّف بهما حسب ما يرتئيه. واستشار الأُسقف معاوني الأب ڤـنسان، الذين حرصوا على أن تأخذ الرسالتان مكانهما الطبيعيّ بين وثائق جمعيّة الرسالة، وطالبوا بأن تُرسلا إليهم بكتمانٍ، فتنجوان من مصير الإتلاف على يد الأب ڤـنسان. واتّفقوا على أن يماطل الأُسقف في تلبية الأب ڤـنسان بالحصول على الرسالتين، ثمّ على أن يدّعي فقدانهما في البريد بعد أشهرٍ من المماطلة والتجاهل.

فما الذي تضمّنته الرسالتان؟

الفَصْلُ الثَّانِي

خطفٌ، وعبوديّةٌ، وتلمّس طريقٍ

« صرخةُ الفقير تصعدُ حتّى الله،

ولكنّها لا تنفذُ إلى أُذن الإنسان ».

"لامنيه"

الأسير

استردّ إذن الأب ڤـنسان مبلغ الدين الذي ورثه، واستعدّ للعودة إلى تولوز. وقضى ليلته في فندقٍ حيث التقى تاجر نبيذٍ، كان يعتزم، هو أيضًا، السفر في الغد، وأقنعه، كسبًا للوقت، وتفاديًا للتعب، استقلال مركبٍ مبحرٍ إلى "نربون" (Nerbonne)؛ فالمسافة لا تتخطّى مئتي كيلومترٍ، ويمكن اجتيازُها في يومٍ واحدٍ، ولا سيّما أنّ ظروف الطقس كانت مؤاتيةً.

ولكن غرب عن ذهن التاجر أنّ القراصنة، القادمين من الجزائر وتونس، كانوا ناشطين متيقّظين بالقرب من كلّ الشواطئ الفرنسيّة، حيث كانت تقام، حينذاك، أجمل المعارض، موفّرةً لهم أفضل فُرَصٍ لخطف مسافرين واستعبادهم، ونهب البضائع، وسلب الأموال. وفي الواقع هاجمت المركب الذي كان الأب ڤـنسان والتاجر على متنه ثلاثةُ قوارب قراصنةٍ مسلّحين، وحاول قبطان المركب الفرنسيّ الدفاع عن نفسه وعن مركبه وركّابه، فأطلق النار، وأردى قبطان أحد القوارب المهاجمة، وردّ القراصنة بطلقاتٍ ناريّةٍ كثيفةٍ، قتلت ثلاثة ركّابٍ فرنسيّين، وجرحت معظم الآخرين، وأصابت إحدى السهام فخذ الأب ڤـنسان محدثةً فيها جرحًا بليغًا، ظلّت ندبته وآلامها منبّهًا له، لا يهدأ رنينه الصامت، وابتلته بعرجٍ خفيفٍ رافقه طوال حياته.

واضطرّ القبطان الفرنسيّ إلى الاستسلام، من جرّاء عدم تكافؤ القوى بينه وبين مهاجميه، الذين انقضّوا عليه، وقطّعوه أشلاءً، بوحشيّةٍ مريعةٍ، انتقامًا لمقتل قبطانهم، وأبقوا على حياة الآخرين الذين لم يقاوموا، لأنّهم كانوا عازمين على بيعهم في سوق النخاسة. ولذلك ضمّدوا جروحهم بخروقٍ قذرةٍ، بعد أن سلبوهم كلّ ما يملكون، وجرّدوهم من ثيابهم، وقيّدوهم. ثمّ تابعوا إبحارهم على امتداد ثمانية أيّامٍ،

خاطفين وناهبين جميع الذين صادفوهم في طريقهم، حتّى وصلوا إلى قاعدتهم في تونس، حيث ادّعوا أنّهم اختطفوا أسراهم على مركبٍ إسبانيٍّ، إذ كان ملك فرنسا قد أبرم اتّفاقًا مع سلطان تركيّا يقضي بالإفراج عن الأسرى الفرنسيّين، دعمًا للتجارة بين فرنسا وتركيّا.

وهكذا، يصف الأب ڤــنسان كيف بدأت مغامرةٌ دامت سنتين:

« بعد أن جرّدونا من ثيابنا أعطوا كلاًّ منّا زوجًا من السراويل الرحراحة، وسترةً من الكتّان، وطاقيّةً، وطافوا بنا في المدينـة... وبعد أن جالوا بنا ستَّ جولاتٍ، مقيّدي الأعناق، عادوا بنا إلى المركب، حيث وافى تجّارٌ تفقّدوا قدرة كلٍّ منّا على الطعام، ومدى خطورة جراحنا. ثمّ عرضونا في الساحة حيث عاينَنا المشترون معاينتَهم لحصانٍ أو ثورٍ، فاتحين أفواهنا، ومراقبين أسناننا، ومختبرين مشيتنا، وجرينا، وقدرتنا على رفع الأثقال، وقوّتنا في المصارعة والقتال ».

وتنقّل الأب ڤــنسان بين ثلاثة مشترين. أوّلهم كان صيّاد سمكٍ. ولم يكن للأسير أيّة خبرةٍ بتلك المهنة، فضلاً عن كونه يُصاب بدوار البحر، فكان سرعان ما يهوي أرضًا، ولا يقوى عن النهوض، فيوسعه سيّده ركلاً وضربًا، ويكلّفه بأكثر الأشغال مشقّةً، مثل تنظيف الشباك وإصلاحها، ولا يكفّ عن شتم الساعة التي اشتراه فيها، ناعيًا دفعَه حفنة دريهماتٍ ثمنًا له. ثمّ باعه في أوّل سانحةٍ.

وكان شاريه الثاني رجلاً عجوزًا، غريب الأطوار، مهتمًّا بطبّ الأعشاب، وبكيمياء تحويل المعادن، وقد طالما بحث عمّا كان يُدعى "حجر الفلاسفة"، الذي يحوّل كل ما يمسّه ذهبًا، وتوصّل إلى صنع خليطٍ من فضّةٍ، وموادّ أُخرى، وذهبٍ، ويرتدي مظهر الذهب الخالص. وسرعان ما أُعجب ذلك العجوز بذكاء عبده وانفتاح ذهنه، فأطلعه على بعض اكتشافاته الطبّيّة، وكلّفه بإبقاء أفرانٍ عديدةٍ مشتعلةً في آنٍ واحدٍ، نافخًا في وقودها، مرهَقًا بحرارتها، فيما كانت أبخرة الأحماض الكيميائيّة المستخدمة في الأبحاث تكاد تخنقه. وشيئًا فشيئًا، توثّقت العلاقة بين

السيّد والعبد، ولم يكن يعكّرها، بدءًا، إلاّ محاولات الطبيب الدائبة والبائسة، في سبيل جرّ الأب ڤــنسان إلى اعتناق الدين الإسلاميّ، لقاء وعودٍ مغريةٍ. ولكنّ الأب ڤــنسان كان يردّ دائمًا، في شيء من المزاح، رفضه استبدال الذهب برصاصٍ. وأخيرًا توافقا على أن يحتفظ كلٌّ منهما بمعتقداته، وأن يحترم كلٌّ منهما عقيدة الآخر. ولربّما كان هذا التوافق قد أفضى إلى تعايشٍ هادئٍ وخصبٍ بينهما، لو لم يأمر السلطان العثمانيّ، أحمد الأوّل، باستقدام إلى اسطنبول الطبيبَ التونسيّ الذي تنامت إلى معرفة السلطان قدراته العلميّة والطبّيّة، من أجل الاستفادة منها. ولكن لم يقيّض للطبيب الوصول إلى قصر السلطان، لأنّه لقي حتفه في الطريق، كمدًا على اضطراره هجر مخبره، والعمل الذي أنفق على إكماله كلّ عمره. وورث الطبيبَ الشيخَ ابنُ أخٍ له، لم يرغب لا في الاحتفاظ بمختبر عمّه ومحترفه، ولا بتلميذه العبد، بعد أن علم أنّ سفير فرنسا ساعٍ في البحث عن أَسْرى فرنسيّين بغية إعتاقهم والعودة بهم إلى بلادهم.

وكان السيّد الثالث فرنسيًّا جحد دينه واعتنق الإسلام، وأُهدي مقابل ذلك مزرعةً كبيرةً، على تخوم الصحراء، وعليها مسكنٌ رحبٌ، فضلاً عن ثلاث نساء، إحداهنّ أورثوذكسيّةٌ أبدت للأب ڤــنسان الكثير من المودّة واللطف. وكُلِّفَ العبد بحرث المزرعة وزراعتها تحت شمسٍ من هجيرٍ. فكان يروّح عن نفسه بإنشاد تراتيل، ومزامير يغلب عليها توق اليهود المنفيّين في بابل، كما جاء في المزمور ١٣٦. واجتذب شجن تلك الأناشيد، إحدى الزوجات، وكانت مسلمةً طيّبة القلب ومنفتحة الذهن، فدأبت على الاستماع إلى تراتيل الأسير، ثمّ دنت منه واستفسرته عن معناها، واستبحرت في تمعّن الدين المسيحيّ. وحينئذٍ أخذت تلوم زوجها لأنّه تخلّى عن دينٍ رائعٍ. وبما أنّها كانت زوجته المفضّلة والأقرب إلى قلبه، تأثّر بأقوالها، وأخذ الندم على خيانته يؤرّقه، فاستقدم الأب ڤــنسان، وباح له برغبته في الفرار معه إلى فرنسا، والتكفير عن جحوده، غير أنّ تنفيذ هذه الرغبة

قد استغرق عشرة أشهرٍ، كان الأب ڤــنسان، في أثنائها، يتلقّى معاملةً لائقةً من سيّده، ومن زوجاته.

وأخيرًا في الثامن والعشرين من شهر حزيران ١٦٠٧، انطلق زورقٌ صغيرٌ، وعلى متنه الجاحد التائب، والكاهن الأسير، وأرسى، بعد أسبوعين في مرفأ "إيغ مورت" (Aigues Mortes)، حيث تمكّن، بعد لأيٍ، من مقابلة القاصد الرسوليّ المونسينيور "مونتوريو" (Montorio)، الذي رحّب بالجاحد التائب، وتلقّى توبته، "دامع العينين"، حسب قول الأب ڤــنسان، في كنيسة القدّيس بطرس. ثمّ أُدخل التائب إلى ديرٍ نسكيٍّ، وفقًا لمشيئته، واتّخذ القاصد الرسوليّ الأب ڤــنسان سكرتيرًا خاصًّا له، واستصحبه إلى روما.

وكان الأب ڤــنسان، طوال فترة أسره وعبوديّته، دائبًا على الصلاة، موكلاً إلى السيّدة العذراء أمر إعتاقه، واثقًا من تلبيتها ملتمسَه في الأوان المناسب.

خِبرةٌ رومَانيَّةٌ

كانت مهمّة الأُسقف "مونتوريو" في "أڤـينيون" قد بلغت نهايتها، وكان يتأهّب للعودة إلى روما، فور وصول خلفه. وكان قد استمع إلى رواية أَسر الأب ڤـنسان، وأكثر ما راقه منها اطّلاعه على أسرار الطبيب التونسيّ المتعلّقة بطبّ الأعشاب، وتحويل المعادن، فضلاً عن خدَعٍ تدهش الحاضرين، ورغب الأُسقف في التباهي بها بين أترابه، وإذهال أحبارٍ وكرادلةٍ بها. ووعد الأب ڤـنسان باستخدام نفوذه وعلاقاته كي يضمن له منصبًا مريحًا في فرنسا، ومقابل ذلك طلب منه البقاء في الظلّ، كي يتفرّد هو بالتألّق، وبالإذهال.

ومن أجل تحقيق وعده بالمنصب طلب منه أن يستقدم من فرنسا الوثائق التي تثبت تخرّجه اللاهوتيّ، وسيامته الكهنوتيّة، وشهاداتٍ تؤكّد نصاعة سلوكه، مصدَّقةً من المراجع الكنسيّة. فراسل ڤـنسان القاضي كوميت ملتمسًا موافاته بكلّ تلك الوثائق، وروى له سبب غيابه الطويل، وكلّفه بتطمين ذويه عن سلامته. وبانتظار وصول تلك الوثائق واستكمالها مكث في روما أكثر من سنةٍ. وربّما كان نجاحه في الإفلات من الأسر والعبوديّة، وعودته بجاحدٍ إلى أحضان الكنيسة، قد سرّبا إلى نفسه شيئًا من الغرور، فأمسى أكثر تطلّعًا إلى مركزٍ يضمن سداد كلّ ديونه، وسَوْق حياةٍ هانئةٍ، ودعم ذويه بالعون المادّيّ.

ومع ذلك لم يخمد في ذهنه وفي نفسه الهمّ الكهنوتيّ، فتابع دراسته اللاهوتيّة في أرقى الجامعات الحبريّة، واستمع إلى آراء ألمع أساتذتها ومفكّريها. واختلف إلى الدياميس، منصتًا إلى خفقات قلوب روّاد المسيحيّة الأبطال. وكثرت زياراته إلى مستشفًى خيريٍّ يديره "خدّام الفقراء والمرضى"، فاقتبس روحانيّتهم، وتلقّن أساليبهم؛ وعقد علاقاتٍ مع مسؤولي الجمعيّات الرهبانيّة، الذين كانوا يطوفون

بأزيائهم المميّزة في شوارع روما، ومع الدبلوماسيّين الفرنسيّين في روما، الذين أصبح بعضٌ منهم من أنجع مساعدي مشاريعه الخيريّة في فرنسا، بعد سنواتٍ. وفي روما تعلّم طريقة التعامل مع الدوائر الـڤـاتيكانيّة، والمثابرة الصابرة، للحصول على المبتغى، إذا كان يخدم الله.

ويُقال إنّه أُعجِب بالبابا بولس الخامس، المُنتخَب حديثًا، وإنّ الحبر الأعظم قال له، عندما قابله: "كنْ كاهنًا جيّدًا يا بنيّ، ولا تعمينَّك أمجاد العالم. كن أبًا للمُهمَلين والمفجوعين، والمسحوقين، وبقدر استطاعتك ساعد البابا على حمل هموم أبنائه المنكوبين والمعذّبين".

وبرفقة الأُسقف "مونتوريو"، فُتحت له أبواب العظماء والأحبار. وكان منهم قدّيسون ملتزمون بتعاليم الإنجيل، وآخرون مفتونون بأمجاد العالم ومغانمه. فتعلّم التمييز بين العظمة الحقيقيّة والعظمة الزائفة الجوفاء، بين الوقار المستحقّ والمصطنع، تعلّم تقدير مَن يستحقّون التقدير، ونبذ المرائين.

كان قد خُيِّل إليه أنّه سيلقى، في روما، إيمان بطرس وأندراوس ويوحنّا ويعقوب وبولس، فألفى أحبارًا في أزياء أُمراءٍ، يسوقون مسيرة أُمراءٍ، ويقطنون قصورًا، ناسين أنّ ربّهم ومعلّمهم سكن في بيتٍ وضيعٍ، وعمل بيديه في محترف نجارةٍ، في قريةٍ مغمورةٍ، وانطلق، ذات يومٍ، منتعلاً خفًّا، بلا مالٍ ولا زادٍ ولا حقيبةٍ، كي يُبشّر، ويخلّص العالم التائه.

كان يأمل إشراك المدينة الخالدة همّ مصير المخطوفين المستعبدين في أفريقيا، الذين يُسامون العذاب والهوان، ولكن لم يهتمّ أحدٌ بمآسيهم.

هاله تصخّر القلوب، والفجوة السحيقة بين التعليم والممارسة، بين الإنجيل وسلوك مدّعي الانتماء إليه. ولكنّه، مع كلّ ذلك، تبيّن أنّ روما هي حجر أساس الكنيسة. وتلمّس الفلاّحُ الكامنُ فيه هذا الحجر، وتحقّق من صلابته، وأيقن أنّه

يسكن قلعةً لا يقوى أحدٌ أو حدَثٌ على إبعاده عنها. وشيئًا فشيئًا شرعت واجبات الكهنوت، شديدة الاقتضاء، تحلّ في ذهنه محلّ المناصب والمنافع المادّيّة التي طالما راودت أحلامه. وبعد سنواتٍ كتب إلى أحد مرسَليه، كان مكلَّفًا بمهمّةٍ في روما: "أيّ عزاءٍ آتتني إقامتي في روما، معقل المسيحيّة، ومقرّ رئيس الكنيسة المناضلة، ومثوى رفات القدّيسَيْن بطرس وبولس، والشهداء الذين سفكوا دماءهم، والأبرار الذين كرّسوا حياتهم من أجل يسوع المسيح! ولكم سعدت بالمسير على تلك الأرض التي داستها أقدام القدّيسين! هذا العزاء أثّر فيّ حتّى استدرّ دموعي".

وبعد لأيٍ اتّضح للأب ڤـنسان أنّ المونسنيور "مونتورو" كان أكثر اهتمامًا بالتباهي أمام الكرادلة والأحبار، بما تلقّن من خبرته التونسيّة، حريصًا على إبقائه في الظلّ، ومهملاً وعوده له. فاشتدّت به الرغبة في العودة إلى موطنه.

ويُقال إنّ فرصةً ذهبيّةً للعودة سنحت له، عندما كلّفه الحبر الأعظم بواسطة الكردينال "دوسّات" (d'Oussat)، الذي كان قد عرف الأب ڤـنسان عن كثبٍ، وسفير فرنسا بإبلاغ رسالةٍ شفويّةٍ، سرّيّةٍ، ومباشرةٍ، إلى الملك هنري الرابع.

ولكن قبل انتقالنا إلى مرحلةٍ تاليةٍ من مسيرة الأب ڤـنسان، لا بدّ من الإشارة إلى أنّ قضيّة خطفه وعبوديّته أراقت الكثير من الحبر والنقاشات. فادّعى البعض أنّها قصّةٌ مُختلَقةٌ تموّه مغامراتٍ حرص الأب على كتمانها، وادّعى آخرون أنّها مجرّد رمزٍ إلى وقوعه في مغامراتٍ ورغباتٍ أبعدته عن واجباته الكهنوتيّة، إلى أن تحوّل معدن الرصاص فيه إلى ذهبٍ خالصٍ.

غير أنّ الذين تقصّوا هذه القضيّة عن كثبٍ، تقصّيًا منـزّها من كلّ غرضٍ وانحيازٍ، أجمعوا على أنّ ما ورد في روايته من تفاصيل دقيقةٍ، ومن مصطلحاتٍ محلّيّةٍ، لم يكن بإمكانه الاطّلاع عليها إلاّ في المكان الذي أقرّ أنّه خضع فيه للأسر والعبوديّة.

وما إصراره على إتلاف الرسالتين اللتين تشيران إلى تلك المرحلة من شبابه إلاّ الدليل على نفوره من الظهور بمظهر بطلٍ أُسطوريٍّ، ومن أن يصبح موضع أحاديث العالم. وكان يخشى أن تُستغَلّ تانك الرسالتان استغلالاً بشعًا، وتُفَسَّرا تفسيرًا مغرضًا مخالفًا للواقع، كفيلاً بإلحاق ضررٍ بالمؤسّسات الخيريّة التي أسّسها، وتصرف الاهتمام عن واجبات المحبّة.

ولا ريب أنّ طبّ الأعشاب الذي تلقّنه من الحكيم التونسيّ، ولقّنه، من بعد، لبنات المحبّة؛ وكذلك الحمّى الخفيفة، التي كانت نتيجة ملاريا أصابته أثناء عبوديّته، والتي لم تفارقه منذئذٍ؛ وآلام ساقه التي واكبته حتّى آخر لحظةٍ من حياته، جرّاء السهم التي جرحته أثناء اختطافه، ولم يعالج جرحها علاجًا صحيحًا، كلّ تلك ليست سوى دليل مصداقيّة روايته.

الفصل الثالث

تلمّـــس الدعـــوة

« قدّيسي هو ڤنسان دي پول ».

"ڤولتير"

عَودةٌ إلى فَرنـــا

بلّغ الأب ڤــنسان الرسالة التي كُلِّف بتبليغها. وكان سبق للملك أن التقى الأُسقف الأرستقراطيّ فرانسوا الساليزيّ، وأُعجب بسموّ فكره، ونقاء قلبه، وتمنّى ضمّه إلى مجموعة مستشاريه. ولمّا قابل الأب ڤــنسان القرويّ، قدّر رهافته، وسداد حكمه، وكتمانه، ورأى أنّ ديـــپـــول يكمل الساليزيّ، مع التباين الشاسع بينهما، ظاهريًّا، ويضيف إليه امتدادًا شعبيًّا. ورغب في مساعدته، فأوعز إلى طليقته "مرغريت دي ڤــالوا" (Marguerite de Valois)، المعروفة بالملكة "مارغو" (Margot) أن تضمّه إلى جماعة مرشديها.

لم يكن المرشد، بالضرورة، معرّفًا، بل كان يقوم، مع كهنةٍ آخرين، بتوزيع صدقات الملكة، ويزور المرضى نيابةً عنها، ويحتفل ببعض القداديس التي كانت تحضرها يوميًّا، ويحضر بعض جلسات صالونها الأدبيّ والاجتماعيّ. فمع أنّ تلك التي احتفظت بلقب "ملكة" رغم طلاقها من الملك، كانت شمسًا مائلةً إلى المغيب، إلاّ أنّها كانت حفيدة فرنسوا الأوّل، وكانت أُمّها من أُسرة "ميديسيس" (Médicis)، وكان والدها الملك هنري الثاني، وقد جلس ثلاثةٌ من إخوتها على عرش فرنسا، وكانت، مع انصرافها إلى اللهو والمجون، كَلِفةً بالآداب والفنّ، مثقَّفةً ثقافةً رفيعةً مكّنتها من مطالعة أفلاطون باليونانيّة، ومخاطبة الأساقفة وأساتذة الجامعات بلغةٍ لاتينيّةٍ لا تشوبها هفوةٌ؛ وكانت شؤون الفكر والفنّ قد احتلّت مكانةً بارزةً من اهتماماتها، حتّى أضحى صالونها ملتقى العلماء، والموسيقيّين، والشعراء، والكتّاب، وغدا، فضلاً عن مكان لهوٍ مستحَبٍّ، يقوم مقام الأكاديميّة الفرنسيّة قبل إنشائها.

في هذا الجوّ تهيّأ للأب ڤــنسان التعارف مع شخصيّاتٍ مؤثّرةٍ، في فرنسا. وتعلّم أساليب التعامل مع رجال الحكم. ومع أنّه لم يختلط بحاشية البلاط، غير أنّه

سمع ثرثرات الخدم، وما كانوا يتداولونه عن أسيادهم ومخدّميهم، وأدرك كم تخفي مظاهر العظمة من هشاشةٍ وزيفٍ، وما تنغلق عليه الصروح الفخمة من هواجس، وأحزانٍ، وقلقٍ.

وبما أنّ وظيفة المرشد لم تكن تشغل من وقته سوى حيّزٍ ضئيلٍ، فقد انصرف إلى متابعة دروسه اللاهوتيّة حتّى أحرز أرفع الشهادات في مضمارها. كان قد بلغ الثلاثين من العمر، وكان منصب المرشد يؤتيه شرفًا أكثر ممّا يؤتيه مالاً، وما زال فقيرًا، غير مستقرٍّ، منتظرًا المناصب التي وعده بها الأُسقف "مونتوريو" والملكة "مارغو"، ولم يكن طموحه يتخطّى أكثر ممّا يقيه من العوز، ويعينه على سوق حياةٍ تقيّةٍ، هادئةٍ، باهتةٍ. ولكنّ العناية الإلهيّة كانت تُعِدّه لمصيرٍ أرفع، ولعملٍ لا راحةَ فيه ولا بَهتًا، يرتقي به إلى قمم البطولة والقداسة. والقداسة التي كان مدعوًّا إليها هي قداسةٌ تُكتَسَب يومًا فيومًا، وساعةً فساعةً، وخطوةً فخطوةً، بدأبٍ لا يهدأ، وبمثابرةٍ عنيدةٍ، وبصراعٍ شاقٍّ مع الذات حتّى ترويضها وإخضاعها لمقتضيات الروح.

وكانت مقرّرات المجمع التريدنتينيّ (Concile de Trente)، قد أخذت بشغاف قلبه، واعتزم أن يكون الكاهن الذي يروق ليسوع.

وكانت مرحلة أَسرِه، والعبوديّة المذلّة، التي أُخضع لها في تونس، قد جعلته يدرك بعمقٍ قيمة التجرّد الإنجيليّ، وعذوبة الارتماء بين ذراعي الله، ملجأ الأسير الوحيد. ثمّ كانت روما درجةً أُخرى في تصعيده نحو القداسة. لا ريب أنّ آفات المال والرفاه، والكبرياء التي نخرت نفوس فئاتٍ واسعةٍ من المسؤولين عن نشر تعاليم الإنجيل لم تخفَ عن نظره الثاقب، ولا ريب أنّها انتزعت من نفسه زفرات حزنٍ. ولكنّه شهد، أيضًا، في روما، عظمة رسالة الإنجيل، وقدرتها على الصمود في وجه حروب الخصوم، وخيانات الأصدقاء والأبناء.

وكانت المرحلة الباريسيّة حافلةً بالأحداث واللقاءات التي أحدثت تأثيرًا حاسمًا على مسيرته. ولكنّها بدأت بدايةً تعيسةً. فقد كان قد اتّخذ مسكنًا في شارع

"سان جيرمان"، الذي يُعَدّ، اليوم، من شوارع باريس الفاخرة، ولكنّه كان، حينذاك، إحدى ضواحي باريس الفقيرة. وكان ذلك الشارع ملتقى الغسكونيّين، أبناء منطقته، وفيه شارك مواطنًا له، قاضيًا كان في مهمّةٍ، واستأجرا معًا حجرةً سكنا فيها. واتّفق أن أُصيب الأب ڤـنسان بحمّى شديدةٍ ألزمته الفراش، وطلب دواءً من صيدليّةٍ، وفي الآن عينه استدعى أمرٌ ضروريٌّ القاضي الذي كان يشاركه الحجرة، فغادرها باكرًا، على عجلٍ، تاركًا في خزانةٍ مفتوحةٍ مبلغ أربع مئة ريالٍ، مطمئنًّا لنـزاهة الكاهن شريكه في السكن. وفي أثناء غيابه وافى موظّف الصيدليّة آتيًا بالدواء للأب ڤـنسان، وبحث عن كوب ماءٍ كي يسقي المريض الدواء، فوقع نظره على المال "الداشر" فاغتنم غياب صاحبه وإهماله وإغفاءة الكاهن المعتلّ، ودسّ المال في جيوبه، وأكمل مهمّته وانسلّ. ولّما عاد القاضي وتبيّن تبخّر ماله، لم يتّهم سوى الكاهن شريك مسكنه، صابًّا عليه أبشع النعوت، وأشدّ الأوصاف إهانةً، ونشر بين جميع معارفه ومعارف الأب اتّهامه بالسرقة. ولّما علم أنّ الأب ڤـنسان يختلف إلى مقرّ الأب "بيرول"، مؤسّس جمعيّة "الأوراتوار"، حيث كانت تلتقي طغمةٌ من الأشخاص الورعين، قصد ذلك المقرّ، آنَ كان الأب ڤـنسان حاضرًا فيه، واتّهمه بالسرقة والكذب، أمام الجميع. ولكنّ المتّهم لم يضطرب بسبب هذه الإهانة العلنيّة، ولم يحنق على متّهمه، مقتصرًا على نفي السرقة، وقول: "الله عليمٌ بالحقيقة". التزم الصمت، صادفًا عن الدفاع عن نفسه ونزاهته، ورابئًا بنفسه عن توجيه الظنّ إلى موظّف الصيدليّة، الغريب الوحيد الذي دخل إلى الحجرة في غياب القاضي، ملتزمًا بأشدّ تعاليم الإنجيل اقتضاءً. وكان لموقفه هذا أبلغ أثرٍ وأحسنه على الحاضرين الذين قدّروا سيطرته على ذاته، وتواضعه.

ولم تتجلّ براءته إلاّ بعد أشهرٍ، لّما قُبض على السارق بجريمةٍ أُخرى، واعترف بسرقة مال القاضي. حينئذٍ، فقط، خجل القاضي من اتّهامه الباطل، وكتب إلى الأب معتذرًا، طالبًا منه غفرانًا علنيًّا.

غير أنّ الأب ڤــنسان اضطرّ، حينذاك، إلى مغادرة مسكنه، وظلّ يتنقّل من مسكن صديقٍ إلى مسكن صديقٍ آخر، باحثًا عن عملٍ يوفّر له دخلاً. وكانت تسعفه في هذا المسعى قدرته على عقد علاقات صداقةٍ حيثما حلّ، بفضل دماثته وصراحته، وشفافيّة سلوكه، ونقاء نفسه.

ولا بدّ من التنويه بأنّه كان يقضي شطرًا وافيًا من وقته في باريس، متطوّعًا في مستشفى المحبّة الذي كانت قد أسّسته "ماري دي ميديسيس"، وأوكلت إدارته إلى إخوة القدّيس يوحنّا، المعروفين باسم إخوة "اِفعل الخير" (Fate ben Fratelli)، الذين طالما تعاون معهم في روما، وقدّر علمهم، وتعلّم منهم. وتنامى هذا التعاون عندما كلّفته الملكة "مارغو" تسليم صدقاتها فيه وعيادة المرضى نيابةً عنها. ولكأنّه كان، بذلك، يتأهّل لما سيصبح من أخطر مهامّ رسالته شأنًا.

ولا ريب أنّ المحبّة عنده كانت فضيلةً فائقة الطبيعة، نابعةً من تعاليم الإنجيل، ولكنّها كانت، أيضًا، نزعةً فطريّةً تدفعه إلى غوث إخوته البشر، ولا سيّما المدموغين، منهم، بطابع الألم.

مِحَنٌ مستمرّةٌ

وجاء يومٌ خُيّل، فيه، للأب ڤنسان أنّ أزمته المادّيّة قد طُويت، عندما منحه أُسقفٌ رئاسة ديرٍ مهجورٍ، ينعم بمداخيل مجزيةٍ، لقاء تعهّده بدفع مبلغ ألفٍ ومئتي ليرةٍ[١] سنويًّا للأُسقف. ولكن سرعان ما اتّضح أنّ تلك المنحة كانت حقل أشواكٍ، وعشّ دبابير.

فلمّا انطلق لاستلام ذلك الدير وجده أطلالاً دارسةً، تدلُّ على صرحٍ كان واقفًا وهوى، وصار يبابًا، بعد أن نُهبت محتوياته، وحتّى أحجاره. واتّضح أنّ مستثمري أوقاف الدير أوغادٌ ولصوصٌ. ومع ذلك، ما انفكّ الأُسقف يلحّ في مطالبته بالمبلغ الذي تعهّد بأدائه سنويًّا لقاء تلك الهبة المسمومة.

وفضلاً عن ذلك، كانت جهاتٌ عديدةٌ تتخاصم على ملكيّة ذلك الدير، فانخرط الأب في دعاوى استمرّت منذ عام ١٦١٠ حتّى ١٦١٦، وهدّته مادّيًّا، وأبعدته عن الحياة الروحيّة، وأفقدته الثقة بذاته وبالآخرين.

وقد علّمته تلك المحنة واجب ابتعاد الكهنة عن التماس المغانم المادّيّة، وعن هبات أساقفةٍ يدينون بالمال.

وفي تلك الحقبة، أيضًا، وقع ضحيّة محنةٍ إيمانيّةٍ مريعةٍ، أضنته، إذ كان قد التقى في بلاط الملكة "مارغو" صديقًا له، لاهوتيًّا، كان قد اشتهر بشنّ حملاتٍ شعواء على الهرطقات. وكانت الملكة قد استدعته بسبب سعة علمه. ولكن يبدو أنّ جوّ البلاط الطافح بالسطحيّة والفراغ قد أثّر على فكره، فاجتاحته تجارب عنيفةٌ، مريعةٌ، ملأته شكوكًا حول الإيمان. وغدت تراوده وساوس فسقٍ، تكاد تدفعه إلى

---

١ كانت الليرة الفرنسيّة، حينذاك، تُعادل ثلاثةً وثلاثين دولارًا أميركيًّا بالسعر الحاليّ.

أقذر المخازي، وإلى التجديف، والنطق بأقذع الأقوال والشتائم. وانبرى الأب ڤــنسان لمؤازرته على تخطّي تلك المحنة، وانتهج شتّى الأساليب لإنقاذه، ولّما فشلت جميعها، سأل الله أن يحمّله محنة صديقه، ويعتق اللاهوتيّ منها. واستجاب الله لملتمسه، فشُفِي اللاهوتيّ، الذي لقي وجه ربّه، بعد سنواتٍ قضاها مؤمنًا، ورعًا، متصالحًا مع نفسه ومع الله، بفضل صلوات الأب ڤــنسان وتضحياته.

وفي هذه الأثناء وقع الأب ڤــنسان ضحيّة وساوس مضنيةٍ أنهكت قواه، وأصابته باضطرابٍ عصبيٍّ مريرٍ، وبخَوَرٍ نفسيٍّ مدمّرٍ. وقد استمرّت هذه المحنة أربع سنواتٍ ظلّ الكاهن خلالها، ظاهريًّا، يعمل على نحوٍ طبيعيٍّ، ولكنّه كان مهدودًا داخليًّا، يحاكي شبحًا متحرّكًا، مفتقرًا إلى النور، والفرح، والعزاء. وكانت إحدى وسائله إلصاقه بقميصه رقعةً دوّن عليها قانون الإيمان، دأب على تلمّسها بين فينةٍ وأُخرى، التماسًا للمنعة والعزاء. وأخيرًا نذر ذاته كلّيّةً لخدمة الفقراء، ولم يلبث أن تحرّر من وساوسه، واستعاد سجوّ النفس، والانشراح.

وما عتّمت أن عرضت سانحةٌ أثبت فيها التزامه بنذره، إذ تبرّع له موظّفٌ رفيع المنصب، إثر استقالته، بمبلغ خمسة عشر ألف ليرةٍ. ومع أنّ هذا المبلغ كان يساوي أضعاف أضعاف الإرث التي أوصت له به المرأة العجوز، والذي في سبيله كاد يفقد نفسه، غير أنّه لم يُشعِل في نفسه أيّة شرارة اندفاعٍ وغبطةٍ، بل إنّه سارع إلى التبرّع بكامله لمستشفى المحبّة.

لمحةٌ عن الأوضاع الدينيّة والسياسيّة في ذلك العهد

منذ وصول الإكليريكيّ ڤـنسان إلى جامعة تولوز، صُدِم بما رواه له رفاقه عن الفظائع التي ارتكبها كلٌّ من الكاثوليكيّين والبروتستانتيّين، وعن المؤامرات القذرة التي كان يحيكها أفرادٌ من الإكليروس في سبيل الظفر بمراكز تدرّ غنائم ماليّةً.

كانت الحروب التي وُصِفت بالدينيّة قد أغرقت البلاد في لججٍ من الجرائم البشعة، والفظاعات الهمجيّة التي لم تنجُ أيّة جهةٍ أو طائفةٍ من جرائرها، والتي شطرت البلاد إلى فئاتٍ ترفض التلاقي والمصالحة. ودأبت التدخّلات الأجنبيّة على تسعير الشقاقات والخصومات، وإشعال نيران الحروب الأهليّة، إلى أن ومضت بارقة سلامٍ، مع ارتقاء هنري الرابع على عرش فرنسا، عام ١٥٩٨، عقب تخلّيه عن البروتستانتيّة، واعتناق المذهب الكاثوليكيّ.

وكانت الأرياف هي الأشدّ معاناةً من هذه الحروب التي أوسعت القرى نهبًا وحرقًا وتدميرًا للمحاصيل، فهجرها مستثمروها، وتركوها لأصحابها الإقطاعيّين بورًا يُنبت أشواكًا، ولجأوا إلى ظلال أسوار المدن التي لم تحمِهم من تعدّيات الجنود والمرتزقة.

ولم يكن وضع الإكليروس أفضل حالاً. فالحاكمون كانوا هم مَن يعيّنون المناصب الكنسيّة، وأصبحت الأُسقفيّات حكرًا على حفنةٍ من الأسر تتوارثها، بمنأًى عن معايير الكفاءة والجدارة، فعُيِّن على كرسيٍّ أُسقفيٍّ طفلٌ في الرابعة من عمره، وعُيِّن آخر وهو رضيعٌ في الثانية. ورُقِّي إلى رتبة الكردياناليّة مَن لم يحصلوا على أيّة رتبةٍ كنسيّةٍ أو كهنوتيّةٍ. ولطالما أثارت هذه الممارسات الشاذّة صداماتٍ وتوتّراتٍ بين ملوك فرنسا، وباباوات روما.

وكان الكهنة يتنافسون على الرعايا الغنيّة، الناعمة بأوقافٍ شاسعةٍ تؤتي مداخيل وفيرةً، وحين يحصلون عليها كانوا "يضمّنونها" لمن يؤدّي لهم أجزل ريعٍ ينفقونه على متعٍ، لا تليق حتّى بمن لا يقيمون لله والدين وللأخلاق وزنًا، ويوكلون خدمة الرعايا، والأسرار المقدّسة إلى كهنةٍ جهلةٍ، ليس لهم من الكهنوت سوى زيّه – في المناسبات فقط – وليس لهم من الإيمان قدر حبّة خردلٍ.

والكهنة الذين أُسندت إليهم رعايا تملك أراضي زراعيّةً، كانوا ينكبّون على استثمارها، مولين كلَّ جهودهم إلى حراثتها وتسميدها وريّها، والحصول على أوفر غلالٍ منها، غير مبالين بواجباتهم الكنسيّة. وكانوا من وَهَن الشعور الدينيّ بحيث لا يتورّعون عن معالجة أبقارهم المعتلّة بإطعامها حفنةً من القربان المقدّس، تماشيًا مع الخرافات الشائعة.

أمّا رعاة القرى الفقيرة فلم يكن لهم من الكهنوت شيءٌ. ولم يكن زادهم من العلم المدنيّ والكنسيّ يساوي وزن قشّةٍ في ميزانٍ. وكانوا يرزحون تحت وقر عوزٍ يضطرّهم إلى مزاولة أوضع المهن، وحتّى إلى الخدمة في المنازل والحقول.

وقد تبيّن الأب ڤـنسان بنفسه، خلال رسالاته في الريف، مدى انحطاط مستوى كهنة القرى، فقد اضطرّ، يومًا، إلى كتابة نصّ الحلّة التي يتلوها الكاهن بعد سماعه الاعتراف، وزوّد بذلك النصّ كهنةً كانوا يجهلونه. واتّفق له، مرّةً، أن استمع إلى اعتراف امرأةٍ قرويّةٍ، قدّمت له، عقب اعترافها، فلسين، وسألها عن سبب دفعها هذا، فأجابت أنّها أجرة الاعتراف. واتّضح له أنّ كهنة القرى كانوا يتقاضون أُجرةً عن الأسرار.

لا ريب أنّ هذه الأوضاع المخزية كانت من مبرّرات الحركة الإصلاحيّة البروتستانتيّة. بيد أنّ هذه الحركة بذريعة ذلك الإصلاح، نسَفت أهمّ دعائم المعتقدات المسيحيّة.

وكانت الكنيسة الكاثوليكيّة قد تيقّظت لمكامن الخلَل في تلك الأوضاع المخزية، وارتأت أنّ خير وسيلةٍ لمواجهة البروتستانتيّة هي إصلاح الإكليرُس في العمق، وتزويده بتعليمٍ صحيح، وافٍ وراسخٍ، وتثقيفه على الفضائل الإنجيليّة، وإعادته إلى نصاعة السلوك، ومتانة الإيمان، وحجب الكهنوت عمّن لا يستحقّونه، ولا يُخلصون له. وأصدر المجمع التريدنتينيّ (Concile de Trente)، بنتيجة مداولاتٍ مستفيضةٍ، قراراتٍ تتعلّق بممارسة الكهنوت ممارسةً سليمةً. ولكنّ السلطات الفرنسيّة تلكّأت في تطبيقها، ولم يلتزم، في الحال بها، إلاّ عددٌ من الأساقفة.

غير أنّ هذا الإصلاح هزّ أوتار الكاهن الأصيل الكامن في قلب الأب ڤنسان، وحرّره من السعي اللاهث وراء المناصب، وذكّره بواجباته الكهنوتيّة. وقد ساعده على المضيّ قُدُمًا في هذا النهج التقاؤه، في باريس ثلّةً من ألمع المصلحين الكنسيّين في ذلك العصر، أمثال: الكردينال العتيد "پيير دي بيرول" (Pierre de Bérulle)، مؤسّس جمعيّة الأوراتوار (l'Oratoire)؛ والأب "جان جاك أولييه" (Jean-Jacques Olier)، مؤسّس إكليريكيّة "سان سولپيس" (St. Sulpice)، وأسقف جنيڤ، الخطيب المفوّه، ومؤلّف كتبٍ روحيّةٍ لاقت رواجًا واسعًا، القدّيس فرانسوا الساليزيّ (François de Sales).

هؤلاء كان لهم تأثيرٌ بليغٌ على توجّه الأب ڤنسان، وكانوا أدواتٍ طيّعةً في يد العناية الإلهيّة من أجل توجيهه صوب رسالته الفريدة الخصبة.

الفصل الرابع

مسيرةٌ بطوليّةٌ نحو القداسة

« على الأشخاص العاملين في المؤسّسات الخيريّة الكنسيّة، ألاّ يتميّزوا فقط بأداء المبادرة الملائمة بمهارةٍ، من أجل اللحظة الحاضرة، بل عليهم أن يكرّسوا ذواتِهم للآخرين، باندفاعٍ نابعٍ من القلب ».

"البابا بينيدكتس السادس عشر"

پيير دي بيرول

كان "پـيير دي بيرول" يكبر الأب ڤـنسان ستّ سنواتٍ، ولم يكن شيءٌ، ظاهريًّا يدعو إلى التقاء كردينالٍ عتيدٍ، أرستقراطيّ المنشأ، بابن فلاّحٍ، كاهنٍ شابٍّ فقيرٍ، يبحث عن مركزٍ يوفّر له مُقوّمات العيش.

فعلى خلاف الأب ڤـنسان القرويّ، البراغماتيّ، الدمث الذي يقرن المكر البريء بالفرح، كان الأب "بيرول" أرستقراطيّ المحتد، رجل فكرٍ، ولاهوتيًّا، جادًّا، صارمًا. وقيل عنه أنّه لم يعهد مرحلة الطفولة والحداثة، فقد كان رزينًا ووقورًا، حتّى أثناء دراسته المتوسّطة، ونضجت حكمته باكرًا، فغدا في سنّ العشرين مرشدًا للضمائر، وتميّز بحنكة الدبلوماسيّين. وكان توّاقًا إلى ترسيخ النظام الإلهيّ على الأرض، وسعى دائبًا إلى الانعتاق من مقتضيات الدنيا، من أجل الانصراف إلى تأمّل حقيقة يسوع، ثمّ العودة إلى الواقع كي يؤالفه مع المبادئ الأبديّة.

كان قد رافق، أثناء دراسته في المعاهد والجامعات أبناء أوفر الأُسَر ثراءً، وأرفعها مكانةً، وأوسعها نفوذًا، وربطته علاقاتٌ متينةٌ بوزراء وأحبارٍ. وأثبت من خلال سلوكه وكتاباته، إمكانيّة مقاربة يسوع في القرن السابع عشر، على غرار المقاربة الصوفيّة التي خَبَرها المسيحيّون الأوّلون. وآمن أنّ عهد القدّيسين لم يُطوَ، وأنّ اجتراح العجائب ما زال بمتناول معاصريه، وما عليهم، في سبيل ذلك، سوى الإصغاء لتعليم الإنجيل والعمل به. وكان راسخ الإيمان بعظمة الكاهن الذي يتوجّب عليه تمثيل يسوع في مجتمعه. ودأب، منذ سيامته الكهنوتيّة، على تأمّل كلمة الله المتجسّد، وأُمّه العذراء، وعلى ترميم النقاء الكهنوتيّ، بدعوته الكهنة إلى الارتماء في أتّون الحياة الروحيّة الملتهبة، وإلى إصلاح الروح المسيحيّة الأصيلة لدى

الكاثوليكيّين الذين نأوا عن أصالة إيمانهم، وأهاب بهم أن يبشّروا بنصاعة سلوكهم، ويلقّنوا المؤمنين "علم القدّيسين".

ولهذه الغاية أنشأ جمعيّة "الأوراتوار" (l'Oratoire)، على غرار المؤسّسة التي كان قد أطلق عليها هذا الاسم عينه القدّيس الإيطاليّ "فيليـــپ نيري" (Philippe Néri)؛ وفي هذه الجمعيّة التقى كهنة رعايا، عازمين على العيش المشترك، وتبادل الخبرات الروحيّة والرسوليّة، وسوق سيرةٍ روحيّةٍ مستوحاةٍ من آباء الصحراء، ولكنّها حافلةٌ بالنشاط والفرح، غير مقيّدين بنذورٍ، ولكن تربطهم محبّةٌ أخويّةٌ متينةٌ، والتزامٌ ثابتٌ بالوعظ والتعليم.

لقد آمن أَنّ معرفة الله تتحقّق من خلال التجرّد، واقتناع المرء بعدمه، وبإقدامه على إنكار ذاته، فالإنسان المتّكل على ذاته خاسرٌ ومدحورٌ، ويسوع هو نبع النعمة، ومبدأ الحياة الحقيقيّة، وهو مع المسيحيّين الذين ينالون نعمته بانعدامهم الداخليّ، وبتكريسهم كلّ رحلتهم الأرضيّة.

وكان توّاقًا إلى التقاء كهنةٍ يقاسمونه هذه الرؤى الخلاصيّة، فالتقى الأب ڤـــنسان الذي كان يتقدّم نضوجًا روحيًّا، والذي أمضى سنةً داخل الخليّة البيروليّة.

ومنذ الوهلة الأولى أُعجِب الأب ڤـــنسان بقداسة زميله الأكبر، فتقرَّب منه، وقال عنه: "لقد اكتسب من العلم والقداسة ما يجعله منقطع النظير". لقد عثر فيه على القداسة الحقيقيّة الكفيلة بإعتاقه من القيود التي كانت تعيق انطلاقه نحو التحرّر من كلّ ما هو غريبٌ عن الله، وانتهاج دروب الكمال المسيحيّ. وبلا نقاشٍ ارتبط به ارتباطه بمرشدٍ.

وتوسّم الأب "بيرول"، بحدْسه الثاقب، في زميله الأصغر، صورةً جديدةً للكنيسة التي كان يتطلّع إليها، ومعنًى آخر للكهنوت، ودعوةً فريدةً إلى إنجازاتٍ عظيمةٍ، وتقديم خدماتٍ جلّى للكنيسة، فتعهّد بإعداده لمستقبله المتألّق.

أحبّ الأب ڤـــنسان القدّيس، وأُعجب بالعالم، في الأب "بيرول"، وأدهشه فيه الصوفيّ المحلّق في سماء تأمّلاته، ووثق به. وجهد الأب "بيرول" في صقله وإعداده لدعوته الكبرى. لم يضمَّه إلى جمعيّته لأنّه توسّم فيه دعوةً مختلفةً، لا تقلّ سموًّا. وانضمّ إليهما صديقٌ ثالثٌ، يدعى "أدريان بوردواز" (Adrien Bourdoise)، كان يتأهّب للكهنوت، تحدوه عزيمةٌ طاغيةٌ على الإصلاح الكهنوتيّ، وعلى غرار الأب ڤـــنسان لم يكن يستحي من إعلان أنّه رعى الخنازير في صباه، وعقد، لاحقًا، مع الأب ڤـــنسان علاقات صداقةٍ وتعاونٍ. واتّفق الكهنة الثلاثة على عقد خلوةٍ وتأمّلٍ، يستطلع كلٌّ منهم الوسائل التي يراها الأوفر نجاعةً من أجل إعادة بناء حياةٍ مسيحيّةٍ ناصعةٍ وأصيلةٍ في فرنسا.

وارتأى الأب "بيرول" ضرورة إنشاء جمعيّة كهنةٍ ينصرفون إلى دراسة ينابيع الحياة المسيحيّة، وتنطلق، بعدئذٍ، إلى إشعاع روح يسوع بين الجموع الشعبيّة. فكانت جمعيّة "الأوراتوار" هي ثمرة هذه الرؤيا.

وارتأى "أدريان بوردواز" ضرورة إصلاح الإكليرُس، فهو أداة الرسالة، من خلال توفير ظروف حياةٍ روحيّةٍ تتوافق مع الدعوة الكهنوتيّة. ومن هذه الرؤيا وُلدت الجماعات الكهنوتيّة، وإكليريكيّة "سان نيكولا دي شاردونيه".

وارتأى الأب ڤـــنسان إنشاء جماعة مرسَلين يبشّرون الفقراء في الأرياف، ويغيثوهم، فانبثقت فكرة الرسالات، والمؤسّسات الخيريّة. ولا جَرَم أنّ رؤيا الأب ڤـــنسان كانت الألمع تألّقًا، والأبعد نظرًا، والأكثر تقدّمًا وجرأةً في ذلك العصر. فعلى بؤس أبناء الريف كانت تقوم امتيازات الإقطاعيّين والمحظيّين. وكان القابضون على مقاليد السلطة حريصين على تثبيت هذا الوضع، دعمًا لسلطاهم ومراكزهم، وامتيازاهم.

هذه الرؤى التي نضجت عام ١٦١١، كانت أساس تجديدٍ كاثوليكيٍّ خصب الثمار.

ومع ذلك كان على الأب ڤـــنسان أن يواصل اختباراته على أرض الواقع، وتلمّساته، قبل إبداع إنجازاته الخالدة. فظلّ، مدى سنةٍ، داخل الأوراتوار، دارسًا، متأمّلاً، سائقًا مع الآخرين حياةً جماعيّةً، متلمّسًا الدرب الذي يتوجّب عليه سلوكه، كي يؤدّي الخدمة الكهنوتيّة المثلى، والأوفر خصبًا وثمارًا، بعيدًا عن تأثيرات العالم ومثبّطاته، مستعينًا بنصح الأب "بيرول"، أحد أكثر عقول عصره انفتاحًا ونورانيّةً.

واتّفق أنّ خوري رعيّة "كليشي"، في ضواحي باريس، طلب الانضمام إلى جمعيّة "الأوراتوار". ورأى الأب "بيرول"، في هذا الانضمام، سانحةً لكي يتدرّب الأب ڤـــنسان على الخدمة الراعويّة التي لم يكن قد مارسها بعد. فحصل من الأُسقف على تعيينه خادمًا لها.

خادم رعيّة "كليشي"

كانت "كليشي"، حينذاك، قريةً صغيرةً في ضواحي باريس يقطنها نحو ستّ مئة نسمةٍ. وكان الأب ڤـنسان قد بلغ الحادية والثلاثين من العمر، ومضى على سيامته الكهنوتيّة أكثر من عشر سنواتٍ، ولم يتولَّ، بعدُ، أيّة خدمةٍ راعويّةٍ. وارتبك، في أيّام خدمته الأولى، عندما تبيّن أنّ أبناء رعيّته أكثر قدرةً منه على إنشاد التراتيل والمزامير؛ ولكن سرعان ما تذكّرها، وأسعفه صوته الغسكونيّ الجهور، كما أسعفه محتده الريفيّ، وخبرته القرويّة التي سهّلت له التواصل مع مزارعين بسطاء، استطاع مدّهم بنصائحه في ما يتعلّق بالزراعة والماشية.

سلفه كان عالمًا لاهوتيًّا، يعلّم ويعظ بلغةٍ لا يحسن القرويّون فهمها، أمّا الأب ڤـنسان فمع علمه الرفيع آثر التحدّث إليهم ببساطةٍ، باللغة التي يجيدونها، واهتمّ بكلّ شؤونهم، وشرع يعلّم أبناءهم، مقطّرًا مبادئ المسيحيّة مع التعليم الأساسيّ. وأقام فصلاً خاصًّا لنحو اثني عشر فتًى لمس لديهم ورعًا، وأهليّةً للكهنوت. وكان أحدهم "أنطوان پـورتاي" (Antoine Portail)، الذي أمسى، لاحقًا، أقرب معاونيه إليه، وذراعه اليمنى في إدارة مؤسّساته.

وكانت كنيسة القرية قد طال إهمالها، وتداعت، فتشقّق سقفها، وشاخت جدرانها، واهترأت أغطية هيكلها، وحلل الكاهن، وغدا الخوف يأخذ بروع أبناء الرعيّة كلّما قرع الجرس فيخشون أن تنهار به قبّته المترجرجة، ويتهيّبون تهاوي السقف والجدران كلّما تعالت ألحان الأرغن.

فشمّر الكاهن عن ساعديه، وهبّ لتجديد الكنيسة بالكامل، عاملاً بيديه، في كلّ مراحل الترميم والتجديد، جنبًا إلى جنبٍ مع متطوّعي أبناء الرعيّة، الذين لم يكونوا يملكون مالاً، فقدّموا سواعدهم ووقتهم.

وكان الكاهن يقصد باريس صباح كلّ يوم اثنين، مستمطرًا سخاء أصدقائه غير متهيّبٍ استعطاء رئيس أساقفة باريس، والملكة مارغو التي أغدقت مساعداتها. وقبل مضيّ سنةٍ على تولّيه مهمّته كانت رعيّة "كليشي" تزدهي بكنيسةٍ متألّقةٍ، متينة السقف والجدران، ومزدانةٍ بأبهى الحلل الكهنوتيّة، وبأنفَس أواني الهيكل وأغطيته.

وإلى جانب ترميم الكنيسة وتجديدها، حرص الراعي على ترميم النفوس وتجديدها. فكافح الآفات الروحيّة، ومن أخطرها ارتياد الحانات التي كانت تودي بالعقول، وبالمال الذي كان ينبغي وقفه على الأسرة. ولم يكن، في هذا السبيل، يتورّع عن اقتحام حانةٍ كي ينتزع منها ربّ أُسرةٍ مدمنًا على السكر، قاضيًا على أُسرته بالبؤس. وكافح، أيضًا، آفة التجديف والشتائم المقذعة، التي كانت تسري بلا خجلٍ ولا رادعٍ على ألسنة الكبار والصغار، لسببٍ ولغير سببٍ، خادشةً الفضيلة والحياء، وفي هذا المجال أيضًا، لم يتورّع عن التنديد، من أعلى منبر وعظه، وبأقسى العبارات، بالذين أبوا الارعواء عن تلك الرذيلة.

وبصفته ابن فلاّحٍ، دأب على حراثة تربة رعيّته، منتزعًا منها الأعشاب الضارّة، ناثرًا فيها بذور الخير، مزوّدًا إيّاها بعوامل الخصب. ووجد فيه أبناء الرعيّة واحدًا منهم، وراعيًا من نمطٍ جديدٍ، أحبّوه فامتثلوا لأوامره، ونفّذوا رغباته.

وبالإجمال، فضلاً عن إصلاح الكنيسة وتجديدها، رمّم نفوس أبناء الرعيّة وجدّدها، من خلال تزويدهم بأسرار التوبة والإفخارستيّا، وتعليمهم الصلاة، وتثقيف أبنائهم، ودأبه على عيادة مرضاهم، ومواساة المفجوعين، وغوث الفقراء، ومصالحة المتخاصمين، وإشاعة السلام في النفوس والبيوت والمجتمع، مذكّرًا المتخاذلين بواجباتهم، مشجّعًا المتصالحين، حافزًا على ممارسة الفضائل.

ولا عجب أنّ أحبّته رعيّته، وأُعجب به الباريسيّون الذين كان لهم منازل في "كليشي"، وتمنّى التمثّل به خدّام الرعايا المجاورة.

وقد ملأ نفسه عزاءً وغبطةً التحوّل الجذريّ الذي طرأ على الرعيّة، وأقرّ أمام

الأُسقف الذي زار الرعيّة ودهش لتلك التحوّلات: "لديّ رعيّةٌ طيّبةٌ ومطيعةٌ، أدعوهم إلى الاعتراف في مطلع كلّ شهرٍ، فيتهافتون إلى كرسيّ الاعتراف، ملبّين دعوتي. وكنت ألحظ، يومًا فيومًا، مكاسبهم الروحيّة، فأتعزّى، وأقول في ذاتي: "كم أنا سعيدٌ بأن تكون لي رعيّةٌ على هذا القدر من الطيبة. وكان يخيّل إليّ أنّ لا الحبر الأعظم ينعم بمثل سعادتي ولا سيادتكم تنعمون بمثلها".

لّما استلم رعيّة "كليشي" وجد كنيستها متداعيةً، ونفوس أبنائها مهملةً، مريضةً، فأعاد إلى الكنيسة رونقها وجاذبها، وأنعش النفوس، وقبل مغادرتها، دعمها بكهنةٍ شبّانٍ كفيلين بإبقاء جذوة الإيمان متّقدةً فيها.

وكان وجوده في "كليشي" قد زوّده بعناصر ثمينةٍ لمستقبل رسالته. فقد فرضت عليه مهامّه الاختلاف إلى منْزِل سيّد "كليشي"، "ميشيل دي ماريّاك"، الذي كانت امتيازاته تلزمه بإصلاح الكنيسة، والعناية بشؤون القرية، وفي ذلك المنـزل التقى "لويز دي ماريّاك" التي أضحت الرئيسة الأولى لجمعيّة "بنات المحبّة" التي أنشأها لاحقًا، وابنة خالتها "إيزابيل دوفي" (Isabelle du Fay)، التي أغدقت مساعداتها على مشاريعه الخيريّة.

وتنامت أنباء إنجازات الأب ڤـنسان في "كليشي"، وسعادته بها إلى مسامع الأب "بيرول"، فانتابه قلقٌ من انزلاق خادم رعية "كليشي" إلى الغرور، أو أن يرتاح إلى الإقامة في رعايا صغيرةٍ، تصرفه عن المهمّات الكبرى التي كانت تنتظره، فما كادت تنقضي سنةٌ على تولّيه تلك الرعيّة حتّى طلب منه تولّي تثقيف أبناء الجنرال "إيمّانويل دي غوندي" (Emmanuel de Gondi). وجفل الأب ڤـنسان من هذه المهمّة، مع أنّه كان قد مارس تثقيف أبناء أُسَرٍ ميسورةٍ في "بوزيه" و"تولوز". غير أنّه تقبّل المهمّة عندما أوضح له الأب "بيرول" أنّ لدى آل "دي غوندي" مئات الخدم، وأنّ في قراهم آلافًا من الفلاّحين المفتقرين إلى تبشيرٍ، وخدماتٍ روحيّةٍ.

لدى أُســرة "دي غوندي" (de Gondi)

عيّن، إذن، الأب ڤـنسان وكيلاً يتولّى شؤون رعيّة "كليشي" الروحيّة، التي بقي، هو، رسميًّا، راعيها، وظلّ يتفقّدها في مختلف المناسبات.

وفي مطلع شهر أيلول من عام ١٦١٣، حطّ رحاله في قصر آل "دي غوندي" الباريسيّ. كان مؤسّسو تلك الأُسرة إيطاليّي الجذور، صيارفةً فلورنسيّين، هاجروا إلى فرنسا مع أُسَرٍ فلورنسيّةٍ عريقةٍ عديدةٍ، نشدانًا للثروة والشهرة، قبل نحو نصف قرنٍ. وكانت "كاترين دي ميديسيس" قد التقت الجدّ والجدّة أثناء مرورها بمدينة ليون عام ١٥٥٠، في طريقها إلى باريس، حيث كانت تعتزم الزواج من وليّ عهد فرنسا، الذي أصبح الملك هنري الثاني. وكان الجدّ، "پـيير غوندي"، آنذاك، يجتاز أزمة عُسرٍ ماليٍّ. وكانت زوجته التي أنجبت منه عشرة أبناءٍ، تجهد في إنقاذ عائلتها من الإفلاس، فأحاطت الملكة العتيدة بأرقّ الخدمات والعناية، واكتسبت قلبها. واطمأنّت كاترين إلى هؤلاء المواطنين، الذين يمكن ضمان طواعيّتهم، وكتمانهم، وتكليفهم بكلّ المهامّ الشريفة والمشبوهة، بلا وجلٍ، فاستصحبت العيلة بكاملها إلى القصر، وعيّنت الوالد پـيير، مديرًا للبلاط، والزوجة مشرفةً على الخدمات، وأشرعت للديغونديّين أبواب الشهرة والثروة. ويُقال إنّها حُرمت من الإنجاب، بعد انقضاء عشر سنواتٍ على زواجها، فأسعفتها السيّدة "دي غوندي" بوصفةٍ مكّنتها من إنجاب أولادٍ كُثُرٍ. فأمعنت الملكة في إغداق الامتيازات على جميع أفراد "دي غوندي"، فأقطعتهم قرًى، ودوقيّاتٍ، وأسبغت عليهم ألقاب الكونت، والدوق، والمركيز، وخصّت الأُسرة باثنين من أرفع المناصب هما: أُسقفيّة باريس، وقيادة السجون والبحريّة الملكيّة، اللتين أمستا ملكًا للديغونديّين يتوارث الأبناء المنصب السياسيّ والإخوة وأبناؤهم المنصب الأُسقفيّ. فكان أحد أبناء الأُسرة، "ألبير دي

غوندي" مركيزًا، وماريشالاً، وحاكمًا، وتولّى أخوه أنطوان أُسقفيّة باريس، وورثها عنه أربعةٌ من إخوته وأبناء إخوته على امتداد ثلاثة أجيالٍ.

وتعاقب، أيضًا، على إدارة سجون المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، وقيادة البحريّة الملكيّة في البحار المشرقيّة أربعةٌ منهم كان ثالثهم الجنرال "فيليـــپ إيمّانويل دي غوندي"، الذي تولّى هذا المنصب في سنّ السابعة عشرة، بعد أن تنازل له عنه والده عام ١٥٩٤، وهو الذي كُلِّف الأب ڤـــنسان بتثقيف أبنائه.

كان الجنرال أنيق المظهر والسلوك، ورجل بلاطٍ من طرازٍ رفيعٍ. ومع استقامته الراسخة، كان يجمع العديد من المتناقضات. فمع رقّته كان واجبه العسكريّ يفرض عليه، أحيانًا شيئًا من القسوة. وكان سخيًّا في الإحسان، ومع ذلك كان مفرطًا في التبذير حرصًا على صورة النبل والثراء. ومع أنّ أُسرته كانت تُعَدّ في طليعة الأثرياء، إلاّ أنّها كانت، غالبًا، مثقلةً بالديون، فموائدها الباذخة التي يُعِدّها أشهر الطهاة الإيطاليّين، كانت تجتذب، بانتظامٍ، جمهرةً من الوجهاء، والأساقفة والأدباء والفنّانين، والعديد من الوصوليّين والطفيليّين، من أجل التمتّع بمذاقاتٍ فريدةٍ، لا يستسيغون مثلها في أيّ مكانٍ آخر.

جهد الجنرال في التوفيق بين تديّنه الحقيقيّ، ومقتضيات منصبه السياسيّ. ومع أنّه كان قد تخلّى عن شراسة أسلافه وجشعهم، إلاّ أنّه كان ما زال يموّه زهده بمظاهر الإبهار، ولم يسفر عن دخيلة نفسه إلاّ عقب وفاة زوجته، عندما اعتزل، ناسكًا في ديرٍ، حيث قضى خمسةً وثلاثين عامًا، حتّى وفاته.

وتوغّلاً في مجتمع النبلاء، أضاف الجنرال إلى ألقابه وإقطاعاته العديدة مزيدًا منها بزواجه، عام ١٦٠٤، من آنسةٍ نبيلةٍ تُدعى "فرانسواز مارغريت دي سيلّي" (Françoise Marguerite de Silly)، ابنة كونت "روشـــپـــو" (Rochépot)، حاكم "أنجو" (Anjou)، التي أصبحت، لاحقًا، سيّدة "فولـــڤـــيل" (Folleville)، والعديد من القرى الأُخرى.

كانت شديدة التديّن حتّى الوسواس، لا تني تتحرّى الماضي بحثًا عن أخطاء ارتكبتها، أو إهمالٍ صدر عنها، وتحاصرها هواجس المستقبل، وما قد تقع فيه من أخطاءٍ ومآخذ، وخوفُ هلاك نفسها يقضّ مضجعها.

كانت وديعة النفس، لا تتورّع عن الاعتذار، راكعةً، من خَدَمها، كلّما ظنّت أنّها جرحت أحدهم بقولٍ قاسٍ، وشديدة العطف على الفقراء، وسبّاقةً إلى تقديم المساعدات المادّيّة والروحيّة، وحريصةً على أن يتلقّى أبناؤها تربيةً روحيّةً وأخلاقيّةً رفيعةً. فكانت سعادتها عارمةً لمّا تولّى هذه المهمّة رجل دينٍ أوصى به الأب "بيرول"، ورأت في ذلك نعمةً من السماء لأبنائها، وراحةً لضميرها ولنفسها، ولكلّ العاملين في قصرها وقراها الذين ستغتني نفوسهم بالتعليم الدينيّ الصحيح. وقد تبيّن لاحقًا، أنّ الأب ڤــنسان كان، أيضًا، نعمةً كبرى لنفس زوجها التي أنقذها من أخطارٍ، ووجّهها نحو السماء.

وكان الأولاد الذين كُلِّف الأب ڤــنسان بتربيتهم ثلاثة: بكرهم "پــيير"، في السابعة من العمر، والثاني في الثالثة، أمّا الثالث، "جان فرنسوا پــول"، فقد رأى النور بضعة أيّامٍ بعد تولّي الأب ڤــنسان مهمّته. وكان عليه مواكبتهم حتّى سنّ الثانية عشرة. وحينئذٍ، سيتبع كلٌّ منهم تثقيفًا خاصًّا يُعِدّه للمهمّة التي تفرضها عليه الوراثة. فالبكر سيرث منصب أبيه ومهامّه، والثاني سيرث منصب أُسقف باريس عن عمّه، أمّا الثالث فكان مُعدًّا ليصبح أحد فرسان مالطا.

ولكن ما يقرّره الإنسان غالبًا ما يخالفه الله. فالبكر "پــيير" تولّى، باكرًا منصب والده، أمّا الثاني "هنري"، المعدّ للأُسقفيّة، فقد لقي حتفه برفسة حصانٍ، قبل بلوغه الثانية عشرة، فآلت وراثة أُسقفيّة باريس إلى الابن الأصغر، "جان فرانسوا پــول"، الذي عُرف، لاحقًا، بكردينال "ريتز"، مع أنّه أقرّ بامتلاكه النفس الأقلّ كهنوتيّةً في العالم. والذي حفلت أُسقفيّته بالمجون، وزخرت "مذكّراته" الشهيرة بالفضائح.

ويبدو أنّ الابن الأكبر، "پـيير"، هو أكثر من استفاد من تثقيف الأب ڤـنسان، في حينه، فقد لوحظ أنّه غدا أكثر تعاطفًا مع الخَدَم، واختلاطًا بهم، وأقلّ ازدهاءً بكونه سيّدًا عليهم. هذا التحوّل أسعد أُمّه، ولكنّه أقلقها، خشية استنكار الأُسرة والمجتمع لتخطّي وريث أُسرةٍ متميّزةٍ بالنبل الحدود التي تفصله عن الخدم. ويُقال إنّ السيّدة "دي غوندي" قد ألحت إلى رغبتها في أن يُبقي أبناؤها مسافةً بينهم وبين خدَمهم، وأن يكونوا أسيادًا على الأرض، وقدّيسين في السماء، فلم يتهيّب الأب ڤـنسان من معارضتها مؤكّدًا إيثاره أن يكونوا قدّيسين على الأرض، وسادةً في السماء.

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الأب ڤـنسان، كان قد ابتلي، عام ١٦١٤، بالتهابٍ وتقيّحٍ في ساقه، من جرّاء إصابته أثناء خطفه بجرحٍ لم يُعالَج، حينئذٍ، علاجًا صحيحًا، وأمعنت في تعميق القرح الأغلال الحديديّة التي كُبِّل بها أثناء عبوديّته في تونس، وكانت آلام ذلك الجرح قد غفت، فترةً، ثمّ أيقظها إرهاق العمل. وفضلاً عن ذلك لم يكن قد شُفي، بعدُ، من محنة الخَوَر العصبيّ الذي اعتراه مغبّةَ ارتضائه مواجهة أشدّ الوساوس تمزيقًا، افتداءً لزميلٍ لاهوتيٍّ بارز، كان يعاني محنة شكٍّ قاتلٍ، فتطوّع الأب ڤـنسان لتحمّلها عنه. وكانت الكآبة ما زالت مسيطرةً عليه، فاعتاد الانكفاء عن عالم القصر، الضاجّ دائمًا بالحركة والدويّ، والانزواء في حجرته، حالما يفرغ من مهامّه، ما لم تستدعِه حاجةٌ روحيّةٌ لدى أحد سكّان القصر أو العاملين فيه. وكان يأبى الاختلاط بندامى القصر وزائريه المرموقين، ويؤثر تناول وجبات طعامه مع الخَدَم والموظّفين. وكان صموتًا، وقورًا، كتومًا، زاهدًا، مترفّعًا عن التفاهات، مبغضًا الثرثرة. وأكبرَ الديغونديّون فيه هذه المناقب فارتاحوا إليه، وأولوه ثقتهم، وامتثلوا لنصائحه. وسرعان ما أبدى الجنرال مثالاً ساطعًا على هذه الثقة، وهذا الامتثال.

فقد اتّفق أن وجّه الجنرال إلى ضيفٍ وقحٍ، على مائدة العشاء، عباراتٍ قاسيةً،

عدّها الضيف مهينةً، فنازله للمبارزة. وكان الضيف لا يجيد، في الحياة، سوى المبارزة التي برع فيها، وحفل سجلّه، في هذا المضمار، بقائمةٍ طويلةٍ من الضحايا. ومع أنّ الدولة كانت قد حظرت المبارزة، وأدانتها الكنيسة، لم يستطع الجنرال رفض التحدّي، إذ كان التهرّب منه يُعَدّ، في مجتمع النبلاء، جبنًا وعارًا. وحُدِّد صباح اليوم التالي موعدًا للمبارزة. واستحوذ قلقٌ مميتٌ على السيّدة "دي غوندي"، التي سبق لها فقدان أحبابٍ في هذه الممارسة الذميمة، فاستدعت، في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، الأب ڤـــنسان، ورجته بذل كنوز إقناعه، كي يثني الجنرال عن تلك المخاطرة.

وصباح اليوم التالي، حضر الجنرال القدّاس بورعٍ، وتناول، وفيما كان ما زال راكعًا، شاكرًا، جاءه الأب ڤـــنسان، وارتمى راكعًا أمامه، وبلا وجلٍ، حذّره من إهلاك نفسه، ومن ارتكاب الجريمة التي كان مقدِمًا عليها، فضلاً عن تعريض زوجته وأبنائه إلى الغرق في بؤسٍ قاتلٍ، وأوجز تحذيره بالقول: "بكلّ تواضعٍ أقول لك، من قبل الربّ الذي أظهرته لك منذ لحظاتٍ، والذي تلقّيته، وأنت الآن تعبده وتشكره أنّك، إن لم تعزف عمّا عزمت عليه، فالربّ سيعاقبك، وسيعاقب ذرّيّتك جمعاء".

لقد خاطب ذلك الكاهن القرويّ أحد أعظم الشخصيّات الفرنسيّة، مخاطبة الأنبياء القدامى للملوك. ولم يكن قد تجاسر أحدٌ على مخاطبة الجنرال بتلك اللهجة، وبتلك الجرأة، فانتفض، واضطرب، وثار. ثمّ أعمل الفكر، واستدعى أحد جنوده، وأمره بإعداد مركبةٍ كي يرحل بعيدًا إلى الريف، لعلّه يهدّئ الغضب الذي كان يجيش في نفسه.

وبعد أن سكنت سَوْرة غضبه، وتسنّى له تقييم ما حدث تقييمًا عقلانيًّا هادئًا، وطّن العزم على اتّخاذ الأب ڤـــنسان مرشدًا لضميره.

ولم يكن الأب يتورّع عن تذكير مستخدِميه أنّ الأملاك التي أُقطعت لهم لا تمنحهم، فقط، حقّ استيفاء عوائد وضرائب ومكوس، بل إنّها تفرض عليهم إقامة العدل، وإيفاء رعاياهم حقوق الرعاية الروحيّة والجسديّة.

وكانت السيّدة "دي غوندي" ملمّةً بالبؤس الروحيّ الذي تردّت إليه رعايا قراها. فالكهنة جهلةٌ لا يحيطون حتّى بمبادئ عقيدهم، ويقيمون الطقوس عشوائيًّا، بلا التزام ولا احترامٍ. وأبناء الرعيّة يحجمون عن تقبّل الأسرار، ولا سيّما سرّ التوبة من كهنةٍ لا يقيمون لذلك السرّ قيمةً، ولا يفقهون له معنًى، ولا يعلمون حتّى نصّ الحلّة المطلوب منهم النطق به، فضلاً عن سلوكهم الشخصيّ المشين.

وفي مطلع عام ١٦١٧، اتّفق أن كان الأب ڤــنسان برفقة السيّدة "دي غوندي" في قريتها "فولــڤــيل" (Folleville). وفيما كانا يتفقّدان رعاياها، أقبل عليهما قومٌ من قريةٍ مجاورةٍ، ملهوفين، وأخبروهما أنّ رجلاً عجوزًا على فراش الموت، ويطلب بإلحاحٍ كاهنًا، فهبّ الأب ڤــنسان لمنحه الأسرار الأخيرة. واغتنم المحتضر تلك السانحة، وأقرّ أنّ ضميره مثقلٌ بخطايا لم يتجرّأ على الاعتراف بها أمام كهنة القرى الفاسدين، واعترف اعترافًا شامِلاً كلّ حياته بين يدي الأب ڤــنسان، ولما تلقّى الغفران والقربان غمرته سعادةٌ لم يعهد لها مثيلاً، طوال حياته. وزارته السيّدة "دي غوندي"، في الغد، فوجدته ما زال يطفح سعادةً، وصارحها أنّه لولا ذلك الاعتراف لكان هلك. ولشدّة فرحه باح للسيّدة بالخطايا التي اعترف بها للكاهن، فهتفت السيّدة: "يا إلهي، ما الذي أسمع؟ فإذا كانت هي حال ذلك الرجل الذي يشيد الجميع بفضائله، ما عساها تكون حال الآخرين الذين يسوقون حياةً لا فضيلة فيها؟! كم من نفوسٍ تهلك جزافًا! ما علينا أن نفعل لمنع هذه الجريمة؟".

هذا الهتاف، بل تلك الأنّة، هزّا وجدان الأب ڤــنسان، وذكّراه بأخطر واجباته الكهنوتيّة. وكانت السيّدة "دي غوندي" هي أداة الله التي دفعته بقوّة إلى واحدةٍ من أعظم إنجازات دعوته. ففي يوم ١٦١٧/١/٢٥، الموافق لعيد ارتداد القدّيس بولس، طلبت منه أن يدعو جميع أبناء الرعيّة إلى اعترافٍ شاملٍ. وغُصّت الكنيسة بالحضور. ولما اعتلى الأب المنبر، وأجال أنظاره في الحضور، طالعته عيونٌ

متسائلةٌ، كحّلها الجوع والتعب والفقر بآثارها القاتمة، ومن صُلب بؤسها كانت تلتمس نفحة رجاء. وقبل أن يتوجّه إليهم بحديثه تحرّى أعماق نفسه، واستقرى ماضيه، ثمّ رنا إلى مخبأ القربان، وإلى الصليب المطلّ على المنبر، وأبى أن ينهج نهج واعظي زمانه الذين لا يتحرّجون عن صبّ غضب الله على قومٍ منهكين، مرهَقين بظلم أسيادهم، وبقسوة الطبيعة، وآثر الانحياز إلى حزبهم، وأن يكون لسان حالهم، والذائد عن حياضهم، ونصيرهم حتّى النهاية. وكان ذلك تحوُّلاً جذريًّا في مسيرته ومصيره. وبيّن لمستمعيه أنّ الاعتراف ليس إدانةً، ولا لعنةً، بل هو إشارةٌ إلى حبّ الله لجميع أبنائه، مهما كانت أخطاؤهم جسيمةً. وكان قد سبق للأب ڤـنسان أن ألقى عظاتٍ في مختلف كنائس ممتلكات الجنرال وزوجته، ولكنّه كان، حينذاك، ما زال يستخدم، في الوعظ، أسلوبًا كلاسيكيًّا جافًّا، يوشّيه بمقاطع من الكتاب المقدّس، وبأقوالٍ لاهوتيّةٍ، باللغة اللاتينيّة. فكانت عظاته تمرّ فوق رؤوس مستمعيه ولا تجد إلى نفوسهم وعقولهم سبيلاً.

وروى الأب ڤـنسان ما جرى عقب تلك العظة، فقال: "بارك الله خطابي، ولامس قلوب أولئك القوم الطيّبين، فتهافتوا على الاعتراف اعترافًا شاملاً، وتابعتُ تعليمهم وهيئتهم للأسرار، وشرعت أسمع اعترافاتهم. ولكنّ الإقبال كان من الكثافة بحيث عجزنا، أنا وكاهنٌ آخر كان يساعدني، على تلبية الجميع، فاستغاثت السيّدة بالآباء اليسوعيّين الذين قدموا من مدينة "أمينس" (Amiens).

هذا النجاح المذهل، غير المتوقّع، دفع السيّدة "دي غوندي" إلى تفقّد سائر ممتلكاتها وقراها برفقة الأب ڤـنسان الذي دعا، في كلّ مكانٍ، إلى الاعتراف الشامل. وحلّت نعمة الله على نفوسٍ كانت جائعةً إلى النعمة.

وكان للعون الذي قدّمه الآباء اليسوعيّون أثرٌ بليغٌ في إقناع الأب ڤـنسان بفائدة العمل الجماعيّ، الذي غدا له نبراسًا، ودليل عملٍ رسوليٍّ. وشجّعته هذه التجربة على تعميمها في كلّ الرعايا.

هذا الحدث كان زلزالاً حقيقيًّا طالت نتائجه جهاتٍ عديدةً. فالسيّدة "دي غوندي" ذُهلت عندما تبيّنت كم من نفوس رعاياها كانت معرَّضةً للهلاك بسبب حرمانها من الخدمات الروحيّة السليمة الفاعلة. والأب ڤـنسان انتشى حبورًا، عندما لمس، لمسًا يكاد يكون مادّيًّا، انتشاله من الهلاك نفسًا افتداها الربّ بدمه. والرجل الذي اعترف وتحرّر من خطايا كانت تثقل ضميره ونفسه سنواتٍ وسنواتٍ، جعله الحبور يعلن على الملأ الخطايا التي كان يخفيها، معربًا عن توبته وندمه عنها، وبهجته بالتحرّر من عبئها المرهق. وبُغيةَ تعميم هذه التجربة الخيّرة، استحصل الجنرال وزوجته من الأساقفة الذين كانت رعايا قراهم خاضعةً لسلطتهم الروحيّة، على ترخيصٍ للأب ڤـنسان بممارسة كلّ الأسرار الكنسيّة فيها، والتنازل له عن بعض الصلاحيّات المحصورة بالأساقفة، ولا سيّما تلك المتعلّقة بغفران خطايا جسيمةٍ. ولا بدّ من إيراد ما كتبه أحد الأساقفة، في هذا السياق، إلى الأب ڤـنسان: "إنّ لديّ من الثقة بكفاءتك وحكمتك، وأهليّتك، وفضائلك العديدة لكي أمنحك ما تطلب. فليهبْك الله نعمة الاضطلاع بهذه المهامّ، الاضطلاع اللائق الذي أرجوه".

وكان هذا الحدث، بثماره الوفيرة، قد أوحى إلى السيّدة "دي غوندي"، أن توصي بمبلغ ستّة عشر ألف ليرةٍ ذهبيّةٍ لأيّة جمعيّةٍ تتعهّد بتنظيم، كلّ خمس سنواتٍ، حملاتٍ رسوليّةٍ، في العالم أجمع، من أجل الدعوة إلى الاعتراف العامّ. وأوكلت الأمر إلى الأب ڤـنسان، فقدّم هذا العرض، أوّلاً، إلى رئيس عامّ جمعيّة اليسوعيّين الذي استشار الدوائر الـڤـاتيكانيّة فنصحته بتجنّبه. ثمّ عرضه على الكردينال العتيد، الأب "بيرول"، مؤسّس جمعيّة "الأوراتوار"، فلم يجرؤ، هو أيضًا، على تبنّيه، وأخيرًا عهدت السيّدة "دي غوندي" بالمشروع والمبلغ إلى الأب ڤـنسان، كي يكلّف بهما من يراه أهلاً.

وجديرٌ بالتنويه أنّ العظة المزلزلة التي ألقاها الأب ڤـنسان يوم ١٦١٧/٧/٢٥،

كانت بذرةً أنبتت جمعيّة الرسالة لخدمة الكنيسة والنفوس، والذي يوافق ذكرى ارتداد القدّيس بولس، وظلّت توقظ في نفس الأب ڤـنسان أحبّ الذكريات وأعذبها، وجعل اللعازريّون من هذا التاريخ عيدًا، وكأنّه عيد مولد بولس آخر، أبيهم ومؤسّسهم.

ولم يخمد هذا الشغف بالرسالات، مع كرّ الأيّام، فقد رأيناه، بعد نحو قرنين، يأخذ بكلّ هوى "خوري أرس" القدّيس، الذي أنفق أيّامه الأخيرة جاهدًا في جمع أموالٍ يقفها على تأسيس رسالاتٍ، منتظمةٍ ودوريّةٍ، في كلّ مكانٍ.

وكشف هذا الحدث للأب ڤـنسان عن معنًى جديدٍ لكهنوته، أدرك معه أنّ دعوته تفرض عليه تكريس حياته كلّها لأجل خلاص شعب الريف المهمل، وأنّه مرسَلٌ مثل راعٍ من أجل لمّ شمل خرافٍ ونعاجٍ تائهةٍ، مفتقرةٍ إلى الكلأ، بسبب افتقارها إلى رعاةٍ. وفي الواقع، لم تكن الرعايا تفتقر إلى كهنةٍ، فقد كان عددهم فائضًا. ولكنّهم كانوا، هم، سبب هلاك نفوس رعاياهم، من جرّاء جهلهم المخزي، وسلوكهم المشين، ولأنّهم كانوا، وفق قول الأب ڤـنسان مجرّد "مرتزقةٍ". ومن ثمّ سكنه اليقين بأنّه مدعوٌّ إلى تكريس كلّ وقته لإنقاذ النفوس المهملة، بدءًا بإعداد كهنةٍ مخلصين لدعوتهم ولواجباتها، عوضَ هدر طاقاته في محاولة تهدئة قلقٍ دائمٍ وناشبٍ بنفس السيّدة "دي غوندي"، وفي طرد وساوس لا تهادن ضميرها، والردّ على تساؤلاتها التي لا تني تتكرّر، وفي تلبية رغبتها في أن يظلّ مرشدها دائمًا بمتناول يدها للإجابة على أسئلةٍ باتت مألوفةً لا تكفّ تقرع باب وجدانها، حتّى تكاد السيّدة تفقد رشدها إن لم يكن مرشدها قريبًا منها كلّما اجتاحتها وساوس. وحتّى أضحى ينتاب الأب شعورٌ بالاختناق، كلّما عاد إلى باريس وبعُد عن جوّ الريف البسيط الصافي.

لا ريب أنّه كان يقدّر أرفع تقديرٍ نصاعة تلك النفس التي أوكلت إليه قيادتها وخلاصها، ولكنّه ضاق ذرعًا بهوسها، وبإصرارها على تقييد حركاته، خشيةَ بعده

عنها. وكان قد سئم، أيضًا جوّ قصرها الضاجّ بمظاهر الأُبّهة الجوفاء، والذي ربّما لم تكن السيّدة كَلِفةً به، ولكنّه كان مفروضًا عليها. وشرعت تراوده فكرة الإفلات من ذلك القفص، بأيّ ثمنٍ.

من المحقّق أنّ تنفيذ هذه الفكرة لم يكن أمرًا سهلاً، نفسيًّا، على الأب، فقد كان قد استحوذ على قلوب أُسرة "دي غوندي"، وعلى ثقتهم المطلقة، فأغدقوا عليه مكافآتهم بشتّى الوسائل. فهم، تخفيفًا لأعبائه المادّيّة، ومساعدةً على تحريره من ديونه، كانوا قد أقرضوه ألفًا وخمس مئة ليرةٍ، ثمّ حوّلوا هذا المبلغ إلى هبةٍ، وخصّصوا له راتبًا ثابتًا قدره ألفٌ ومئتا ليرةٍ من عوائد ممتلكاتهم. وفضلاً عن ذلك حصلوا له على منصبين كنسيّين يوفّران له دخلاً مجزيًا، ولا يلزمانه بأيّ نشاطٍ فيهما. ولكنّه لم يلبث أن رفض الحصول على عوائد مناصب لا يقوم بأداء واجباتها فعلاً. وقد حارب، لاحقًا، بضراوةٍ تلك الممارسات، التي كانت شائعةً حينذاك، لأنّه كان يعدّها غير لائقةٍ بكاهنٍ.

وحاول إقناع آل "دي غوندي" بإعفائه من مهامّه عندهم، بحجّة أنّه غير مؤهّلٍ لتربية أبناء أُسرةٍ نبيلةٍ، وبأنّ دعوته الكهنوتيّة تفرض عليه الانصراف الكلّيّ لخدمة النفوس الكثيرة المهملة، والمعرّضة لهلاكٍ أبديٍّ. ولكنّه ما كاد يلمّح إلى عزمه مغادرة القصر حتّى اعترى أصحابه الوجوم والأسى. وأعلنت السيّدة "دي غوندي"، باكيةً، أنّ بعاده سيكون حكمًا عليها بالهلاك الروحيّ، ويعرّض نفوس جميع أفراد أُسرتها، والعاملين في منازلها وقراها للأخطار. ولا سيّما أنّها إثر التحوّلات المذهلة التي جرت على يد الأب في قراها، ازدادت تشبّثًا به، ويقينًا بأنّه الوحيد القادر على تهدئة نفسها القلقة، ودعم هشاشتها، واقتيادها إلى الخلاص. ومع أنّ الأب ڤـنسان، سعيًا إلى تهدئة قلقها، قد عيّن لها معرّفًا آخر يسعها اللجوء إليه، في غيابه، كلّما راودتها هواجس ووساوس، غير أنّ هذا التدبير لم يفلح في حملها على فكّ قبضتها عنه.

وكان الخير الذي يتحقّق على يد الأب ڤـــنسان يُضاعِف، كلّ يومٍ، تقدير الجنرال وزوجته له، فأمعنوا في تبجيله أمام كبار زائريهم، ويشيدون بفضائله. وكان ذلك يؤلمه، لأنّه كان حريصًا على التوغّل في التواضع والامّحاء. واستحوذت عليه الخشية من أن تتملّكه نزعة العُجب بالذات، وتفضي به إلى ما انتهى إليه كثيرون كانت رياح سفنهم مواتيةً تدعوها إلى أعالي الكمال، ولكنّ الكبرياء تسرّبت إلى نفوسهم وأغرقتهم. وساورته فكرة الفرار خلسةً من ذلك البيت حيث كانت تتوفّر له، باطّرادٍ، مسوّغات الزهو والتباهي، وآثر النجاة بنفسه من فخٍّ قد يعلق به، ويصعب عليه الفكاك منه، فأوصى السيّدة "دي غوندي" باتّخاذ مرشدٍ روحيٍّ آخر، كان هو واثقًا من خبرته في إدارة النفوس. وحرّضها على الثقة بعطف الله وحده، واعتزم الانصراف بكلّيّته لخدمة الله، ونفوس إخوته البشر.

وخطر للأب أن يغادر قصر الديغونديّين بلا إنذارٍ، غير أنّ هذا الفرار بدا له غير لائقٍ به، ولا بالبيت الذي كرّمه. ثمّ جال بباله أن يتذرّع بأيّ عذرٍ، ويعود إلى "كليشي"، التي كان ما زال، رسميًّا، خادم رعيّتها الأصيل. ولكن سُرعان ما تذكّر أنّ تلك الرعيّة خاضعةٌ لسلطة رئيس أساقفة باريس الروحيّة، الذي كان شقيق الجنرال، وكفيلاً بأمره بالعودة إلى بيت أخيه. وأخيرًا لجأ إلى الأب "بيرول" فهو الذي كان قد أدخله إلى بيت "دي غوندي"، وهو قادرٌ أن يخرجه منه، ويختار لأصحابه بديلاً منه. وجهد الأب "بيرول"، سدًى، في إقناعه بالمكوث حيث هو. ولكنّ الأب ڤـــنسان كان قد اكتشف طريقه، وأيقن أنّ واجبه يفرض عليه إعادة بناء فرنسا مسيحيّةٍ، بدءًا بتثقيف الشعب من خلال الرسالات، وتأهيل إكليرُسٍ جديرٍ بالرعاية والتقديس. فقد كان الأب ڤـــنسان واقعيًّا، ولمّا وضع يده على مكمن الداء، لم يستطع إمساك نفسه عن تكريس كلّ ذاته لمعالجته.

لطالما كان قد حلم بتقاعدٍ مريحٍ، على مقربةٍ من ذويه، ولكنّ هذه الأحلام كان

قد بدّدها لمسه بؤس شعب الأرياف، وإملاقهم الروحيّ. وكان شغفُ الرسالة قد أخذ بكلّ أوتار كيانه، ونداء الريف وسكّانه المرهقين لا يفارقه، وكان جناحا النسر الكامن فيه قد اشتدّا، وما عادا يطيقان قعودًا عن التحليق، بحرّيّةٍ، في سماء الرسالة.

ولّما أعيت الحيل الأب "بيرول"، وتأكّد له تعذّر ثني الأب ڤـــنسان عن عزمه، تذكّر أنّ رئيس أساقفة ليون كان قد التمس مساعدته على تعيين كاهنٍ ورعٍ ممتلئٍ بروح الرسالة لخدمة رعيّة "شاتيون لي دومب" (Châtillon-les-Dombes)، حيث لن يشكّ أحدٌ بوجوده فيها، ولا أحد يستطيع إبعاده عنها، وحيث ستكفل غيرته الرسوليّة ردم النقص المأساويّ في عدد العاملين بكرم الربّ، وحيث الحصاد وفيرٌ.

وتلقّف الأب ڤـــنسان العرض، بلهفةٍ، وبلا تردّدٍ. وفي صباح يومٍ صيفيٍّ مشرقٍ من عام ١٦١٧، ادّعى اضطراره إلى سفرٍ ضروريٍّ، وغيابٍ قصير الأمد، وغادر قصر الديغونديّين، وهو مدركٌ أنّ رحيله، على هذا النحو، سيجلب عليه سيلاً من تهم نكران جميل من أغدقوا عليه الثقة والتكريم، وغير غافلٍ عن وجع الجرح الذي سيحفره هذا الاتّهام في قلبه الحسّاس. غير أنّه، حدًّا من قسوة هذا الاتّهام، كان قد تخلّى عن جميع المناصب التي كان ينعم بعائداتها، بلا استحقاقٍ.

وكان الطريق إلى شاتيّون طويلاً، ومتعبًا، ولكن زاخرًا بالرجاء. وكرّت الأسابيع، ولم يظهر للأب ڤـــنسان أثرٌ، ولا هو عاد من سفرٍ قصير الأمد.

راعي "شاتيّون"، وولادة أخويّات المحبّة

عام ١٦١٧ كان حاسمًا في حياة الأب ڤـنسان، وفي مسيرته الفذّة. وكان الأب، قبل انطلاقه إلى "شاتيّون"، قد تخلّى عن المناصب التي تؤتيه دخلاً، والتي لم يكن يمارس فيها نشاطًا يبرّر هذا الدخل.

وكان رئيس أساقفة ليون الذي تخضع رعيّة "شاتيّون" لسلطته الكنسيّة، حريصًا على تزويدها بخادمٍ مُشبَعٍ بروح التجدّد الكهنوتيّ، وبالغيرة الرسوليّة. وكان قد طلب من الأب "بيرول" أن يفرز له أحد أعضاء "الأوراتوار" لهذه الغاية، ولكنّ الأب "بيرول" كان ضنينًا بعديد جمعيّته الوليدة، فأوصى بالأب ڤـنسان الذي كان يرى فيه رجل المهامّ المستعصية، والمبادرات الجريئة.

انطلق، إذن، الأب ڤـنسان، رشيقًا، بلا حقيبةٍ ولا متاعٍ، إلى أريافٍ بعيدةٍ، انطلاق رسُل الربّ إلى العالم، وكما سينطلق، بعد نحو قرنين، الأب "جان ماري ڤـيانّي"، إلى قرية "أرس" الضائعة، المهملة.

رعيّة "شاتيّون"، القريبة من ليون، كانت تعدّ نحو تسع مئة نفسٍ. وكان معظمهم قد انقلبوا إلى المذهب البروتستانتيّ، وهجرها راعيها، تاركًا معاونَيْن جاهدَيْن، بكلّ ما أوتيا من قوّةٍ، في إبقاء العقيدة الكاثوليكيّة حيّةً.

ولم يجد الراعي الجديد القادم، في دار الرعيّة، مكان إقامةٍ، فالكاهنان المساعدان كان يحتلاّن منها جزءًا، والجزء الباقي كان خادم الرعيّة السابق قد أجّره لطبيب جرّاحٍ. فأقام الأب ڤـنسان في منـزل أحد أبناء الرعيّة، أجّره حجرةً، مع أنّ كلَّ أنسبائه كانوا بروتستانتيّين.

ومنذ اليوم الأوّل اتّفق الأب، مع معاونيه، على سَوْق حياةٍ جماعيّةٍ، على غرار

كهنة "الأوراتوار"، فيتبادلون الخبرات، ويتقاسمون المهمّات، ويجهدون في إبراز وجهٍ متألّقٍ للكهنوت، بالسلوك الورع الناصع، وبالمثل الجذّاب، وبممارسة الطقوس الكنسيّة بورعٍ وانتظامٍ، وتقديم كلّ الخدمات الكهنوتيّة، مجّانًا، بغيرةٍ وسخاءٍ، وبساطةٍ، وزهدٍ، غير متحرّجين من التجوّل بالزيّ الكهنوتيّ، ولا من ارتداء الشارات الكهنوتيّة، آن قيامهم بمهامّ كنسيّةٍ خارج الكنيسة؛ وحرصوا، جميعهم، على العزوف عن الجدال والنقاش والمماحكات، والصدام مع البروتستانتيّين، إيمانًا منهم بعقم أساليب العنف، والشحناء، والخصام.

وسرعان ما أسَروا القلوب، وأدهشوا الأنظار بأمثلةٍ كهنوتيّةٍ قلّما شهدت لها رعيّة "شاتيّون" نظيرًا. وشيئًا فشيئًا غصّت الكنيسة بالمصلّين، وصدحت فيها الحناجر بأعذب التراتيل، واستقامت الأخلاق، وانتظمت العلاقات الإنسانيّة بين الأهالي، وتحوّلت نفوسٌ عديدةٌ، وأثبت الأب قـــنسان أنّه، حقًّا، أخٌ، فوثق به جميعهم، وقصدوه. وطاب لهم التحدّث إليه، وارتاحوا إلى البوح له بهواجسهم، والاعتراف له بخطاياهم، ورأوا فيه كاهن يسوع الوفيّ، ومُشعّ أنواره. ولم يقتصر هذا الإشعاع على تحويل سلوك قرويّين، بل طال، أيضًا، نفوس نبلاءٍ دفعهم على دروب الخلاص والكمال. وأبرز مثالٍ لهؤلاء كان المدعوّ "روجمون" (Rougemont)، الذي أمضى شبابه في المجون، بين الحانات وحملات الصيد، وجرّ كثيرين إلى مرافقته والتمثّل به، منفقًا بسخاءٍ على لهوهم. وكان خير ما يفخر به سيفه الذي نصره في مئات المبارزات، وقضى به على مئات الخصوم. وشيئًا فشيئًا، نبذ سلوكَه السابق، وانتهج طريق الاستقامة، والورع، والتجرّد، والإحسان، ووزّع ثروته على الفقراء، وبلغ به الورع أن حصل من الأُسقف على إذنٍ بحفظ القربان المقدّس في مصلّى منـــزله. ولكن شقّ عليه التخلّي عن سيفه، نصيره، ورفيقه، ومفخرته، ومكمن طمأنينته، إلى أن تساءل ذات يومٍ، إذ كان مسافرًا، عمّا لا يزال يعيق انقطاعه لله وحده. وإذ كان سيفه هو رابطه الوحيد بماضيه،

مزّقته الحيرة. فإذا تخلّى عنه ألا يعرّض نفسه لغدرٍ يفقده حياته؟ وإذا استبقاه، وهوجم على غرّةٍ، فهل ستكون لديه جرأة الامتناع عن النـزال؟ وإذا استعان به للدفاع عن نفسه، وقتل مهاجمه، ألا يرتكب خطيئةً ويُهلك نفسه؟ وحسمًا للحيرة وطّن عزمه على التضحية بذلك السيف، فحطّ عن حصانه عند أوّل صخرةٍ صدفها في طريقه، وأهوى ضربًا بسيفه عليها حتّى فتّته، وتحرّر من القيد الحديديّ، آخر أداةٍ للخطيئة، كان يكبّله. وحينئذٍ، انتشى شعورًا بالنصر والحرّيّة المطلقة المكتسبة بالتضحية القصوى.

بعد انقضاء خمسة أشهرٍ على مجيء الأب ڤـنسان إلى "شاتيّون"، كانت تلك الرعيّة قد ازدهت بحلّةٍ قشيبةٍ، بفضل قداسةٍ حقيقيّةٍ تجلّت في كلّ مفاصل الحياة اليوميّة، وقدّمت خدماتها المجّانية للجميع.

وكان الأب قد عقد مع البروتستانتيّين أواصر مودّةٍ وأُخوّةٍ، متميّزًا بذلك عن معظم كاثوليكيّي عصره الذين كانوا ما زالوا يغذّون مشاعر الحقد الناجمة عن المجازر المريعة، التي أزهقت أُلوف النفوس البريئة، من كاثوليكيّين وبروتستانتيّين. ولا ريب أنّه في ذلك، كان مبحرًا في تيّار صديقه الجديد، أُسقف جنيـڤ، القدّيس "فرنسوا الساليزيّ"، الذي آثر مخاطبة القلوب بالفعل الجميل والمحبّة، على مقارعة الآراء والحجج.

ولطالما ردّ مثال الأب ڤـنسان ورقّته، ومودّته، نفوسًا ضالّةً، انتشلها من وهاد الهلاك. فقد التقى، في "شاتيّون"، شابًّا نشأ وترعرع في أحضان عيلةٍ متنكّرةٍ لمبادئ الدين والأخلاق وورّثته، مع عاداتها الذميمة، ثروةً طائلةً أنفقها على الفجور. وتعهّد الأب ڤـنسان بانتشاله من براثن الشرّير واقتياده على دروب الربّ. فبدأ ينسج صِلاتِ صداقةٍ معه، غير عابئٍ باستنكار أصدقائه العالمين بسلوك الشابّ الماجن، وثابر على زيارته والتحدّث إليه، محوِّلاً ذهنه وقلبه، بتؤدةٍ ورفقٍ، حتّى أخذ أصدقاء الشاب يتبيّنون نزوعه المتنامي إلى الاعتدال والزهد. ويومًا فيومًا، كانت

الغمامة تنقشع عن عينيه، إلى أن أضاء نور الله كلّ نفسه، فطلّق المجون والإلحاد، واستغرق في ممارسة الفضائل المسيحيّة، واعتزم الالتزام بعفّةٍ دائمةٍ، ووزّع حسناتٍ سخيّةً، وأوصى بشطرٍ راجحٍ من ثروته لمشاريع خيريّةٍ.

وكان لمثال قداسة الأب ڤــنسان في "شاتيّون"، ثمّ في ممتلكات آل "دي غوندي"، أثرٌ بليغٌ في حمل نبلاء وأثرياء على التخلّي عن عاداتٍ ذميمةٍ راسخةٍ، وعلى الزهد بالخيرات الأرضيّة، ووقف ثرواتهم على غوث المحتاجين، وسَوق حياةٍ روحيّةٍ محرَّرةٍ، مكتفيةٍ بالله وحده.

وفي أيّام الأب الأخيرة، أي في ٢٧ آب ١٦٥٦، تلقّى رسالةً من رجلٍ كان قد عرفه شابًّا في "شاتيّون"، وغذّاه بالفضائل المسيحيّة. وقد عبّرت تلك الرسالة عن شكر مرسلها لكلّ ما زوّده به الأب ڤــنسان من منعةٍ روحيّةٍ، وأخبره أنّ الله رزقه ابنًا وحيدًا كان يحلم بتوريثه كلّ ثروته. بيد أنّ ذلك الابن الشابّ آثر التخلّي عن الثروة، وعن كلّ متاعٍ آخر، كي يكرّس نفسه لله، في إطار الجمعيّة اليسوعيّة... هذه الرسالة كانت للكاهن العجوز بلسم عزاءٍ، فقد رأى في موقف الشابّ الزاهد إلهامًا من أخويّة المحبّة الأولى التي كان قد أسّسها في "شاتيّون" لأربعين سنةً خلت.

فقد كان الله قد توّج رسالته في رعيّة "شاتيّون" بتأسيسه أوّل أخويّات المحبّة، التي أمست الحلقة الأولى في سلسلة جمعيّاتٍ خيريّةٍ لفّت فرنسا والعالم أجمع بالعطف والعون السخيّ، وبأنبل المشاعر الإنسانيّة. وقد روى الأب ڤــنسان كيف وُلد هذا المشروع، مؤكّدًا أنّه كان بكامله عمل الله، وأنّه هو لم يخطّط له، بل لمح إشارته فلبّى دعوتها، وامتثل لمقتضياتها، بلا تحفّظٍ، ودلّته الخبرة، على أرض الواقع، إلى وسائل ترسيخها، وتوفير عوامل البقاء لها، باذلاً في سبيلها ما اختزنه قلبه من كنوز محبّةٍ، وعنايةٍ، وما امتلكه من حنكةٍ، وحسن تدبيرٍ. وإليكم روايته:

« في يوم أحدٍ، بينما كنت أرتدي حلّتي الكهنوتيّة، تأهّبًا لإقامة القدّاس، جاء من بلّغني أنّ جميع أهل بيتٍ معزولٍ عن البيوت، يبعد نحو ربع فرسخٍ

(كيلومترٍ واحدٍ) مرضى، وليس بينهم صحيحٌ يستطيع العناية بهم، وأنّهم في حالةٍ مريعةٍ من البؤس والعوز. هذا النبأ عَصَر قلبي تأثّرًا. فأوصيت بهؤلاء القوم، في عظتي، وتأثّرتْ قلوب المستمعين، فتعاطفوا مع أولئك البائسين المنكوبين.

"وبعد الغداء عقدوا اجتماعًا في منزل سيّدةٍ فاضلةٍ، وتباحثوا في العون الذي قرّروا تقديمه، وتطوّع كلٌّ من الحاضرين لعيادة الأُسرة المنكوبة ومواساتها، ودعمها بما يستطيع إليه سبيلاً. وعقب صلاة الغروب، استصحبتُ رجلاً فاضلاً من أبناء الرعيّة، واتّجهنا، معًا، صوب مسكن الأسرة المنكوبة، فصدفنا في الطريق رتلَ نسْوةٍ سبقنَنا إلى المقصد عينه، ورتلاً من أخرياتٍ عائداتٍ منه. وبما أنّ الحرّ كان قائظًا في ذلك الشهر، جلست بعضهنَّ في الفيء، كي يسترحنَ، ويظفرنَ بشيءٍ من الطراوة. وكان عدد النسوة من الكثرة بحيث بَدَونَ وكأنّهنَّ يَقُمنَ بتطوافٍ.

"وكان كثيرون من أولئك الفلاّحين قد جاؤوا بنصف وجبة الغداء التي أعدّوها ليوم الأحد، فامتلأ البيت بقدورٍ مليئةٍ طعامًا. ودهشت العيلة المنكوبة كيف هبطت عليهم، في غضون ساعاتٍ، كلّ تلك الوفرة، بعد أن افتقروا، طويلاً، إلى لقمةٍ تقيم أَوَدَهم، وتقيهم من الموت جوعًا. واعتراهم القلق من فساد هذه الأطعمة، في ذلك الجوّ الحارّ، قبل أن يستهلكوا منها ولو قسطًا ضئيلاً.

"لدى وصولي إلى غايتي شرعت بعيادة المرضى، وطلبتُ الأسرار لمن كانوا في أشدّ حاجةٍ إليها. وبعد أن استمعتُ إلى اعترافاتهم، وناولتُهم، تباحثنا في وسيلة غوثهم، ثمّ تركتهم يتمتّعون بطعامٍ طالما افتقروا إلى مثله ».

صحيحٌ أنّه لم يخطّط لهذه المبادرة، ولكنّه كان متأهّبًا لالتقاط أوّل إشارةٍ من العناية الإلهيّة كي يهبّ إلى العمل بما توحيه له. ولكأنّه كان يُعِدّ، منذ زمانٍ، كلّ أجهزة العمل. وسرعان ما اتّضح له أنّ معظم أبناء رعيّة "شاتيّون" طيّبون بالفطرة،

ويحملون بذور خيرٍ راقدةً، ينبغي إيقاظها، واستثمارها، وتوجيهها. كانوا تربةً خصبةً أُهملت، فنمت فيها الأشواك، والأعشاب الضارّة، فدأب على اقتلاعها، وإعادة الخصب إلى تربتها. لقد حرّض أبناء الرعيّة على تفعيل عناصر الخير الكامنة فيهم، وبتؤدةٍ ورفقٍ، بثّ فيهم روحه وغيرته الرسوليّة، فأصبحوا عمَلَةً جيّدين ونشيطين في كرم الربّ.

كان، لّما بُلِّغ بحال العيلة المنكوبة، قد شقّ عليه الاحتفال بالقدّاس، في حين كانت مأساةٌ تسحق القلوب، تجري على مقربةٍ منه. ثمّ أذهلته الاستجابة السخيّة العامّة لدعوته إلى الغوث. ولكنّه تبيّن، بأسًى، ما اعتور هذا الاندفاع من فوضى عشوائيّةٍ كفيلتيْن بإفقاده قسطًا راجحًا من جدواه.

وجريًا على نهجه في التزام الحيطة والتأنّي، تدرّج بتدابير تضمن الحؤول دون أن تهمد سريعًا شعلة العطف التي التهبت تلقائيًّا، همود لهب قشٍّ، وتتحوّل رمادًا. وحرصًا على تنظيم حركة عطفٍ دائمةٍ، تؤتي الجدوى القصوى، وتتفادى كلّ هدرٍ نافلٍ، ارتأى إنشاء جمعيّةٍ تتطوّع لإدارتها نساءٌ من القرية مشهودٌ لهنَّ بالورع والفضيلة، ولا تخالط تطوّعهنَّ أيّة ريبةٍ، ولا يقيّد غيرتهنَّ أيّ عائقٍ، فلا تضمّ سوى نساءٍ متزوّجاتٍ حاصلاتٍ على موافقة أزواجهنَّ الصريحة، وفتياتٍ حاصلاتٍ على موافقة ذويهنَّ. وارتأى ألاّ يتجاوز عدد الأعضاء عشرين عضوًا، تفاديًا للفوضى.

حدث ذلك يوم ١٦١٧/٨/٢٠، وفي تلك الليلة، لّما خلا الأب بنفسه، التقط إشارة الربّ، وأمعن في تأمّل ما انطوت عليه من بؤسٍ يطالب بغوثٍ، ومن سخاءٍ لا بدّ من تنظيمه لكيلا يُبَدَّد سدًى، ولا بدّ من ترسيخه وتغذيته لكيلا يخمد. وفي الغد الباكر، استدعى ثماني سيّداتٍ من أكثرهنَّ سخاءً واندفاعًا، وجعل منهنَّ رسولات محبّةٍ، واقترح، بادئًا، أن تتولّى كلّ عيلةٍ تقديم العون والطعام لأُسرٍ محرومةٍ، في يومٍ محدّدٍ، بحيث يستمرّ الغوث، ولا يفسد شيءٌ ممّا يُقدَّم، وأن يسيل العطاء في أقنيةٍ مُحكَمةٍ.

وفي الحال دأب على وضع نظامٍ يسوس نشاط أخويّات المحبّة، وتنهج بموجبه الأخويّات التي ستقام لاحقًا، وتصقله التجربة والممارسة على الأرض، وتكمله. وعلى أساس هذا النظام وُلدت، في "شاتيّون"، أولى أخويّات المحبّة، وانتُخبَت لها رئيسةٌ، ومستشاراتٌ، وأمينة صندوقٍ، ووكيلٌ عامٌّ، وحارستان للمرضى الفقراء الوحيدين والعاجزين عن الحركة، تميّزتا بنصاعة السلوك، وبالغيرة والورع. وحُدِّد لتلك الأخويّة عنوانٌ رسميٌّ تمهيدًا لاستصدار قرارٍ بإعلانها رسميًّا.

ثمّ عُقِدت اجتماعاتٌ عديدةٌ طرحت المُنتسبات إلى الأخويّة الوليدة القضايا التي لا بدّ من مواجهتها ومعالجتها. وإثر هذه الاجتماعات دبّج الأب ڤـنسان نصّ النظام النهائيّ الذي صادق عليه رئيس أساقفة ليون، يوم ١٦١٧/١١/٢٤، ثمّ، يوم ١٦١٧/١٢/٨، الموافق لعيد حبل العذراء بلا دنسٍ، أُعلن رسميًّا إنشاء أخويّة "محبّة شاتيّون"، ووزّع الأب ڤـنسان على أعضائها نسخًا من ذلك النظام المدوّن على ٢٨ صفحةً مخطوطةً.

هذا النصّ الذي كان وعاءً لعملٍ جسيمٍ، يُذهل بمزجه المحكَم الجرأةَ بالبساطة، وسموّ التطلّع الروحيّ بالحسّ الواقعيّ الفطِن. كلُّ شيءٍ فيه يؤكّد توجّه الجماعة، فالأخويّة هي "أخويّة محبّةٍ"، وأعضاؤها هنَّ "خادمات الفقراء"، وشفيعهنَّ هو الربّ يسوع الذي كان الفقير الأكبر على الأرض، والذي أعلن أنّ كلّ خدمةٍ تُسدى لصغارٍ هي خدمةٌ تُقدَّم له، ولطالما أكّد أنّ محبّة القريب هي الدليل الأصدق على أبناء الله الحقيقيّين.

في كلّ هذا العمل، لم يسلك الأب ڤـنسان مسلك شخصٍ رفيع المقام ينحني على بؤس الآخرين بدافع الرسالة وبروح التنازل، بل نَهَجَ نَهْجَ إنسانٍ عمليٍّ، خبَرَ ما كان يتكلّم عنه، ونهجَ إنسانٍ متواضعٍ، أخٍ للفقراء، يحبّهم بكلّ جوارحه، ويرتقي بهم، ومعهم، صوب مزيدٍ من نورٍ. كان بوسع آخرين أن يزوّدوهم بالخبز، وبالدواء والمال، ولكن لم يكن بوسع سوى قدّيسين أن يغمروهم، بمثل عطفه ورقّته، عطفٍ

ورقّةٍ منقطعتَي النظير، تجلّيا من خلال طريقة الخدمة التي أوصى بنات المحبّة أن يتقيّدنَ بها. فعلى المكلَّفة بتقديم الطعام للمرضى، أن تُعدّ لهم وجبة الغداء، وتأتيهم بها، فتحيّيهم بفرحٍ ومحبّةٍ، وتحسن وضع صينيّة الطعام على سريرهم، وتغطّيها بمنشفة، وتضع طبقًا وملعقةً، وخبزًا، وتغسل لهم أيديهم، وتتلو معهم صلاة تبريك الطعام، وتسكب الحساء في قصعةٍ، وتضع اللحم في طبقٍ، وترتّب كلّ شيءٍ على الصينيّة، ثمّ تدعو المريض إلى تناول طعامه بمحبّةٍ، حبًّا بيسوع وبأمّه. وعليها أن تفعل كلّ ذلك بعطفٍ كأنّها تطعم ابنها، أو تطعم الله ذاته الذي يعُدّ كلَّ ما يُقدَّم للفقراء تقدمةً له. وتهمس له ببضع عباراتٍ عن ربّنا يسوع، وإذا كان مكتئبًا، فلتسعَ إلى إسالة الفرح إلى نفسه. وعليها، أحيانًا، أن تقطع له اللحم، وتسكب له الماء. وبعد أن تُعِدَّه لتناول طعامه، وإذا كان إلى جانبه أحدٌ من معارفه أو أقربائه، فلتودّعه، وتهتمّ بآخر، وبالأُسلوب عينه، ولتحرص، دائمًا، على البدء بمن لهم مرافقون، كي تستطيع المكوث، مدّةً أطول، مع الوحيدين المحرومين من مرافقٍ. ثمّ تعود مساءً لتقديم العشاء، وفق الأُسلوب عينه. وعلى الحارسة التأكّد من وجود قميصٍ أبيض لدى كلّ مريضٍ، وإلاّ فعليها أن تأتيه بقميصٍ.

لا ريب أنّ حرص الأب فـــنسان على طريقة الخدمة، الذي، ربّما فاق حرصه على الخدمة عينها، ما كان ليصدر إلاّ ممّن رفع شعار "الفقراء هم أسيادُنا ومعلّمونا"، ومَن رأى في الفقراء، حقًّا، صورةً ليسوع، الحيّ فيهم. وقد أوصى، لاحقًا، بأن يواكب هذا العطف عينه تشييع الفقراء المتوفّين إلى مثواهم الأخير، وكأنّهم والدون أو إخوةٌ.

وضمانًا لاستمرار هذه المبادرات وتغذيتها الدائمة بعناصر المحبّة، أوصى بأن يلتقي أعضاء كلّ أخويّة محبّةٍ، حول قدّاسٍ، يوم الأحد الثالث من كلّ شهرٍ، بُغيةَ تبادل الآراء والخبرات، والانتقادات المتبادلة، بصراحةٍ تامّةٍ، والتباحث في وسائل الترقّي بنجاعة الخدمة.

وطالب بأن تُقدِّم المسؤولات عن الإدارة استقالتهنَّ يوم الأربعاء الذي يلي عيد العنصرة من كلّ عامٍ، تمهيدًا لانتخاب لجنةٍ جديدةٍ لا تضمّ أحدًا من اللجنة السابقة، ضمانًا للمساواة بين الجميع، وإتاحةً لكلّ فردٍ أن يقدّم إسهامه، وإفساحًا لفُرص التقدّم في ميدان الخدمة، وتطوير أساليبها ونتائجها.

ولم يغب الهمّ الروحيّ عن ذهن الأب ڤــنسان، فأهاب بأعضاء اللجان أن يلتزموا بحدٍّ أدنى من الممارسات الروحيّة، يقتضي الاعتراف، على الأقلّ أربع مرّاتٍ في السنة، والمثابرة على الصلاة الفردية، صباحًا، ومساءً، وناشد من يجيدون القراءة أن يتلوا، كلّ يومٍ، على مسامع الآخرين، مقاطع من كتابَي فرانسوا الساليزيّ: "مدخل إلى الحياة التقويّة"، و"بحثٌ في حبّ الله".

لا ريب أنّ أخويّة المحبّة التي أسّسها الأب ڤــنسان في رعيّة "شاتيّون"، كانت حلقةً أولى، مباركةً، من سلسلة أخويّاتٍ وجمعيّاتٍ لفّت الأراضي الفرنسيّة، وتخطّت الحدود إلى معظم أقطار المسكونة، وما زالت منابع ثرّةً للمحبّة، والإحسان، والخدمة، والعطف على مَن جار عليهم الدهر.

ولا ريب أنّ أعمال خيرٍ ومحبّةٍ كانت تجري، في كلّ عصرٍ، قبل الأب ڤــنسان ديــپــول، ولكنّ الأب ڤــنسان كان رائدًا في جعل مساعي الخير مؤسّساتٍ منظّمةً بإحكامٍ، تؤتي أشهى ثمار المحبّة، ولا تكفّ عن النموّ والازدهار، والانتشار.

وقد ضربت أخويّة محبّة "شاتيون" أبهى مثالٍ في هذا المضمار، إذ لم تتوقّف عن الازدهار والإثمار، حتّى بعد مغادرة مؤسّسها لرعيّة "شاتيون". ففي عام ١٦٢٩ نشبت مجاعةٌ، وفي عامي ١٦٣٠ و١٦٣١، انتشرت آفة الطاعون، فأسهمت تلك الأخويّة، بنجاعةٍ، في تقديم الحنطة للجياع، ونشط أعضاؤها في العناية البطوليّة في رعاية المصابين بالطاعون. ولم يتوانوا، يومًا، عن مواجهة الكوارث والنوازل.

وفي عام ١٦٥٦ تلقّى الأب ڤــنسان رسالةً من ابن شقيقة الرجل الذي أجّره

غرفةً في بيته، يوم جاء إلى "شاتيّون"، أكّد له فيها أنّ أخويّة "خادمات الفقراء" ما زالت نشيطةً.

كان الأب ڤـنسان، في شاتيّون، قد بلغ السادسة والثلاثين من عمره، وربّما تأخّر في اكتشاف دربه. ولكن، مذ اكتشفه، لم يعد بوسع أحدٍ أو أمرٍ أن يثنيه عن التوغّل فيه.

ولنعُدْ، الآن، إلى أُسرة "دي غوندي"، التي كان الأب قد غادرها، لأشهرٍ خلت، بلا إنذارٍ، ومذّاك ضاع أثره عنها، وكان غيابه فاجعةً للجنرال وزوجته. فالأب ڤـنسان كان مرشدًا لضميرهما، يقيهما كلّ زلّةٍ. صحيحٌ أنّهما، في تلك الأثناء، كانا قد اتّخذا مرشدًا آخر، وتعاقدا مع كاهنٍ آخر هو الأب "فرين" (Fresne)، صديق الأب ڤـنسان، من أجل تثقيف أبنائهما. ولكنّ المرشد البديل فشل في إراحة ضميرهما، وفي تسريب الطمأنينة إلى قلبَيْهما. أمّا أبناؤهما فكانوا قد تعلّقوا بشخص الأب ڤـنسان، تعلّقًا عاطفيًّا.

وبالإجمال كان قد استحوذ على جميع أعضاء الأُسرة شعورٌ مرهقٌ بأنّ بركة الله غادرتهم، عندما غادرهم الأب ڤـنسان.

وبعد مضيّ أشهرٍ، ارتأى الأب إطلاع آل "دي غوندي" على أسباب فراره خلسةً، فوجّه رسالةً إلى الجنرال الذي كان واثقًا من قدرته على استيعاب حجّته، ومعالجتها معالجةً منطقيّةً. وقدّم مبرِّرَيْن رئيسيْن لفراره من بيتٍ أحاطه بكرمه وعطفه: أوّلهما شعوره بعدم أهليّته لإعداد شبّانٍ نبلاء لمناصب رفيعةٍ، وثانيهما ضغط دعوته الكهنوتيّة التي تفرض عليه الانصراف، كلّيّةً، لإنقاذ نفوسٍ مهملةٍ، وغوث رازحين تحت وقر حاجاتٍ ساحقةٍ، ولا يستجيب لأنّاتهم مُغيثٌ.

وسارع الجنرال بالكتابة إلى زوجته: "لقد شقّ عليّ استلام رسالةٍ من الأب ڤـنسان، أُرسلها طيًّا، لكي تبحثي عن وسيلةٍ لدرء كارثة فقدانه... أرجوك

استخدام جميع الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية. هل تستطيع شقيقتي "رانيي" (Ragny) فعل شيءٍ؟ فهي قريبةٌ منه، ولكنّي أظنّ أنّ الأقدر هو الأب "بيرول". فقولي له إنّه، حتّى لو كان الأب ڤـنسان لا يملك المؤهّلات المُثلى لتثقيف الشبيبة، فسنعيّن مساعدًا له يتولّى هذه المهمّة، وإنّني، في جميع الأحوال، أرغب، رغبةً شديدةً، في عودته إلى منـزلنا، حيث سيسوق الحياة التي ترضي ضميره، وحيث سأصبح أنا فاضلاً، إذا كان هو بقربي".

هذه الرسالة تظهر بجلاءٍ التأثير الروحيّ العميق الذي كان الأب ڤـنسان قد أحدثه في أُسرة الجنرال، وتعلّق جميع أفرادها به. وقد استخدمت السيّدة "دي غوندي" كلّ الطرق الكفيلة بإعادة الأب ڤـنسان لعيلتها، إذ لم يكن أيّ مرشدٍ أو معرّفٍ قد استطاع أن يسرّب إلى ضميرها، دائم القلق، شيئًا من السلام والراحة، فاستغاثت بجميع من كان لديهم قدرةٌ على إقناع مرشدها الفارّ، وأودعت رسائلها كلّ الحجج التي تخطر ببال مستغيثٍ، حتّى إنّ بعض توسّلاتها ارتدت ثوب الابتزاز الروحيّ، واستكتبت أبناءها للغاية عينها عسى أن يكون لالتماس الطفولة وقعٌ أبلغ أثرًا.

ولم تستثنِ الأب "بيرول"، وأخا زوجها رئيس أساقفة باريس، والأب "شارل دو فرين" (Charles du Fresne)، الذي كان معرّف الملكة "مارغو"، منذ سنواتٍ عديدةٍ، وفي الآن عينه أمين سرّ زوجها الجنرال.

وادّعت، في توسّلاتها، أنّ تخلّف الأب ڤـنسان عن تقديم العون الروحيّ لها، عندما تجتاحها الأزمات الضميريّة قد يودي بها إلى الهلاك، وأنّ لا قدرة لأحدٍ سواه على إراحة نفسها القلقة.

حيال هذه الهواجس، كان الأب ڤـنسان يتساءل، أحيانًا، هل يلزم كلَّ امرأةٍ قلقةٍ كاهنٌ لا همّ له سوى تهدئة هواجسها؟ وهل عليه الانقطاع إلى تهدئة أمراضٍ نفسيّةٍ متخيَّلةٍ، في حين صيحات الآلام المريعة، الماثلة أمامه، تطرق أذنيه، بلا هوادةٍ.

في غمرة هذا الطوفان من الوساطات والضغوط، استشار الأب ڤـــنسان، كاهنًا صديقًا، أشار عليه الشخوص إلى باريس، والتباحث، وجاهيًّا مع الأب "بيرول". وحينئذٍ، بلّغ أصدقاءه ومراسليه عزمه على القدوم إلى باريس بعد شهرين.

وحطّ في باريس، يوم ١٦١٧/١٢/٢٣، غير عازمٍ على مغادرة رعيّة "شاتيّون"، التي كلّف برعايتها، في غيابه، زميلاً له، كان يثق بقدراته، وصفاء نفسه. لم يودّع رعيّة "شاتيّون" وداعًا نهائيًّا ممزّقًا، إذ كان، في سريرة نفسه، يأمل بعودةٍ سريعةٍ، بعد إقناع آل "دي غوندي" بصواب قراره التخلّي عن المهمّة التي أوكلت إليه عندهم، من أجل وقف كلّ وقته وجهوده على خدمة فقراء الريف، روحيًّا وجسديًّا. ولكنّه، على غير علمٍ منه كان، مثلما طوى صفحة رعاية "كليشي"، ولّما يمضِ على تولّيه لها سوى أشهرٍ معدوداتٍ، كان يطوي بنفس السرعة، الصفحة المشرقة التي بدأ بتدبيجها في "شاتيّون".

ولم يكن يتخيّل أنّ مشاريع الرسالة، وأخويّات المحبّة، التي استحوذت على كلّ جوارحه، ستلقى، في المرحلة القادمة، وبمساعدة آل "دي غوندي" أروع تحقيقٍ.

الفصل الخامس

مرحلة المشاريع الطليعيّة

« نسِيَتْ حضارتُنا الله، ولكنّها ما زالت تفهم جمالَ الروايات الإنجيليّة، وعِظةُ الجبل الحافلة بأقوالِ تُقًى وحبٍّ، تؤتي السلام، وتؤتي الفرح، أحيانًا، للمغلوبين، والمفجوعين، والضعفاء، والمرضى، والمحتضرين، ولجميعنا نحن المعرّضين للسحق، عاجلاً أو آجلاً، تحت عجلات آلات الحياة، التي لا ترحم ».

الدكتور "أَلِكْسي كاريل"

عودةٌ حافلةٌ بالإنجازات

الضغوط الشديدة والمستمرّة على الأب "بيرول"، والتي كان يدعمها رئيس أساقفة باريس، شقيق الجنرال "دي غوندي"، أحرجت الكردينال العتيد، وبيّنت له، بوضوحٍ، خطر إغضاب أُسرةٍ قابضةٍ على اثنين من أخطر مفاصل الدولة: البحريّة والسجون، والكنيسة. فأوعز إلى الأب ڤــنسان بواجب العودة إلى البيت الذي غادره، لأشهرٍ معدوداتٍ خلت، بعد أن أبدى أصحابه أُهبتهم لتلبية رغباته ومطالبه. وكان جميع الأصدقاء الذين استشارهم الأب ڤــنسان، في هذا الشأن، قد أسدوا له النصيحة عينها، فتبيّن في نهاية المطاف، أنّ عقدة مصيره كانت مُحكمة النسج، وتبيّن فيها مشيئة العناية الإلهيّة. وامتثل.

وربّما دفعه صوب هذا القرار رجاءٌ غامضٌ بتعميم حدث "شاتيّون"، وتفجير ينابيع المحبّة والتعاضد الإنسانيّ في كلّ رعايا باريس، بل حتّى في كلّ رعايا فرنسا، والعالم. وربّما عانقت هذا الأمل رغبتُه في استعادة العلاقات مع أترابه في السربون وأصدقائه في "الأوراتوار" ، ولا سيّما مع المؤسّس، "بيرول"، الذي كان قد لخّص نظرته الروحيّة، التي ترى في يسوع محور الكون، في كتابه: "خطابٌ في مواطِن عظمة يسوع". وكان الأب ڤــنسان طامحًا في وضع هذه النظريّة موضع التنفيذ، على أرض الواقع. وكانت تشدّه رغبةٌ عارمةٌ في مقابلة أُسقف جنيــڤ، "فرنسوا الساليزيّ"، الذي كانت مؤلّفاته قد أخذت كلّ مأخذٍ بذهنه وقلبه، والذي كان يضطلع، حينذاك، بمهمّةٍ رسميّةٍ في باريس.

عودته، يوم ١٦١٧/١٢/٢٣، إلى بيت الديغونديّين، فجّرت فرحًا مدوّيًا لدى كبار البيت وصغاره، والعاملين فيه، ولكأنّها هديّة عيد ميلادٍ فريدةٌ واستثنائيّةٌ.

لم يعدْ، مثلما كان، مربّيًا لأطفال الأُسرة، فقد كانت هذه المهمّة قد أُسندت إلى

صديقه الأب "دوفرين". ولم يعدْ أسير سيّدة القصر، بل كان قد استعاد قسطًا كبيرًا من استقلاليّة المبادرة والتقرير، والقدرة على وقف معظم وقته وطاقاته على أعمال الرسالة، عاد مرسَلاً منحنيًا على خدمة شعب الريف الروحيّة، وعلى تخفيف وطأة بؤسه المادّيّ. وقد لقي من السيّدة "دي غوندي" تجاوبًا تخطّى كلّ توقّعاته. فتلك النفس السخيّة كانت قد هزّت أعماقَها حادثةُ اعتراف مدنفٍ في جوار قريتها "فولّـقـيل"، وما أحدثه هذا الاعتراف من زحفٍ جماهيريٍّ على كراسيّ الاعتراف، ومن ثمار خلاصٍ، فنسيت همومها الصغيرة، وأقلعت عن الاستئثار بكلّ وقت الكاهن من أجل إسكات هواجسها، وطرد أسباب قلقها المتخيَّلة، وفسحت له مجالاً رحبًا لتحقيق رسالته، وآلت على نفسها تزويده بكلّ مؤازرةٍ في هذا الميدان.

وهكذا تسنّى للأب ڤـنسان العائد متابعة مشاريعه الخيريّة والرسوليّة التي باشرها في رعيّة "شاتيّون"، وتنميتها بدعم السيّدة "دي غوندي"، الذي لم يقتصر على السخاء المادّيّ، بل شمل عنايتها الشخصيّة بالمرضى والمحتاجين الذين كانت تعودهم وتساعدهم، حتّى وهي معتلّةٌ، دائبةً على مصالحة المتخاصمين وإقرار الوئام، ومحاربة الرذيلة أينما وجدتْها، وساعيةً، مع الأب ڤـنسان ورفاقه، على ترسيخ ملكوت الله ونشره. وفي تلك الفترة دأب الأب على نشر تكريم أُمّ الله، ودعا إلى إنشاد "السلام"، علنًا، كلّ يوم سبتٍ، فغدا ذلك النشيد عادةً راسخةً، وأضحى الجميع يصفون الأب ڤـنسان بالقدّيس.

وغنيٌّ عن التنويه بأنّ اندفاع الأب ڤـنسان الرسوليّ كان يلهمه روح الإصلاح الكاثوليكيّ الذي أقرّه المجمع التريدنتينيّ. وكان قد ترسّخ في ذهن العديدين أنّ هذا الإصلاح يعتمد، إلى حدٍّ بعيدٍ، على إصلاح الريف الذي هدّته الحروب والكوارث، وكفّنه الإهمال الروحيّ والمادّيّ، وتفشّت فيه الآفات الاجتماعيّة والأخلاقيّة.

ولا ريب أنّ التفات الكنيسة إلى الريف كان لا معدى عنه من أجل إتمام الإصلاح، فقد كان سكّان الريف يمثّلون، آنذاك، نحو ثمانين بالمئة من سكّان فرنسا.

وفي تلك الحقبة كانت فرنسا قد أنجبت طائفةً من الوجوه الوضّاءة التي أكبّت على العمل في حقل الإصلاح الكاثوليكيّ، وبرز منهم الأب "بيرول" الذي أسّس جمعيّة "الأوراتوار"، وجان جاك أولييه مؤسّس إكليريكيّة وجمعيّة "سان سولـــپـــيس" (Saint Sulpice)، وآخرون كثُرٌ. ولكن، في حين أنّ معظم هؤلاء انتهجوا إلى الإصلاح دروب حياةٍ روحيّةٍ عميقةٍ قائمةٍ على التأمّل، انتهج الأب ڤـــنسان الطريقة المثلى، وهي عيش الإنجيل، واقعيًّا ويوميًّا، على الأرض وسط المهملين والمحتاجين. وكان أصحاب أدمغةٍ نيّرةٍ قد دعوا إلى إصلاحٍ دينيٍّ وكهنوتيٍّ، غير أنّ العناية الإلهيّة قد استنهضت كاهنًا قرويًّا قدّيسًا انحنى على بؤس إخوته القرويّين، فشخّص أوصابهم، وتبيّن احتياجاتهم، وأحبّهم، ولم يأتِهم بنظريّاتٍ مجرّدةٍ، بل جاءهم بالكلمة المنعشة، والخدمة الواقعيّة الفاعلة.

ومن المؤكّد أنّ الأب ڤـــنسان اشتقّ للآخرين دربًا. فقد كانت أعمال الخير، عمومًا، ظرفيّةً، عابرةً، فرديّةً، فجعل، هو، منها مؤسّساتٍ منظّمةً، دائمةً، تعمل وفق أنظمةٍ محدّدةٍ تضمن الجدوى المثلى والاستمرار، والشمول، والعمل الجماعيّ.

وكان مشروع الرسالات يحاصر فكر الأب ڤـــنسان، منذ سنواتٍ، ولكنّه، وفق نهجه في العمل، لم يكن يُقدِم على مشروعٍ، قبل أن تبدي العناية الإلهيّة إشارةً، وكانت إشارتها إلى مشروع الرسالات، السيّدة "دي غوندي" عينها. فقد كانت آثار اعترافات "فولـــڤـــيل" المدوّية قد فتحت ذهنها على آفاقٍ وواجباتٍ ساميةٍ وخطيرةٍ، فانبرت لمواجهتها، بكلّ اندفاع ورعها، وكلّ سخاء نفسها، ولا سيّما أنّ شعورًا بدنوّ أجلها كان يراودها ويقلقها، فأبت أن تغمض عينيها قبل أدائها واجبها تجاه نفوس رعاياها، وإقامة مشروع رسالاتٍ جوّالةٍ تطوف من قريةٍ إلى قريةٍ، منعشةً النفوس الذاوية.

وبما أنّ مهمّات الرسالة كانت ملحّةً، هبّ الأب ڤـنسان وآل "دي غوندي" وكهنةٌ متضامنون إلى النهوض بها، في الحال، وجالوا من قريةٍ إلى قريةٍ، مقدّمين التعليم الدينيّ الصحيح، وزارعين تعاليم الإنجيل، وموزّعين الأسرار الخلاصيّة، وفي الآن عينه متفقّدين الأحوال المادّيّة، ومستطلعين احتياجات القرويّين، وجادّين في تلبيتها. وفي هذه الأثناء كانوا ينتخبون، من كلّ قريةٍ، أشخاصًا ورعين، فاضلين، وبالأولويّة نساءً وفتياتٍ، تتيح لهنَّ ظروفهنَّ الانصراف إلى غوث المحتاجين مادّيًّا وفكريًّا وروحيًّا. وفي نهاية كلّ رسالةٍ كانت تؤسَّس أخويّة محبّةٍ، مزوّدةٌ بنظامٍ يلتزم بالمبادئ العامّة التي وضعها الأب ڤـنسان، وفي الآن عينه، تتوافق مع الاحتياجات الخاصّة بكلّ قريةٍ، وكانت هذه الأخويّات تتابع العمل الذي بدأه المرسَلون والمؤسّسون، وتنمّيه، وتوفّر له عوامل البقاء والاستمرار.

وسرعان ما تنامى عدد الكهنة المتضامنين مع هذه الحركة، وتطوّع لمعاضدتها كهنةٌ آخرون مرموقون، فتوالت الرسالات، وكُلِّلت كلٌّ منها بأخويّة محبّة. وفي الواقع، كانت تلك النشاطات العفويّة تمهيدًا لتأسيس جمعيّة الرسالة الرسميّ، بعد سنواتٍ... وكانت كلّ رعيّةٍ حظيت بمواعظ رسالةٍ وبأخويّة محبّةٍ تلبس وجهًا قشيبًا، وينهض فيها روحٌ جديدٌ. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ السيّدة "دي غوندي" قد انخرطت، بكلّ طاقاتها ومواردها في هذا المشروع، غير عابئةٍ بتداعي صحّتها، ولم تتخلّف، يومًا، عن إتمام معاملات تأسيس الأخويّات، رسميًّا، عندما لم يكن وقت الأب ڤـنسان يتّسع لمتابعة هذه المعاملات. وقد ترأّست العديد من الأخويّات، وحرصت دائمًا على الجمع بين الغوث المادّيّ والروحيّ.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الأب ڤـنسان كان يولي ثقةً كبرى لكفاءة النساء في إدارة المؤسّسات، وقد فسح لهنَّ أدوارًا هامّةً في مشاريعه.

كان، إذن، عام ١٦١٧، مفترقًا حاسمًا في مسيرته. ومرحلة تحوّلٍ جوهريٍّ. فبعد سنواتٍ من اللهاث وراء منافع مادّيّةٍ، ومناصب فخريّةٍ، لم تؤتِه سوى الخيبات،

اكتشف طريقه، وأصبح إنسانًا جديدًا تحدوه تطلّعاتٌ أكثر سموًّا. وكان تحوّله وئيدًا، حافلاً بالتلمّس، والتعثّر، وخيبات الأمل، إلى أن غمر النور نفسه ودربه.

وفيما كان التحوّل الروحيّ، في ذلك العصر، يدفع معظم مَن ينعمون به إلى الانكفاء بين جدران ديرٍ، وإلى هجر العالم، نهج الأب ڤنسان دربًا آخر، درب العالم الذي حمل إليه الربّ، درب غوث الفقراء وتبشيرهم بحبّ مخلّصهم. ولطالما ناشد مرسَليه ألاّ ينظروا إلى الفقراء نظرة العالم المثقلة بالازدراء، بل نظرة الله المفعمة حبًّا، وأن يقدّروهم مثل تقدير يسوع لهم.

كان قد اكتشف بؤس النفوس والأجساد المريع، فأنار هذا الاكتشاف دعوته الكهنوتيّة، وهدف وجوده، فأدرك أنّه مدعوٌّ إلى خدمة الربّ، عبر إصلاح رعاة كنيسته، وخدمة ممثّليه الفقراء والمرضى المهملين، حيث يعانون القدر الأكبر من التخلّي، أي في الأرياف. واستقرّ في خلده اليقين بأنّ رسالته تُختزَل في غوث المحرومين، ماديًّا وروحيًّا، وفي خدمة الكنيسة، وأرشدته العناية الإلهيّة إلى السبُل المثلى لتحقيق هذه الرسالة.

باستجابة الأب ڤنسان لدعوته، أصبح راعي القطيع العيليّ الصغير، راعيًا لملايين النفوس المهملة، وانطلق يبحث عنها كي يقتادَها إلى الخلاص.

وجهة سيره باتت واضحةً، ولكن ما زال عليه اجتياز دربٍ طويلٍ قبل أن يكتمل تجرّده من الإنسان القديم، وينصرف بكلّيّته لخدمة يسوع. وأسهم التقاؤه بالقدّيس فرنسوا الساليزيّ في إنجاز هذا التحوّل.

القدّيسان فرانسوا الساليزيّ وڤنسان دي پول والقدّيسة جان دي شانتال مع الملكة آنّ النمساوية

التقاء قدّيسَيْن: فرانسوا السّاليزيّ

لا جرمَ أنّ كلّ إنسانٍ ساعٍ إلى الكمال يغتني من خلال علاقاته بأشخاصٍ مترقّين على معارج الفضيلة والقداسة، وأنّ التقاء قدّيسٍ قد يكون له نعمةً سنيّةً غاليةً.

وكان الأب ڤنسان، إثر فترة تيهٍ وتعثُّرٍ، قد اهتدى إلى درب رسالته الحقّ. وكان للأب "پيير بيرول"، الكردينال العتيد، أثرٌ أكيدٌ على توجيهه. وربّما فتنت الأب ڤنسان روحانيّة مؤسّس "الأوراتوار"، ولكنّها لم تروِ ظمأ نفسه إلى تجنيد الروحانيّة في خدمة الواقع، وفي عيش المحبّة. ولمّا التقى الساليزيّ غشاه يقينٌ بالعثور على مَن كان فكرُه وقلبُه، معًا، يبحثان عنه، وبأنّه وجد، أخيرًا، معلّمه. التقيا فتعارفا وتحابّا، وتعاونا.

التقيا عام ١٦١٨، وكان الساليزيّ، آنذاك، أُسقفًا على أبرشيّة جنيڤ، وقد وافى إلى باريس، حيث مكث سنةً كاملةً، في مهمّةٍ دبلوماسيّةٍ تتعلّق بإعداد إجراءات وعقود زواج أميرٍ إيطاليٍّ بشقيقة الملك لويس الثالث عشر.

وكان، حينئذٍ، ينعم بشهرةٍ واسعةٍ وراسخةٍ. فكان يحمل أرفع الشهادات الجامعيّة، ولاهوتيًّا مرموقًا، وخطيبًا مفوّهًا، تجتذب فصاحتُه جموع متذوّقي الخطابات البليغة، والفكر السامي. وكان قد أصدر كتاب "مدخل إلى الحياة التقويّة"، عام ١٦٠٨، فلاقى رواجًا فاق كلّ توقّعٍ، وأُعيد طبعه أربعين مرّةً، بين ١٦٠٨ و١٦٢٢. ثمّ ألحقه بكتابٍ آخر، بعنوان "بحثٌ في حبّ الله". وكان، في كتابه الأوّل قد أسقط مقولة أنّ القداسة حكرٌ على المكرّسين، وأشرع طريق القداسة أمام الجميع، مكرَّسين وعلمانيّين، وأكّد أنّ القداسة ليست إضافةً إلى الحياة العلمانيّة، بل إنّها تخترقها، وتملأها وتسمو بها، وأنّ واجب كلّ إنسانٍ، أيّةً كانت مهمّته في الحياة، هو السعي إلى القداسة. وبذلك أزاح العقبات المصطنعة

المقامة بين يسوع والعلمانيّين. هذه النظرة المتفائلة التي أثارت غيظ المتزمّتين، لقيت ارتياحًا حارًّا من الأب ڤـــنسان.

أحبّ، إذن، الأب ڤـــنسان، الأُسقف القدّيس، أوّلاً، من خلال كتبه. وكانت بعض مقاطع تلك الكتب قد أصابته بالدوار، وقد باح، مرّةً، أنّ كتاب "مدخل إلى الحياة التقويّة" هو أكثر الكتب التي تصفّحها بعد الإنجيل ورسائل القدّيس بولس، ولطالما نصح أعضاء جمعيّته، كهنةً وراهباتٍ، بالإمعان في تأمّله، وناشدهم أن يتّخذوا من كتاب "بحثٌ في حبّ الله" علاجًا شاملاً لكلّ انحطاطٍ، وموقظًا من كلّ خمولٍ وخدَرٍ، وجذوةً لإضرام كلّ محبّةٍ، وسلّمًا لكلّ ساعٍ إلى الكمال. وكان يشدّه التوق إلى مقابلة المؤلّف. وتحقّقت أمنيّته عندما أقام آل "دي غوندي" احتفالاً تكريميًّا للساليزيّ، أُسوةً بالعديد من نبلاء فرنسا، الذين انتهزوا سانحة وجود أُسقف جنيـــڤ في باريس، كي يكرّموه، ويتكرّموا بزيارته لمنازلهم.

كان الساليزيّ، آنذاك، في الحادية والخمسين، ونجمه آخذٌ بالأفول، والأب ڤـــنسان في السابعة والثلاثين ونجمه آخذٌ في التوهّج. وفضلاً عن فارق السنّ، كانت فروقٌ اجتماعيّةٌ شاسعةٌ تفرّقهما. فالأُسقف سليل أُسرةٍ نبيلةٍ عريقةٍ، وڤـــنسان ابن فلاّحٍ فقيرٍ. ومع ذلك وسط لألاء الصالونات الفاخرة والمتوهّجة، وحشود النبلاء المدعوّين الرافلين بأفخر الملابس، لفت نظرَ الأُسقف كاهنٌ متواضعٌ، مرتدٍ جبّةً عتيقةً باهتةً. ولمّا تعانقت نظراتهما استوضح الأُسقف عن هويّة الكاهن، واستدعاه، وتحدّث إليه، ومنذ العبارات الأولى انبثقت شرارات تقاربٍ، أكّدت تجاذبهما، رغم الفوارق السطحيّة الشاسعة التي كانت تفصل بينهما.

كان الساليزيّ سيّدًا عظيمًا، لا يسعى إلى الإدهاش من خلال أناقةٍ مصطنعةٍ متعجرفةٍ. بل إنّه احتفظ، دائمًا، بمظهر الجبليّ الفجّ، غير المصقول. كان بسيطًا وطيّبًا، ولكنّه لا يحجم عن إظهار حدّة ذكائه، من خلال عبارةٍ لاذعةٍ، مرفقةٍ بغمزةٍ

وبسمةٍ عذبتَي المكر. كان قلبه يتدفّق طيبةً وعذوبةً وحنانًا، ولم يزدْ كرُّ السنين هذه الخصال إلاّ اغتناءً وألقًا. وكان عنف حبّ الله الذي يخفق في فؤاده، يعانق فيه أسمى مشاعر المحبّة سماحةً.

لقاءاتهما كانت معدودةً ووجيزةً، فكلٌّ منهما كان محاصرًا بمشاغل لا تدع له متنفّسًا. وكان الأُسقف، فور فراغه من المهامّ التي جاءت به إلى باريس، قد عاد في غروب عام ١٦١٩، إلى مقرّه الأُسقفيّ، ولم يتسنّ له الرجوع إلى باريس، فقد عاجلته المنيّة، في مدينة ليون، عام ١٦٢٢.

ومع ذلك كان لقاؤهما حاسمًا في توجيه مستقبل مسيرة الأب ڤـنسان، وفي بلورة قداسته فهو كان قد التقى وحاور العديد من الأحبار الحريصين على وقارهم ومظاهر عظمتهم، مثلما التقى ثّلةً من اللاهوتيّين المزدهين بعلمهم، ولكنّه، للمرّة الأولى، وربّما المرّة الوحيدة، كان قد رأى، وجهًا لوجهٍ، "صورة ابن الله". وترسّخ مثال فضائل الساليزيّ في أعماق نفسه: الرقّة، والعذوبة، والطيبة، والتواضع، ومنذئذٍ جهد في التمثّل بهذا النموذج الذي انحفرت ذكراه في لوح خاطره ووجدانه إلى الأبد.

ومنذ التقاه اتّخذه قدوةً في كلّ ما يفعل، وينصح الآخرين بفعله وقد أوجز إثر لقائه به بقوله: "أذهلتني رؤية إنسانٍ على هذا القدر من العظمة، والمسؤول عن شؤونٍ جسيمةٍ، ومع ذلك ينحني على أيٍّ كان، حتّى على أعمق الناس وضاعةً، باذلاً من وقته ما يتيح لزائره أن يظفر برضًى تامٍّ. وكان يولي قيمةً كبرى لسلام النفس وسكونها... وهو، من خلال السلام والطمأنينة والعذوبة التي يقطّرها ويُسيلُها إلى النفوس، بأقواله ورسائله، لم يكن سوى إشعاع حبّ الله الجمّ، الساكن فيه، والذي يجعله الصورة الأشدّ محاكاةً لابن الله".

كان الأب ڤـنسان قد اجتاز دربًا طويلاً وشاقًّا حتّى سيطر على شياطين الشكّ، والسوداء، والكآبة، وبقي عليه التغلّب على طبعه المتوثّب، المتأرجح بين

التهوّر والانهيار الكئيب، حتّى إحكام السيطرة على ذاته. وقد عثر على خير دليلٍ يعينه على إحراز النصر في هذا الميدان، لدى الأُسقف القدّيس، الذي دعا إلى التراحم والمحبّة والتآخي، في حقبةٍ أدماها التعصّب والعنف والحروب الدينيّة الوحشيّة، والذي كان يشعّ سلامًا وفرحًا داخليًّا وطيدًا.

وجديرٌ بالتنويه أنّ رقّة الساليزيّ لم تكن فطريّةً، ولا موهبةً مجّانيّة، بل إنّه اكتسبها بصراعٍ دامٍ مع ذاته وأنانيّته.

وقد شاءت العناية الإلهيّة أن يتولّى الساليزيّ القدّيس، في أصعب الظروف، أُسقفيّة جنيف، معقل الكلڤينيّة (Calvinisme). وفي حين كانت لهجة "كلڤن" تقطر غضبًا وعنفًا، ولعناتٍ، كانت لهجة الساليزيّ تعكس صورة نفسه المتصالحة مع ذاتها ومع الآخرين، والمتدفّقة رقّةً وتسامحًا، ويحدوها تفكيرٌ هادئٌ ساجٍ يذكّر بأقوال الناصريّ في الجليل، بكلّ بساطتها الحلوة، وبالأمثال التي يفوح منها شذى الطبيعة. وكان يستعين بالرقّة والأناة على روح الانتقام، وبالعذوبة على الغضب والأسى، وبالتواضع على الغطرسة والطمع، ويقاوم البخل بالسخاء، والحسد بالمحبّة والعطاء، والفوضى بالاعتدال.

وقد سرّب مثاله هذا إلى يقين الأب ڤنسان أنّ العنف والقسوة ليسا الوسيلة لمقاومة الشرّ، وليسا السبيل إلى حلّ الخلافات.

وكان الأب قد انجذب إلى الساليزيّ منذ سمعه يقول: "إنّي أرتاح في الفقر، وأخشى الثروات التي قضت على كثيرين، وأودت بهم إلى الهلاك، وقد تطيح بي أنا، أيضًا!". وفَتَنَ هذا "الصلاح الجوهري" الأب ڤنسان، فصرّح: "كان يستحوذ عليّ الإعجاب، وأنا أسمعه، ما جعلني أرى فيه الإنسان الذي مثّل أفضل تمثيلٍ ابن الله، الذي درج على أرضنا".

ومنذ لقائهما الأوّل أذهلت طيبة الساليزيّ الأب ڤنسان، وتساءل إذا كان

إنسانٌ على هذا القدر من الطيبة، فكم الله هو أطيب! وهتف: "ما أعظم عطفك، يا الله، بما أنّك أودعت في خليقتك فرنسوا الساليزيّ كلّ هذه الطيبة!". وفي سياق الشهادة التي أدلى بها بمناسبة دعوى تطويب الساليزيّ. قال: "لقد تشرّفتُ، مرّاتٍ عديدةً، بالتقرّب منه... ورأيت فيه الإنسان الذي مثّل لي خير تمثيلٍ، ابنَ الله على الأرض... رقّته وطيبته كانتا تفيضان على مَن يحظون بمحادثته، وكنت أحدَهم".

وكان من أكثر الخصال التي أكبرها الأب ڤـنسان في القدّيس الساليزيّ، تواضعه السحيق، الذي كان يكلّفه، أحيانًا، تضحياتٍ قاسيةً، والذي كان يثبت عظمته ويؤكّدها. فأثناء وجوده في باريس، وبمناسبة عيد القدّيس مارتان (St. Martin)، دُعي إلى إلقاء محاضرةٍ في كنيسة "الأوراتوار" ، وخفّ الملك، وأفراد البلاط، وحشدٌ من اللاهوتيّين، وأساتذة الجامعات، وكبار موظّفي الدولة، وجُموعٌ شعبيّةٌ، إلى الاستماع إليه، طمعًا في تذوّق فصاحةٍ منقطعة النظير. فقد كان فنّ الخطابة، في ذلك العصر، من أكثر الفنون استقطابًا للمعجبين، وكان الساليزيّ من أمرائه، بل من ملوكه. وكان الإقبال على سماع محاضرته من الشدّة بحيث غصّت الكنيسة بالحضور، وتعذّر الوصول إليها. فاضطرّ الأب ڤـنسان إلى تسلّق سلّم، والدخول من نافذةٍ.

واستهلّ الأسقف محاضرته بمقدّمةٍ سحرت الألباب، وانتشت بها النفوس، وبغتةً انتاب الخطيب شعورٌ بأنّ العُجب أخذ يتسلّل إلى نفسه، فطوى أوراق خطابه المكتوبة، وتناول كتيّبًا تلا منه سيرة القدّيس "مارتان"، تلاوةً مسطّحةً، باهتةً، مثلما يتلو تلميذٌ درسًا. فاستحوذ الذهول على الحضور، واستنكر كثيرون موقفه، وجهرت إحدى المستمعات استنكارها هاتفةً: "أمن أجل الاستماع إلى هذا الجبليّ الفظّ، تكبّدنا عناء المجيء؟". وذابت خجلاً راهبات "الزيارة"، من جرّاء تخييب رجاء الذين تهافتوا لسماع مؤسّسهنّ. غير أنّ الذين أدركوا دافعه السامي إلى ما فعل، أكبروا تضحيته. وحتّى السيّدة التي كانت قد جأرت مستنكرةً، أعادت النظر، وأكبرت عظمة الساليزيّ، وما لبثت أن انضوت إلى دير راهبات الزيارة.

وكان الأب "ديـــپـــول" هو أوّل من ثقّفهم هذا التواضع البطوليّ. وقد تعلّم، أيضًا، من الساليزيّ التأنّي، والحذر من الاندفاع المتهوّر، فلم يكن يقدم على أيّ مشروعٍ جَلَلٍ، إلا عقب تأمّلٍ مستفيضٍ، وبتواضعٍ سحيقٍ، وبتؤدةٍ وصبرٍ، بعيدًا عن الرغبة في الإبهار. وهذا ما أكّده، بعد قرونٍ، الأب "پـــيير" مؤسّس "عمّاوس"، الذي كان يحذّر من محاولة تسريع إنضاج النبتة، بشدّها إلى أعلى.

ومن الساليزيّ تعلّم الأب ڤـــنسان التزام موقف الاعتدال، في حقبةٍ حفلت بمحاولات الإصلاح، وما واكبها من تَبارٍ على احتلال القمم، وحميّا التظاهر، وتصادم العبقريّات، وصراع نظريّاتٍ، بعضها يشدّد على طيبة الإنسان الفطريّة التي رفع لواءها فرنسوا الساليزيّ، ونادى اليسوعيّون بروحانيّةٍ فرحةٍ، واثقةٍ برحمة الله، وبتآلف العقل والإيمان، وبتعظيم الله في صورته الرائعة التي يعكسها الإنسان. في حين أنّ آخرين، متأثّرين برؤية القدّيس أوغسطينس، توغّلوا، تشاؤمًا، وانتهوا إلى "الجنسينيّة"، (Jansènisme).

وافتُتن الأب ڤـــنسان بروحانيّة الساليزيّ المنفتحة على احتياجات الكنيسة والعصر، واستلهم أسلوبه في الصلاة. فقد كان الساليزيّ مفعمًا بفكر القدّيسة تيريزا الأڤـــيلاّويّة، التي كانت تقول: "الصلاة هي علاقة صداقةٍ حميمةٍ، حيث نتحدّث إلى الله الذي نشعر بحبّه لنا". فحسبُ المصلّي الوقوف أمام الله، والكشف له عن قروحه. والله لا يتلكّأ عن تلبية صلاةٍ اندرجت في التواضع والثقة.

وكان الساليزيّ، أثناء إقامته في باريس، محاطًا بنخبةٍ من الصوفيّين الورعين. ولكنّه كان يتميّز عنهم برقّته، وأنسنة صوفيّته، الدائبة على التبشير بالله في خضمّ العالم، وبقرنه المتناغم بين سموّ العالم الصوفيّ، والإقرار بمحدوديّته. وكان لهذا الموقف وقعٌ مؤثّرٌ على نفس الأب ڤـــنسان.

وبقرب الساليزيّ، تبيّن الأب ڤـــنسان كلّ الخير الذي يمكنه استنباطه من الطبيعة الأُنثويّة. وهو كان قد صدف، على طريق مسيرته، أنماطًا متعدّدةً من

النساء. فلم يغرب، قطّ، عن باله طيف أُمّه التي لم يكن يهمّها سوى سعادة ذويها. فكانت رقيقةً، حازمةً، يقظةً، دائمة الجاهزيّة لبذل ذاتها في سبيل من تحبّهم. وكان قد صدف أيضًا نساءً كَلِفاتٍ بالعبث والمجون، ومع ذلك كان بؤس الآخرين يهزّ أوتار نفوسهنَّ، وكان خير مثالٍ لهذا النمط من النساء الملكة "مارغو". وكان قد شهد، بإعجاب، اندفاع سخاء نساء رعيّة "شاتيّون"، عندما استنهضهنَّ لغوث أُسرةٍ منكوبةٍ، كما ألهبت إعجابه، لاحقًا، الفتيات اللواتي تطوّعنَ للخدمة ضمن بنات المحبّة، واستطاع تقدير الطاقات الهائلة التي يمكن استنباطها منهنَّ.

ومن الشخصيّات النسويّة التي التقاها في جوار الأُسقف فرانسوا، وكان لها دورٌ راجحٌ في رسالته ومشاريعه، لا بدّ من ذكر القدّيستَيْن "جانّ دي شانتال" (Jeanne de Chantal)، و"لويز دي ماريّاك" (Louise de Marillac)، والطوباويّة "روز لاموانيون" (Rose Lamoignon).

أمّا "جانّ دي شانتال"، فكانت قد شاركت الأُسقف فرانسوا الساليزيّ في تأسيس جمعيّة راهبات الزيارة (La Visitation)، المستلهَمة من زيارة مريم العذراء، حاملةً ابن الله في أحشائها، لنسيبتها إليصابات التي حبلت في شيخوختها، على نحو معجزٍ، بيوحنّا المعمدان، سابق ابنها. وقد باح الأُسقف، يومًا، للأب ڤـنسان أنَّ تلك الرهبانيّة ليست هي التي حلم بها. فهو كان يحلم بجمعيّة راهباتٍ غير حبيساتٍ يقرُنَّ الحياة التأمّليّة بالخدمة الرسوليّة في الخارج، ويدأبنَ على زيارة المرضى والفقراء وغوثهم. غير أنّ رئيس أساقفة ليون، المتأثّر بالجوّ السائد آنذاك، والذي لم يكن يتقبّل الجمع بين الرهبنة والعيش خارج الدير، رفض مشروع الساليزيّ، الذي اضطرّ إلى الاكتفاء بتأسيس جمعيّة راهباتٍ حبيساتٍ منقطعاتٍ للتأمّل والصلاة. ومع ذلك ما زال يقطنه حلم تحقيق مشروعه الأصليّ، ومنذئذٍ وطّن الأب ڤـنسان عزمه على تحقيق حلم الأسقف، فأسّس لاحقًا، جمعيّة راهبات المحبّة.

وكان السالیزيّ قد عيّن رئيسًا لفرع جمعيّة الزيارة في باريس، كاهنًا لم يلبث أن لبّى نداء ربّه، وتُوفّي عام ١٦٢١. وراح الأُسقف يبحث عن خلفٍ له، ينال موافقة رئيس أساقفة باريس. وبعد روز شتّى الخيارات، ومع وجود أئمّةٍ روحيّين بارزين، أمثال الأب "بيرول"، وقع خيار السالیزيّ على الأب ڤنسان الذي توسّم فيه، وراء غلاف الفلاّح، خصال فكرٍ وقلبٍ استثنائيّةً، ووجد فيه كلّ الصفات المطلوبة: حكمًا سديدًا، وقلبًا عطوفًا، وفنّ التعامل برفقٍ مع النفوس، ورقّةً نادرةً..." وقد علّق الكاهن الأكاديميّ الشهير، الأب "بريمون" (Bremond) على هذا الخيار بقوله: "تُرى من هو الأحقّ بالثناء الذي اختار أم الذي اختير؟".

كان السالیزيّ قد لمح في الأب "ديپول" قداسةً راسخةً، فعهد إليه بأعزّ ما كان يحبّه، جمعيّة راهبات الزيارة، واستحصل من رئيس أساقفة باريس موافقةً على تعيينه رئيسًا على جميع فروعها الباريسيّة. ونهض الأب ڤنسان بهذه المهمّة، وأحسن القيام بكلّ واجبات الرئاسة من سهرٍ على روحانيّة الراهبات، وعلى انتخاباتهنَّ الداخليّة، وتكوين مجالسهنَّ، محترمًا أنظمتهنَّ وتقاليدهنَّ، وذكرى وأهداف مؤسّسهنَّ.

وفي عام ١٦١٩ كانت "جانّ دي شانتال"، الرئيسة العامّة على جمعيّة راهبات الزيارة قد وافت إلى باريس من أجل تأسيس فرعٍ للجمعيّة في العاصمة الفرنسيّة، ونزولاً عند رغبة الأُسقف فرنسوا السالیزيّ اتّخذت الأب ڤنسان مرشدًا روحيًّا، أثناء إقامتها في باريس، ومنها تعلّم الأب ڤنسان ممارسة التأمّل والصلاة، حتّى أمسى قلبه هيكلاً لا يخمد فيه حبّ الله أبدًا، بل كاد اضطرامه يُفضي إلى إحراق الهيكل.

وغالبًا ما عقد أولئك القدّيسون الثلاثة – فرنسوا وجانّ وڤنسان – جلساتٍ سادها رقّةٌ فائقةُ العذوبة، وجوٌّ من حبّ الله لم يجد له الأب مثيلاً في أيّ مكانٍ آخر،

وتجرّدٌ من الذات يفعمه القرب من الربّ فرحًا. وربّما للمرّة الأولى، خبر الأب، حينذاك، حلاوة الفرح الروحيّ، وسجوّ النفس، ونشوة السيطرة على الذات.

ولاحقًا أكملت وفاة الأُسقف القدّيس تجرّد الأب ڤـــنسان، وتحرّره من كلّ الروابط التي كانت تعيق تحليقه نحو ذرى القداسة. وكان ذاك هو الإرث الأثمن الذي تلقّاه من صديقه الساليزيّ.

وانتاب "جانّ دي شانتال"، إثر رحيل الأُسقف فرنسوا، شعورٌ بالضياع فطلبت من الأب ڤـــنسان إرشادها. ولكنّه لم يعاملها معاملة أبٍ لبناته، فقد كان يخامره شعورٌ بأنّه في حضرة قدّيسةٍ تفوقه قداسةً، بل كان يُخيَّل إليه، أحيانًا، أنّه أمام أُمّه.

وقد تكون الرئيسة القدّيسة، جانّ، جَفِلت، بادئ الأمر، من جرّاء الفرق بين طبعَيْن، بين عذوبة الساليزيّ ورهافته، وصلابة القرويّ، غير أنّها ارتاحت إلى سداد حكمه، وصفاء نفسه، واحتفظت بحقّها في اتّخاذ القرارات الكبرى وفقًا لقناعاتها، ولم تكن تطلب من الأب سوى الموافقة والمباركة.

وهي كانت، في تلك الفترة دائمة القلق على مستقبل الجمعيّة، وعلى إبقاء نفسها عند ذرى السموّ التي اقتادها إليها الساليزيّ، وتخشى ألاّ يستطيع أحدٌ آخر مساعدتها على البقاء في ذلك المستوى السامي، غير أنّ الأب ڤـــنسان توفّق إلى تسريب السكون إلى نفسها بدعوته لها إلى عيش الحاضر الراهن، متحرّرةً من هموم الغد، ومودعةً هذه الهموم بيد العناية الإلهيّة اليقظة، وإلى التزام البساطة في كلّ شيءٍ. وبالتزامها بنصائحه كان الانفراج يغمر قلبها فتشكر مَن ارتضى إدارة ضميرها.

وكانت الأُمّ دي شانتال تجهد في إقعاد راهباتها على مبادئ الفقر والتواضع. وكم كان الأب يسعد برؤية راهباتها جالساتٍ على الأرض العارية من الأثاث، ضاحكاتٍ، فرحاتٍ. ولكنّه كان يتمنّى دائمًا تحقيق أمنيّة مؤسّسهنّ، ويراهنّ مجسّداتٍ اسمهنّ (الزائرات Visitandines)، ودائباتٍ على عيادة المرضى وغوث المحرومين.

كان الأب ڤـــنسان قد قبل تولّي رئاسة فروع جمعيّة راهبات الزيارة في باريس، عام ١٦٢٢، قبل تأسيسه جمعيّة الرسالة، تعبيرًا عن محبّته للقدّيس فرنسوا الساليزيّ، واعترافًا بأفضاله، وتكريمًا لطيبته وعطفه، منقطعَي النظير.

ومع أنّ هذه المهمّة قد ألقت على كاهله عبئًا باهظًا، فقد نهض بها بحكمةٍ وجدارةٍ. غير أنّها أضحت له موضع تبكيت ضميرٍ عندما أسّس جمعيّة الرسالة التي اقتضى أحد بنود نظامها من الكهنة الأعضاء، العزوف عن أيّ منصبٍ قد يلهيهم عن مهمّة خلاص شعب القرى، ورفضَ كلّ مهمّةٍ لدى جمعيّاتٍ رهبانيّةٍ، مثل إلقاء المحاضرات أو التدريس. وكانت مخالفته الشخصيّة لهذا البند تسرّب إلى نفسه شعورًا مرهقًا، إذ كان يجعله مثالاً سيّئًا لرفاقه. ومن ثمّ لم يهمل وسيلةً ولا ذريعةً في سبيل الانعتاق من هذه المهمّة، بيد أنّ محاولاته جميعها كانت تصطدم برفض رئيس أساقفة باريس والسلطات الكنسيّة العليا.

وكان الساليزيّ مقصد طالبي الإرشاد والنصح، فكان الكرادلة والأحبار يستشيرونه، وكان كثيرون يعتمدون على حكمه الفاصل في النقاشات اللاهوتيّة والفلسفيّة. وقد التفّت من حوله نخبة المجتمع التي لمعت في ميدان تأسيس المشاريع الخيريّة والرهبانيّة، والتي دار معظمها، لاحقًا، في فلك الأب ڤـــنسان، وفي جيوش المحبّة.

وكان الأب ڤـــنسان، مذ التقى الأُسقف القدّيس قد جعل منه نبراسًا لحياته الكهنوتيّة، وقدوةً يقتفيها، ومرشدًا يغتني بنصحه. ويبدو أنّ جوامع مشتركةً لّمت الرجلَيْن. فالساليزيّ، رغم محتده النبيل، كان بكر ثلاثة عشر ولدًا، ولا ريب أنّ حياة أُسرته الكبيرة لم تسبح في البحبوحة، ولم تختلف كثيرًا عن عيش التقتير الذي عهده آل "ديـــپـــول". وكانت الحياة في ظلّ جبال الألـــپ ترتدي طابع حياة الرعاة التي ساقها ڤـــنسان، صغيرًا.

وكان الأُسقف سيّد قلمٍ، وأمير منابر، والأب ڤـــنسان كان يُسحَر بحديثه، كلاهما اكتسب الدماثة والرقّة، بجهدٍ دؤوبٍ، وسيطرةٍ على ردود الفعل العصبيّة،

وكلاهما اجتذبا محبّة الناس بتواضعهما وعطفهما. وكلاهما اعتمدا، في مشاريعهما، على قيادة العناية الإلهيّة، وكلاهما مثّلا الربّ بسلوكهما، وصبرهما، ومثابرتهما، وتجرّدهما. وكلاهما استهدفا الجوهريّ، بفضل نظرٍ صائبٍ، ودقّةٍ متناهيةٍ.

وأنتج لقاؤهما، منذ اللحظة الأولى، صداقةً وثيقةً، فوريّةً، وطيدةً. ومنذ الوهلة الأولى توسّم الساليزيّ في الأب أخًا أصغر، أكبّ على إعداده لمهمّته المستقبليّة، وأطلعه على مشاريعه مبيّتًا نيّة إيكال إتمامها إليه، مطمئنًّا إلى قدرته على سوقها إلى اكتمالها، إن لم يتوفّر له، شخصيًّا، الوقت لذلك.

وأخيرًا، يسوغ التساؤل عمّا كانت ستؤول إليه حال الأب ڤـنسان ديـپـول لو استمرّ الأب "بيرول" السلطويّ قابضًا على دفّة مسيرته، والذي توجّس ريبةً وخشيةً من صعوده، حالما أخذ نجمه بالسطوع، وقاده حسدٌ لا يليق بمقامه إلى محاولة إجهاض جمعيّة الرسالة التي أثبتت جدواها الجلّى للكنيسة، ولم يتورّع عن الضغط على الجنرال "دي غوندي" الذي موّل تأسيس تلك الجمعيّة كي يستعيد ماله منها، ولم يضنّ بجهدٍ، ولا بمكيدةٍ كي يقاوم تصديق الـڤـاتيكان لتأسيسها.

ولا يسعنا سوى شكر العناية الإلهيّة، باسم الكنيسة وباسم البشريّة المتوجّعة، لوضعها في طريق الأب ڤـنسان قدّيسًا فذًّا، لا ينبض قلبه إلاّ عطفًا، وحبًّا، وتجرّدًا، وغيرةً على أفعال الخير، فأخذ بيد الأب المرسَل وزوّده بالكثير من خصاله الفريدة، وارتقى به، بحزمٍ ومنعةٍ، على معارج القداسة، وواكب صاحب القلب الكبير، في دنيا المحبّة.

ولا بدّ، في هذا السياق، من الإشارة إلى الرؤيا الوحيدة التي اعترف الأب ديـپـول بها في حياته، والتي خطرت له عندما كان راكعًا يصلّي أمام فراش القدّيسة جانّ المحتضرة، ورأى جرمًا ناريًّا صغيرًا، ينطلق من الأرض، ويلتحق بجرمٍ آخر أشدّ توهّجًا. واندمج الجرمان في جرمٍ أكثر تألقًّا بما لا يُقاس. واستنتج أنّ الجرم الصغير كان يمثّل "جانّ دي شانتال"، والجرم الآخر الأكبر يمثّل القدّيس فرنسوا، والأكبر هو الربّ.

زيارتُه لذويه

لطالما حنّ الأب ڤــنسان إلى ذويه الذين لم يرَهم منذ القدّاس الذي أقامه في مسقط رأسه، غداة سيامته الكهنوتيّة. وفي هذه الأثناء كان يتوجّس خشيةً دائمةً من أن توقظ فيه عودته إلى مرابع صباه، ورؤيته لرثاثة وضع ذويه، مشاعر بشريّةً كفيلةً بإضعاف صلابة تجرّده، وتنال من إخلاصه لرسالته، والانقطاع الكلّيّ لدعوته. ولكن بعد أن دعمته علاقته بالقدّيس الساليزيّ، وبالقدّيسة جانّ دي شانتال بمنعةٍ نفسيّةٍ، تجرّأ على تحقيق الأمنيّة التي طالما أرجأها. وانتهز مناسبة تبشيره في منطقة "بوردو" القريبة من قريته، فيمّم شطر "پــوي".

سبق له أن استشار، بشأن هذه الزيارة، كاهنَيْن صديقَيْن فشجّعاه على القيام بها، ولكن كانت تكبحه ذكرى كهنةٍ مندفعين في خدمة التقوى، ولكن عقب زياراتهم لذويهم استولت هموم هؤلاء على أفكارهم، ووهنت غيرتهم الرسوليّة. غير أنّه، في هذه النوبة، كان متدرّعًا بالمنعة التي اكتسبها في مجاورة قدّيسين، وعاد إلى البيت الوالديّ. وحلّ ضيفًا على قريبٍ له كان قد أصبح خوري القرية، ومكث عشرة أيّامٍ، سعيدًا بالغوص في جوّ الأُسرة المنعش، وتعرّف على أبناء إخوته وأخواته الذين وُلدوا في أثناء غيابه، واسترجع ذكريات الصبا البريئة، الخالية من الهمّ، وشارك أفراد أُسرته حجًّا إلى مزارٍ للعذراء، كان قد استُحدِث بين الأحراج، حيث كان يرعى بهائمه، صغيرًا. وقد حضن هذا المزارُ تمثالاً للسيّدة العذراء كانت القرية تكرّمه قديمًا، وعُثِر عليه بعد سنواتٍ من الاختفاء. وقد انطلق الأب إلى ذلك المزار حافي القدمين، تعبيرًا عن عمق حبّه لأمّ الله.

وطوال مدّة إقامته بين ذويه، كان جميعهم ينظرون إليه نظرة دهشةٍ وإعجابٍ، فقد كان جمال نفسه يتجلّى على قسمات محيّاه، وحركاته، وأحاديثه.

غير أنّ سعادته كان يعكّر صفاءها شعورُه بأنّ ذويه الذين تنامت إلى مسامعهم أنباء نجاحاته والمناصب التي تبوّأها، كانوا يعلّلون النفس باقتطاف شطرٍ ممّا غنمه. ويُرجّح أنّه في سنواتٍ سابقةٍ، كان قد أسهم في سداد قسمٍ من ديون الأُسرة، وفاءً لقسطٍ ممّا ضحّى به والده في سبيل دروسه اللاهوتيّة، ومن أجل تمكين ذويه من مواجهة احتياجاتٍ ملحّةٍ طارئةٍ. غير أنّه، في هذه النوبة، وفي مرحلة التجرّد التي انتهى إليها، عقب صراعٍ متمادٍ وموجعٍ، كان يشقّ عليه اضطراره إلى تخييب آمالهم.

وكان قد أرجأ مفاجأة ذويه بهذا الموقف، إلى عشيّة عودته. وفي إطار عشاء وداعٍ متواضعٍ لمّ من حوله ذويه وأنسباءه، نصحهم بمخافة الله، والتجرّد من الطمع في حطام الدنيا، وصارحهم بعجزه عن مساعدتهم مادّيًّا، مؤكّدًا أنّه، حتّى لو امتلك خزائن طافحةً بالذهب والفضّة لن يمدّ إليها يده من أجلهم. فكلّ ما هو بحوزة كاهنٍ هو ملكٌ لله وللفقراء.

كان يتألّم وهو يُسمعهم هذه الأقوال التي لم يكن له مفرٌّ من الإفصاح عنها لكيلا يضعُف. وكان بذلك يبتر آخر قيدٍ يربطه بالعالم، بعد أن تخلّى عن كلّ مناصبه الفخريّة التي كانت تدرّ عليه دخلاً، ولا تلزمه بعملٍ.

وعندما غادر مسقط رأسه، في صباح اليوم التالي، والتفت، للمرّة الأخيرة، مودّعًا، لم يقوَ على حبس فيض الدموع الذي لم ينقطع دفْقُه طول الطريق، حتّى جفّت مآقيه.

ومع ذلك، ظلّ ثلاثة أشهرٍ، عقب هذه الزيارة، ممزّقًا بين واجب غوث ذويه الفقراء، وواجب التجرّد الذي ألزم نفسه به. وأمعن في توسّل الله إنقاذه من هذه الحيرة، حتّى اهتدى إلى حلٍّ أراح ضميره، فتنازل لأَخَواته عن كامل حصّته من إرث والده، وعن مزرعةٍ كان والده قد خصّه بها. وبذلك انصرف، حرًّا، رشيقًا، إلى بناء مشاريعه الكبرى.

وكان موقنًا أنّه لو لم يكن يقف موقف التضحية القاسية، بمشاعره الإنسانيّة تجاه أقربائه، لما تمكّن من مطالبة مرسَليه وراهبات المحبّة بالتزام هذا الموقف عينه.

مُرشد السجون

عودة الأب ڤـــنسان إلى بيت "دي غوندي" استهلّت مرحلة تأسيس مشاريع جليلةٍ مدعوّةٍ إلى البقاء والازدهار، وتمهيدًا لتولّيه مناصب رفيعة الشأن.

كان الجنرال "دي غوندي" يتولّى، منذ عام ١٥٩٨، منصب رئيس البحريّة الملكيّة في بحار المشرق ومدير سجون المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، والمسخّرين للتجذيف على المراكب الملكيّة، في فرنسا، وقد خلَف، في هذا المنصب، سلسلةً من أفراد أُسرته الذين تقلّدوا، منذ عام ١٥٧٢ رتبة "ضابط بحار المشرق".

وفي منْزل "الديغونديّين" اعتاد الأب ڤـــنسان التزام حدود مهمّته لا يتخطّاها. ولكن كانت قد تنامت إلى مسامعه أنباءٌ موجعةٌ عن حالة السجون، والسجناء والمكلّفين بالتجذيف، الذين يُعامَلون معاملةً لا تليق حتّى بالبهائم، وتعجز حتّى البهائم عن تحمّلها.

فقد كانت مراكب البحريّة الملكيّة تحتاج إلى ما لا يقلّ عن ستّة آلاف مجذّفٍ، وكانت هذه المهمّة من القسوة والمشقّة بحيث يتعذّر العثور على مَن يرضون القيام بها، وارتأى المسؤولون أنّ الوسيلة المثلى، والأقلّ كلفةً، بل المجّانيّة، هي أن يسخّروا لها، سواعد العبيد من أسرى الحروب، ومن المسجونين بجُنَح التسوّل، والتشرّد، والجنود الفارّين. وبالمحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ. واعتاد القضاة إصدار أحكامٍ بهذه السخرة لسنواتٍ معدوداتٍ حتّى عن جُنَحٍ طفيفةٍ. وكان مَن يجلس على مقعد التجذيف يفقد الأمل في الانعتاق منه، حتّى بعد انقضاء مدّة حكمه، إزراءً بالقوانين.

وكانت ظروف حياة أولئك المسخّرين للتجذيف، مريعةً، برًّا وبحرًا. فالمراكب الشراعيّة التي يدفعونها بمجاذيفهم القصيرة، معظمها مهترئةٌ، وهشّة البناء، ومعرّضةٌ

لأخطار العواصف والأنواء. وهم كانوا يُكوَّمون على متنها كالقطعان، والسياط لا تني تنهال على أكتافهم وظهورهم العارية المعرّضة لشمس المتوسّط الحارقة، وللرياح اللاّذعة، ولجَوْر البشر، وقسوة الطبيعة. كانت المساحة الإجماليّة على ظهر المركب لا تتخطّى أربع مئةٍ وخمسين مترًا مربّعًا، يحتلّها أربع مئةٍ وخمسون مجذّفًا. وغالبًا ما كان يتكاتف هذا التلاصق الوبيل مع التغذية الشحيحة، والجهود الشاقّة المتواصلة، على نشر الأمراض والأوبئة بين أولئك المساكين. وكلّ ظاهرة تعبٍ أو تراخٍ من أحدهم كانت تُقابَل بأشدّ ضربات السياط شراسةً.

وكانت هشاشة المراكب، وأهوال الأحوال الجويّة، تحول دون الإبحار منذ نهاية الخريف حتّى مطلع نيسان، من كلّ عامٍ. وحينئذٍ كان على المجذّفين المسخّرين أن يعانوا، على اليابسة، أعتى ممّا كانوا يعانون في البحار. فقد كان عليهم أن يقطعوا المسافة بين مرسيليا وباريس سيرًا على الأقدام، جارّين سلاسلهم الحديديّة المرهِقة، تحت أزيز السياط، ومع ذلك لا ينالون من الطعام إلاّ ما يبقيهم على قيد الحياة. فكان كثيرون يلقون حتفهم في تلك الرحلة الجهنّميّة. والذين كانوا يصلون إلى العاصمة أحياءً، كان يُكَدَّسون في أقبيةٍ يتمنّون لو كانت قبورًا ينعمون فيها بالراحة والخلاص، ريثما يحين موعد إبحارهم في الربيع، وعودة دورة العذاب الجهنّميّ، برًّا وبحرًا. أمّا الذين كانوا يُعفَون من التجذيف فكانوا يُقتادون إلى ساحات الوغى حيث يحتلّون واجهات الجبهات، أو كانوا يُحرَمون من حقوقهم المدنيّة، وتُحظَر عليهم الإقامة في المدن الكبرى. فالذين سبق أن حُكِموا حكمًا مؤبّدًا كانوا يُعَدّون في نظر المجتمع أمواتًا. وكانوا يُكرَهون، نهارًا، على أعمال مهينةٍ، ويعودون، ليلاً، إلى التكدّس الوبيل، والبؤس، والبكاء، والتقاتل. وإذا اعتلّ أحدهم فالعلاج محظورٌ عليه.

هذه الأخبار انقضّت على نفس الأب فــنسان انقضاض صاعقةٍ، فذاب قلبه أسًى، وارتعدت عظامه غيظًا، ولم يعُدْ يطيق صبرًا، فطلب، ذات ليلةٍ، مقابلة الجنرال في مكتبه الفاخر، وأجبره على الردّ عل مئات الأسئلة التي كان الجنرال

يؤثر، في سرّه، تجاهلها، تفاديًا للإحراج المرهق. وتمادى حوارهما حتّى ساعات الفجر الأولى، أمام المدفأة الجسيمة المتوهّجة. وفي الصباح الباكر غادر الرجلان القصر، في تكتّمٍ شديدٍ، تلبيةً لوعدٍ كان قطعه الجنرال لمرشده الروحيّ بزيارة سجن المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، في باريس. ومنذ الوهلة الأولى أخذت المرارة بخناقهما، عندما شاهدا بأمّ عيونهما مدى العار واللاإنسانيّة السائدَيْن في ذلك الجحيم الأرضيّ.

كان الشتاء شديد القسوة. ولّما فُتِح الباب الحديديّ الكبير، محدثًا صريرًا مدوّيًا، صفعت وجهَ الأب روائح القذارة والتعفّن المقزّزة، المتصاعدة في ظلمةٍ دامسةٍ، قشع شيئًا منها ضوء المصباح الذي كان حارس السجن يرفعه. وعلى ضوء المصباح الضئيل تبيّن الكاهن كتل البؤس المكدّسة على الأرض، مقيّدةً بسلاسل حديديّةٍ مثبتةٍ في جدرانٍ تنــزّ رطوبةً وكآبةً. وسارع الأب إلى أخذ المصباح، ودعا السجّان إلى الخروج وتركه وحيدًا مع المساجين. وتردّد الحارس في تلبية طلب الكاهن، متذرّعًا بحجّة أنّه قد يتعرّض لاعتداء أولئك المتوحّشين، الذين قد يخنقونه بسلاسلهم، إذا هو اقترب منهم. وفي الواقع هبّ بعض العتاة منهم، مهدّدين، مستنكرين مجيء كاهنٍ إليهم، فيما استغرق آخرون قابعون أرضًا في التهكّم به، وبالربّ الذي جاء يبشّرهم بحبّه لهم، فيما هو غير عابئٍ بما يُسامون من ضروب الإهانات الوحشيّة والمظالم اللاإنسانيّة.

وكان الأب موقنًا أنّ الخطابات، في مثل هذه الأحوال، لا معنى لها، فاكتفى بمبادرات محبّةٍ.

كان السجن ضنكًا مفرط الضيق، لا يخفّف ظلمته بصيص نورٍ، ولا يُنعش جوّه الموبوء سوى هبّات ريحٍ قارسة البرودة تتسرّب من فجواتٍ، تُدخِل القرّ ولا تسرّب نورًا. وكانت شفاه أولئك المساكين المسحوقين لا تتفوّه إلاّ بالتجديف والشتائم. وأقبل الكاهن على قيودهم يقبّلها، وهو يستغفرهم عن المعاملة

اللاإنسانيّة التي يرزحون تحتها، ولا يرى فيهم سوى مظلومين يقضي واجبه عليه رفع الضيم عنهم، أو خطأةٍ تائبين تفرح السماء بتوبتهم.

ولمح الكاهن، على ضوء المصباح الباهت، مريضًا يئنّ وجعًا من قروحه المتقيّحة، فجلس على طرف فراشه الزريّ، متفاديًا إزعاجه، وأخرج من جيبه ضماداتٍ، وغسل قروحه، ودهنها بمرهمٍ كان الطبيب التونسيّ الذي اشتراه قد لقّنه إعداده. فارتاح السجناء إلى وجود الكاهن الذي راح يتنقّل بينهم، واحدًا واحدًا، معالجًا القروح، مسيلاً إلى القلوب نور العزاء، وما زال دائبًا على هذه المواساة حتّى عاد حارس السجن، وبلّغه انتهاء مدّة الزيارة.

وبعد أيّامٍ زار سجن مرسيليا، فطالعه وجهٌ للعار أشدّ بشاعةً. فالسجين الملتصق بقيدٍ يقرّح كاهله كلّما تحرّك، لا تنفكّ تنهمر عليه الشتائم والمهانات وضربات السياط. ومن يرفع رأسه يُقمَع بقسوةٍ لاإنسانيّةٍ، فيستسلم، مكرَهًا، إلى نسيان إنسانيّته. ولم يعبأ الكاهن بتهكّم بعض السجناء، وبتذمّر آخرين، وباح لهم أنّه، هو أيضًا، قد أُسِر، وبيع في سوق النخاسة، وعانى مثل معاناتهم، ومع ذلك ثمّة من عانى أكثر منه ومنهم، حبًّا بهم، مع أنّه هو البراءة عينها. وطلب منه مصدورٌ أن يتابع حديثه الذي سرّب إلى نفسه نسمة عزاءٍ. فجلس إلى جانبه، أرضًا، وأحاط كتفه بذراعه، وقال له: "صدّقني، يا أخي، أنّ الله يرى فيك وجه ابنه، وأنا أرى في عينيْك عينَيْ معلّمي الإلهيّ". ولمّا أوعز إليه حارس السجن بالخروج وعد السجناء بعودته القريبة إليهم.

حيال هذا البؤس المريع، لم يستطع بطل المحبّة سوى الانحناء على الأجساد المكدودة ويعالجها ويضمّد جراحها، وعلى جراح النفوس، وهي، غالبًا، أبلغ إيلامًا، فيبلسمها بحبّه، مصغيًا إلى اعترافاتٍ تهدّ ببشاعتها، وتطعن قلبه الطاهر، مع أنّه قيل: "وحدَه الطهر يستطيع التحديق إلى القذارة".

واتّفق له، أيضًا، أن شاهد عمليّة إبحار أولئك البائسين في مرفأٍ، وهالته رؤيتهم يُدفعون إلى المراكب كما تُدفَع البهائم، وهم يترجرجون، بأجسامهم الضامرة التي

أسقمها كدّ العبيد، وإهانات المجرّدين من كلّ رحمةٍ، وشحّ الطعام، وقد أبهر نور الشمس عيونَهم التي طالما لم ترَ سوى العتمة.

قبل تدخّل الأب ڤـــنسان، لم يكن الجنرال قد سمع، أثناء إبحار أولئك المسخَّرين للتجذيف، سوى أصوات الأبواق الملكيّة، ولم يكن يرى سوى رفرفة الأعلام والألوية، والظهور المقوّسة التي صبغتها الشمس باللون البرونزيّ، وحركة المجاذيف المنتظمة، ولكنّه لم يكن قد رأى، قطّ، الأكتاف التي حرثتها السياط، والأقدام التي قرّحتها القيود الحديديّة الثقيلة، ولا العيون المضرّجة بدماء القهر، والأسنان المصطكّة حقدًا، ولا السياط المصنوعة من أعصاب الثيران التي لا تبارح أيدي السجّانين.

لقد كشف الأب ڤـــنسان للجنرال مظالم وحشيّةً تُرتَكب في مرفقٍ تابعٍ لمسؤوليّته وكان غافلاً عنها. وبعد بضعة أسابيع أصدر الملك لويس الثالث عشر مرسومًا عيّن، بموجبه الأب ڤـــنسان مرشدًا مَلَكيًّا للسجناء المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، ومنحه كلّ الحقوق التي يتمتّع بها ضبّاط بحريّة المشرق، ورئاسة جميع مرشدي السجون التابعة لتلك البحريّة.

مهمّات هذا الأب كانت تقتضي:

– مواساة المرضى،

– منح الأسرار المقدّسة،

– الاحتفال بالقدّاس،

– دفن الموتى.

وبما أنّ كلّ تلك المهامّ كانت قد أُهملت، فقد تعيّن على الأب ڤـــنسان إعادة إحيائها وتنظيمها.

وكان عدد المحكومين الذين كُلِّف بشؤونهم الروحيّة يناهز ثلاثة آلافٍ، في نهاية عام ١٦٢١.

وانبرى الأب ڤـــنسان لمحو ما استطاع من بشاعة تلك المظالم، ولاستبدالها

بشيءٍ من الإنسانيّة، للحدّ من قسوتها ما استطاع إلى الحدّ سبيلاً، ولإصلاح، ولو جزءٍ يسيرٍ من فداحة الوضع الغاشم، مستعينًا بصلاحيّات صفته الرسميّة، وبكنوز محبّته، وبتأثير قداسته.

وبما أنّ الجنرال "دي غوندي" لم يكن هو المسؤول المباشر عن تلك السجون فقد قابل برفقته النائب العامّ، دامع العينين، وتوسّل إليه الرأفة بأولئك المحكوم عليهم بالأعمال الشاقّة. وكان النائب العامّ حيّ الضمير، ومقدّرًا أرفع تقديرٍ لمساعي الأب ڤـنسان، فأمر بنقل أولئك السجناء إلى بيتٍ فسيحٍ في حيٍّ باريسيٍّ، وبإعطائهم غذاءً وفيرًا وصحّيًّا، وأتاح لأقربائهم أن يزوروهم، ويواسوهم.

ومن جانبٍ آخر، ناشد رئيس أساقفة باريس، شقيق الجنرال "دي غوندي" الكهنة والوعّاظ دعوة المؤمنين إلى مدّ يد العون لأولئك البائسين. وكانت في طليعة المتبرّعين شقيقة الأُسقف التي بذلت بسخاءٍ لامحدودٍ. وتهافت زوّارٌ من أرفع الطبقات الاجتماعيّة إلى زيارة أولئك السجناء، الذين لم يعهدوا من قبل، سوى الإهمال والازدراء والمهانة.

واعتاد الأب ڤـنسان قضاء ساعاتٍ طويلةً إلى جانبهم غير عابئٍ بعدوى الأمراض الشائعة، معزّيًا، مشجّعًا، زارعًا الرجاء في نفوسهم، ومُسرِّبًا شعاع عطفٍ إلى قتامِ مصيرهم.

لقد أحاطهم بكنوز عطفه، ودأب على مؤاساتهم، وتثقيفهم وإعدادهم للاعتراف بخطاياهم اعترافًا لائقًا، تمهيدًا لتزويدهم بالأسرار، وفضلاً عن العناية بنفوسهم أولى عنايةً رقيقةً بأجسادهم المكدودة، واقفًا على خدمتهم ذاته وقواه ووقته. فكان ينفق عليهم كامل راتبه في الدولة. وما إصراره على بناء مشافٍ لهم إلاّ تذكيرٌ للمسؤولين بأنّ هؤلاء البائسين هم بشرٌ يمرضون ويحتاجون إلى علاجٍ وعنايةٍ، وتجرّأ فكلّف بخدمتهم أخوات المحبّة، اللواتي استُقبلنَ، أوّلاً، بالبصاق والشتائم، ثمّ بالترحيب والدموع.

على مأساهم أيقظ ضمير المسؤولين، ومن أجلهم شحذ همم المحسنين. ولم يكن بمكنة أحدٍ أن يحدث هذا الإيقاظ، وهذا الشحذ سوى قدّيسٍ تفيض نفسه بعطف يسوع الذي يبدع المعجزات. وكان، كلّما استدعته مهامٌّ طارئةٌ عاجلةٌ، يكلّف كاهنَين صديقَين باحتلال محلّه.

وبمساعيه الحثيثة أُطلق سراح أبرياء منهم، وخفّت قسوة السجّانين والحرّاس، وانتاب المحكومين شعورٌ منعشٌ لم يعهدوا له، قطّ، مثيلاً، ولم يتخيّلوه في أحلامهم، فقد تبيّنوا أنّ ثمّة مَن يحبّهم حبًّا صادقًا مجرّدًا، ويُعنى بهم، واكتشفوا، مجدّدًا، أنّ لهم نفسًا كانت مدفونةً في المرارة واليأس.

وبفضل هذه التحوّلات الجوهريّة غدا أولئك البائسون الذين لم تكن قلوبهم تخفق إلاّ حنقًا وبغضاء، ونفوسهم لا تضجّ إلاّ بنوايا الانتقام، يطلبون الاعتراف والغفران، وتناول الأسرار المقدّسة، ولا سيّما بعد أن أقام لهم الأب ڤـنسان رياضةً روحيّةً، وزوّد بالأسرار كلّ من أبدى رغبةً فيها. ولّما أبحر الأسطول الملَكيّ من مرسيليا كان العديد من المحكومين المجذّفين على متنه قد تصالحوا مع الله ومع الحياة.

كان الأب ڤـنسان لهم ملاكًا هبط من السماء لكي ينتشلهم من جحيمهم النفسيّ. لقد لُقِّب "مروّض النمور" ذلك الكاهن المتواضع الذي حقّق تبدّلاً مذهلاً في وقتٍ قصيرٍ، وأصبح موضع إعجاب البلاط والمدينة جمعاء. بيد أنّه لم يرقد على غار النصر، بل ما انفكّ يتنقّل من سجنٍ إلى سجنٍ، ومن مرفأٍ إلى مرفأٍ، متفقّدًا أحوال السجناء، والمجذّفين، باذلاً كلّ ما استطاع إليه سبيلاً من أجل رفع الضيم عنهم، وصون كرامتهم، والذود عن إنسانيّتهم.

وقد تعدّدت الروايات حول تضحيات الأب ڤـنسان في سبيل المحكومين بالتجذيف على المراكب الملَكيّة، وارتدت بعض الروايات شكل الأساطير. وأبرزها

أنّه صدف، يومًا، شابًّا تعتمل في نفسه رغبة الفرار، فاستمع إليه، وعلم منه أنّه سُجِن بتهمة جنحةٍ طفيفةٍ، وحُكِم عليه بالتجذيف على المراكب الملكيّة، تاركًا زوجته وأولاده، بلا معيلٍ، ولا قريبٍ يُعنى بهم، ولا مورد رزقٍ. وكان همّهم يؤرّقه في كلّ لحظةٍ. وحنّ قلب الأب عليه، وطلب من السجّان أن يتيح له فرصةً لزيارة أُسرته، وتدبير مقوّمات العيش لهم، ولكنّ الحارس رفض طلبه متذرّعًا بحجّة أنّ لكلّ سجينٍ رقمًا، وأنّه مسؤولٌ عن عدد السجناء الذين تسلّمهم، وأنّ عليه الحلول محلّ الغائب منهم. حينئذٍ عرض الأب أن يحلّ هو محلّ السجين، وأن يعتنق اسمه حتّى عودته، وتسهيلاً لإخراجه من السجن ألبسه ثوبه الكهنوتيّ، وارتدى هو ثوب السجناء، وقُيِّد بقيده وسلاسله، مرتضيًا الشتائم والسياط. وما زال على هذه الحال، أيّامًا، حتّى تعرّفه كاهنٌ في أحد المرافئ، وفُضح أمره. وكانت السيّدة "دي غوندي"، في هذه الأثناء، قد استأخرت عودته، فهرعت وحلّت قيوده، وجاءته بجبّةٍ كهنوتيّةٍ، واستصدرت حكم عفوٍ عن السجين، وطويت القضيّة، ولم يعاقَب أحدٌ.

وفي روايةٍ أُخرى، أنّه رأى يومًا بحّارًا يتهاوى إعياءً وألمًا، فتطوّع للتجذيف عنه. وفي نوبةٍ أُخرى أنّب بقسوةٍ سجّانًا كان يسوط محكومًا بشراسةٍ همجيّةٍ فسأله السجّان هل هو مستعدٌّ لتحمّل عقاب المحكوم، فقبل.

وقد أثارت هذه الروايات لغطًا كبيرًا، وأُريق حولها حبرٌ كثيرٌ. وعدّها العقلاء غير منطقيّةٍ. ولكن هل كلّ أعمال البطولة تخضع للمنطق؟ والأب ڤـنسان كان بطلَ محبّةٍ، وكان على أُهبةٍ دائمةٍ للحلول محلّ المحكومين، وتحمّل الإهانات والمشقّات عنهم، تخفيفًا عنهم، وتمثّلاً بالربّ يسوع الذي أخذ جريرة خطايانا على عاتقه. وحيال الظلم الفادح لم يكن يتوانى عن وضع المنطق جانبًا، ويمضي في ما يوحيه قلبه الثائر، النابض مع كلّ صرخة ألمٍ وتوجّعٍ وظلمٍ، حتّى أقاصي جنون الحبّ. ومن المؤكّد أنّه أقدم، في سبيل مئات السجناء المعذّبين، على تضحياتٍ تفوق، بلا قياسٍ، حلوله محلّ محكومٍ واحدٍ، سواءٌ صحّت الروايات أم لم تصحّ.

ومع كلّ ما أنجزه الأب ڤــنسان في هذا المضمار، كانت ترهقه ضآلة إسهامه في تخفيف تلك المساحة المريعة من البؤس، وتنتابه الكآبة والإحباط، فيتخيّل أنّ ضعف إيمانه هو الذي يحول دون زحزحة ذلك الجبل من البؤس.

ولم ينقذه من هذا الإحباط وهذه الكآبة سوى صديقه الساليزيّ، الذي كان قد أكّد له أنّه آلةٌ في يد الربّ، وليس على من هو آلةٌ أن يفرض على حاملها ما يتعيّن عليه فعله. بل حسبه أن يكون طيّعًا بين يديه، ويفرح بما يعمل، عليه أن يظلّ طفلاً بين ذراعي أبيه، ويعمل، ولا يقيس النتائج.

حَربٌ عَلى التسوّل

مع انهماك الأب ڤـنسان في أعمال الرسالة، وفي إرشاد المحكومين بالأعمال الشاقّة، كان كلّ مشهد بؤسٍ يهزّه ويستوقفه، ويحرمه الراحة حتّى يجد له علاجًا.

وفي مطلع شهر أيلول ١٦٢١، إذ كان يتفقّد أحوال الجمعيّات الخيريّة التي أسّستها جمعيّته في منطقة "شاتيّون" - رعيّته السابقة - مرّ بمدينة "ماكون" (Mâcon)، فهاله عدد المتسوّلين الذين ازدحمت بهم شوارعها وأروقة كنيستها، وهم في حالةٍ مريعةٍ من القذارة والبؤس والعنف. واستفسر عن سبب كثرتهم، فتبيّن أنّ كاهنًا في المدينة كان قد أسّس مركزًا سمّاه "الإحسان"، من أجل غوث الفقراء والمرضى، فاستقطب هذا المركز مواكب المشرّدين والغرباء الذين تقطّعت بهم السبُل، والذين غدوا يحاصرون المارّة بإزعاج تسوّلهم الملحاح. وقُدِّر عددهم حينذاك بثلاث مئة مستعطٍ.

لم يُطق الأب ڤـنسان مواصلة طريقه، قبل أن يوجد لهذه الآفة علاجًا، فمكث بضعة أيّامٍ في "ماكون"، وتشاور مع الكاهن مؤسّس "الإحسان"، ومع السلطات الكنسيّة والمدنيّة، معلنًا عزمه القضاء على التسوّل، فقوبل إعلانه، بادئ الأمر، بالسخرية، ووُصِف بالمدّعي الحالم، إذ كان كثيرون قد تصدّوا سدًى لهذه المهمّة. ولكنّه لم يستسلم، واستطاع إقناع الأسقف وعددٍ كافٍ من مسؤولي المدينة، بحيث قرّر المجلس البلديّ عقد جلسةٍ طارئةٍ لهذه الغاية. وفي اليوم التالي أُعلن، رسميًّا، تأسيس جمعيّتين إحداهما للرجال والأُخرى للنساء. ووضعت الجمعيّتان قائمتين تضمّان ثلاث مئة اسم فقيرٍ في المدينة. وتعهّد الأعيان والتجّار بتقديم هباتٍ سنويّةٍ، نقديّةٍ وعينيّةٍ، تشمل حنطةً، وأطعمةً، وألبسةً، وحطب تدفئةٍ وطهوٍ، وأدواتٍ

منْزليّةً. وتولّت النساء جمع هذه الهبات وتوزيعها. وكان الفقراء يحضرون قدّاس يوم الأحد، وفي نهايته ينال كلٌّ منهم، وفق حاجته واحتياجات أفراد أُسرته، طعامًا، وثيابًا ومالاً. ولكن كان يُحرم من هذه المساعدة من يثبت تسوّله أثناء الأسبوع، لأنّ التسوّل أضحى يُعَدّ جريمةً، تستحقّ العقاب. والقادرون منهم على العمل، ولكنّهم لا ينالون أجرًا كافيًا لسدّ كلّ احتياجاتهم، كانوا يحصلون، فقط، على ما يُكمل نقص أجرهم، لكيلا ينــزع أحدٌ إلى الكسل والتواني وينــزلق إلى البطالة ورذائلها. أمّا الذين كانوا يخجلون من مدّ يدهم للمساعدة العلنيّة، فكانت تُنظَّم بأسمائهم قائمةٌ سرّيّةٌ، ويساعَدون بكتمانٍ.

وكانت الجمعيّتان تلتقيان، مرّةً كلّ شهرٍ، وتصحّحان قائمة المحتاجين بإضافة أسماء مَن اكتُشفت حاجتهم، وبحذف أسماء من انتفت حاجتهم إلى الإحسان، ومعاقبة مَن تسوّلوا وخالفوا النظام.

وسرعان ما أثبتت النتائج نجاعة تدابير الأب فــنسان، ففي غضون ثلاثة أسابيع كانت شوارع المدينة قد خوت من المتسوّلين، وارتاح المارّة من مطاردا‌تهم.

ولّما اضطرّ الأب إلى مغادرة المدينة غادرها خلسةً، تفاديًا لمظاهر التكريم التي كان يُعدّها له المجلس البلديّ، ولتصفيق الجماهير.

وكان الأب قد برهن عن مهارته في استنباط الحلّ الملائم لكلّ حالةٍ خاصّةٍ، كما أثبت قدراته التنظيميّة الفائقة.

وبعدئذٍ لّما طُرِحت قضيّة التسوّل في باريس، بمناسبة إنشاء المستشفى العامّ، تقدّم البرلمان بعرضٍ جذريٍّ، يقضي على التسوّل بالقضاء على المتسوّلين وبحجزهم في المستشفى حيث سيُكرَهون على العمل كي يكسبوا عيشهم. وتقدّمت سيّدات المحبّة بحلٍّ وسطيٍّ، أدنى قسوةً، وأخفّ مرارةً، ويفتح كوًى صغيرةً لشيءٍ من الحرّيّة؛ أمّا الحلّ الثالث الذي تقدّم به الأب فــنسان، فلحظ معالجة المرضى حتّى

يستطيعوا القيام بعملٍ، ومساعدة الأصحّاء، بادئ الأمر، بالصدقات الضروريّة، وفي الآن عينه إقناعهم بالعمل الطوعيّ، عملٍ يؤهّلهم لإمساك مصيرهم بأيديهم، تمهيدًا لسَوْقهم حياةً طبيعيّةً كريمةً. فقد كان الأب ڤـنسان ينطلق، دائمًا، من إيمانه الراسخ بأنّ كلّ إنسانٍ هو صورةٌ ليسوع، الفقير الأسمى، وينبغي معاملته على أساس هذه الرؤية.

وقد أثبت، هو والأمّ لويز دي ماريّاك، دائمًا، استنكارهما لأساليب القمع والإكراه، وحرصًا على أن يُقدِم كلّ إنسانٍ على إنقاذ نفسه طوعًا.

وقد أثبتت الأساليب القمعيّة عقمها، فالذين لم يطيقوا السجن كانوا لا يلبثون أن يتظاهروا بالشفاء، وبالرغبة في العمل خارج المستشفى. ولكنّهم، في الواقع، كانوا يعودون إلى التسوّل خلسةً، ويصبحون أشدّ خطرًا على المجتمع، إذ غالبًا ما يتحوّلون لصوصًا وقتلةً. وكلّما اشتدّت الحروب الأهليّة، واضطرّ السكان إلى هجر منازلهم، بحثًا عن أماكن آمنةٍ، كانوا يفرضون سطوتهم على المدينة، ويحوّلون باريس إلى بؤرة هلاكٍ مريعةٍ.

تأسيس جَمعيّة الرسَالة - "اللعَازريّة"

عام ١٦٢٤ لم يكن يجول في خاطر الأب ڤـنسان أنّه على موعدٍ مع تأسيس جمعيّته الخاصّة. وهو لطالما اعتاد ألاّ يُقدِم على أيّ مشروعٍ قبل التثبّت من أنّه يلبّي إرادة الله، وأنّه ليس مجرّد خاطرةٍ ذاتيّةٍ عابرةٍ.

كانت الرسالات التي أطلقها بمساعدة آل "دي غوندي"، في ممتلكاتهم، قد آتت ثمارًا يانعةً، وأسالت الرضى إلى نفس السيّدة "دي غوندي"، وأشعلت فيها أمنيّة استمرار تلك الحركة المباركة، وتنميتها، وتنظيمها، وتوفير عناصر الازدهار لها. وبعد استشارة أصحاب الرأي، ورئيس أساقفة باريس الذي كان شقيقًا لزوجها الجنرال، اعتزمت أسرة "دي غوندي" تأسيس جمعيّةٍ تتولّى هذه المهمّة، وتعهّدت بتمويلها. وساهم رئيس الأساقفة في هذا المشروع، فقدّم للجمعيّة العتيدة بناء "معهد الأبناء الصالحين"، الذي سبق أن كان مدرسةً ملحقةً بجامعة باريس، ثمّ تحوّل إلى مدرسةٍ داخليّةٍ، بل إلى منتجعٍ لأبناء النبلاء والأثرياء، الذين لا يمثّل لهم العلم سوى آخر الهموم، وأدنى المطامح. وكان مبنى ذلك المعهد الذي لم يبقَ فيه "صالحًا" سوى اسمه، قد خلا من نزلائه، وهُجِر، وأُهمِل، وتداعى. كان مؤلّفًا من ثلاثة أجزاءٍ تحيط بفناء، وأحد أجزائه على شفا الانهيار. غير أنّ الجنرال وزوجته اعتزما ترميمَ على الأقلّ جزءٍ منه، وتأهيله لاحتضان طليعة المرسَلين، الذين كانوا، حينذاك، يتألّفون من الأب ڤـنسان، ورفيقه الدائم، الأب أنطوان پـورتاي، وكاهنٍ ثالثٍ يشاطرهما الاندفاع الرسوليّ، واسمه "فرانسوا دو كودري" (François du Coudray)، الذي كان عالمًا مرموقًا في اللغات القديمة، ولكنّه، زهد بالشهرة والأبحاث، كي ينصرف، كلّيّةً، إلى الرسالة. ثمّ ما لبث أن انضمّ إليهم كاهنٌ آخر، يُدعى "جان دي لاسالّ" (Jean de La Salle).

ارتضى رئيس المعهد السابق مبلغ مئتي ليرة، ريعًا سنويًّا، لقاء تنازله عنه للجمعيّة، ووقّع عقدًا بهذا الشأن في الأوّل من آذار عام ١٦٢٤، واستلم الأب پـورتاي المبنى.

وحرص الروّاد الأربعة على الحجّ معًا إلى مزار "مونمارتر" (Montmartre) معبد تكريم القلب الأقدس، والرحمة الإلهيّة، والإفخارستيّا، حيث أَلِف المؤمنون إبراز نذورهم، كي يودعوا مهمّتهم بين يدي الربّ، وينذروا له الفقر. ومع أنّ الأب ڤـنسان كان هو صاحب فكرة الحجّ، وملتهب الرغبة في تنفيذها، حبسه عارضٌ صحّيٌّ عن مشاركة رفاقه الحجّ. ولكنّه، في غروب حياته، مسترجعًا ذكريات تلك الحقبة، تلا أمام رفاقه، هذا الدعاء:

« يا مخلّص العالم، يا من ألهم الجمعيّة الوليدة، عندما لم يكن قوامها سوى ثلاثة أو أربعة أعضاءٍ، الحجّ إلى مونمارتر، وكان هذا البائس الذي يتكلّم الآن، معتلاًّ، كي يوكلوا ذواتهم، بشفاعة الشهداء القدّيسين، من أجل انتهاج ممارسة الفقر، التي التزم بها، منذئذٍ، معظم أعضاء الجمعيّة، يا مخلّص نفسي، هبنا نعمة ألاّ نرغب في امتلاك أيّ شيءٍ سواك ».

في هذه الأثناء كانت السيّدة "فرنسواز مرغريت دي غوندي"، وزوجها الجنرال دائبين على إتمام تدابير إطلاق جمعيّة الرسالة إلى النور. وفي ١٦٢٥/٤/١٧، وقّعا مع الأب ڤـنسان عقد التأسيس، في منزلهما الباريسيّ، وتعهّدا تزويدها بمبلغ خمسةٍ وأربعين ألف ليرة سنويًّا، يُقتطَع بانتظامٍ من ريع ممتلكاتهما.

كان الأب ڤـنسان، حينذاك يشارف الرابعة والأربعين من سنوات عمره، وتأكيدًا لاعتزامه وقف كلّ طاقاته على الرسالة، والتطهّر بنار المحبّة والرسالة التي كانت تحرقه، والتزامًا بعقد تأسيس الرسالة الذي نصّ على واجب تخلّي المرسَلين عن كلّ منصبٍ يدرّ منافع مادّيّةً، عند انضوائهم إلى الجمعيّة، والاعتماد حصرًا، في

عيشهم، على صندوق الجمعيّة المشترك، سارع إلى التخلّي عن صفته راعيًا لرعيّتي "كليشي" و"شاتيّون"، وتنازل عن كلّ مناصبه الأُخرى، التي تؤتي دخلاً، وبعد أن كان منح ذويه مبلغ تسع مئة ليرةٍ من أجل تسديد ديونهم واستئجار مزرعةٍ لشقيقته، تنازل لإخوته وأخته وأولادهم عن كلّ ما يخصّه من إرث والديه. ونقل ملكيّة "معهد الأبناء الصالحين" التي كانت قد سُجّلت باسمه إلى الجمعيّة الوليدة.

وبعد انقضاء شهرين على توقيع عقد تأسيس الجمعيّة، ومباشرة إجراءات إعلانها رسميًّا، غشى نفس السيّدة "دي غوندي" الاطمئنان والشعور بانتهاء مهمّتها، فانتقلت إلى جوار ربّها بهدوءٍ وسلامٍ، راضيةً بتحقيق أمنيّةٍ غاليةٍ، وكأنّها لم تكن تحيا إلاّ من أجلها، متحرّرةً من وساوس التقصير في واجباتها، ومحقّقةً الرغبة التي طالما لازمتها بمواكبة الأب ڤـنسان لساعاتها الأخيرة، والتزوّد بأسرار التوبة والعزاء والرجاء، من يده. غير أنّها أوصته بألاّ يغادر أُسرتها، رحمةً بزوجها وأولادها، وضمانًا لخلاص نفوسهم. وكان جليًّا أنّ تنفيذ هذه الوصيّة يتعارض مع كون الأب رئيسًا لجمعيّةٍ ناشئةٍ، ورئيس فرع دير راهبات "الزيارة" في باريس، تنفيذًا لتكليف صديقه القدّيس فرانسوا الساليزيّ.

في هذه الأثناء كان الجنرال، بحكم وظيفته، في مدينة "تولون" (Toulon)، فسافر إليه الأب ڤـنسان وبلّغه النبأ المفجع، ملتمسًا إعفاءه من تنفيذ وصيّة الفقيدة التي طلبت منه المكوث مع زوجها وأبنائها. وتفهّم الجنرال أسبابه، وأطلق سراحه، لا سيّما أن ابنه الأكبر كان إلى جانبه يساعده ويتأهّب لوراثة منصبه، وكانت المنيّة قد اختطفت ابنه الثاني، وتولّى كاهنٌ آخر تثقيف الابن الأصغر، وفضلاً عن كلّ ذلك، كان شَغَف الرسالة قد استحوذ على كلّ جوارحه، فربأ بنفسه أن يحرم الرسالة من رائدها.

ثمّ ما لبث الجنرال أن هجر كلّ مناصبه، أسًى على فقدان شريكة حياته، ورغبةً في الاعتزال، والانكباب على خلاص نفسه وطلب من الأب ڤـنسان ضمّه إلى

جمعيّته، ولكنّ الكاهن، حرصًا على صون الجمعيّة الناشئة من الحساسيّات المحتملة، نصحه بالانضواء إلى جمعيّة "الأوراتوار"، فهي المقرّ الملائم للتأمّل، والصلاة، والعبادة. ومع أنّ الكردينال "بيرول" لم يرَ بعين الرضى استقبال ذاك الذي موّل تأسيس جمعيّة الرسالة التي كان يعدّها منافسةً لجمعيّته، لم يستطع ردّ طلب شقيق رئيس أساقفة باريس، وأحد ألمع رجال الدولة. وانضوى الجنرال "فيليب إيمّانويل دي غوندي"، عام ١٦٢٧، إلى جمعيّة "الأوراتوار"، وأنهى حياته فيها كاهنًا، وودّع الأب ڤنسان قصر الديغونديّين كي يقصر كلّ وجوده على الرسالة والمحبّة.

لقد حمل عقد تأسيس الجمعيّة دمغة الجنرال "دي غوندي" وزوجته وروحهما وورعهما، وغيرهما المسيحيّة، وسخاء نفسيهما، كما اصطبغ برقّة روحانيّة الأب ڤنسان ديپول، وسداد فكره، وبُعد نظره.

نشاط الجمعيّة الرسوليّ كان خاضعًا لموافقة الأساقفة المحلّيّين، ومحصورًا في خدمة فقراء الريف، وخدمتهم الروحيّة، تبشيرًا، وتثقيفًا، وتعليمهم مبادئ المسيحيّة، وتحريضهم على اعترافاتٍ عامّةٍ تشمل كلّ حياتهم، وتوزيع المواهب الإلهيّة التي تلقّوها مجّانًا، توزيعًا سخيًّا، وإلى جانب ذلك، تقديم الخدمات الروحيّة والإنسانيّة للمحكومين بأشغالٍ شاقّةٍ، القابعين في سجونٍ مريعةٍ، والكادحين بالتجذيف على مراكب الدولة.

وقد نصّ عقد التأسيس على أن يختار الأب ڤنسان سبعة كهنةٍ على الأقلّ يعيشون ويعملون جماعيًّا، تحت إدارته طول حياته، وأن يخلفه بعد وفاته رئيسٌ من أعضاء الجمعيّة يتبدّل كلّ ثلاث سنواتٍ.

وكان على كهنة الجمعيّة أن يقوموا، كلّ خمس سنواتٍ، بين شهر تشرين الأوّل وشهر حزيران، بسلسلة رسالاتٍ تشمل كلّ قرى آل "دي غوندي"، وينفقوا الوقت الباقي، أفضل إنفاقٍ، على غوث المحتاجين، وبصورةٍ خاصّةٍ، المحكومين بالأشغال الشاقّة.

ثمّ بعد شهر عملٍ وبحثٍ، داخل الجمعيّة، يعتكف المرسَلون في رياضةٍ روحيّةٍ، وبعدئذٍ يكبّون على إعداد خطط الرسالات القادمة. وفي المواسم، حين تزدحم مهامّ كهنة القرى كان المرسَلون يهبّون لمساعدهم.

هذا العقد أتاح للأب ڤـــنسان إنشاء جمعيّةٍ توفّرت لها عوامل الاستمرار والازدهار، وأعضاؤها ملتزمون بنظامٍ محكمٍ، وتوحّدهم الأهداف والدوافع والحياة الجماعيّة.

ولكن رافقت إبحار سفينتها غصّة غياب عن متنها تلك التي كان لها الفضل الأكبر في إطلاقها إلى الوجود، وبذلت في سبيلها، بسخاءٍ، من جهدها ومالها وصحّتها، وحياها.

وبعد انقضاء بضعة أشهرٍ على استقرار طلائع المرسَلين في بيتهم الجديد، انضمّ إليهم أربعة كهنةٍ آخرين، متبايني الطباع والمؤهّلات، ولكنّهم، جميعهم، راسخو الفضائل، ملتهبو النفوس غيرةً رسوليّةً. وقد أصبح هؤلاء الأوائل هم أساطين الجمعيّة، وأخلص معاوني الأب ڤـــنسان. ولقي اثنان منهم، لاحقًا، حتفهما من جرّاء إقدامهما على غوث قومٍ مصابين بالطاعون، والتقطوا عدواهم.

وقبل انطلاقهم إلى ساحات الرسالة، تعهّدهم الأب ڤـــنسان بالصقل، وبثّهم غيرته الرسوليّة، وأرشدهم إلى الأسلوب الأمثل، مناشدًا إيّاهم الانطلاق من قريةٍ إلى قريةٍ على طرقاتٍ يطوف بها الغبار، أُسوةً بالمخلّص، الذي لم يكن في جيبه فلسٌ، ولا له حجرٌ يريح عليه رأسه المتعب، غير هيّابٍ أن يعدّه الناس مأفونًا أو مشاغبًا، مغدقًا على الجميع حبًّا بلا حدودٍ.

لقد وُلدت الرسالة من قلب الربّ، فعلى المرسَلين التمثّل به، واقتفاء خطاه، زاهدين بالرفاه والأمجاد، ومتاع الدنيا، غير مستهدفين إلاّ مجد الله وخلاص النفوس، ملتزمين بما سمّاه الأب ڤـــنسان "الفضائل الخمس":

- بساطة عمل كلّ شيءٍ حبًّا بالله،
- التواضع،
- الرقّة والعطف، اللذين لا بدّ منهما في التعامل مع قومٍ يتّصفون، غالبًا، بالفظاظة، والجهل، وضيق الأُفق.
- التضحية، التي لا تُنقِص من قدر المرء شيئًا، ولكنّها تَهبه حرّيّة الازدهار. وقد برهن المرسَلون عن تضحياتٍ بطوليّةٍ. فعندما انتشر الطاعون في جنوى لبّى المرسَلون صرخة استغاثة الأسقف، وهبّوا ملبّين النداء، ولقي سبعةٌ منهم حتفهم. وزفّ الأب النبأ لرفاقهم حزينًا، ولكن شاكرًا. واستشهد آخرون في پولونيا، وفي إيرلندا، مضمّخين الشهادة عينها بعمادة دمٍ.
- عشق الإنجيل الذي يختزل كلّ ما سبق.

وعن الوعظ ناشدهم أن يحاكوا وعظ الرسل، الواضح، البسيط، الخالي من التصنّع. وحذّرهم من الفصاحة الرنّانة الجوفاء التي يبتغي آخرون، من خلالها، إبراز علمهم وبراعتهم الخطابيّة، واقتناص ثناء المستمعين وإعجابهم، فيكثرون من العبارات المنفوخة، والتلميحات الموحية بالذكاء وسعة الاطّلاع. وأكّد لهم أنّ هذا النمط من الوعظ لم ينفذ يومًا إلى نفسٍ فأصلحها. ومن ثمّ دعاهم إلى الاستعاضة عن الوعظ من أعلى المنابر بالحديث الودّي الأليف، بل إلى الحوار مع المستمعين، لكي يتغلغل تعليمهم إلى ذهن أجهل فلاّحٍ، وأصغر ولدٍ، وليشعر المستمعون أنّ كلامهم يتدفّق من أتّون قلبهم، وبذلك يحوّلون البغض حبًّا، واللامبالاة ورعًا واندفاعًا، ويغيّرون المجتمع. ولطالما ذكّرهم بأنّ خير وعظٍ هو السلوك الناصع، وتوأمة الأقوال والأفعال، فهذا هو الأمتن مصداقيّةً، والأقدر على الإقناع والتأثير.

وفي هذا السياق ضرب لهم مثل صديقه القدّيس فرانسوا الساليزيّ، أُسقف جنيـــف، الذي كان يُعَدّ أمير المنابر، في زمنٍ كان فنّ الخطابة يجتذب جماهير متذوّقي البلاغة. عندما دُعي إلى إلقاء محاضرةٍ بمناسبة عيد القدّيس "مارتان" في

كنيسة "الأوراتوار" في باريس، حيث ضحّى بشهرته وكبريائه وفاءً للتواضع، كما روينا سابقًا. ومثلما حرص، هو، على ممارسة الفقر، حرص على أن تظلّ جمعيّته فقيرةً ومتجرّدةً. وعندما كان عضوًا نافذًا في مجلس الضمير، طالما ردّ على سياسيّين التمسوا تدخّله لمنح منصبٍ كنسيٍّ مجزٍ لأحد أقربائهم، لقاء وعودٍ بمكافآتٍ وفيرةٍ لجمعيّة المرسَلين اللعازريّين، بقوله: "إنّي أربأ بنفسي من فعل أيّ شيءٍ مخالفٍ لمشيئة الله، وينافي مبادئ ضميري، مقابل كلّ خيرات الأرض. فأنا لا أخاف على الجمعيّة من الفقر، بل أخاف عليها من الزوال إذا تخلّت عن الفقر".

ولا ريب أنّ موقفه هذا كان يتعارض مع كلّ ما كان شائعًا في مجتمع تلك الحقبة حيث الأُمور تسير على وقع تبادل المصالح.

وكان قد أوجز نظرته إلى المرسَل بقوله: "على كلّ راغبٍ في العيش ضمن جماعةٍ أن يرتضي عيش حاجٍّ على الأرض، وأن يصبح مجنونًا من أجل يسوع، وأن يتخلّى عن عاداته، ويضحّي بكلّ أهوائه، وألاّ ينشُد إلاّ الله، وأن يخضع للجميع عادًّا ذاته أدناهم وأصغرهم، مقتنعًا بأنّ واجبه هو الخدمة، لا الحكم، والعمل الدؤوب والتعب، لا التمتّع بالفراغ والبطالة، ومدركًا أنّ عليه أن يُمتَحَن امتحان الذهب في الأتّون، وأنّه لن يقوى على المضيّ قدُمًا في هذا السبيل إن لم يتواضع من أجل الله".

وكان يرى أنّ الرئيس الأمثل هو الأشدّ حرصًا على الالتزام بالنظام، الذي لا يتهاون مع أيّة فوضى، ويحلّ الخلافات بين الأعضاء بالإصغاء المتأنّي لحجج كلّ فريقٍ، ويكون استخدامه للسلطة مقرونًا بالرقّة والمودّة، وأن يمّحي دائمًا، وراء حبّ الله.

وجريًا على أسلوب الساليزيّ الذي كانت أبرشيّته معقلاً للبروتستانتيّة الكلــفــينيّة، فنأى عن المماحكات مع "إخوته المنشقّين"، وعن السجالات المذهبيّة، وآثر اكتساب القلوب، والتسلّل إلى الأذهان بانتهاج المحبّة الإنجيليّة

الخالصة، أوعز الأب ڤـنسان إلى مرسَليه الناشطين في أبرشيّاتٍ حيث أكثريّة المسيحيّين بروتستانتيّون أن يولوا اهتمامهم لدعم إيمان الكاثوليكيّين، والنأي عن مماحكة الآخرين.

ولّما نمت جمعيّة الرسالة، واتّسعت رقعة نشاطها، تيقّظ الأب ڤـنسان لمخاطر المركزيّة المحكمة المغلقة، ولتعذّر حضوره من أجل حلّ القضايا الطارئة، حلاًّ يلائم كلّ ظرفٍ ومكانٍ، فلجأ إلى إقامة فروعٍ إقليميّةٍ تنعم باستقلالٍ واسعٍ يمكّنها من مواجهة القضايا الطارئة عن كثبٍ، مواجهةً واقعيّةً، بلا تلكّؤٍ. ولكنّه ظلّ على اتّصالٍ دائمٍ بالمرسَلين، باثًّا روحه فيهم، مشدّدًا على واجب الالتزام بنظام الجمعيّة، مراسلاً رؤساء الفروع بانتظام، متبادلاً معهم الآراء بشأن القرارات المصيريّة، ومزوّدًا إيّاهم بإرشاداته، مبقيًا جذوة الغيرة الرسوليّة متّقدةً في قلوب مرسَليه.

تنظيم الرسالات

وبما أنّ التنظيم هو من أبرز صفات عبقريّة الأب ڤـنسان وازدهار مؤسّساته، وسرّ استمرارها، كان لا بدّ من تزويد الرسالات الآخذة بالنموّ بأُطُرٍ تضمن انتظامها وتكفل دوامها. وكانت الرسالات التي قام بها الأب ڤـنسان ورفاقه، عام ١٦١٧، في بعض قرى الديغونديّين قد بلورت نظامًا مبدئيًّا لم تكفّ التجربة عن صقله وتطويره. وأهمّ بنوده:

– الحصول على موافقة أُسقف الأبرشيّة وخوري الرعيّة، وإلاّ فالامتناع، والبحث عن رعيّةٍ أُخرى.

– تبدأ الرسالة يوم أحد أو عيدٍ بعظةٍ أثناء القدّاس الصباحيّ، وبعظةٍ أُخرى مساءً بعد صلاة الغروب، يُعلن فيها بدء الرسالة، ويدعو المرسَل إلى التوبة، ويفسّر طريقة الاعتراف.

– يشترك في كلّ رسالةٍ كاهنان أو ثلاثةٌ، ويضطلعون، على التوالي، بالوعظ والتعليم المسيحيّ، وسماع الاعترافات، وعيادة المرضى، وعقد مصالحاتٍ بين متخاصمين.

– تتناسق مواعيد النشاطات الرسوليّة مع وقع الأعمال الزراعيّة، وفسحات الوقت المتاحة للفلاّحين من أجل الاستماع للوعظ والتعليم وممارسة الأسرار.

– ينتظم نشاط المرسَلين على ثلاث مراحل يوميّة: وعظٌ في الصباح الباكر قبل انطلاق الفلاّحين إلى حقولهم؛ تعليمٌ دينيٌّ موجزٌ، ظهرًا، وتعليمٌ دينيٌّ مفصَّلٌ مساءً بعد عودة المزارعين من الحقول.

– مواضيع الوعظ: الحياة الأُخرى، والدينونة؛ العقائد الإيمانيّة الكبرى، الفضائل والخطايا؛ تشديدٌ على إتقان الصلاة، وممارسة الأسرار باحترامٍ، وحضور القدّاس بورعٍ، والسعي إلى التمثّل بالمسيح، والالتزام بتعاليمه.

– تحديد أوقات الوعظ والتعليم، بما يناسب حاجات المؤمنين.

– يتلقّى الصغار تعليمًا دينيًّا، يتميّز بالحيويّة، والبساطة، والوضوح، والتشويق، وفق قدرتهم على الاستيعاب. وفي نهاية الرسالة ينتخب المرسَلون الأولاد المؤهّلين للمناولة الأولى، ويعدّونهم لها.

– تدوم الرسالة أسبوعين أو ثلاثةً حتّى تؤتي ثمارها، وتضمن دوام تأثيرها وتكرّر الرسالة، في الرعيّة عينها، كلّ خمس سنواتٍ.

– يمتنع المرسَلون عن اقتضاء أيّة كلفةٍ ماليّةٍ أو عينيّةٍ لقاء نشاطاتهم، ويتكلّفون هم أنفسهم بكلّ النفقات.

– يختار المرسَلون، أثناء الرسالة نخبةً من السيّدات المتطوّعات السخيّات المؤهّلات للخدمة المجّانيّة، ومعهنّ يتوّجون كلّ رسالةٍ، بتأسيس أخويّة محبّةٍ، تضمن استمرار روح الرسالة، والعناية الدائمة والمنتظمة بالفقراء والمرضى والمهمَلين.

ومضت الرسالات في نشاطها قُدُمًا، بوتيرةٍ مذهلةٍ. فقد أُحصيت أربعون رسالةً بين عامي ١٦٢٦ و١٦٣٢. ولكن بعد أن ترعرعت الجمعيّة وازدهرت وانتشرت، أُحصي ما ينوف على مليون رسالة بين عامي ١٦٣٥ و١٦٦٠.

ومع انصراف المرسَلين، بكلّ طاقاتهم، إلى نشاطهم المرهق، ظلّوا ملتزمين بنظام الدير اليوميّ من حيث الاستيقاظ والراحة، ومواعيد الصلوات. وحرصوا دائمًا على تحمّل كلّ نفقات الرسالات، والامتناع عن تحميل الشعب أيّة كلفةٍ من أيّ نوعٍ.

وبالإجمال كان تأسيس جمعيّة الرسالة علامةً وضّاءةً في تاريخ الكنيسة التي التفتت إلى الريف المبتلى بطائفةٍ من العِلَل والكوارث، وزوّدته بإيمانٍ، وأيقظته برسالة محبّةٍ راسخةٍ في صلب الواقع، فأنعشت بنفحة رجاءٍ متألّمين ظنّوا أنّهم منسيّون.

وكان هذا العمل على الأرض من أجل شعب الأرض هو الأخصب والأبقى، تغلغلت آثاره إلى أعماق النفوس، وترسّخت رسوخ أشجاره الدهريّة، وصمدت

صمود الجذور فيه، أكثر ممّا صمدت في المدن، في مواجهة الثورات، والاضطهادات، والتحوّلات الاجتماعيّة.

ولعب الأب "ديـپـول"، رسول الإيمان والمحبّة، على صعيد العالم دورًا حضاريًّا فذًّا لم يكن صنع مخطّطٍ نظريٍّ نُفِّذ بندًا بندًا، بل كان نبتةً صغيرةً غُرِست في التربة، ورُويت، ونمت، وأطلقت أفنانها في كلّ اتّجاهٍ، ملبّيةً النداءات الآتية من كلّ صوبٍ.

وكان الأب ڤـنسان قد أوجز نشاط جمعيّة الرسالة، من خلال رسالةٍ إلى القدّيسة "جانّ دي شانتال" (Jeanne de Chantal)، في شهر تمّوز ١٦٣٩، جاء فيها:

« جمعيّتنا الصغيرة وُجدت كي تنطلق من قريةٍ إلى قريةٍ، على نفقتها الخاصّة، للوعظ والتعليم الدينيّ، والدعوة إلى اعترافاتٍ عامّةٍ، ومن أجل حلّ الخصومات بين الناس، والسعي، بقدر استطاعتنا إلى إغاثة الفقراء المرضى جسديًّا وروحيًّا، من خلال أخويّات المحبّة التي نؤسّسها حيث نقوم برسالاتٍ، إذا رغب الأهالي.

"هذا هو هدفنا الرئيس، ومن أجل تحقيقه على خير وجهٍ، شاءت العناية الإلهيّة، إضافةً إلى ما تقدّم، أن يعتكف عندنا المُقدِمون على السيامة الكهنوتيّة مدى الأيّام العشرة التي تسبق سيامتهم. ونحن نهتمّ بإقامتهم، ونلقّنهم، في هذه الأثناء، اللاهوت العمليّ، وإجراء الطقوس الكنسيّة، وممارسة الصلاة الذهنيّة، وفق طريقة أبينا أُسقف جنيف. (فرانسوا الساليزيّ).

"نحن نخضع لأسقف الرعيّة التي نخدمها.

"معظمنا قد أقسمنا على نذور الفقر، والعفّة، والطاعة، وأضفنا إليها نذرًا رابعًا يقضي بانصرافنا، مدى حياتنا كلّها، إلى غوث الشعب الفقير.

"إنّنا نجهد، برحمة الله، في ممارسة عيشٍ رهبانيٍّ، مع أنّنا لسنا رهبانًا: فنستيقظ في الرابعة صباحًا، وننفق نصف ساعةٍ في ارتداء ملابسنا، وترتيب

أسرّتنا، ونمضي، معًا، ساعة تأمّلٍ في الكنيسة، حيث نتلو الساعات كلّها، ونقيم القداديس، كلٌّ في مكانه. بعدئذٍ نختلي في غرفنا للمطالعة. وعند الساعة العاشرة والنصف، نتأمّل في الفضيلة التي نسعى إلى اكتسابها. ثمّ نتناول الغداء في قاعة الطعام مستمعين إلى قراءةٍ روحيّةٍ، ونقوم، معًا، بعبادة القربان المقدّس، ونمضي ساعة فسحةٍ واستجمامٍ، ويعود كلٌّ منّا إلى حجرته حتّى الخامسة مساءً، وحينئذٍ نتلو معًا صلوات السحر والصباح، ثمّ ينكبّ كلٌّ منّا على فحص ضميره، ونتناول العشاء، ونمضي ساعة فسحةٍ أُخرى، ونعود إلى الكنيسة حيث نقوم بفحص ضميرٍ عامٍّ، ونتلو صلاة المساء، ونحدّد مواضيع تأمّل صباح الغد، وينكفئ كلّ مرسَلٍ إلى غرفته، ونخلد إلى النوم في الساعة التاسعة.

"بهذا البرنامج نلتزم، أيضًا، عندما نقوم برسالاتٍ في الأرياف، ولكنّنا نقيم القدّاس في السادسة، ونستمع إلى الاعترافات، ويعظ مَن أقام القدّاس، ونستمرّ في الاعترافات حتّى الساعة الحادية عشرة، ونتناول الغداء، وعند الثانية نعود إلى الكنيسة، مواصلين الاستماع إلى الاعترافات حتّى الساعة الخامسة، ويقوم أحدنا بالتعليم الدينيّ، فيما يتلو الآخرون صلوات السحر والصباح، ونتناول العشاء في السادسة...

"كلّ سنةٍ نقوم برياضاتنا الروحيّة، ونعقد مجلسًا صباح كلّ يوم جمعةٍ، فيقرّ كلٌّ منّا بأخطائه ومخالفاته للنظام، ويتلقّى كفّارة الرئيس، ويلتزم بتنفيذها. ويلتمس كاهنان وأخَوان مساعدان أن تهديهم الجمعيّة إلى مواطن تقصيرهم، ويعقبهم الآخرون كلٌّ بدوره. وفي المساء يُعقد اجتماعٌ يتناول قوانين الجمعيّة وممارسة الفضائل، ويدلي كلٌّ منّا بالخواطر التي ألهمه إيّاها الربّ، حول الموضوع الجاري بحثُه، ويتأمّل فيه.

"لا يخرج أحدٌ بلا إذنٍ، أو منفردًا، بل مصحوبًا بآخر، ولدى عودته يبيّن للرئيس ما فعله. ولا يبعث أحدٌ برسائل أو يتلقّاها إلاّ بعد اطّلاع الرئيس وموافقته عليها.

"كلٌّ ملزمٌ بقبول أن تبلّغ أخطاؤه، بمحبّةٍ، إلى رئيسه، وأن يفحص نفسه، ويتلقّى ملاحظات الآخرين، ويعطيهم ملاحظاته.

"يمضي كلّ طالبٍ سنتي ابتداءٍ، حتّى يتمّ امتحانه بدقّةٍ، برحمة الله، وفي هذه الأثناء لا يتواصل المبتدئون مع الكهنة، إلاّ بإذنٍ...

"هذه هي، أيّتها الأمّ الموقّرة، طريقة حياتنا البسيطة، ونرجو أن تتكرّمي، حبًّا بالله، بإبلاغنا رأيك فيها ».

وفي غروب حياته أوجز الأب ڤنسان أهداف الجمعيّة بقوله للمرسَلين:

« لقد جاء ربّنا مرسَلاً من الآب، لتبشير الفقراء، أجل، الفقراء. وهذا ما تسعى جمعيّتنا الصغيرة إلى فعله، بنعمة الله.

"وإنّه لامتيازٌ أن نضطلع بما لم تفعله أيّة جمعيّةٍ، أيّ أن تُحقّق ما جاء ربّنا من أجل تحقيقه في العالم، خاصًّا الفقراء المهملين ببشرى إنجيله. هذا هو هدفنا. نصيبنا، يا إخوتي، هو الفقراء، الفقراء. ويا لسعادتنا أن نضطلع بما جاء ربّنا من السماء، لأجل فعله. وها نحن ماضون من الأرض إلى السماء، مكملين عمل الله الذي نأى عن المدن، ومضى إلى القرى، بحثًا عن الفقراء! هذا ما تدعونا إليه قوانيننا: مؤازرة الفقراء، سادتنا ومعلّمينا...

"مساعدة الفقراء على معرفة الله، تبشيرهم بيسوع المسيح، وباقتراب ملكوت الله، ما أعظم هذه المهمّة! مهمةٌ ساميةٌ أن نبشّر الفقراء! إنّها بامتيازٍ مهمّة ابن الله. ونحن ننكبّ عليها بصفتنا أدواتٍ يستخدمها الله كي يتمّم، في السماء، ما بدأه على الأرض. ».

الاعتراف الرسميّ بجمعيّة الرسالة

كي تملأ الجمعيّة كلّ مجال طاقاتها في العمل الرسوليّ، وتحقيق أهدافها بعيدة الآفاق، كان لا بدّ لها من مكانةٍ معترفٍ بها في أحضان الكنيسة. وكانت السيّدة "دي غوندي"، في أيّامها الأخيرة، هي المبادرة إلى تحقيق هذا الهدف. فبعد أن زوّدتها بالبنية التحتيّة المتمثّلة في "معهد الأبناء الصالحين"، الذي غدا مقرًّا رسميًّا، استحصلت من الملك لويس الثالث عشر، في شهر أيّار ١٦٢٦، على مرسومٍ يعترف للجمعيّة بوجودٍ قانونيٍّ. ولكن كان لا بدّ من اقتران المرسوم الملكيّ بموافقة البرلمان. وقد أَلِف البرلمان، في ذلك العهد، المماطلة في التصديق على المراسيم الملكيّة، ما يضطرّ الملك، أحيانًا، إلى ملاحقة هذا التصديق، ومطالبة رئيس المجلس بالاستعجال.

ويبدو أنّ تأسيس جمعيّة الرسالة قد استفزّ معارضة جهاتٍ عديدةٍ، أدّت إلى تأخير الاعتراف بالجمعيّة، ثلاث سنواتٍ، واضطرّ الملك إلى تدخّلاتٍ متعاقبةٍ. واتّضح أنّ المقاومة الأولى صدرت عن اتّحاد كهنة رعايا باريس الذين توجّسوا خشيةً من أن تدوس الجمعيّة الجديدة على حقوقهم، وتقضم جزءًا من موارد دخلهم، فاقتضوا ضماناتٍ لكامل حقوقهم تُدرَج صراحةً في قرار التصديق. وربّما برّر خشيتهم وتوجّسهم إغفال المرسوم الملكيّ الإشارة إلى عقد تأسيس الجمعيّة الذي حظر عليها استيفاء أيّ أجرٍ أو مكافأةٍ، أو منفعةٍ لقاء خدماتها الروحيّة، وأنّ الملك، بدافع نظرته الطموح إلى مستقبل الجمعيّة، قد لحظ إمكانيّة تغطيتها كلّ بقاع المملكة بخدماتها – في حين كان نظامها يحصر نشاطها على الريف – وأتاح لها تلقّي أوقافٍ وهباتٍ.

وفي هذه الأثناء كان الملك قد بعث في ٢٤ حزيران ١٦٢٨ برسالتين إلى روما، إحداهما موجّهةٌ إلى البابا "أوربان الثامن"، ملتمسًا النظر بعطفٍ وإيجابٍ إلى طلب

تأسيس الجمعيّة، معلّلاً طلبه بالثمار الوفيرة التي جناها شعب الريف من نشاطات الرسالة، ومؤكّدًا رغبته في أن تصبح جمعيّة الرسالة مؤسّسةً قادرةً على النموّ والدوام. ولهذه الأسباب التمس من البابا أن يدعم بكلّ محبّته وسلطته هذا الهدف المقدّس، والخليق بالثناء، ووفير الجدوى، وأن يمنح صفة الجمعيّة لمجموعة كهنة الرسالة، برئاسة الأب ڤــنسان.

وكانت رسالة الملك الثانية موجّهةً إلى سفير فرنسا في الـــڤــاتيكان تطلب منه ملاحقة الموضوع حتّى تلبية الملتمس الملكيّ.

برسالتَيْه، دعم الملك رسالةً كان الأب ڤــنسان ورفاقه المرسَلون، قد بعثوا بها، عبر القاصد الرسوليّ، إلى الحبر الأعظم، طالبين مباركته لمشروع الرسالة. ثمّ ألحقها الأب ڤــنسان برسالةٍ أُخرى التمس بها منح جماعته امتيازات مؤسّسةٍ دينيّةٍ، تضع نظامًا خاضعًا لموافقة الكرسيّ الرسوليّ، والسماح لها بافتتاح فروعٍ خارج أبرشيّة باريس، بموافقة أساقفة الأبرشيّات المعنيّة، وبممارسة أسرار التعريف والغفران، على أن تكون الجمعيّة مرتبطةً مباشرةً بالكرسيّ الرسوليّ، ارتباطًا يمنحها حرّيّة الحركة.

ولكنّ هذا الطلب اصطدم برفضٍ قاطعٍ وباتٍّ من قبل مجمع نشر الإيمان، الذي كان قد تعاطف مع جماعة الرسالة، ولكنّه أحجم عن منحها صفة جمعيّةٍ. وبلّغ المجمع رفضه هذا يوم ١٦٢٨/٨/٢٢.

بيد أنّ الأب ڤــنسان كان موقنًا أنّ كلّ مؤسّساته لن يُكتب لها النجاح والازدهار والبقاء، ما لم تنعم بصفة مؤسّساتٍ كنسيّةٍ مُعترَفٍ بها. فلم يستسلم، وأصرّ على تأكيد تميُّز مؤسّساته بأسلوب عملها، وبصفة كهنته غير قانونيّين، وغير مرتبطين بأساقفة الأبرشيّات.

أحد أسباب الرفض أنّ المجمع كان حذِرًا بشأن كلّ مؤسّسةٍ كهنوتيّةٍ جديدةٍ، ولا سيّما أنّ شكوكًا كانت تحوم حول جمعيّاتٍ متراخيةٍ، ترزح تحت مآخذ جمّةٍ، ولكن اتّضح أنّ السبب الأشدّ تأثيرًا كان معارضة الكردينال "بيرول"، الذي لم

يرُق له أن يطير الأب ڤـــنسان بجناحيه الخاصّين، الذي طالما كان هو له الموجّه والداعم، فخشي أن يحلّق عاليًا ويتخطّاه، وتسلب الجمعيّة الناشئة وهج "الأوراتوار"، إذ لم يخفَ عنه اتّساع الشعبيّة التي بات الأب ڤـــنسان ينعم بها، عقب إنجازاته المذهلة في الريف، وانحياز أسرة "دي غوندي" إلى جانبه، بلا تحفّظٍ، حتّى خصّته بكلّ هباتها. وكان الكردينال قد أوعز إلى ممثّل جمعيّة "الأوراتوار" في روما أن يراقب بحذرٍ وحرصٍ أمر تأسيس جمعيّة الرسالة، وتصويرها بأنّها ثمرة مناوراتٍ عوجاء، وذات أهدافٍ مشبوهةٍ، وأنّ عملها يفتقر إلى الاعتدال والبساطة التي يجب أن تكون صفة أعمال الله. وكان الكردينال "بيرول"، حينذاك، ينعم بتأثيرٍ راجحٍ في فرنسا وفي روما على السواء.

ولا بدّ هنا من الإشارة إلى أنّ مقاومة كهنة باريس لتأسيس جمعيّة الرسالة كانت نتيجة جهلهم لنظامها الذي يحظر عليها قبول منافع مادّيّةٍ، من أيّ نوعٍ، لقاء خدماتها الروحيّة، أمّا الكردينال "بيرول" المطّلع بدقّةٍ على قوانين جمعيّة الرسالة، والذي لم يكن يداخله ريبٌ بزهد الأب ڤـــنسان، وبالتزامه السلوك الإنجيليّ، فلا شيء يبرّر موقفه العدائيّ من عملٍ يستهدف مجد الله. ولكن يبدو أنّ حتّى الأبرار لا ينجون دائمًا من رواسب ميولٍ بشريّةٍ إلى الحسد والأنانيّة.

غير أنّ الأب ڤـــنسان، رغم كلّ هذه المناورات، ورغم العقبات الكأداء التي كان فرع "الأوراتوار" في روما ينصبها في وجه تأسيس جمعيّة الرسالة، كتب إلى ممثّله في روما: "مع ذلك أرجوك أن تتعامل مع أولئك الذين يضايقوننا بأكثر ما يمكن من الروح المسيحيّ. فأنا، هنا، ما زلت ألتقي بهم بتواترٍ وبكلّ مودّةٍ، بفضل الله، مثلما تعاملت معهم في السابق. وبنعمة الله لا يساورني أيّ شعور كرهٍ لهم، بل إنّي أزداد لهم تكريمًا ومودّةً. وأُسِرّ لك أنّني لم أَفُه بكلمةٍ واحدةٍ للأب "دي غوندي" (الجنرال الذي كان قد انضوى إلى جمعيّة الكردينال بيرول) عمّا يجري بيننا وبينهم، خشية أن أزعزع دعوته الكهنوتيّة في "الأوراتوار".

بدا، إذن، أنّ قضيّة الاعتراف الكنسيّ قد اصطدمت بحائطٍ مسدود المنافذ، أخرجها منه لاهوتيٌّ أستاذٌ في السوربون، وعاملٌ نشيطٌ ومؤثّرٌ في الإصلاح الكنسيّ، كان الأب ڤـــنسان قد اتّخذ منه مرشدًا روحيًّا، وصديقًا وكان يدعوه الدكتور الطيّب "دوڤـــال" (Duval). وقد نصح هذا اللاهوتيّ الصديق الأب ڤـــنسان أن يظلّ مقيمًا بإصرارٍ على كلّ مطالبه، مؤكّدًا للمسؤولين الكنسيّين أنّها قد أُشبِعت بحثًا حتّى نضجت، وأنّ حذف أو تعديل أيّ بندٍ فيها قد يفضي إلى اهتزاز المشروع بأكمله، واختلاله. وبالتالي نصحه بالصبر، والتوقّف عن محاولات الالتماس إلى أن تتراخى قبضة الكردينال "بيرول"، ويقتنع الحبر الأعظم أو خلفه.

وفي هذا السياق أعدّ الأب ڤـــنسان مذكّرةً طلب من ممثّله في روما تقديمها للحبر الأعظم أكّد فيها أنّ شعب الأرياف الفقير يتعرّض للهلاك الروحيّ، من جرّاء جهله لمبادئ الإيمان، وسبُل الخلاص، وافتقاره إلى من يعلّمه ويزوّده بالأسرار. ولو علم الحبر الأعظم بهذه الأخطار لما عهد للراحة طعمًا قبل أن يوجد لهذا الوبال المقلق علاجًا ناجعًا.

وأخيرًا أثمرت نصيحة الدكتور "دوڤـــال"، ووقّع البابا "أوربان الثامن"، يوم ١٦٣٣/١/١٢، براءة تأسيس جمعيّة الرسالة، والموافقة على جميع بنود ملتمس الأب ڤـــنسان الذي تقدّم به عام ١٦٢٨، وفوّضت البراءة رئيس أساقفة باريس الموافقة على الأنظمة الخاصّة بالجمعيّة، باسم الكرسيّ الرسوليّ.

ولكن فيما كانت المفاوضات جاريةً في باريس وروما، ومساعي الاعتراف الكنسيّ متواصلةً، كانت أعمال الرسالة ماضيةً قدُمًا، بلا تراخٍ ولا هوادةٍ، وكان المرسَلون يستجيبون باندفاع إلى مناشدة أبيهم ڤـــنسان: "فلنهبْ الله كلّ ذواتنا، ولنعملْ، ونعملْ، ونعملْ، ولنمضِ إلى فقراء الريف الذين ينتظرون قدومنا إليهم... أذكر أنّني، قديمًا، عندما كنت أعود من باريس، عقب رسالاتٍ، كان ينتابني شعورٌ

بأنّ أبواب المدينة ستهوي وتسحقني... وكنت أحدّث نفسي: "أتأتي إلى باريس في حين أنّ قرًى أُخرى عديدةً تنتظر أن تفعل فيها ما فعلت في هذه وتلك من القرى؟ إنّها تنتظر عملاً رسوليًّا، وأنت تغادرها وتمضي!".

في الواقع، لم يكن ما يدعو أبواب باريس أن تهوي وتسحق، فمقرّ الأبناء الصالحين كان يضجّ فرحًا واندفاعًا لأنّ ساكنيه كانوا دائمًا مكبّين على الإعداد لرسالاتٍ قادمةٍ. غير أنّ الأراضي العطشى كانت لا محدودةً، وتستدعي كتائب من الزارعين والحصّادين، وهي لا تفتقر إلى العديد من الكهنة، فعديدهم كان فائضًا، ولكنّها كانت تفتقر إلى كهنةٍ مؤهّلين لا إلى مرتزقةٍ، وكانت كثرتهم النافلة هي الكارثة. وكان على الإصلاح أن يبدأ من الأساس، وله انبرى الأب ديبول.

إصلاح الإكليرُس

كلّ مؤسّسةٍ يُنشئها الأب ڤـنسان كانت تولّد أُخرى تكمّلها. فالرسالات أنتجت أخويّات المحبّة، واستدعت جمعيّةُ سيّدات المحبّة جمعيّةَ بنات المحبّة.

والرسالات فضحت مأساة الإكليرُس وعقمه، وإضراره بالدين، ومهّدت للإصلاح الذي تحوّل بناءً جديدًا على أُسسٍ سليمةٍ، ولم يسبق للأب أن فكّر فيه، بيد أنّ العناية الإلهيّة فكّرت فيه، وأعدّت له العدّة، ودعا إليه المجمع التريدنتينيّ بلهفةٍ وإلحاحٍ، وتلكّأت كنيسة فرنسا في الاستجابة له، حتّى انبرت لتحقيقه مجموعةٌ لامعةٌ من الكهنة الغيورين، سبق لنا ذكرهم، وإليهم انضمّ الأب ڤـنسان، ولكن بأسلوبه الخاصّ، وبنهجه المتميّز. فقد كان معظم الآخرين يسعون إلى إخراج إكليرُسٍ مفعمٍ بالروحانيّة ودائبٍ على التأمّل والثقافة، في حين كان الأب ڤـنسان الذي يولي العمل الواقعيّ على الأرض مثلما يولي اهتمامًا بالصلاة والتأمّل، وكان أكثر ميلاً إلى إنشاء إكليرسٍ ورعٍ، ناصع السلوك، راسخ الفضائل، ولكن منخرطٍ بكلّيّته في العمل على الأرض، تعليمًا، وتثقيفًا، وتوزيعًا للأسرار الخلاصيّة، وانحناءً على بؤر الفقر الروحيّ والجسديّ والمادّيّ. وهو مع إكباره للتثقيف الروحيّ، كان بعيدًا عن التنظير، وعن وضع مخطّطاتٍ لمشاريع كبرى، مُحكَمةٍ في أدقّ تفاصيلها، من وراء مكاتب، بل كان يؤثر بداياتٍ متواضعةً، تُختبَر على أرض الواقع، يومًا فيومًا، مؤمنًا أنّ نتائج الاختبار هي التي ستحدّد النظام وتصقله.

وكان الأب ڤـنسان، أثناء رسالاته في قرى آل "دي غوندي"، قد لمس بأسًى وحزنٍ هاصرٍ، هشاشة كهنة الريف، ومدى جهلهم، وافتقارهم إلى الروح الإنجيليّ، وتقصيرهم في واجباتهم. وقد راعه عدد الكهنة الفاسقين السكارى، المرابين، المشاغبين، والمدانين. كان كاهنٌ قد وصف له الوضع المريع بقوله: "في

هذه الأبرشيّة، الإكليرُس فلتان، والشعب لا يخاف الله، والكهنة بلا رحمةٍ ولا محبّةٍ، والمنابر بلا واعظين، والعلم مزدرى، والرذيلة بلا عقابٍ". بيد أنّ ما شاهده بعينه، وما لمسه بيديه فاق، بشاعةً، كلّ ما قيل له، فلم يعد بحاجةٍ إلى سماع المزيد.

وتميّز الأب ڤـنسان بإحجامه عن التفرّد بالعمل، فكان يدعو آخرين لمعاضدته، مستنبتًا عمّالاً في حقل الربّ، بانيًا كنيسةً فاعلةً، إنجيليّةً، نشيطةً، يحدوه اليقين بأنّ مصير الكنيسة يعتمد على قداسة كهنتها، وأنّ إنقاذ الإيمان وإنماءه يعتمدان على غيرة خدّام الرعايا ونصاعة سلوكهم.

وكان الجرح الذي حفره في قلبه الواقع المأساوي قد قيّحه، وزاده إيجاعًا ما سمعه من شخصٍ بروتستانتيٍّ، كان يحاوره. فقد كانت السيّدة "دي غوندي"، التمست منه، يومًا، محاورة ثلاثة بروتستانتيّين أبدوا رغبةً في معرفة العقيدة الكاثوليكيّة عن كثبٍ، فدعتهم إلى بيتها، وأفسحت لهم ساعتَي حوارٍ، كلّ يومٍ، مع الأب ڤـنسان الذي استطاع إقناع اثنين منهم بيُسرٍ، فيما ظلّ الثالث متصلّبًا، معبّرًا عن تصلّبه بشيءٍ من القِحة. وكانت إحدى حججه تعذّر قبوله مبدأ أن تكون سلطة البابا ملهمةً من الروح القدس، في حين هو يترك كاثوليكيّي الريف بين أيدي كهنةٍ غارقين في الجهل والمخازي، فيما تغصّ المدن بكهنةٍ كسالى لا يفعلون شيئًا، سوى إنفاق منافعهم المادّيّة على الترف والملذّات. ولكنّ الأب ڤـنسان أكّد له أنّ السعي جارٍ، بإيعازٍ من الحبر الأعظم، لإصلاح هذا الخلل. واتّفق، بعدئذٍ، أن راقب ذلك البروتستانتيّ المشكّك كيف اندرجت رسالةٌ في إحدى القرى، ودهش للعطف الذي كان مرسَلون زاهدون يحيطون به الفقراء، وأكبرَ الخدمات الروحيّة والمادّيّة التي كانوا يغدقونها عليهم، فتأثّر حتّى أعماقه بهذه المبادرات الرقيقة، وطلب اعتناق الكاثوليكيّة معلنًا: "الآن أرى أنّ الروح القدس هو الذي يقود الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة".

هذا الحادث ضاعف إصرار الأب ڤـنسان على غرس هدف إنقاذ كهنة الريف

من عللهم الذهنيّة والروحيّة والسلوكيّة، وإصلاح الإكليرُس عامّةً، والتوسّع في نشاط الرسالات، في صلب أهداف جمعيّته.

ولا ريب أنّه كان لتأثير فرانسوا الساليزيّ دورٌ راجحٌ في انتهاج الأب ڤـنسان أسلوب الرقّة والمحبّة، والتيقُّن بأنّ القسوة والتشدّد ليسا هما أسلوب الإقناع.

وفي هذه الأثناء كانت محاولات إصلاح الإكليرُس قد تعدّدت وتباينت أساليبها. وارتأى مسؤولون كنسيّون إعادة تأهيل كهنةٍ قدامى، ولكنّ هذا المسعى بدا للأب ڤـنسان عقيمًا، فالكهنة الذين شاخوا على سلوكٍ مارسوه مدى سنواتٍ طويلةٍ، لن يكون من اليسير عليهم التحوّل الجذريّ إلى سلوكٍ مختلفٍ، فلا بدّ من بدء الإصلاح من الأساس، وبثّ المدعوّين إلى الكهنوت "الروح الكهنوتيّ" السامي والصافي، ولا بدّ من استبعاد من تحوم شكوكٌ حول دوافعهم ونواياهم، وسلوكهم.

وتعدّدت الاقتراحات، بيد أنّ معظمها لم تجد طريقها إلى التنفيذ. وفي هذه الأثناء كان الأب ڤـنسان قد التقى أحد أنشط الساعين إلى إصلاح الإكليرس، هو أُسقف أبرشيّة "بوڤـيه" (Beauvais)، "أوغستان پـوتييه" (Mgr. Augustin Potier)، الذي كان يحدوه ورعٌ سامٍ وغيرةٌ متّقدةٌ، وفضلاً عن ذلك كان قد أصبح مرشد الوصيّة على العرش، "آنّ النمساويّة"، وقد عُيِّن، لاحقًا، مع الأب ڤـنسان في مجلس الضمير.

ويُشهَد لهذا الأُسقف تجديده الجذريّ للروح المسيحيّ في أبرشيّته، واستقدامه إليها راهباتٍ، وإقامة سلسلة أخويّات محبّةٍ.

واتّفق، يومًا من أيّام تمّوز ١٦٢٨، أن امتطى هذا الأُسقف والأب ڤـنسان، معًا، عربةً، وكان القيظ شديدًا، والغبار يتطاير بكثافةٍ تحت عجلات العربة، فأغمض الأسقف عينيه وصمت، وبدا غافيًا. ولكنّه بغتةً تكلّم معلنًا اكتشافه وسيلةً ناجعةً لإعداد إكليريكيّين للكهنوت، واستعداده للترحيب في أبرشيّته بمرشّحين للكهنوت، يمضون فيها بضعة أيّامٍ متأمّلين، ويتلقّون إرشاداتٍ تتعلّق

بواجبات ممارسة مهامّهم الخلاصيّة المقدّسة. ورأى الأب ڤـنسان في هذا الاقتراح إشارةً من السماء أفعمت قلبه ارتياحًا. وسارع الأُسقف إلى استثمار هذا الاندفاع، فطلب منه وضع برنامج يتضمّن قائمةً بالمواضيع التي يحسن طرحها، بالتسلسل، وطلب منه أن يعود إلى أبرشيّة "بوڤـيه"، عشرين يومًا قبل السيامات الكهنوتيّة التي ستجري في شهر أيلول، من أجل تنظيم الرياضة الروحيّة.

وحطّ المرشّحون للكهنوت في "بوڤـيه"، يوم ١٢ أيلول، وأقاموا، أوّلاً، في معهد المدينة الذي كان خاليًا في تلك الفترة من السنة، وواكبهم الأب ڤـنسان وأربعة كهنةٍ آخرين، بينهم أساتذةٌ في اللاهوت، وأعدّوهم للرياضة، قبل أن يستقبلهم الأُسقف في مقرّه الأُسقفيّ. وقبل افتتاح الرياضة يوم الأحد في ١٧ أيلول، تقاسم الكهنة مواضيع الرياضة، فاختصّ كلٌّ منهم بموضوعٍ، وتناول الأب ڤـنسان تفسير الوصايا العشر، وكان تفسيره من شدّة الأَسْر بحيث طلب جميع المرشّحين للرسامة الكهنوتيّة أن يعترفوا بين يديه اعترافًا عامًّا، وحذا حذوهم المحاضرون الآخرون.

وآتت تلك الرياضة ثمارًا رائعةً أثلجت قلب الأُسقف، فأطلع عليها رئيس أساقفة باريس الذي تلقّف المبادرة باهتمامٍ بالغٍ، فأوجب على كلّ متقدّمٍ إلى سيامةٍ كهنوتيّةٍ، اعتبارًا من مطلع عام ١٦٣١، أن يمضي لدى كهنة جمعيّة الرسالة عشرة أيّامٍ في رياضةٍ روحيّةٍ، تأهّبًا للسيامة. وأُقيمت الرياضة الأولى من هذا النوع في مقرّ الجمعيّة، أثناء الصوم الكبير لعام ١٦٣١.

ومنذئذٍ، ضُمَّت الدورة الموجزة المكثّفة للتأهيل الكهنوتيّ إلى مجموعة إنجازات الأب ڤـنسان، واحتلّت مكانها في صلب مهامّ جمعيّة الرسالة، وآتت على كرّ السنين من النتائج الباهرة ما جعل الملك لويس الثالث عشر، وهو يحتضر، يبوح للأب ڤـنسان أنّه إن أعاد له الله الصحّة، لأحجمَ عن تعيين أيّ أُسقفٍ إلاّ بعد قضائه لا أقلّ من ثلاث سنواتِ تأهيلٍ في جمعيّة الرسالة.

هذه المبادرة كانت خطوةً صغيرةً على درب الإصلاح الإكليريكيّ، ولكنّها

كانت منطلقًا أساسيًا ما انفكّ ينمو ويتطوّر مع تطوّر مصير الجمعيّة وازدهارها المذهل. فبعد أن تبنّاها رئيس أساقفة باريس، دعمتها السيّدات النبيلات ماديًّا، وقدّرتها الملكة الأمّ "آنّ النمساويّة" أرفع تقديرٍ، بل إنّها حضرت بعضًا من جلسات الرياضات.

ولم تخفَ على الأب ڤـنسان خطورة شأن هذه المبادرة فأولاها اهتمامًا خاصًّا، وغدا يُعدّ لها بنفسه، بمؤازرة نخبةٍ من الكهنة الذين كانوا يشاطرونه غيرته الرسوليّة، ومعًا كانوا يسهرون على أدقّ التفاصيل، فيختارون الواعظين، ويحدّدون المواضيع، ولا يتركون للصدفة أيّ تفصيلٍ.

وتبنّت هذه المبادرة معظم أبرشيّات فرنسا، وانتقلت عدواها الخيّرة إلى روما، حيث تبنّاها البابا ألكسندر السابع.

وبيّن الواقع أنّ معظم الكهنة الجدُد الذين تأهّبوا، لدى جمعيّة الرسالة، للسيامة الكهنوتيّة جهدوا في التمثّل بمرسلي الجمعيّة في سلوكهم، وفي ممارسة الصلاة الذهنيّة والاحتفال اللائق بالذبيحة الإلهيّة، وفحص الضمير اليوميّ، وزيارة المستشفيات، والتعليم الدينيّ، والوعظ، وسماع الاعترافات، ومنح الأسرار.

وقد أظهر هذا التدبير ضرورة إنشاء إكليريكيّاتٍ توفّر إعدادًا طويلاً، متقنًا، كاملاً للكهنوت. فكان المرسَلون حيثما يقيمون رسالةً، ويلمسون لدى الأُسقف رغبةً في إقامة إكليريكيّةٍ، يسارعون إلى إنشائها. ولكنّها لم تكن مدارس علومٍ لاهوتيّةٍ عليا، فهذه كانت تتولاّها الجامعات، بل كانت تقتصر على إعدادٍ عمليٍّ تتراوح مدّته بين ستّة أشهرٍ وسنتين، وتقدّم تثقيفًا روحيًّا لائقًا، وتُعنى بتكريس الفضيلة أكثر من ترسيخ العلم. وكان الأب ڤـنسان يردّد باستمرارٍ قول: "من كان لديهم علمٌ فليخشوا ويحذروا الانتفاخ والزهو، ومن ليس لديهم علمٌ فحالهم أسوأ، إن لم يتّصفوا بالتواضع". وكان يحذّر من التعليم المرتجل، ويفضّل تفسير كتبٍ معتمدةٍ، "فعلامَ يُعلّم تعليمًا سيّئًا ما يعلّمه الكتاب تعليمًا سليمًا؟"

وهو لم يستهدف تثقيف كهنةٍ علماء، فهذه مهمّة الجامعات، بل ابتغى تثقيف خدّام رعايا صالحين، ورعين، غيورين، مفعمين بالإنجيل، ويحسنون ممارسة الرعاية.

أمّا الإكليرُس المثقّف الجامعيّ، المتطلّع إلى أكثر من ذلك، فأوجد له "لقاء الثلاثاء".

وكان الأب ڤنسان قد شرع يُعِدّ نموذجًا أمثل للإكليريكيّات التي كان يتطلّع إليها. فعندما شرع بتأسيس جمعيّة الرسالة، كان يرحّب بكلّ من يتوسّم فيه دعوةً، ويخضعه لرياضةٍ روحيّةٍ وجيزةٍ، تمكّنه من استنزال النعم الإلهيّة، وأنوار الروح القدس.

بيد أنّه، من خلال اختباراته، ارتأى ضرورة العودة إلى تقاليد الآباء والنسّاك الأوّلين الذين كانوا يُخضِعون كلّ متقدّمٍ إلى سرّ الكهنوت، لامتحاناتٍ طويلةٍ وشاقّةٍ تؤكّد صدق دعوته ومتانتها، وقدرته على سَوْق حياة الخدمة واحتمال تضحياتها، وقسوتها. وقرّر ألاّ يضمّ إلى جمعيّة مرسَليه إلاّ الذين برهنوا على أهليّتهم للرسالة، وارتضائهم مشاقّها، والتزامهم بمقتضياتها بلا تقاعسٍ، عقب خضوعهم لاختباراتٍ جادّةٍ، بإشراف مرشدٍ يقظٍ، وممارستهم الفضائل التي تستلزمها الرسالة، وترقّيهم إلى مستوًى رفيعٍ في الحياة الروحيّة.

وكان قد اختار أحد رفاقه الثلاثة الأوائل، لإدارة هذا المختبر الروحيّ، ووضع له برنامجًا مفصّلاً بدقّةٍ وعنايةٍ. وافتتح هذه الإكليريكيّة في شهر حزيران من عام ١٦٣٧، في مقرّ القدّيس لعازر، حيث استمرّت سنواتٍ طويلةً، وضمّت بانتظامٍ نحو أربعين إكليريكيًّا. وكانت هذه الإكليريكيّة مشتلاً للمرسَلين، وزوّدت الجمعيّة بعناصر مؤهّلةٍ رائعةٍ.

ومنذ اللحظة الأولى تجنّب الأب ڤنسان ومعاونوه الدعوة إلى الانضمام إلى تلك الجمعيّة، والتحريض على الانتساب للإكليريكيّة، والترغيب فيه. فقد كانوا مؤمنين بأنّ الله هو الذي يدعو مَن يشاء، مثلما دعا يسوع تلاميذه ورسُلَه. وكان قد أوعز إطلاع كلّ طالب انضمامٍ إلى الإكليريكيّة والجمعيّة، تلقائيًّا بدافعٍ ذاتيٍّ،

وبوعيّ تامٍّ، على كل المشقّات التي عليه مواجهتها، والتضحيات الموجعة التي عليه احتمالها، والواجبات القاسية التي عليه الخضوع لها. ومن يَثبُت، مع ذلك، على تصميمه، فليقابل رئيس الجمعيّة، الذي يحاوره، ويستوضح دوافعه واستعداداته لمواجهة أدهى المخاطر، وأشقّ المصاعب، وصنوف الحرمان والمقاومة، وبعدئذٍ يقرّر قبوله أو ردّ طلبه. وغالبًا ما يؤثر الرئيس التريّث في اتّخاذ القرار، تأكّدًا من رسوخ المرشّح في ممارسة التواضع والتضحية، والتقوى، والتأمّل، والانضباط، وسائر الاستعدادات الكفيلة بتكوين رأسمال فضائل تؤهّل للرسالة وللتمثّل بالربّ.

وكان الأب ڤــنسان، بمناسبة تعرّض أحد مرسَليه لإهاناتٍ مضنيةٍ في بلادٍ غريبةٍ، قد خاطب مرسَليه قائلاً: "أسأل الله أن يحدو جميع الراغبين في الانضمام إلى جمعيّتنا استعدادٌ للاستشهاد، ورغبةٌ في التألّم والموت، وتكريس ذواتهم كلّيّةً، حيثما يُدعَون للعمل... وإذا كان ربّنا قد أحبّنا حتّى الموت من أجلنا، فلمَ لا نقابله بالمثل، عندما تدعونا الظروف؟... إنّ تجّارًا يخوضون غمار البحار، ويتعرّضون لجمٍّ من المخاطر... في سبيل الحصول على حجرٍ ذي قيمةٍ ماليّةٍ، أو لاغتنام مكسبٍ ضئيلٍ، فكم أحرى بنا أن نركب المخاطر كي نحمل إلى كلّ مكانٍ جوهرة الإنجيل الثمينة، وكي نكسب ليسوع نفوسًا كريمةً!؟".

وكانت الجمعيّة تنمو باطّرادٍ. ففي عام ١٦٤٧، كان لها نحو عشرين فرعًا، وإكليريكيّاتها لا تني تنمو. وكانت الإكليريكيّة الكبرى تضمّ نحو ستّين إكليريكيًّا، والعديد من الإكليريكيّات الصغرى المنتشرة في الرعايا تضمّ عشرات الطلاّب. وكانت المعضلة الكبرى تكمن في إيجاد رؤساء يجمعون إلى كفاءة الإدارة الروحيّة، قدرةً على الإدارة الخارجيّة، وكاريسما تؤثّر على النفوس، وخبرةً في الإدارة الماليّة اليقظة.

لقـــاء الثـــلاثاء

أحد الكهنة الذين هيّأوا للسيامة الكهنوتيّة في جمعيّة الرسالة، ونَعِم بفوائدها ارتأى أن يؤلّف الكهنة الجدُد رابطةً تساعد على إبقاء جذوة الغيرة متّقدةً في قلوبهم، لكيلا تُداس بالأرجل، على دروب العالم، الجواهرُ النفيسة التي اكتسبوها أثناء استعدادهم للسيامة الكهنوتيّة، ولكي يصونوا الفضائل والممارسات التقويّة التي تزوّدوا بها، ويلتزموا بنظام حياةٍ يقيهم من فساد العالم، ويمكّنهم من الوفاء لواجبات دعوتهم.

واستشفّ الأب ڤـــنسان، في هذا الاقتراح، وسيلةً كفيلةً بدعم مساعي إصلاح الإكليرُس، وتمكين الكهنة المثقّفين، على نحوٍ خاصٍّ، من مواصلة البحث عن الوسائل المثلى لإنشاء إكليرُسٍ على مستوى المهامّ الموكلة إليه. وقرّر استقبال نخبةٍ من الكهنة الأوفياء لدعوتهم، عصر كلّ يوم ثلاثاء، في مقرّ جمعيّة الرسالة، حيث يتحادثون ويتحاورون حول اكتساب الفضائل التي تؤهّلهم لممارسة مهامّهم أقدس ممارسةٍ، ويحرّض بعضهم بعضًا على التقوى، بمنأًى عن السعي إلى استجلاب الإعجاب والثناء، بأساليب الفصاحة، والبلاغة.

ولهذه الغاية أسّسوا جماعات عملٍ، كانت تحدّد، كلّ أُسبوعٍ المواضيع التي تهمّ حياة الكنيسة، وسُموَّها، ونقاءها، فيُعدّ كلٌّ منهم مطالعةً في هذا السياق، ويقدمّها ببساطةٍ، على أن يلتزم رئيس اللقاء الامّحاء، إلاّ إذا اضطرّ إلى تذكير أحد الجهابذة المسرف في رفع مستوى الخطاب، بالعودة إلى البساطة. وعند انتهاء الجلسة كان الرئيس يوجز، بلباقةٍ، زبدة ما تداوله المجتمعون وناقشوه.

في البدء كان اللقاء اجتماع صداقةٍ غير خاضعٍ لنظامٍ، ولكن لمّا اتّضحت خطورته وضرورة استمراره، زوّده الأب ڤـــنسان بنظامٍ، وجعل منه كيانًا منظّمًا

لا جمعيّةً، بل شركةً يشعر أعضاؤها أنّ ما يجمعهم هو هدفٌ سامٍ أقوى من مجرّد عادةٍ. وقد تدافع معظم كهنة باريس البارزين على الانضمام إلى هذا الملتقى، فجمعت قائمتهم أساتذةً في السربون، مثل الدكتور "أندريه دوڤـــال" (André Duval)، ومؤسّسي جمعيّاتٍ، مثل "جان جاك أُولييه" (Jean Jacques Olier)، مؤسّس جمعيّة وإكليريكيّة "سان سولـــپـــيس" (Saint Sulpice)، وخطباء طائري الصيت، كان أبرزهم الأُسقف "بوسّويه" (Bossuet).

تناول اللقاء الأوّل موضوع "الروح الكهنوتيّ"، وتحدّث الأب ڤـــنسان، في اللقاء الثاني، بلهجةٍ ناريّةٍ عن النِعَم التي يوليها الكهنوت، وعلى ضرورة الثبات في النهج الذي التزم به الكهنة الجدد، يوم سيامتهم، وواجب سعيهم الدائم إلى إكمال البناء الذي وضعوا أُسُسَه في ذلك اليوم. ودعا المجتمعين إلى سحب روح لقاء الثلاثاء على كلّ أيّام الأُسبوع، وإلى اشتراكهم في نظام حياةٍ واحدٍ، حيث كلٌّ منهم يؤدّي رسالةً، محافظين على نهجٍ مشتركٍ في ما يتعلّق بالتأمّل، وسماع الاعترافات، والمطالعات الروحيّة، والاحتفال اليوميّ بالذبيحة الإلهيّة، والدأب على أعمال المحبّة.

وفي نهاية كلّ لقاءٍ، كان يُطرح موضوع اللقاء التالي، فيُشبِعه كلٌّ من أعضاء اللقاء، طوال الأسبوع، تأمّلاً، وبحثًا، ويدلي بما خطر له بشأنه، على ألاّ تُحصَر المواضيع باللاهوت، بل تتناول المسلك الأخلاقيّ، والفضائل التي تفضي إلى الاقتداء بالمسيح.

وكانت اللقاءات تندرج تحت إشراف مديرٍ، يتمثّل عادةً بشخص الأب ڤـــنسان ومساعدَيْن يسهران على سلامة سير اللقاء. ولا جرَمَ أنّ هذه اللقاءات التي كان يلهمها، ويلهب نارها الأب ڤـــنسان قد أسهمت في جعل القرن السابع عشر، في فرنسا، فضلاً عن كونه عصر الفنّ والشعر والعبقريّات الأدبيّة، عصر القدّيسين.

امتدّت لقاءات الثلاثاء نحو ثلاثين سنةً، وحين توفّي الأب ڤـــنسان، عام

١٦٦٠، كان عدد الذين شاركوا فيها قد بلغ زهاء مئتين وخمسين كاهنًا وعشرين أُسقفًا. فقد كان الكردينال الوزير ريشليو، قد أحاط علمًا بما يؤتيه اللقاء من خيرٍ للكنيسة، فاستدعى الأب ڤـنسان، واستوضحه عن غايات اللقاء وثماره، وطلب منه تزويده بأسماءٍ كفيلةٍ بإصلاح الكنيسة، كي يعيّن منها أساقفةً. ولبّى الأب طلبه، بسرّيّةٍ مطلقةٍ، تفاديًا لإثارة الحساسيّات والمؤامرات، ثمّ ارتأى الكردينال ضمّ الأب ڤـنسان إلى مجلس الضمير، وتبنّت الملكة "آنّ النمساوية" هذا الضمّ، حرصًا على ألاّ يتولّى المناصب الكنسيّة الكبرى إلاّ المؤهّلون لها.

ولم ينسَ الأساقفة الذين تابعوا رياضاتٍ روحيّةً في جمعيّة الرسالة، ثمّ صقلوا المواهب التي تلقّوها، من خلال لقاءات الثلاثاء، فضلَ تلك المحطّات على مسيرهم الكهنوتيّة، وحرصوا على تزويد كهنتهم بهذه المكتسبات الروحيّة.

وكان من أبرز المشاركين في لقاء الثلاثاء، فضلاً عن "جان جاك أولييه" الذي سبق ذكره، الأُسقف "أنطوان غودو" (Antoine Godeau)، الذي سبق له أن كان شاعرًا غزليًّا، وكاتبًا فكاهيًّا، وأحد أوائل أعضاء الأكاديميّة الفرنسيّة، ثمّ انضمّ إلى لقاء الثلاثاء، وأمسى من أساطينه، وتحوّل تحوّلاً جوهريًّا، وعُيِّن أُسقفًا، وترجم رسائل القدّيس بولس، وعلّق عليها تعليقًا رائعًا. وكان قد ساق، في قلب باريس، ثلاث سنواتٍ نسكيّةٍ تليق بأعظم النسّاك، وكان له تأثيرٌ واسعٌ، وأسّس جمعيّاتٍ خيريّةً، واقتضى من كهنة أبرشيّته أرقى سلوكٍ كهنوتيٍّ، وأسماه قداسةً.

والاسم الآخر الذي لا بدّ من التوقّف عنده، هو أكثر أساقفة فرنسا بلاغةً: "جاك بينيني بوسّويه" (Jacques Bénigne Boseuet)، الذي استوحى من روح جمعيّة الرسالة عظته الشهيرة "سموّ كرامة الفقراء في الكنيسة"، والذي لم يخشَ مخاطبة الملك من أعلى منبر الكنيسة، مذكّرًا إيّاه بأنّه لم يُنَصَّب ملكًا، لكي يحكم، ويجني الضرائب، فحسب، بل لكي يُقيمَ العدلَ في الرعيّة، ولا يبقي فيها فقيرًا، جائعًا أو مظلومًا.

ولم تغرب، قطّ، عن ذهن "بوسّويه" أفضال الأب ڤـــنسان، وشهد فيه:

« لمّا رُقِّينا إلى رتبة الكهنوت، وانضممنا إلى جماعة كهنةٍ ورعين كانوا يلتقون، كلّ أسبوعٍ من أجل التباحث في أمور الله، بإشراف الأب ڤنسان، الذي كان مؤسّس تلك اللقاءات وقلبها، كنّا نصغي إليه بنهمٍ لا يرتوي، نشعر بتجسّد قول الرسول بولس فيه: "إذا تكلّم أحدكم، فلتكن أقواله كأنّها أقوال الله" ».

بيد أنّ الأب ڤـــنسان، مع كلّ حبّه لبوسّويه، وتقديره لبلاغته الفذّة، دعا مرسَليه إلى استبدال البلاغة "بالطريقة الصغرى"، واستبدال ألق الفصاحة بنبل الموقف، وبمظهرٍ ينبئ عن الداخل بصدق، مشدّدًا على وجوب توافق القول والعمل، وبحضورٍ متواضعٍ بسيطٍ، والتخلّي عن الحكمة البشريّة من أجل الاستغراق في الفقر الجوهريّ، والتمثّل بتخلّي المصلوب. فقد كان موقنًا أنّ الفصاحة قد تبهر الذهن، ولكنّها لا تتسلّل إلى القلب، وأنّ تسريب حبّ المصلوب إلى النفوس يحتاج إلى فيضٍ من الخشوع والبساطة.

وكان قد تعلّم من صديقه القدّيس فرانسوا الساليزيّ أنّ بلاغة الخطاب تكمن في خلوّه من أساليب البلاغة، ومن الزخرفة الكلاميّة. ولذلك كان يحذّر مرسَليه من النبرة العالية، ومن الرغبة في إظهار العلم، والسعي إلى ثناء المستمعين، مؤثرًا أسلوب يسوع وتلاميذه الممعن في البساطة، مردّدًا بلا هوادةٍ: "لا أحد يصدّق إنسانًا بسبب غزارة علمه، بل يصدّقه بقدر ما يسكنه من عطفٍ، وبقدر ما هو يستحقّ المحبّة... بهذا فقط نبرهن عن حبّنا لمن نريد أن يصدّقونا، وعن عطفنا عليهم. فإذا سلكنا على هذا النهج، بارك الله عملنا، وإلاّ فلن يكون وعظنا سوى رنين صنوجٍ، لا يؤتي ثمارًا".

وكان الأب لا يني يذكّر المرسَلين بأنّهم سيفشلون في إقناع الناس بممارسة فضيلةٍ، ما لم يكونوا يمارسونها واقعيًّا بصدق، وما لم تكن مضطرمةً في نفوسهم. وكان يناشدهم باللجوء، دائمًا، إلى الله، قائلاً: "الله هو نبع حكمةٍ ونورٍ وحبٍّ لا

ينضب. ومنه يجب أن نستمدّ ما نقوله للآخرين. ينبغي أن نلاشي فكرنا الخاصّ، وعواطفنا الذاتيّة، كي نفسح مجالاً لعمل النعمة، فهي، وحدها، قادرةٌ على إنارة القلوب وإضرامها. يجب أن نخرج من ذواتنا كي نلج في الله".

وكان الملك لويس الثالث عشر خير مؤازرٍ للأب ڤـــنسان، في هذا المضمار. فإثر انتقاداتٍ جارحةٍ وجّهتها نساءٌ نبيلاتٌ إلى مرسَلٍ كان قد هاجم بحدّةٍ ظهورهنَّ بصدورٍ نصف عاريةٍ، حرص الملك على حضور مواعظ المرسَل، ما هزّ نبيلاتٍ عديداتٍ، وحتّى سيّدات البلاط، فتخلّينَ عن غرورهنَّ وترّهاتهنَّ وزهوهنَّ بذواتهنَّ، وأسّسنَ أخويّة محبّةٍ، وكرّسنَ ذواتهنَّ للخدمة. وكان الملك قد ضرب مثالاً رائعًا آخر، عندما قرّر أثناء رياضةٍ روحيّةٍ كان يجريها مرسَلو الجمعيّة، أن يكرّس مملكته، رسميًّا، للسيّدة العذراء، معلنًا إجراء تطوافٍ علنيٍّ، تكريمًا للسيّدة العذراء، يوم ١٥ آب من كلّ سنةٍ.

وذات يومٍ، التمست "دوقة إيغيّون" (La Duchesse d'Aiguillon)، التي كانت من أكثر مساعدات الأب ڤـــنسان سخاءً، ودعمًا لمشاريعه، إقامة رسالةٍ في حيّ "سان جرمان" الباريسيّ، الذي كان بؤرة موبقات المدينة، ومرتع أقذر الرذائل. وبما أنّ نظام جمعيّة المرسَلين كان يحظر عليهم أيّ نشاطٍ داخل باريس، طلب الأب ڤـــنسان من المشاركين في لقاء الثلاثاء تولّي تلك المهمّة، ولكنّ جميعهم توجّسوا خشيةً من الإقدام عليها، إلى أن انبرى الواعظ الشهير "فرنسوا پـــيروشيل" (F. Perrochel)، للاضطلاع بالرسالة، وانضمّت إليه ثلّةٌ من أعضاء لقاء الثلاثاء. ولكنّهم كانوا حائرين حول اللهجة التي يحسن استخدامها مع حضورٍ من نوعٍ فريدٍ، غير مألوفٍ. وحسم الأب ڤـــنسان الأمر، بإصراره على الأُسلوب البسيط، قائلاً: "لا يمكن محاربة روح العالم السائد في هذا الحيّ وهزمه إلا بروح يسوع المسيح... فعلى غرار يسوع استهدِفوا مجدَ الله لا مجدكم. وليكنْ فيكم استعدادٌ لتحمّل كلّ نذالةٍ واحتقارٍ، وحتّى المقاومة والاضطهاد، اللذَيْن قد يسمح بهما الله. وعظوا نظيره، ببساطةٍ، وألفةٍ،

وتواضعٍ ومحبّةٍ. وهكذا لن تكونوا أنتم المتكلّمين، بل سيتكلّم يسوع المسيح من خلالكم، بصفتكم أدوات رحمته ونعمته، من أجل مسّ أشدّ القلوب تحجّرًا، وردّ أعتى العصاة إلى سواء السبيل...". وكانت لعظات الأب "پـيروشيل" أصداءٌ مدوّيةٌ، وتخطّى الإقبال على الاستماع إليها، وعلى الاعترافات، كلّ التوقّعات، حتّى ضاقت كنيسة "سان سولـــپـــيس" بالمتدافعين إليها.

وكان الأب "جان جاكّ أولييه"، عندما تولّى خدمة رعيّة "سان سولـــپـــيس"، قد شرع بتنظيف ذلك الحيّ، سيّئ السمعة، فطرد منه، بحزمٍ، جماعات المهرّجين، والدجّالين، وبعض الممثّلين، وقيل إنّ الشاعر "موليير" (Molière) نفسه لم ينجُ من ضربات عصيٍّ. وفي أماكن أُخرى برهن الأب "أولييه" عن غيرته المتّقدة، وكان لتأثير رفاقه الواعظين أعمق الأصداء.

وفي رعيّة "ميتز" (Metz)، تميّز الوعّاظ بتأثيرٍ منقطع النظير، وكان أبرزهم "بوسّويه"، الذي غدا أُسقفًا على تلك الأبرشيّة.

وسرعان ما نُظِّمت في معظم مدن فرنسا الكبرى لقاءاتٌ مستلهَمةٌ من لقاء الثلاثاء الباريسيّ، وبإرشاد الأب ڤـــنسان الذي أضحى زعيم نخبة الإكليرُس الفرنسيّ، ومن خلال مؤسّساته المتنوّعة، الرسوليّة والخيريّة والتعليميّة والاجتماعيّة، أمسى من أبرز محرّكات التجدّد الروحيّ، ومثالاً يُحتذى في سائر البلدان.

وهكذا تواءم وعظ الرسالات مع تثقيف الإكليرُس، وتنميته الروحيّة، وتعانقت، جميعًا، داخل جمعيّة الرسالة، وآتت أينع الثمار. فتوالت على الأب ڤـــنسان طلباتٌ من أساقفةٍ راغبين في تأسيس إكليريكيّاتٍ في أبرشيّاتهم. وكان، هو، يؤثر الإكليريكيّات التي تولي تنشئة النفوس على الفضائل، وترسيخ الممارسات التقويّة، والتأمّل، والمطالعات الروحيّة، والحياة المشتركة، اهتمامًا أكبر من اهتمامها بإعطاء دروسٍ في النظريّات اللاهوتيّة السامية.

وتوّج الأب ڤـنسان كلّ ذلك برياضاتٍ سنويّةٍ للكهنة، سرعان ما لحقت بها رياضاتٌ للعلمانيّين عهدت إقبالاً كثيفًا بحيث استقبل مركز القدّيس لعازر، في غضون أشهرٍ معدوداتٍ، أكثر ممّا استقبل على مدى قرنٍ كاملٍ. فكان يوافي زهاء ثماني مئة شخصٍ كلّ سنةٍ، كي يستفيدوا من هذه الرياضات، وقُدِّر عددهم، بين عامَي ١٦٣٥ و١٦٦٠ بنحو عشرين ألفًا. وكانت قاعة الطعام تضمّ، كلّ يومٍ، جنبًا إلى جنبٍ، كهنةً، وعلمانيّين، شبّانًا وشيوخًا، فلاّحين وقضاةً، ومهنيّين وأساتذة جامعاتٍ، ونبلاء، وجنودًا وخدَمًا.

وكلّ قادمٍ من أجل رياضةٍ روحيّةٍ كان يوكَل إلى مرشدٍ يهديه إلى المطالعات البنّاءة، ويُغدق عليه الإرشاد. وكان الجميع يشاركون في الصلاة طوعًا.

ومن المحقّق أنّ تلك الرياضات كانت تثقل كاهن الجمعيّة بنفقاتٍ إضافيّةٍ باهظةٍ، ترهق ميزانيّة الجمعيّة، رغم الإعانات السخيّة التي يجود بها محسنون ومسؤولون. فمع أنّ المرسَلين قد أَلِفوا حياةً مغرقةً في التقشّف، إلاّ أنّهم حرصوا على جعل رياضات الكهنة والعلمانيّين شيّقةً ومريحةً. وفيما كان عبء النفقات يقلق المحاسبين، كان الأب ڤـنسان، دائمًا، مطمئنًّا، متّكلاً على كنوز العناية الإلهيّة، مبقيًا غرف الجمعيّة وموائدها مفتوحةً لكلّ طارقٍ. غير أنّه كان يحذّر من استقبال كهنةٍ تحوم حول سلامة سلوكهم وعقيدتهم شكوكٌ، أو تشوبها مآخذ كثيرةٌ. وغالبًا ما تذمّر إخوةٌ مساعدون من تلك النفقات، فكان الأب يردّ عليهم بقوله: "لا يسعنا الوقوف في وجه خلاصهم"، وإذا احتجّ أحدٌ منهم أنّ بعض القادمين لا دافع لهم سوى الاستفادة من الإقامة والطعام المجّانيّين، فكان يجيب: "إذن هذا إحسانٌ يستطيبه الله. أمّا إذا وضعنا عقباتٍ في وجه مجيئهم، فقد نحول دون إرادة الربّ تحويل نفوسهم من خلال الرياضة، وقد يفضي إمعاننا في تمحيص نوايا القادمين إلى إقصاء بعضهم عن الرغبة في وهب ذواتهم لله".

وقد شجّعه نجاح لقاء الثلاثاء ذاك، إلى تنظيم لقاءاتٍ مماثلةٍ في دير راهبات

الزيارة، حيث كان له مداخلاتٌ في المناسبات، واستمع إلى راهباتٍ، وتبادل الرؤى مع "جانّ دي شانتال" القدّيسة. وقد بلورت هذه اللقاءات مفاهيم عمله بصفته رئيس جمعيّة الرسالة، ومدير فرع راهبات الزيارة في باريس، ومرشدًا ملكيًّا للمحكومين بأشغالٍ شاقّةٍ، وتربطه علاقاتٌ بمعظم نبلاء المملكة، وكبار الموظّفين. ومن ثمّ نسج علاقاتٍ بكرادلةٍ، وأساقفةٍ، ونافذين وكهنةٍ مرموقين، وجنّد، من كلّ بيئةٍ، مساعدين ومساعداتٍ.

وبفضل الأب ڤــنسان نهضت جمعيّاتٌ عريقةٌ منهارةٌ، وتأسّست جمعيّاتٌ جديدةٌ شابّة الروح، وسرت رعشة ربيعٍ روحيٍّ، متفجّرٍ.

وفيما كان الكردينال الوزير "ريشليو" يستخدم سلطته من أجل مقاومة المدّ البروتستانتيّ في الداخل، والمتسلّل من وراء الحدود، وكان الكردينال "مازاران" غارقًا في المؤامرات والحروب، كان الأب ڤــنسان يعمل بصمتٍ ونجاعةٍ، وكان اسمه، من حيث لم يقصد، يشقّ طريقه إلى جميع المسامع، وكانت منجزاته، في شتّى الميادين تشيد به عاليًا.

الأب ڤنسان في مجلس الضمير

الأب ديپول في مجلس الضمير (le Conseil de Conscience)

عام ١٦٢٤، كانت الملكة "آنّ النمساويّة"، رغبةً منها في تنزيه مساعي الإصلاح الكاثوليكيّ، أو الإصلاح المضادّ (Contre Réforme)، من عوراته الموروثة، ومن رواسب الممارسات المخزية المتعلّقة بتعيين الأساقفة، ورؤساء الأديرة، والمستفيدين من الأوقاف الكنسيّة، قد أسّست "جمعيّة الشؤون الكنسيّة"، التي تحوّل اسمها إلى "مجلس الضمير"، وقد حضر فيه، إلى جانبها، الكردينال "ريشليو"، و"أمير كوندي" (le Prince de Condé)، والأب ڤنسان. وكانوا، جميعهم، يعترفون للأب بالنزاهة، والتجرّد، وسداد الحكم، والحرص على استقامة شؤون الكنيسة. وكان يُدعى إلى حضور جلساته أساقفةٌ وقضاةٌ وفق القضايا المطروحة.

وكان الأب ڤنسان، أيضًا، أحد مرشدي الملكة الروحيّين، ولمّا دنت ساعة رحيل زوجها الملك لويس الثالث عشر عن هذه الدنيا، استدعته مع أساقفةٍ وكهنةٍ آخرين من أجل مواكبته في ساعاته الأخيرة. وسأل الملك المحتضر عن طريقة الموت المثلى، فأجابه الأب "ديپول" أنّها طريقة يسوع الذي أودع نفسه بين يدي أبيه. فتبنّى الملك هذا القول. وكان منه، في ما بعد، أن أعربَ عن أمنيَّته بألاّ يُعيَّن على كرسيّ الأُسقُفيّة، إلاّ الكاهن الذي يكون قد أمضى لا أقلّ من ثلاث سنواتٍ تحت رعاية الأب ڤنسان.

هذا القول دعم تصميم الملكة على الاحتفاظ بالأب "ديپول"، وتعيينه مقرِّرًا لمجلس الضمير، عقب وفاة الكردينال "ريشليو"، وحلول الكردينال "مازاران" خلفًا له. بيد أنّ هذا الوضع المستجدّ لم يكن ليريح لا الأب "ديپول"، ولا الكردينال "مازاران". فريشليو كان متسلّطًا، وحريصًا على

القدّيس ڤنسان يواكب احتضار الملك لويس الثالث عشر

عظمة وطنه، ورجل دولةٍ فذًّا، وكان، في الآن عينه، رجل كنيسةٍ غيورًا على رفعتها وألقها. وكان قد كتب للملك: "واجبي أن أُوضح لجلالتكم ضرورة عدم التهاون في تقييم مؤهّلات الأساقفة. فقد يزعم كاهنٌ أصاب من العلم قسطًا أنّه جديرٌ بالأُسقفيّة، ولكن سرعان ما يتبيّن هزال أهليّته لهذا المنصب الذي يستلزم، إلى جانب العلم الراسخ، الغيرة الرسوليّة، والجرأة، واليقظة، والورع، والمحبّة، والنشاط. ولا يكفي أن يكون الأُسقف، شخصيًّا، صالحًا ومستقيمًا، كي يكون أُسقفًا جيّدًا، بل لا بدّ له من أن يكون، أيضًا، صالحًا للآخرين...".

كان ريشليو، إذن، في نظر الأب "ديــپــول" أحد أمراء الكنيسة، ووزيرًا للملك، فكان يحترمه احترامًا منــزّهًا من كلّ مطمعٍ، أو نيّةٍ مبيَّتةٍ. وكان الأب، في نظر ريشليو، كاهنًا تسكنه المحبّة، متجرّدًا، لا يطمح بأيّ منصبٍ رفيعٍ، ويمكن الاستفادة منه، بلا مقابلٍ.

أمّا "مازاران"، فعلى نقيض ريشليو، ورغم لقب الكردينال، لم يكن يحمل أيّة رتبةٍ كهنوتيّةٍ، ولم يكن يشغل باله سوى تدعيم مركزه، ولو على حساب الكنيسة. ولم يكن يتورّع عن شراء ذممٍ وتحالفاتٍ لقاء منح رتبٍ أُسقفيّةٍ حتّى لِمَن لا يستحقّونها، والكفيلين بتلطيخها بالفضائح، ومنح منافع من الأوقاف الكنسيّة لمرتزقةٍ وفاسدين. فكان من المرتقب أن تنشب خلافاتٌ وصداماتٌ مطّردةٌ بين الرجليْن. وكانت الملكة، التي أطلقت يد "مازاران"، في الشؤون السياسيّة، تناصر الأب "ديــپــول" في القرارات الكنسيّة، وتدعم موقفه ضدّ الكردينال، ممّا ضاعف غيظ "مازاران" على الكاهن النــزيه، ولا سيّما بعد أن باءت بالفشل وسائله المعهودة من مداهنةٍ، وإغراءاتٍ، وتهديدٍ في استمالة الأب إلى التواطؤ معه. فقد تحطّمت كلّ هذه الأساليب على صخرة استقامةٍ متجرّدةٍ من كلّ غايةٍ شخصيّةٍ. فشرع "مازاران" يترصّد الفرص للتخلّص من طيف الأب "ديــپــول" الذي كان يحاصره، ويقضّ مضجعه.

منذ البدء، لم يرَ الأب ديـــپـــول، في تكليفه بهذا المنصب، لا مكافأةً، ولا ترقيةً، بل عبئًا باهظًا، وبذل كلّ ما استطاع إليه سبيلاً من أعذارٍ وتوسّلاتٍ للتملّص منه، مذكّرًا بتعدّد انشغالاته، ونفوره من جوّ البلاط. ولكنّه حيال إصرار الملكة لم يستطع سوى الاستجابة لرغبتها، تحدوه نيّةٌ كمينةٌ باستخدام ذلك المنصب من أجل منع تجاوزاتٍ خطيرةٍ، وتعييناتٍ عشوائيّةٍ، خاضعةٍ، في معظم الأحيان، للمساومات، وتبادل المنافع الشخصيّة، ومحاباة الأقرباء. وبذلك كان يسعى إلى درء المخاطر المحيقة بالكنيسة، مسهمًا في إنقاذها، وإصلاحها. وكان قد دوّن يوم تعيينه في ذلك المنصب: "لم أكن، يومًا، أكثر جدارةً بالرثاء والشفقة، ممّا أنا اليوم. ولم أحتَجْ، قطّ، إلى الصلاة، بقدر ما أحتاج إليها الآن، في المهمّة التي انتُدِبتُ لها، والتي أرجو ألاّ تطول...".

وكان الأب قد حصل على إعفاء الملكة له من الإقامة في البلاط، والاكتفاء بالحضور للمشاركة في الجلسات كلّما دُعي إليها. وظلّ متواضعًا في مظهره، حريصًا على كرامته، صلبًا في مبادئه، مدعومًا بعلمه اللاهوتيّ الوطيد، وبسداد رأيه، واهتماماته الروحيّة. ولم يكن يتحرّج من المثول بثيابه البالية الرثّة، وبأحذيته القرويّة الغليظة، التي غدت موضع سخريّة الكردينال "مازاران" الذي أمسكه يومًا، بزنّاره المهترئ، ودعا الحاضرين إلى التفرّج على زيّه الزريّ. غير أنّ "أمير كوندي" كان، في هذا السياق، أوفر تهذيبًا، وأرهف سلوكًا من الكردينال المتعجرف. وقد دعا، مرّةً، الأب ديـــپـــول إلى الجلوس بجانبه، فاعتذر بتواضعٍ: "يوليني سموّكم شرفًا عظيمًا بتحمّل وجودي معكم، مع أنّي ابن مربّي خنازيرَ فقيرٍ". فردّ الأمير بما أملاه نبله الأصيل: "إنّ ما يشرّف المرء خصاله وسلوكه... ونحن نعترف برفيع قدرك منذ زمانٍ!". وفي تلك الجلسة عينها طرح الأمير على الأب "ديـــپـــول" قضايا خلافيّة تتعلّق بالقانون الكنسيّ، تباينت حولها الأحكام وتصادمت، فأوجد لها الأب الحلّ السليم المقنع والمذهل "بكلمتين". ذاك كان سرّ افتتان العظماء بالأب "ديـــپـــول".

ويجدر بالتنويه أنّ الأب ڤـــنسان، رغم الامتيازات الجسيمة التي كان ذلك المنصب يتيحها له، لم يحِدْ، يومًا، قيد شعرةٍ، عن نهج النـــزاهة والفقر، في ما يتعلّق بشخصه وبجمعيّته.

فذات يومٍ، بلّغه الكردينال "مازاران"، برسالةٍ، تعينَ ابن رئيس البرلمان أُسقفًا على أبرشيّةٍ شاغرةٍ، معلّلاً هذا التعيين برغبة الملكة في مكافأة الوالد. وكان الأب ڤـــنسان موقنًا أنّ المعيّن غير جديرٍ بالمنصب، ومع أنّ علاقة صداقةٍ كانت تربطه بوالده، لم يقوَ على الصمت، وشقّ عليه ابتلاع تلك المخالفة، فقابل رئيس البرلمان المذكور، واستنهض ضميره، مصرّحًا، بلا مواربةٍ، أنّ هذا التعيين لا يرضي الله. واستحوذ الاضطراب والحيرة على وجدان العجوز الجليل، ولكنّه استمهل، بحثًا عن مخرجٍ، فهو كان قد طعن في السنّ، وما زال له أبناءٌ كثرٌ يتوجّب عليه توفير وسائل عيشٍ لهم. ولّما عاد إليه الأب ڤـــنسان في الغد، قال له: "لقد جعلتني أُمضي ليلة قلقٍ طاحنٍ". بيد أنّه، في محاولةٍ يائسةٍ لتبرير قرار تعيين ابنه، وعد بإحاطته بفريقٍ يتمتّع بالكفاءة، يعينه على أداء واجبه أداءً حسنًا. وفي الواقع كانت أُسقفيّة ابنه كارثيّةً ومخزيةً، ولكنّها لم تطُلْ، إذ وضع موتٌ مبكّرٌ نهايةً لها.

وظلّت مبادئ العدل والاستقامة ديدن الأب ونبراسه. فقد التمس منه رئيس أحد فروع جمعيّته مساعدته في دعوى مدنيّةٍ مقامةٍ من كاثوليكيٍّ على بروتستانتيٍّ، فأجابه أنّ كون المرء كاثوليكيًّا لا يعني، بالضرورة، أنّه على حقٍّ، وأنّ البروتستانتيّ هو على خطأٍ، وأنّ العدل هو إنصاف المظلوم، وأنّه، هو شخصيًّا، حتّى في مجلس الضمير، لا يهتمّ إلاّ بشؤون الكنيسة، ولا يتدخّل بشؤون الأرض.

وهكذا، ملتزمًا بمبادئه الصارمة، ومسلّحًا بثقة الملكة، أمضى الأب عشر سنواتٍ في مجلس الضمير، ساهرًا على تنظيم إدارة الكنيسة، وعلى التعيينات الأُسقفيّة، ورئاسات الأديرة التابعة للمملكة، محدّدًا لها شروطًا ومعايير وقوانين، بعد أن كانت فوضويّةً، خاضعةً لنـــزوات النافذين ولمقتضيات مصالحهم، ولمحاباة

أقربائهم، وللمساومات على تبادل المنافع. وقد نجح، إلى حدٍّ بعيدٍ، في إقصاء غير المستحقّين، والمرتزقة عن تلك المناصب، وحرص، بقدر استطاعته، على ألاّ يتولاّها سوى كهنةٍ تيقّنَ من نزاهتهم، وورعهم واستقامتهم، وكفاءتهم، وكان يؤثر انتقاءهم ممّن عرفهم عن كثبٍ في لقاءات الثلاثاء، فلا عجب أن فاق عدد الأساقفة الذين رشّحهم وعُيِّنوا اثنين وعشرين أُسقفًا، أثبتوا جدارتهم وتفوّقهم.

ولا بدّ من الاعتراف بأنّ اضطلاع الأب "ديـــپـــول" بمهامّه في مجلس الضمير قد كلّفه جهودًا مضنيةً، واضطرّه إلى الاستعانة بأصدقاء يقومون عنه بإجراءاتٍ إداريّةٍ وكتابيّةٍ، وإلى الاستعانة بآخرين، ولا سيّما من داخل جمعيّة القربان المقدّس، من أجل انتقاء أصحاب كفاءاتٍ للتعيينات، وقد كلّفه هذا المنصب، خاصّةً، عداوةً شرسةً من قبل النافذين الذين قاوم تعيين أقارب لهم غير مستحقّين. وتجاوزت العداوة، أحيانًا، حدود الشتيمة، وبلغت حدّ الضرب كما حدث مع سيّدةٍ كانت قد تمكّنت من انتزاع وعدٍ من الملكة بتعيين ابنها أُسقفًا. وكان ابنها ملحدًا، فاعترض الأب "ديـــپـــول" على هذا التعيين، وبيّن للملكة خطأه ومخاطره، فحارت الملكة، وأُسقط بيدها، بما أنّها كانت قد قطعت وعدًا، وشقّ عليها التراجع عنه. واقترحت أن يتولّى الأب "ديـــپـــول" بنفسه إقناع والدة المرشّح للأُسقفيّة بمضارّ هذا التعيين. فاستصحب الأب أخًا من جمعيّته، ومضى إلى تلك الوالدة، ولكن ما كاد يفاتحها بالأمر حتّى تناولت كرسيًّا وألقته على رأس الأب الذي اكتفي بالقول لمرافقه: "أترى إلى أين يمكن أن يؤدّي إفراط حبّ أمٍّ لابنها؟". وقد أثبت الواقع صواب نظرة الأب "ديـــپـــول"، فقد تردّى ذلك الأُسقف إلى أدنى دركات الإسفاف والفضيحة، ولم يتورّع عن القول في كهنةٍ كان قد منحهم سرّ الكهنوت، إنّ سيامتهم كانت زائفةً وإنّه لم يقصد سيامتهم سيامةً حقيقيّةً.

ومع ذلك لم يتمكّن من إفشال جميع مساومات الكردينال "مازاران" التي كانت وسائل إحكام قبضته على مقاليد الحكم، ومصدر قوّته، فضلاً عن كون الكردينال

متسلّطًا لا يطيق أن يعلو صوتٌ على صوته، ولا أن يقاوم رأيٌ رأيَه. وكان يتوجّس مكيدةً في كلّ مبادرةٍ ليست من بنات فكره. وقد زاده ارتيابًا بالأب ڤــنسان ما كان قد أثار ريبة الكردينال "ريشليو" فيه من قبلُ، أي قربه من آل "دي غوندي" ووفاؤه لهم، وصداقته لأسرة "ماريّاك"، فهو كان يرى في تينك الأُسرتين أعداءً له. ومن ثمّ غالبًا ما توتّرت العلاقة بين الرجلَيْن. غير أنّ حذر الكردينال وحيطته، ويقينه من مساندة الملكة للأب ڤــنسان، وعجزه عن التشكيك بسداد أحكامه ونجاعة مساعيه، ونجاح مشاريعه المتألّق، كانت كلّها مجتمعةً توجب عليه مهادنة الأب ومصانعته، مع أنّ الأب لم يكن يقوى على السكوت عن تجاوزات الكردينال الصارخة. فكان "مازاران" يستعين على كظم غيظه، بالإمعان في الاستهزاء بمظهر الأب الرثّ، مترصّدًا سانحةً تمكّنه من الانتقام الشافي. وقد توفّرت هذه السانحة من خلال اتّهام الأب بالتواطؤ مع "الجنسينيّة" (le jansénisme).

وقد أدّى تراكم هذه التناقضات والصدامات إلى جعل حضور الأب "ديــپــول" في مجلس الضمير، غير مريحٍ لكلٍّ من الأب "ديــپــول" و"لمازاران"، الذي أمر بإبعاده عنه، عام ١٦٥٢، بعد محاولاتٍ يائسةٍ لإضعاف موقفه فيه، وللتقليل من شأن مجلس الضمير بجملته. وغادر الأب المجلسَ مرتاح الضمير، راضيًا بتتميم واجباته، وبما قدّمه من خدماتٍ جلّى للكنيسة، وبما وقاها من ويلاتٍ، حافظًا جميع العاملين معه خاضعين للكنيسة، ملتزمين صمت التواضع والورع، وبمنأًى عن ضجيج الصراعات والأنانيّات.

كان فرح الأب ڤــنسان بالبعاد عن البلاط، أكثر من فرح "مازاران" بإبعاده عنه.

وبهذه المناسبة كتب أُسقف "كاهور" (Cahors)، للأب "ديــپــول": "أعتقد أنّك، في سريرة نفسك، لم تخسر شيئًا بتحرّرك من المضايقات التي لاحقتك، ولكنّ الكنيسة خسرت الكثير بنأيك عن مجلس الضمير... ولكم تمنّيت بقاءك في منصبك!".

الأب ديپول و"الجنسينيّة" (le jansénisme)

"الجنسينيّة" بدعةٌ متشدّدةٌ في العقيدة والسلوك، شاعت في القرن السابع عشر، ورأى فيها البعض ردّ فعلٍ ثوريًّا على الفساد المستشري في الإكليرُس والمجتمع، في أعقاب نهضةٍ ألّهت العقل، والطبيعة البشريّة، التي عدّتها قادرةً، بذاتها، على ابتداع المعجزات، وأنكرت تأثير الخطيئة الأصليّة عليها.

ولكن، وراء هذه النظرة كانت تختبئ رؤيةٌ لاهوتيّةٌ متشائمةٌ، ادّعت الاتّكاء على تعليم القدّيس أوغسطينُس، وروّج لها كتابان وضعهما لاهوتيّان مرموقان، لَقِيا دعمًا حماسيًّا من مثقّفين بارزين. وكانت تلك النظرة تؤكّد تفوّق اختيار الله المسبَّق على حرّيّة الإنسان. وحصرت الخلاص بفئةٍ مختارةٍ منذ الأزل، منكرةً جدوى جهد الإنسان في سبيل خلاصه...

وربّما كان من شأن حوارٍ عقلانيٍّ هادئ، أن يؤدّي إلى صيغةٍ معتدلةٍ سليمةٍ. ولكن حدث نقيض ذلك. فقد ولّدت هذه النظرة عداواتٍ شرسةً، وأنهضت لاهوتيّين على لاهوتيّين، وأشاعت الخصام والشقاق، وألحقت بالكنيسة شروخًا مؤلمةً.

وبُحِثت هذه القضيّة في مجلس الضمير، عندما كان الأب "ديـپـول" عضوًا فيه، فاستنكر الأب البدعة، عقائديًّا، ولكنّه، تفاديًا لتفاقم الشقاق، رغب في أن يحسم الحبر الأعظم الخلاف، بقرارٍ منه. وبادر هو إلى استقصاء آراء الأساقفة الفرنسيّين بهذا الشأن، فتبيّن له أنّ أكثر من نصفهم كانوا يعارضون الجنسينيّة، وأنّ عددًا وفيرًا منهم، لم يكن لهم فيها رأيٌ، وأنّ المؤيّدين للجنسينيّة هم الأقلّيّة، وبذلك تأكّد له بطلان ادّعاء أنّ معظم أساقفة فرنسا مؤيّدون للجنسينيّة. وأعدّ كتابًا موجّهًا للحبر الأعظم، طالبًا تدخّله لحسم الخلاف، ورأب الشقاق، وسارع إلى توقيعه أكثر

من أربعين أسقفًا، وظلّ الأب يتّصل بسائر الأساقفة حتّى جمع خمسةً وثمانين توقيعًا. وأوفد كلّ فريقٍ لاهوتيًّا أو جماعةً من اللاهوتيّين، من أجل مناقشةٍ جماعيّةٍ مفتوحةٍ. وأفضى النقاش إلى إدانة الجنسينيّة. وحينئذٍ بادر الأب إلى زيارة ممثّلي الفريقين محذّرًا "المنتصرين" من مظاهر التباهي، وداعيًا إيّاهم إلى التزام التواضع، وداعيًا الجنسينيّين إلى قبول القرار الحبريّ بتواضعٍ، حرصًا على وحدة أبناء الكنيسة الواحدة. وأولى اهتمامًا خاصًّا بإبقاء مرسَليه بمنأًى عن هذه المبارزات العقليّة العقيمة التي تسمّم النفوس وتولّد الشقاق، وتصرف المرسَلين عن مقتضيات الرسالة.

ويُرجَّح أنّه، في إطار هذا المسعى، زار "پــور رويال" (Port Royal)، معقل الجنسينيّة، ولكن من غير المعلوم هل هو قابل فيه أبرز الناطقين باسم الجنسينيّة، العالم الشهير "بليز پــسكال". ولا ريب أنّهما لو تقابلا لكانا تحابّا، مع تباين آرائهما ونزعاتهما. فكلاهما مصنوعان من معدنٍ نادرٍ. ولكنّ "پــسكال" كان يحبّ الفقر أكثر من حبّه للفقراء، بدافع نزعته الصوفيّة، والأب ڤــنسان كان يحبّ الفقراء أكثر من حبّه للفقر، بدافع إنسانيّته. وهو من جرّاء توغّله في الإنجيل كان كَلِفًا بالتحديق إلى الوجه البشريّ المتألّم الذي يرى فيه وجه الربّ، ويهبّ إلى تخفيف بؤسه، وضمد جراحه، ويتذوّق، بذلك، فرحًا لم يعهد "پــسكال" مثله، قطّ.

كان عنف قلب "پــسكال"، وشدّة اقتضاء ذهنه يدفعانه إلى أحضان الجنسينيّة، ورقّة قلب "ڤــنسان " ورهافة حسّه كانا يُقصيانه عنها.

ومن المحقّق أنّ حبّ الأب ڤــنسان للكنيسة، وشغفه بالسلام والوئام قد وقيا المسيحيّين من كارثةٍ. غير أنّه، إثر إقصائه عن مجلس الضمير، نأى بنفسه عن كلّ نقاشٍ في هذا الأمر، واقتصر على حماية مرسَليه وراهباته من شظايا الجنسينيّة التي كانت قد أصابته، شخصيًّا.

فقد كان اتُّهم، باطلاً، بموالاة الجنسينيّين، وأفضى هذا الاتّهام إلى إفساد علاقته بالكردينال ريشليو، وإلى نقمة "مازاران"، وإقصائه عن مجلس الضمير.

والواقع هو أنّ أحد أبرز رافعي لواء الجنسينيّة، المدعو "جان دي هورانّ" (Jean Deunergies de Hauranne)، قد شارك الأب ڤـنسان دراسة اللاهوت، وكان الأب "بيرول" هو صلة تعارفهما، عام ١٦٢٠، فنشأت بينهما صداقةٌ حميمةٌ، إذ كانا ما زالا فقيريْن، متجرّدَيْن، يتقاسمان نفقات العيش معًا. ولكن فيما كان الأب ڤـنسان يتطلّع إلى تبشير الشعب القرويّ الفقير، كان زميله يحلم في إصلاح اللاهوت، وأخذت علاقة صداقتهما تفتر منذ عام ١٦٢٣، وتباينت بينهما السبُل، واستحوذت مشاريع المحبّة وإصلاح الكهنوت على كلّ وقت الأب ڤـنسان وجهده، فيما استغرق زميله في أبحاثه اللاهوتيّة، وعُيِّن أُسقفًا، ورئيس دير "سان سيران". ومنذئذٍ أمسى يُعرَف باسم "سان سيران". وكانت ميوله الجنسينيّة تترسّخ، يومًا فيومًا، ويغور، يومًا فيومًا، في لجّة الكآبة، لأنّ طبعه الحادّ، وطموحه اللامحدود، لم يتزاوجا مع أفكاره الجبّارة، فراح يعلن تنديده بعمل جمعيّة الرسالة، ويأخذ على الأب ڤـنسان تعاونه مع الآباء اليسوعيّين، وصدرت عنه أقوالٌ تحاكي الهذيان، مثل إعلانه: "لقد طلّق يسوع كنيسته منذ ستّ مئة سنةٍ، ومنذئذٍ لم يعد للكنيسة وجودٌ". وكانت قد التفّت حوله ثلّةٌ من الموالين، ولا سيّما من أعضاء "پـور رويال" (Port Royal)، الذين يدينون بالجنسينيّة.

وخُيِّل إلى الأب ڤـنسان أنّ صداقتهما التي امتدّت سنواتٍ توجب عليه نصح زميله، ومحاولة ردّه إلى رشده، فزاره، وكلّمه بقسوة المحبّة، وحذّره من إهلاك ذاته، بصراحةٍ متحرّرةٍ من كلّ قيدٍ. وردّ "سان سيران" على العتب والتأنيب بالذمّ، واتّهمه بالجهل، وضآلة العلم، ونكران الجميل، وبكلّ ما تمليه سورات الغضب على نفس جريحةٍ. ومع كلّ ذلك لم يساور الأب ڤـنسان شكٌّ بأنّ سلوك زميله ما زال يحدوه دافعٌ صادقٌ للإصلاح، وأنّه مع نشوته بعلمه، وعبقريّته، ما زال روح الرسالة ينبض في صدره. وخشيةً عليه من الانهيار بعد ما لمس فيه من غضبٍ وعجزٍ عن ضبط أعصابه، اعتذر منه، ولمّا علم منه أنّه مزمعٌ على سفرٍ، أهداه حصانًا.

وبعد أشهرٍ أمر ريشليو بسجن "سان سيران"، وعُثر بين أوراقه على نسخة رسالةٍ كان قد وجّهها إلى الأب ڤـــنسان عقب تلك الزيارة، التي مرّ عليها نحو سنةٍ. فأمر الكردينال بالتحقيق في خلفيّات هذه الرسالة. وكلّف بالتحقيق قاضيًا مدنيًّا رفض الأب ڤـــنسان المثول أمامه، فتولّى ريشليو التحقيق بنفسه، واستمع إليه مرّتين، ولكنّه لم يخلص إلى قناعةٍ. حينئذٍ كلّف الكردينال كاهنًا باستئناف التحقيق، فاستنكر الأب ڤـــنسان كلّ آراء وأقوال "سان سيران"، ولكنّه لم يدِنْ شخصه بشيءٍ، بل أشاد باستقامة نفسه، واستواء دوافعه، واعترف بضلال أسلوبه ومذهبه.

ثمّ أعلن الأب، في مجلس الضمير، تنديده الصريح والشديد بمواقف الجنسينيّين المناوئة للكنيسة، وإيمانه الراسخ بأنّ الله يهب جميع البشر، مؤمنين وغير مؤمنين، نِعَمًا تؤهّلهم للخلاص، وهم أحرارٌ بقبولها واستثمارها، أو برفضها وإهمالها. ورفض ادّعاء الجنسينيّين بأنّ الأسرار هي امتيازاتٌ موقوفةٌ على مختارين، وأنّه هو يعدّها علاجًا لأمراض النفس وغذاءً لها. وأكّد، أيضًا، أنّ جميع أعضاء جمعيّته، ملتزمون بتعاليم الكنيسة، وأوفياء لها.

وسكت الكردينال على مضضٍ، بسبب انتفاء دليلٍ يدين به الأب "ديـــپـــول". غير أنّ هواجسه وريَبَه تركت في نفسه أثرًا أدّى إلى فتور العلاقات بينهما. ومع ذلك ظلاّ يتعاونان داخل مجلس الضمير، وفي العديد من الشؤون الكنسيّة، إلى أن أيقظ الكردينال "مازاران" هواجس سلفه، واتّخذ منها ذريعةً لإقصاء الأب عن مجلس الضمير، عام ١٦٥٢.

مقرّ القدّيس لعَــازر

كانت شهرة الأب ديــپــول ماضيةً اتّساعًا، وجمعيّة الرسالة ماضيةً ازدهارًا، حتّى ضاق بالمرسَلين مقرُّ الأبناء الصالحين.

وفي غروب عام ١٦٣٠، فاجأت الأب ڤــنسان زيارةٌ أسالت إلى نفسه الدهشة والحيرة معًا، وقال عنها: "كانت كلّ حواسّي مشدوهةً، مثل إنسانٍ أذهلته طلقة قذيفة مدفعٍ على بعد خطواتٍ منه، وهو عنها غافلٌ..." فقد جاءه رئيس دير القدّيس لعازر عارضًا التنازل له عن رئاسة ذلك الدير وعن ملكيّته، وعن كلّ مداخيله الطائلة، ونقل جمعيّة الرسالة إليه، متيحًا لها طاقات التوسّع والازدهار، ولا سيّما أنّ اسم لعازر يرمز إلى القيامة، بفضل حبّ يسوع.

وإثر لحظات ذهول، أعمل الأب ڤــنسان الفكر، وأعلن رفضه عرضًا يفوق، بلا قياسٍ، حجم جمعيّةٍ ما زالت تحبو، هَيُّبًا من المسؤوليّات الجسيمة التي قد يفرضها عليه تولّيه رئاسة هذا الدير، الذي كان قد أُسِّس في القرن الثاني عشر بغية استقبال مجذومي العاصمة، أي المصابين بداء البرص، ومعالجتهم، وكان معظمهم من الطبقة الثريّة، ومن أصحاب الأفران، الذين ما انفكّوا يزوّدون سكّان الدير بالخبز. وكان ذلك الدير قد أضحى، في القرون الوسطى، أحد أهمّ الإقطاعات الكنسيّة في المنطقة الباريسيّة، وكان الممرّ الإلزاميّ لكلّ ملكٍ، إذ كان عليه أن يقسم فيه يمين الولاء، أمام جميع المنظّمات الرسميّة، قبل صعوده على العرش. وكان على النعش الذي يضمّ جثمانه، عند وفاته، أن يمرّ بذلك الدير، قبل أن يُوارى الثرى، في دير "القدّيس دونيس" (St-Denis).

وكانت إدارة ذلك الدير قد أُوكلت إلى فرسان القدّيس لعازر، ردحًا من الزمن، قبل أن يوكلها رئيس أساقفة باريس، إيكالاً مؤقّتًا قابلاً للعزل، إلى جمعيّة

القدّيس ڤــيكتور. وكانت ملكيّة ذلك الدير، الواقع خارج أسوار باريس، تمتدّ نحو أربعين هكتارًا، وتضمّ حقولاً تُزرع قمحًا وشعيرًا، وكلأً للمواشي، وفيها العديد من الأبنية: مساكن للكهنة، وكنيسةٌ، وديرٌ، ومصحٌّ، وسجنٌ، ومكان حجز المعاقين عقليًّا. وفي مكانٍ منعزلٍ كانت حُجَر المجذومين. وكان للدير، أيضًا، عقاراتٌ عديدةٌ، داخل باريس، وفي الرعايا المجاورة. وكان ينعم بوارداتٍ وفيرةٍ ناتجةٍ عن ريع العقارات، ومكوسٍ متنوّعةٍ، وعن قسطٍ من مداخيل معارض ومهرجاناتٍ تقام على جزءٍ من أراضي الدير. وبالمقابل كانت تلك الملكيّة تستلزم مبالغ طائلةً من أجل ترميم الأبنية التي تمادى إهمالها.

وكان الدير قد خلا من البُرص، ولم يبقَ محجوزًا فيه سوى ثلاثةٍ أو أربعةٍ مضطربين عقليًّا، وحفنةٍ من الشباب الماجنين الذين طلب ذووهم حجزهم، عقابًا لهم، وإراحةً لبال ذويهم. وكان الكهنة الباقون في الدير، والذين لا يتخطّى عددهم العشرة، على خلافٍ دائمٍ مع رئيسهم الذي رأى في تنازله عن الدير للأب ڤــنسان إصابة عصفورين بحجرٍ واحدٍ. فهذا التنازل سيعتقه من خلافه مع مرؤوسيه، ويقدّم للكنيسة خدمةً جلّى، بإتاحته ازدهارًا ونموًّا لجمعيّةٍ رسوليّةٍ واعدةٍ، يرأسها أحد أبرز وجوه الإصلاح الكاثوليكيّ في ذلك العصر. ولذلك لم يستسلم لردّة فعل الأب ڤــنسان الأولى، بل أمهله ستّة أشهرٍ كي يشبع الأمر تمحيصًا، وفي هذه الأثناء لم يكلّ عن السعي لإقناعه، متوسّطًا أصدقاء الأب ديــپــول.

وكان لتدخّل صديقه الدكتور اللاهوتيّ الأب "دوڤــال" (Duval) التأثير الحاسم. فقد توسّم ذلك اللاهوتيّ الحكيم، ثاقب البصيرة، أنّ إيكال مقرّ القدّيس لعازر لجمعيّة الرسالة كفيلٌ بأن يفتح أبواب ازدهارٍ رحبةً لمشاريعها. وكان الأب ڤــنسان يرتاح لنصح "الدكتور الطيّب" الأب "دوڤــال"، فامتثل لنصحه، وأكبّ على دراسة بنود العقد الذي ستتمّ الصفقة بموجبه. وكان أشدّ ما أرّقه وأثار هواجسه مساكنة كهنة الدير السابقين والمرسَلين، فأولئك كانوا قد اعتادوا اللغط

والكسل ورغد العيش حتّى البطر، في حين ألف المرسَلون حياة التقشّف المفرط وارتاحوا لها، واعتادوا عزلة الصمت للتأمّل والعبادة. وامتدّت المفاوضات نحو سنتين حتّى الوصول إلى حلٍّ لكلّ موطن خلافٍ، وأُبرِم العقد يوم السابع من شهر كانون الثاني ١٦٣٢، وصدّقه رئيس أساقفة باريس في اليوم التالي، محتفظًا لنفسه بالسلطة القضائيّة، روحيًّا وزمنيًّا، على الدير، وعلى كهنة الرسالة الذين حُدِّد عددهم الأدنى باثني عشر كاهنًا، على أن ينصرف ثمانيةٌ منهم، انصرافًا منتظمًا ودائمًا، ومجّانيًّا، إلى أعمال الرسالة في الرعايا التابعة لأبرشيّة باريس، وأن يكرّسوا، كلّ سنةٍ، خمسة عشر يومًا لإعداد المقدمين على السيامة الكهنوتيّة.

ووقّع الملك مرسوم الانتقال، يوم ١٦٣٢/١/٢٢، ولكنّ تصديق المرسوم من قبل البرلمان أخّرته اعتراضات كهنة الدير السابقين، وكهنة رعايا الضواحي الباريسيّة. غير أنّ وساطات أصدقاء الأب ڤـنسان قد أطاحت بكلّ الاعتراضات، وصادق البرلمان على المرسوم الملكيّ في ١٦٣٢/٩/٧. وحينئذٍ أكبّ الأب ڤـنسان على إزاحة العائق الأخير الذي كان يؤرّقه، وهو احتفاظ رئيس أساقفة باريس لنفسه بحقّ السلطة القضائيّة على جمعيّة الرسالة. فقد كان الأب يرى في هذا الاحتفاظ قيدًا لحرّيّة عمله. وكان يخشى تقلّب مزاج رئيس الأساقفة وخلفائه، الكفيل بتعريض مصير الجمعيّة للأخطار، ويحرمها استمراريّتها على ما أُسِّست عليه. والأب ديـپـول الذي تردّد طويلاً في قبول ملكيّة هذا المقرّ، حرص بعد أن أصبح المقرّ في حوزته وعهدته، على حماية مصيره من كلّ زلزلةٍ، وأبى التنازل عن ذرّةٍ من كامل مسؤوليّته عنه.

ومع ذلك كان الأب عالمًا أنّ هذه الملكيّة ستفرض عليه أعباءً ماليّةً باهظةً، إذ ألزمته بتقديم جعالةٍ سنويّةٍ قدرها ألفان ومئة ليرةٍ لرئيس الدير السابق، فضلاً عن خمس مئة ليرةٍ لكلٍّ من الكهنة الساكنين فيه، وكانت تُلزمه، أيضًا، بمعيشة ثمانية مرسَلين يقيمون رسالاتٍ منتظمةً في رعايا باريس، تحقيقًا لشرط رئيس الأساقفة.

وكان لا بدّ من إكبابه على ترميمٍ مُكلفٍ للمباني التي تمادى إهمالها، ولكنّه كان إداريًّا بارعًا، وكان راسخ الثقة بالعناية الإلهيّة، ودائم الاتّكال عليها، وألهمت العناية الإلهيّة رئيس محاسبة البلاط الملكيّ بوهبه عشرة آلاف ليرةٍ ذهبيّةٍ.

وعلى أيّة حالٍ كان انتقال جمعيّة الرسالة إلى مقرّ القدّيس لعازر فاتحة مرحلةٍ حاسمةٍ أتاحت للجمعيّة توسُّعًا رحبًا، جعل منها منطلقًا لشبكة مشاريع تتنافس روعةً وإثمارًا. وما لبث ذلك المقرّ، الذي أسبغ على مرسَلي الأب ديـــپـــول اسم "اللعازريّين"، أن دوّى بمختلف النشاطات والمشاريع، أهمّها تأهيل المرشّحين للكهنوت، واستقبال الراغبين في ممارسة رياضاتٍ روحيّةٍ، حتّى اضطرّ الأب إلى الاستعانة بسيّدات المحبّة وبالمسؤولين ونسائهم كي يواجه النفقات اليوميّة، الناتجة عن تلك الاستضافة المجّانيّة. وفي سبيل إنجاح الرياضات الروحيّة لم يكن الأب يتوانى عن استدعاء ألمع الوعّاظ شهرةً، ومنهم ذاك الذي أمسى "نسر" المنابر "جاك بينيني بوسّويه" (Bossuet).

وفي هذا الجوّ نما "لقاء الثلاثاء" الذي سبق لنا ذكره، والذي استهدف إذكاء الروح الرسوليّ لدى الكهنة.

بيد أنّ هذه النشاطات والخدمات الكنسيّة الجليلة، التي خاض الأب ڤـــنسان غمارها، لم تصرفه عن مشاريعه الخيريّة الرئيسة. ففي كلّ مكانٍ كان مرسَلوه يقيمون رسالةً، كانت تنشأ أخويّة محبّةٍ، وأخذ الأب على عاتقه مواكبة شبكة المحبّة هذه التي لا تني تتّسع وتمتدّ، والسهر على ثباتها، ونموّها، وإثمارها. ومع ذلك لم يكن بوسعه البقاء مكتوف اليدين أمام أيّ شكل بؤسٍ يصدفه، فهبّ لنجدة الفتيات التائهات، والأطفال اللقطاء، فضلاً عن عنايته بالمحكومين بالأعمال الشاقّة.

القدّيسة لويز دي مارّياك

لويز دي ماريّاك

كانت أخويّات المحبّة لا تني تتكاثر، وغدا السهر عليها، والتنسيق بينها حاجةً ملحّةً، وراح الأب ڤـنسان، عام ١٦٢٤، يبحث عن سيّدةٍ تقدّم للأخويّات نموذجًا ومحرّكًا وموجّهًا، وعثر على ضالّته في شخص "لويز دي ماريّاك".

كانت أُسرة ماريّاك تدور في فلك الملك لويس الثالث عشر، وأمّه "ماري دي ميديسيس". فعمُّها ميشيل تقلّد أخطر مناصب الدولة، وأثبت فيها كفاءةً ونزاهةً نادرتيَ المثال. وتقلّد أخوه لويس عصا الماريشاليّة. غير أنّ الكردينال ريشليو، الذي كان يضطلع بمهمّة رئيس الحكومة ارتاب في ولائهما له، واتّهمهما بالتآمر عليه، فسجن ميشيل، وأعدم لويس عام ١٦٣٢.

وكان والد "لويز" قد انضمّ إلى الجيش، ولقي حتفه عام ١٦٠٤، في سنّ الثامنة والأربعين. وكانت لويز حينذاك، في الثالثة عشرة، فزلزلت وفاته حياتها كلّها.

كانت زوجة والدها الأولى قد توفّيت عام ١٥٨٩. ولم تنجب أولادًا، فتزوّج والدها ثانية عام ١٥٩٥. وفي هذه الأثناء، أي في عام ١٥٩١، وُلدت "لويز" من أُمٍّ ظلّ اسمها مكتومًا، ربّما بسبب وضاعة طبقتها الاجتماعيّة، التي لم تكن الأُسر الشهيرة تتهاون بشأنها. وقد خلّف ذلك في قلب لويز جرحًا لم يندمل قطّ.

وقد يكون هذا الجرح هو الذي دفعها، لاحقًا، إلى التعاطف مع جميع جرحى الحياة، والمهمّشين الذين لفظهم المجتمع، وحطّمهم، بجريرة ذنبٍ لم يرتكبوه.

وكان الوالد المتوفّى قد أحبّ ابنته اللاشرعيّة، حبًّا جمًّا، واعترف في وصيّته بأنّها كانت له هبةً من السماء لكي تواسيه وتعزّيه في مِحَنه. وإثر زواجه الثاني أوكل تربيتها إلى ديرٍ ملكيٍّ تديره راهباتٌ دومينيكانيّاتٌ، كانت رئيسته من آل "دي

غوندي" رفيعة الثقافة، بارعةً في الفنون، وقد أولت الفتاة لويز اهتمامًا رقيقًا يقظًا، وأكسبتها الكثير من معارفها ومواهبها، بعد أن اكتشفت فيها مواهب استثنائيّةً، وذوقًا مرهفًا، وذكاءً متّقدًا، وبراعةً في الرسم. وقد ساعدها هذه المواهب على اجتياز مرحلة الحزن العميق الذي اجتاح نفسها الطريّة عقب رحيل والدها المبكّر.

زواج والدها الثاني كان كارثيًّا، واستدعى سلسلةً من الدعاوى المكلفة التي أتت على ثروته. وإثر وفاته، أحجم أعمام لويز عن المثابرة في دفع رسوم إقامتها في الدير، لأنّ أُسرة "دي ماريّاك" لم تتشرّف بأن تضمّن شجرة العيلة فتاةً مجهولة الأمّ. وهكذا، في سنٍّ مبكّرةٍ حطّمت قلبها نظرةُ المجتمع إليها على أنّها ابنةٌ غير شرعيّةٍ، وأنّها مختلفةٌ عن الأخريات.

أُخرجت، إذن، لويز من الدير، وأُوكلت إلى رعاية آنسةٍ فقيرةٍ كانت تؤوي فتياتٍ فقيراتٍ، وتلقّنهنّ الأعمال المنـــزليّة. وكانت لويز تجمع إلى توهّج الفكر سخاء القلب وعطفه. وشقّت عليها هشاشة حال الفتاة التي استقبلتها، فاندفعت إلى مساعدها، واتّفقت مع باعة مطرّزاتٍ ومصنّراتٍ، وعكفت مع رفيقاها على صنع تُحفٍ يدويّةٍ، وبيعها، والتبرّع بأرباحهنّ مساعدةً لمضيفتهنّ.

ومع ذلك ظلّ قلبها ينـــزف حزنًا، من جرّاء ازدراء محيطها لولادها غير الشرعيّة، والرثاثة التي تردّت إليها، مع أنّها سليلة إحدى أعرق الأُسر الفرنسيّة في عصرها. غير أنّ الحزن ولّد لديها عزيمةً صلبةً على إحاطة المنبوذين المتروكين، الفقراء، والملاحقين بخزيٍ اجتماعيٍّ، والذين هشّمتهم ظروفٌ جائرةٌ، وأقصتهم عن الدروب التي كانت معبّدةً لهم، بأرقّ عطفٍ، وأعذب عنايةٍ.

وساورت لويز رغبةٌ في اعتناق الحياة الرهبانيّة، وتكريس كلّ حياها لخدمة الربّ من خلال خدمة إخوته الفقراء. ولكنّ الدير الذي طلبت الانضمام إليه رفض طلبها بسبب هشاشة صحّتها. ولكأنّ الله كان، أيضًا، يوصد بابه دونها، مثلما أوصدت أُسرة "ماريّاك" باها في وجهها. وارتأى أقرباؤها انتشالها من حزنها

بتزويجها، واختاروا لها زوجًا موظّفًا في ديوان الملكة "ماري دي ميديسيس"، يُدعى "أنطوان لوغرا" (Antoine Le Gras). ولكنّ هذا الزواج من رجلٍ لا ينتسب إلى الطبقة النبيلة لم يُعطِها لقب "سيّدة" (Madame)، الذي كان وقفًا على زوجات النبلاء، فظلّ لقب "الآنسة" يرافقها بعد زواجها الذي عُقد يوم ١٦١٣/٢/١٥.

وحاول أقرباؤها بلسمة قلبها الجريح، فأقاموا لها حفل زواجٍ فخمًا، يليق بأُسرة "دي ماريّاك"، في قصر أحد أقرباء الأُسرة، مسؤولٍ عن أموال الملكة الأُمّ، وأسكنوها في منــزلٍ راقٍ، وأغدقوا عليها الهدايا، وكأنّهم يعوّضون عن إهمالٍ متمادٍ. وعدّد عقد الزواج أسماء أقربائها الحاضرين، ولكنّ أعمامها عُرِّفوا بأنّهم "أصدقاؤها"، وعُرِّفت هي بصفتها "ابنة لويس دي ماريّاك الطبيعيّة". ومع ذلك طافت نفس لويز في جوٍّ من التفاؤل العابر، زادته إشراقًا ولادة طفلٍ لها، في غروب عام ١٦١٣، وخُيِّل إليها أنّ كفّة مصيرها قد أخذت ترجح.

ولكن سرعان ما تكدّست الغيوم السوداء في أفق حياتها، بدءًا بتحوّلاتٍ سياسيّةٍ مأساويّةٍ، أدّت إلى اغتيال صديق الملكة، الأمير "كونشيني"، ونفي الملكة نفسها، وتردّي أحوال أُسرتها من جرّاء هذه التحوّلات. وبلغ حزنها ذروته عندما تبيّنت أنّ طفلها "ميشيل"، الذي توسّمت فيه منبع سعادةٍ، كان، في الواقع، صليبًا مرهقًا، ومصدر همٍّ مقيمٍ. فقد كان بطيء النموّ والفهم، وأظهر، لاحقًا، بلادةً، وتقلّب مزاجٍ دائمًا، ووَهَن عزيمةٍ. ثمّ حلّت المصيبة الكبرى بوفاة الزوجين اللذين أقاما في قصرهما حفل زواج لويز، وفاةً مباغتةً، تاركين سبعة أيتامٍ صغارٍ، وثروةً متآكلةً. وبما أنّ ميشيل دي ماريّاك، كان هو الوصيّ على الأيتام القُصَّر، ولم تكن مشاغله تتيح له الاهتمام بهم، تنازل عن هذه المهمّة لزوج لويز، الذي، في سعيه إلى إثبات ملاءته وغيرته، بدّد ثروة أُسرته الخاصّة. وتضخّمت قافلة المآسي باعتلال زوج لويز، اعتلالاً عضالاً حطّم أعصابه، وجعله سريع الغضب، حتّى قضى عليه المرض عام ١٦٢٥، بعد زواجٍ مثقلٍ بالغيوم والمنغّصات، امتدّ اثنتي عشرة سنةً.

توفّي "انطوان لوغرا"، في غمرة آلامٍ جسديّةٍ مريعةٍ، ولكن في هدوءٍ نفسيٍّ رائعٍ سرّبه إلى قلبه وجود زوجته إلى قربه، محيطةً إيّاه بحبٍّ صادقٍ، وعنايةٍ رقيقةٍ. وحينئذٍ وقعت على عاتقها مسؤوليّة المنـــزل، ومسؤوليّة ابنها. وكان اعتلال زوجها المتمادي، ومحاولته التظاهر بيُسرٍ زائفٍ قد أوديا بالأسرة إلى شبه إفلاسٍ. فاضطرّت لويز إلى التخلّي عن مسكنها الفخم، واستأجرت حجرةً في حيٍّ شعبيٍّ قريبٍ من مدارس، لعلّها تشجّع على الدراسة ابنها البليد، والذي كانت تنتابه، بين فينةٍ وأُخرى، نوبات ورعٍ فيخطر لأُمّه إيكاله إلى ديرٍ تمهيدًا لاعتناقه درب الكهنوت. ولكن، كان كسَله لا يلبث أن يعيده إليها، ويغرقه في الخمول واللامبالاة. وعقب محاولاتٍ عديدةٍ فاشلةٍ خُيِّل إلى أقربائه أنّ زواجه قد ينتشله من لامبالاته، فزوّجوه عام ١٦٤٥، ووجدوا له عملاً في مقرّ القدّيس لعازر.

في هذه الأثناء كانت قد انتابت لويز نوبة انهيارٍ وشكٍّ، وصفتها بقولها: "في يوم عيد القدّيسة "مونيك"، لعام ١٦٢٣، ألهمني الله أن أنذر بقائي أرملةً، إذا استدعى الله زوجي إليه قبلي. وفي يوم عيد الصعود اجتاحني انهيارٌ نفسيٌّ، استمرّ حتّى أحد العنصرة. وكانت، حينئذٍ، تحاصرني تساؤلاتٌ حول واجب إصلاح حَنَثي بنذري القديم بتكريس ذاتي لله وحده، فأهجر زوجي، وأنصرف بكلّيّتي، وبحرّيّةٍ، لخدمة الله والقريب، وكانت تساورني شكوكٌ حول واجب الاحتفاظ بمرشدي الروحيّ، أو اختيار مرشدٍ آخر، وكانت تنتابني، أيضًا، شكوكٌ ممضّةٌ حول خلود النفس.
"هذه التساؤلات الثلاثة أشاعت في نفسي شدائد يتعذّر تخيّلها...".

على امتداد عشرة أيّامٍ غشى نفسَها شعورٌ بتخلّي الله عنها، وتآلفت جميع مِحَن صباها وشبابها في بوتقةٍ مميتةٍ أودت بها إلى تخوم القنوط.

ولا بدّ من التنويه بأنّ هذه المحن القاسية لم ينجُ منها عمالقة روحٍ بارزون، في مستهلّ تسلّقهم سلّم الكمال، فقد عهد مثلها "فرنسوا الساليزيّ"، وڤـــنسان ديـــپـــول، والأب "أولييه"، واللاهوتيّ "فينلون".

ومجدّدًا حاصرت الوساوس وحدة لويز، وراودتها خاطرة الانحباس في ديرٍ. وبما أنّ الأب، في تلك الحقبة، كان كثير الغياب، وهي لا تجد من تبوح له بكوامن نفسها، لجأت إلى أُسقفٍ قريبٍ لها، فأكّد لها أنّ حياة الرهبنة موصدةٌ دونها، ونصحها بالحدّ من الاتّكال على الآخرين، وأخذِ مصيرها بيدها. أمّا الأب ڤـنسان فلم يكن قد تبيّن، بعد، دعوتها، فحاول تسكين قلقها ريثما تتّضح له دروب مستقبلها. وظلّت هي تتخبّط، تخبّط نحلةٍ تسعى إلى الخروج من خلال زجاج نافذةٍ موصدةٍ.

وسعت إلى كبح سيطرة الهواجس على نفسها باستغراقها في مطالعة الكتب التي طالما كانت الملجأ التي تستقي فيه جرعة سلامٍ وهدوءٍ، وأهمّها الإنجيل، والاقتداء بالمسيح، و"مدخل إلى الحياة التقويّة". وربّما ساعدتها هذه المطالعات، مدعومةً بالرحمة الإلهيّة، على الإفلات من شبكة الشكّ القاتل. فضلاً عن أنّها، في قعر تلك المحنة، استغاثت بالله الذي ارتابت بوجوده، وبالساليزيّ المتوفّى حديثًا، فلم تدُمْ محنتها أكثر من عشرة أيّامٍ. وفي يوم عيد العنصرة، أثناء القدّاس، استنار فكرها بغتةً، وتبدّدت شكوكها، وأُوحيَ إليها واجب الوقوف إلى جانب زوجها المعتلّ، حتّى يحين أوان نذرها الفقر والعفّة والطاعة، بالاشتراك مع أُخرياتٍ. وأُلهمت أيضًا أنّ عليها الإقامة في مكانٍ تنصرف فيه إلى خدمة المعوزين، غير أنّ هذا الموضع، وشكل الخدمة ظلاّ مبهمَيْن. وانجلت كلّ ريَبها بشأن مرشدها الروحيّ، وتلاشت شكوكها حول وجود الله، بما أنّه هو الذي أشاع نوره في لجّة محنتها، وحرّرها من هواجسها.

في هذه الأثناء كان قريبها الأُسقف قد تخلّى عن مهمّة إرشادها إلى الأب ڤـنسان ديـپـول، عملاً بوصيّة القدّيس فرنسوا الساليزيّ، الذي كان يرى في الأب ڤـنسان رجل الله الحقّ. وفي الواقع أسفر لقاء الأب ڤـنسان بلويز دي ماريّاك، عن نتائج مدهشةٍ، وحقّق حلم الساليزيّ بتأسيس جماعةٍ من الراهبات اللائي يقرنَّ روحانيّة عزلة الدير بأعمال الغوث في الشوارع، وفي الهواء الطلق،

مفجّرًا ثورةً في ميدان أعمال المحبّة، ودفع الرأي العامّ إلى الانحناء طوعًا على المحتاجين، وأرسى قاعدةً جديدةً للعمل الاجتماعيّ الحديث، حتّى أمسى عالم اليوم، مع همجيّة تصرّفاته، لا يجسر على إعلان ازدرائه للفقراء والمهمّشين، ويحترم الكرامة الإنسانيّة في البشر الأشدّ بؤسًا ووهنًا، محقّقًا على أرض الواقع تعاليم الإنجيل.

وكانت لويز، حينذاك، قد شرعت، تلقائيًّا، تتّبع نظام الأديرة، وكأنّها تجتاز مرحلة ابتداء، فتستيقظ باكرًا جدًّا، وتنفق ساعاتٍ في الصلاة والتأمّل، وتحضر القدّاس يوميًّا، وتسوق حياة تقشّفٍ وتضحياتٍ. ولكنّها لّما أطلعت الأب ڤـنسان على هذه الممارسات، نصحها بالحدّ من قسوتها، وباستبدالها بانتهاج سبل المحبّة، لأنّ الله محبّةٌ، ويريد أن نأتيه على دروب المحبّة. ومثلما كان قد أرشد السيّدة "دي غوندي"، وجّه نوايا لويز الطيّبة صوب التفاني في غوث المحتاجين. وشيئًا فشيئًا شرع يولد في قلبهما، وبين أيديهما، مشروع راهبات المحبّة.

بادئ الأمر، أبدى الأب ڤـنسان تحفّظًا حيال إرشاد لويز دي ماريّاك، روحيًّا. فلم يكن يطيق أن يعيقه شيءٌ عن خدمة نفوس أبناء الريف. وكانت خبرته في إرشاد السيّدة "دي غوندي" قد غرست في نفسه تحفُّظًا حول وساوس النساء الممزّقات بين واجبات العالم ومقتضيات الله. وفي الجانب الآخر لم تُبدِ لويز، للوهلة الأولى، ارتياحًا للأب ديـپـول الذي بدا لها جافًّا وفظًّا، مقارنًا بالملائكيّ فرنسوا الساليزيّ، وقريبها الأُسقف "كاموس" (Camus)، المتدفّق بهجةً. فمرشداها السابقان هذان كانا يتميّزان بأرستقراطيّةٍ مرهفةٍ، وبعذوبةٍ فطريّةٍ مشعّةٍ. غير أنّ كلاًّ من الأب ڤـنسان ولويز كان يشعر بحاجته إلى الآخر من أجل تحقيق أمورٍ عظيمةٍ، كانا يستشعرانها، ولم يتبيّناها بعدُ، وتجلّت روعتها، يومًا فيومًا.

في البدء، اقتصرت مساهمة لويز دي ماريّاك على تقديم خدماتٍ من موقعها في باريس، حيث دأبت على جمع التبرّعات وإيصالها إلى غاياتها، مستعينةً بقريبةٍ لها تدعى "إيزابيل دو فاي" (Isabelle du Fay)، كانت مصابةً بتشوّهٍ خلقيٍّ أبعد عنها

الخطّاب، ولكنّها قهرت هذا العائق باستغراقها في أعمال المحبّة، حتّى أضحى الأب ڤــنسان يشيد بمثلها، ويدعو إلى التمثّل بها. وقد أصبحت إيزابيل هذه، بعد مرور سنواتٍ، من أنشط سيّدات المحبّة في مستشفى أوتيل ديو. وكان دعمها لقريبتها لويز جوهريًّا في تأسيس أخويّات المحبّة.

وعملاً بنصيحة فرانسوا الساليزيّ، لم يكن الأب ديــپــول يحجم عن مشروعٍ، مهما عظم شأنه، وكأنّ الدهر كلّه متاحٌ لإكماله، وفي الآن عينه، كان يتّخذ تدابير تضمن استمراره، وتخطّي كلّ عقبةٍ طارئةٍ، وكأنّ الموت ينتظره، شخصيًّا، في كلّ لحظةٍ. فكان منذ مباشرته مشروعًا يبحث عن مساعدٍ كفيلٍ بمساندته، والنيابة عنه، وخلافته، وقادرٍ على المضيّ بالمشروع إلى اكتماله، فيُطلعه على رؤاه وخبراته، لكيلا يسبّب غيابه حيرةً وارتباكًا.

وهو كان، منذ عام ١٦٢٩، قد انتدب لويز دي ماريّاك للإشراف على أخويّات المحبّة، مع أنّها كانت تزعجه أحيانًا بوساوسها وهواجسها، وتخيُّلها أنّ الله قد تخلّى عنها، وادّعائها عجزها عن التقاء الله. فأكّد لها أنّها ستجد الله، في غوثها المحتاجين إلى حبٍّ، وقوام حياةٍ، لدى الجياع، والعراة، والمشرّدين، والمرضى، وجميع الذين هدّهم الحياة. ونصحها بالتزام البساطة، والثقة بالله، والبهجة.

وأسال تواضع لويز وطاعتُها الطمأنينةَ في نفس الأب، فأوكل إليها المضيّ بأخويّات المحبّة إلى أقصى غاياتها، مقتضيًا منها أن تكون نموذجًا وقدوةً لجميع اللواتي سيخلفنَها. وهو كان واثقًا من خبرتها بشؤون العالم، وتمرُّسها بالتجرّد عن كلّ غايةٍ أنانيّةٍ، وعدم ابتغائها من الدنيا سوى خدمة الله.

كانت تضاهي سيّدات المحبّة برفعة أُسرتها، وتضاهي بنات المحبّة بنفورها من مظاهر الأبّهة والبذخ، وبتواضعها، وبحبّها للفقر والفقراء.

لم تجنِ أيّة فائدةٍ من أمجاد أعمامها، ولكنّ حزنها على مآسيهم كان سحيقًا.

وحاول الأب مواساتها بالإيمان. ثمّ أبعدها عن كآبة باريس عندما كلّفها بالإشراف على أخويّات المحبّة في الأرياف. وشيئًا فشيئًا محت الأيّام أحزانها.

وقد حوّلها تكليف الأب ڤــنسان بهذه المهمّة تحوّلاً جذريًّا، فانطلقت بعزيمةٍ شمّاء إلى تفقّد أحوال أخويّات المحبّة، متغلّبةً على مساقط ضعفها. ومع حيائها الفطريّ وامّحائها، فرضت هيبتها على الأخويّات، ومع خوفها الفطريّ برهنت عن جرأة البسالة؛ ومع أنّ الهواجس كانت تمزّقها، أشاعت الهدوء في الرعايا، ومع تردّدها في الحزم، مارست سطوةً راسخةً؛ ومع تشتّتها جسّدت الوحدة. وبالإيجاز اكتسبت كلّ الخصال التي ضنّت عليها بها فطرتها، والتي كانت مهمّتها تقتضيها منها: رقّةً لا تجرح، ورؤيةً واضحةً لمكامن الخطأ، وسلطةً للإصلاح. ويومًا فيومًا، تعلّمت الثمن الذي ينبغي دفعه من أجل عمل الخير، واحتاطت لرمال الأنانيّات التي تتسرّب بين مسنّنات آلة العمل، وتجعلها تصرّ وتتعثّر. ومع اكتشافها خريطة المحبّة، اكتشفت نفسها، وتحرّرت من قيودها واستسلمت لنعمة الله، وأحكمت السيطرة على ذاتها، فتبلورت شخصيّتها.

ولكن، مع كلّ ما بذلته من تفانٍ، وطاعةٍ، وسخاءٍ في البذل، لم يخصّها الأب ڤــنسان بإيثارٍ خاصٍّ، ولم يكن يقابلها إلاّ إذا اقتضت شؤون الجمعيّة هذا اللقاء، وكان حريصًا على تفادي كلّ مظاهر مودّةٍ شخصيّةٍ خاصّةٍ. ولكنّه من خلال رسائله ونصائحه كان يغدق عليها التشجيع، ويشدّد عزيمتها بأقوالٍ مثل هذه: "إمضي، يا آنسة، باسم ربّنا، إنّي أسأل عطفه الإلهيّ أن يواكبك، ويرافقك، ويكون طريقك، ويقيك من قيظ الشمس، والمطر والبرد، وأن يكون هو سريرك الوثير الذي يريحك من أتعابك ويقوّيك على عملك، وأن يعيدك سالمةً، وبحصادٍ وفيرٍ من الأعمال الصالحة".

كلّف، إذن، الأب ديـــبـــول لويز دي ماريّاك بمراقبة أخويّات المحبّة التي كانت تنبت كما ينبت الفطر في التربة التي رواها الغيث. فتلك الأخويّات كانت، غالبًا،

تخضع لكهنة القرى، ورويدًا رُويدًا تباينت دروبها، ومناهجها وحادت عن المبادئ والأنظمة التي أسّسها عليها الأب ڤـــنسان. انتدب لويز من أجل مراقبتها، مراقبةً منتظمةً، وإعادتها إلى الالتزام بالقواعد التي بُنيت على أساسها، وإخضاعها، جميعها، لأسلوبٍ عامٍّ مشتركٍ، والتنسيق بينها.

وما لبثت أن أضحت لويز هي الصلة التي تربط كلّ أخويّات المحبّة، وأمست حياتها ارتحالاً لا يهدأ. وكان يصحبها، في كلّ رحلة تفقُّدٍ، صديقةٌ أو صديقتان يحدوهما مثل ما يحدوها من دوافع المحبّة. وغالبًا ما كانت "إيزابيل دوفاي" هي رفيقة رحلاتها. وكانت لويز تستصحب، في كلّ رحلةٍ مؤونةً وافيةً من الثياب والأنسجة والأدوية والضمادات للمرضى والفقراء، في حين يقتصر متاعها الشخصيّ ومتاع رفيقاتها على الزهيد الذي لا غنى عنه. كنّ يسافرن على نفقتهنّ الخاصّة، مستخدماتٍ عرباتٍ عموميّةً، ويُقمنَ في فنادق ونُزُلٍ شعبيّةٍ. وفي كلّ قريةٍ كانت لويز تجمع أعضاء أخويّتها في بيت إحداهنَّ، وتتقصّى بدقّةٍ ويقظةٍ ما حدث منذ تأسيس الأخويّة، وتحصي كلّ ما هو متوفّرٌ، وكلّ ما هو ناقصٌ والحاجة إليه ملحّةٌ.

وفي كلّ مكانٍ كانت لويز تسعى إلى تقويم المعوجّ، وسدّ الاحتياجات، سابرةً أعماق البؤس والحاجة، وطاقات العزائم والمحبّة، مُعِدّةً لمستقبلٍ أفضل.

وغالبًا ما كانت تسير فوق الأشواك، فموظّفو الحكومة كانوا يتوجّسون من انطواء أعمال المحبّة على نوايا انقلابيّةٍ، وبعض الكهنة كانوا يرون في تعليم بنات المحبّة لمبادئ التعليم المسيحيّ تعدّيًا على صلاحيّاتهم التي أهملوها، وكان بعض الأساقفة يتخيّلون في أولئك الزائرات الغريبات، الناشطات في رعاياهم، جواسيس يبتغون فضح تقصيرهم.

ولم تكن جميع العاملات في أخويّات المحبّة وأعضائها يتقبّلنَ، طوعًا، سيّدةً قادمةً من باريس كي تقيّم أعمالهنَّ، وتفتّش حساباتهنَّ. غير أنّ لويز، بكلمةٍ طيّبةٍ، وبسمةٍ عذبةٍ، كانت تشعرهنَّ بأنّهنَّ جميعهنَّ، معًا، يخدمنَ الله.

وإثر تقييمٍ واقعيٍّ للأوضاع، كانت لويز تعطي توجيهاتها، مشجّعةً النشيطات المبادِرات، مستفزّةً عزائم المتوانيات، يقودها حسٌّ واقعيٌّ يقظٌ. وفي كلّ قريةٍ كانت تعود المرضى، وتلقّن الصغار مبادئ المسيحيّة. وحيث توجد مدرسةٌ كانت توجّه معلّمتها وتوجِد مدرسةً حيث لا وجود لمدرسةٍ، وتهيّئ لها معلّمةً تتمتّع بالكفاءة ونصاعة الأخلاق، موقنةً بالحاجة الملحاح إلى تثقيف فتيات الريف، رائدةً في هذا المضمار.

وفي نهاية كلّ زيارةٍ كانت تنظّم محضرًا يوجز كلّ ما تمّ بحثه وعمله، ثمّ كانت تطلع الأب ڤــنسان على كلّ ما جرى.

ونظرًا للتطوّرات الإيجابيّة التي كانت تحدثها أخويّات المحبّة، أمسى كلّ أُسقف أبرشيّةٍ يطالب بإنشاء أخويّةٍ في كلّ رعيّةٍ من رعاياه، وسرعان ما حذت أبرشيّة باريس حذو الأبرشيّات الأُخرى، وشرعت لويز، مع حفنةٍ من نساء الحيّ الذي كانت تسكن فيه، يخدمنَ فقراء الرعيّة ومرضاها. وكان الأب ڤــنسان يراقب هذه المبادرات مراقبته لحليبٍ يغلي.

وبين عام ١٦٣٠ وعام ١٦٣٣، انتشر الطاعون في باريس، فتصدّت له أخويّات المحبّة بجرأةٍ بطوليّةٍ. وعالجت لويز بنفسها امرأةً مصابةً بالداء، فاستحقّت ثناء الأب ڤــنسان، الذي، هو أيضًا، عاد أحد أعضاء جمعيّته مصابًا بالطاعون، واثقًا برعاية الله وحمايته.

غير أنّ هذه المساعي الخيّرة لم تلقَ دائمًا ترحيبًا، بل كانت توحي لبعض الكهنة، وحتّى الأساقفة، رِيَبًا، وتوجّسًا من المساس بصلاحيّاتهم. ونصح الأب ڤــنسان المسؤولات عن الأخويّات وأعضاء جمعيّته بالتفاهم مع الكهنة والأساقفة المعنيّين وبمصارحتهم، فإذا اقتنعوا تكون الخلافات قد سوِّيت، وإلاّ فلتهجر بنات المحبّة وسيّداتها تلك الرعايا إلى أُخرى، بلا ندمٍ ولا حقدٍ. وكان الأب قد حذّر لويز ممّا قد تلقاه من هذه المعارضات والمقاومات: "أعدّي نفسك للسخريّة، والازدراء، والإهانات، وتقبّليها مثلما تقبّلها ابن الله، وتمثّلي به، أيضًا، عندما تلقَين تكريمًا

وتقديرًا. فالروح المتواضع، حقًّا، يتواضع في الأمجاد بقدر ما يتواضع في الازدراء، على غرار النحلة التي تصنع عسلها من الندى الذي يهمي على الحنظل، مثلما تصنعه من الندى المتساقط على الورد".

وكان ازدهار أخويّات المحبّة المذهل يملأ نفس لويز غبطةً واندفاعًا، فتسرف في العمل، حتّى يصيبَها الإعياء بالكآبة، وحينئذٍ كان الأب يدعوها إلى الاعتدال، مؤكّدًا أنّ الإعياء ليس خدمةً لله، بل هو قضاءٌ على قدرة خدمته والاستمرار فيه، موضحًا أنّ إحدى خِدَع إبليس التي يضلّل بها النفوس هي إيهامها بالعمل بما يفوق طاقاتها إلى أن تعجز عن فعل أيّ شيءٍ.

وكانت ظواهر الملَل والإحباط قد تجلّت على نساءٍ نبيلاتٍ، من ساكنات القصور، والرافلات بالديباج، المتأنّقات المنخرطات في أعمال المحبّة، اندفعنَ إليها، بادئ الأمر، بنوبة عطفٍ، ولم يتردّدنَ في تقديم الطعام والعلاج، بأيديهنَّ، لفقراء قذرين، قليلي التهذيب أحيانًا، قاطنين منازل مهدّدةً بالانهيار في كلّ لحظةٍ، وتفوح منها روائح مقزّزةٌ. ولكنّهنَّ ما لبِثنَ أن سئِمنَ مواصلة تلك التضحيات. وإراحةً لضميرهنَّ كلّفنَ خادماتهنَّ بمتابعة ما كنَّ بدأنَه.

وغالبًا ما كانت الخادمات يفتقرنَ إلى الأهليّة، وإلى الرغبة في أداء هذه المهمّة. وبرزت الحاجة إلى متطوّعاتٍ يَقمنَ بها تلبيةً لدعوةٍ إلهيّةٍ، بشغَفٍ وتفانٍ ومثابرةٍ، متخطّياتٍ نفور الطبيعة البشريّة، ومزوّداتٍ بكنوز الفضائل، متمرّساتٍ بمحبّة الله، ومتأهّباتٍ للتضحية في سبيله.

هذه الرؤية طرحت على الأب فنسان وعلى لويز تساؤلاتٍ قلقةً، وحملتهما على المقارنة بين غيرة فتيات القرى الصادقة التي لا يحدّ سخاءها تحفّظٌ أو حسابٌ، واندفاع السيّدات النبيلات العابر. وكانت المهمّة جسيمةً ودقيقةً، تحتاج إلى يدَين ماهرتَين وقلبٍ صلبٍ. وتصدّى لها ملاكٌ، في شخص فتاةٍ تدعى "مارغريت نازو" (Marguerite Naseau)، قيل عنها إنّ عطفها يوازي جمالها، وفاقت سيرتُها، أروع

الأساطير.. فقد كانت راعية أبقارٍ فقيرةً، متوقّدة الذهن، تقطن نفسَها رغبةٌ ملتهبةٌ في التعلّم، وتعليم الآخرين. ولكن لا مدرسة في قريتها، ولا مال لديها يؤهّلها للتعلّم في مدراس خارج قريتها. ولكنّ تلك العوائق لم تلجم تصميمها عن التعلّم. فابتاعت كتيّب الأبجديّة، ومستعينةً بخوري قريتها تعلّمت تهجئة الأحرف الأربعة الأولى ورسمَها؛ ثمّ تعلّمت الأحرف الأربعة التالية، حتّى حفظت الأبجديّة كلّها، وأجادت كتابتها، فيما كانت ترعى أبقارها. ولم تكن تخجل من استيقاف كلّ مارٍّ تتخيّل فيه معرفة القراءة والكتابة، وتستعلم منه عن طريقة التلفّظ بكلمةٍ مطبوعةٍ. ورويدًا رويدًا أتقنت الكتابة والقراءة، وحرصت على إشراك فتيات قريتها بما تعلّمته. ثمّ شرعت تستصحب فتاتين أو ثلاث فتياتٍ تمكنَّ من القراءة والكتابة، ويطفنَ في القرى المجاورة ملقّناتٍ فتياتها الأمّيّات ما تلقنَّ بأنفسهنَّ. ولم يكن لهنَّ ما يؤازرهنَّ على هذه المبادرات، لا مالٌ ولا سندٌ سوى العناية الإلهيّة، ولم يكن لهنَّ غالبًا، ما يسدّ رمقهنَّ.

كنّ يصمنَ أيّامًا كاملةً، مقتصراتٍ على الإقامة في أماكن لا شيء فيها سوى الجدران العارية، متبرّعاتٍ، أحيانًا بأوَد عيشهنَّ. وقد علّمنَ عددًا من الفتيان وشجّعنَهم على خدمة الله وأوصلنَ عددًا منهم إلى الكهنوت.

واتّفق أن التقت "مرغريت نازو" الأب ڤـنسان، أثناء إحدى رسالاته في الأرياف، وعلمت منه أنّ في باريس سيّدات محبّةٍ، يحتجنَ إلى مساعِداتٍ، فهبّت لمساعدتهنَّ، وكانت أولى "بنات المحبّة" قبل وجود هذه التسمية. ولم تلبث أن حذت حذوها فتياتٌ قدمنَ من قراهنَّ كي يدعمنَ سيّدات المدينة الأنيقات بسواعدهنَّ المتمرّسة بالمشقّة، وبحسّهنَّ العمليّ، وبخبرتهنَّ في ميدان التضحية، وبقربهنَّ من الفقراء والمهملين. وأوكل الأب ڤـنسان إلى لويز دي ماريّاك تثقيف أولئك الفتيات الريفيّات، عمليًّا وروحيًّا. وهكذا بتدبيرٍ من العناية الإلهيّة، تحوّلت "فتيات الحقول"، إلى "بنات المحبّة"، متمّماتٍ عمل "سيّدات المحبّة"، مثبتاتٍ قول القدّيس أوغسطينُس إنّ الأعمال الصالحة التي لا يُعرَف منشأها، هي، محقّقًا، فعل الله.

وبما أنّ الحاجة إلى مبادرات الآنسة مرغريت ونشاطاتها كانت ملحّةً في كلّ مكانٍ، كانت دائمة التنقّل من رعيّةٍ إلى أُخرى، تحت أنظار عيون مَن تُضطرّ إلى مغادرتهم الدامعة.

وقد تميّز فريق لويز دي ماريّاك المدعوم بمارغريت نازو ورفيقاتها، بالتواضع، والكياسة، والصبر، والبسمة، أي بالخصال الجوهريّة التي يحتاج إليها المرضى الذين لا يمقتون شيئًا أكثر من مقتهم المتجهّمين الذين يجتازون غرف المستشفيات اجتياز الإعصار، فيلصقون هنا ضمادًا، ويخزّون هنا إبرةً، وينصرفون مثلما أتوا، وكأنّهم من كوكبٍ آخر.

كنَّ يفضنَ رقّةً فاعلةً، منــزّهةً من الميوعة، رقّةً هي توأم التواضع، وكلاهما من أعمدة القداسة؛ مسارعاتٍ إلى غوث الفقراء، وإلى مدّ يد العون لسيّدات المحبّة، اللواتي، مع استعداداتهنَّ الحميدة، كنَّ غير مهيّآتٍ لأعمال الخدمة، فأعفتهنَّ مرغريت ورفيقاتها من الأعمال الشاقّة، وتولّينَها عنهنَّ.

ومن دواعي الأسف أنّ الآنسة مرغريت نازو التي انضمّت إلى فريق الأب ڤــنسان عام ١٦٣٠، لم تكن سوى نيزكٍ عابرٍ. ففي تلك السنة اندفعت إلى العناية بالمصابين بالطاعون، ولم تحجم عن استقبال مصابةٍ بهذه الآفة في سريرها، فأصيبت بعدواها، ولمّا ساءت حالها، وعجزت عن مواصلة الخدمة، قصدت مشفى القدّيس لويس، حيث انتقلت بهدوءٍ إلى جوار المخلّص الذي ضحّت بحياتها حبًّا له. وكانت رائدةً في تبشير فقراءَ لفقراء، وفي إبراز قدرات متواضعي المنشأ على خدماتٍ تعجز دونها الأيادي المترفة. وكانت، في الواقع ملهمة "بنات المحبّة". غادرت هذا العالم بعد ثلاث سنواتٍ من تضحياتٍ بلا حسابٍ. وعلى حدّ قول شكســپــير: "انقضّ الموت على أجمل زهرةٍ في الحقل، انقضاض صقيعٍ في غير أوانه".

انتقلت، في سنّ الأربعين، من ساحة شرف الخدمة إلى دار الخلود. وكانت،

أثناء رسالتها قد غزت قلوب جميع الذين عرفوها. وقد صرّح الأب ڤــنسان: "أحبّها الجميع لأنّ كلّ شيءٍ فيها كان جديرًا بالمحبّة".

وكانت لويز دي ماريّاك، إثر تمرّسها بإدارة أخويّات المحبّة، وبإرشاد فتيات الأرياف، وبالعناية بمرضى القرى، قد أيقنت أنّ دعوتها هي خدمة القرويّين روحيًّا وفكريًّا، وصارحت الأب ڤــنسان بهذا الإلهام الذي لاقى من نفسه ترحيبًا فرحًا. غير أنّ الأب، التزامًا بنهجه، كان يؤثر التريّث حتّى تنجلي له، بوضوحٍ، مشيئة الله. فكتب إلى لويز: "قد نرغب في أمورٍ كثيرةٍ تبدو لنا ملهمَةً من الله، وهي ليست، دائمًا، كذلك. وقد يكون الله يريد، من، خلالها، إعدادنا نفسيًّا إلى ما يريده منّا فعلاً... أنت تبتغين أن تكوني خادمةً لأولئك الفتيات الفقيرات، والربّ يريدك له، ولعددٍ من الناس أكبر من عدد أولئك الفتيات. وحتّى إن كنت له وحده، ألا يكون ذلك كافيًا لإراحة قلب ربّنا؟". ألم يكن، بذلك، يعدّها لخدمة الفقراء بصفتها مكرّسةً لله؟.

ولكي تنجلي مشيئة الله، أوعز الأب ڤــنسان إلى لويز أن تجري رياضةً روحيّةً في نهاية صيف ١٦٣٣. فامتثلت واستنارت نفسها، ومع ذلك استمرّت في التأهّب لمصيرها المكرّس، سنةً كاملةً، قبل نذر ذاتها كلّيّةً لتولّي رئاسة رهبنةٍ جديدةٍ كانت قد شرعت تتهيّأ لها، منذ خريف عام ١٦٣٢. ولم تخشَ الاحتفاظ بكنية ماريّاك، مع تعرّض أركان أسرة ماريّاك للظلم والاضطهاد، والسجن، والإعدام، والمهانة، بعد سنواتٍ من الأمجاد والسلطان.

وجديرٌ بالتنويه أنّ لويز دي ماريّاك، مع صحّتها الهشّة، وجهودها المرهقة، كانت تخفي ارتداءها مسحًا، ولم تتوانَ عن سهر الليالي، وجلد ذاتها، والصوم، والاكتفاء من الطعام بخضراواتٍ مهملةٍ رديئةٍ، وتترقّى، بمشقّةٍ وعنادٍ، معارج القداسة.

ومن المرجّح أنّها لم تكن لتنهج هذا الدرب، لو لم يهيّئ لها الربّ مرشدًا قدّيسًا

حكيمًا، انتشلها من وساوس وهواجس كانت كفيلةً بالقضاء عليها، وانتزعها من انكفائها على همومها الصغيرة التي كانت قمينةً بالتردّي بها إلى وهاد القنوط أو الضياع، وأطلقها في عالم الخدمة الرحب، وأعدّها لتكون أداة إنجازاتٍ مذهلةٍ، تشيد بحبّ يسوع في العالم أجمع.

لقد آتى تعاونُها مع الأب ڤنسان ديپول، على امتداد سنواتٍ، أشهى الثمار وأبقى النتائج، برهن الأب، خلالها، عن تفانٍ لامحدودٍ، ولا عهد له بكلَلٍ، وأولته هي، ثقةً مطلقةً لا تشوبها غمامة شكٍّ، ونشأت بينهما أجمل الصداقات الروحيّة الخصبة بالخير.

كان الأب ديپول يؤمن أنّ كلّ حياةٍ هي معجزةٌ، وقد أثبت من خلال إرشاد لويز دي ماريّاك، كم يستطيع وجودٌ زاخرٌ بالعوائق تحقيق إنجازاتٍ جسيمةٍ، إذا أُحسِنت قيادته.

ولقد أحسن الأب ڤنسان قيادة لويز دي ماريّاك، فكانت، هي، نجاحه الأكثر تألّقًا، وهي، بامتثالها الرائع لقيادته أمست أداةً لإحدى أعظم مؤسّسات المحبّة. وارتفعا، كلاهما، على هياكل القداسة.

ولادة جمعيَّتَي "سيّدات المحبَّة" و"بنَات المحبَّة"

لطالما أكّد الأب ڤنسان ديپول أنّه لم يخطّط لأيٍّ من مشاريعه، بل كانت جميعها عمل العناية الإلهيّة، فهي تعدّ لها الظروف والمقوّمات، وتظهر له إشارات الدعوة إلى مباشرتها وإطلاقها.

وكانت المغامرة التي بدأت عندما كلّف الأب ڤنسان السيّدة "جنيڤييڤ فايّي" (Geneviève Fayet)، أرملة "أنطوان غوسُّو" (Antoine Gousault)، الذي كان مستشار البرلمان، وعضوًا في مجلس الدولة، بالإشراف على أخويّات المحبّة. فاغتنمت هذه السانحة كي تتفقّد أحوال "أوتيل ديو" (Hôtel-Dieu) الباريسيّ، وهالتها مشاهدة رثاثة أحوال المستشفى صحّيًّا وروحيًّا. فالاهتمام الصحّيّ شبه غائبٍ، والنفوس مهملةٌ إهمالاً تامًّا، والأثاث مهترئٌ، والأجهزة غير صالحةٍ، والأسرّة غير كافيةٍ، والأروقة مزدحمةٌ بالمرضى الذين افترشوا حضيض الممرّات. كان هذا المستشفى خاضعًا لإدارة إكليرُس نوتردام، وتخدمه راهباتٌ أوغسطينيّاتٌ. ولم يطرأ على أساليب الخدمة فيه، أو على تجديد أثاثه ومعدّاته، أيُّ تطوّرٍ. وما عاد المستشفون ينالون سوى الأساسيّ من العناية، فلا يكفّون عن الشكوى والتذمّر. وأشفقت على مصيرهم سيّدات المجتمع الراقي، وحاولنَ مواساتهم، ولكنّهنَّ لم يقدّمنَ لهم سوى الكلام الجميل، وشيئًا من الطعام، وحلويات تلهيهم عن وضعهم البائس. وجهدت السيّدة "غوسُّو" في إقناع الأب ڤنسان بإنشاء أخويّة محبّةٍ تتولّى العناية بالمستشفى حصرًا، وإصلاح أوضاعها. ولكنّه، جريًا على عادته، لم يكن يُقدِم على عملٍ ما لم يتأكّد أنّه يحقّق مشيئة الله، فضلاً عن تحفّظه من خدْش مشاعر رجال الإكليرُس المكلّفين بإدارة المستشفى، والراهبات الأوغسطينيّات، فسعى إلى تهدئة روع الجهتين. ومن جانبها لجأت

السيّدة "غوسّو" إلى رئيس أساقفة باريس، وأقنعته برؤيتها، وبلّغ رئيس الأساقفة الأب ڤـــنسان رغبته في تأسيس جمعيّةٍ تبدأ بإصلاح مستشفى "أوتيل ديو"، وتهتمّ بشؤونه. وحينئذٍ لمّ الأب شمل النساء النبيلات الراغبات في الخدمة، وأسّس معهنَّ جمعيّة "سيّدات المحبّة"، ووضع لها نظامًا، وألهب غيرة النساء على الخدمة، فتنافسنَ على عضويّة الجمعيّة الوليدة. وكانت كلٌّ منهنَّ، تزدهي، في اليوم المحدّد لخدمتها، بارتداء إزار الممرّضات الأبيض، وبالتجوّل في غرف المرضى، تواكبها بنات المحبّة، حاملاتٍ السلال، وموزّعاتٍ منها ما جاءت به السيّدات من حلوى، ومحرّضاتٍ المرضى على الاعتراف والتناول، والتداوي لنيل الشفاء.

وبفضل هذه الجمعيّة اطّلعت الأرستقراطيّة الفرنسيّة على مواطن البؤس عن كثبٍ، وهبّت لغوثها، واتّسعت شبكة اهتماماتها وإنجازاتها اتّساعًا لم يتوقّعه الأب ڤـــنسان نفسه، فهي، فضلاً عن إيلائها المستشفى الاهتمام اللائق، والتحديث المطلوب، أخذت على عاتقها، من بعدُ، العناية بالأطفال اللقطاء في باريس، وجمع إحساناتٍ للمناطق التي نكبتها الحروب والكوارث، وللمسجونين، وللمحكومين بالأعمال الشاقّة، وللعبيد والأسرى. ولاحقًا تولّت جمع معوناتٍ للمرسَلين اللعازريّين الذين انطلقوا إلى شتّى مناطق العالم. وبالإجمال واكبت تلك الجمعيّة بمساعداتها جميع المؤسّسات التي دفعت الظروف الأب ڤـــنسان إلى إنشائها.

وكانت النساء اللائي انضوينَ إلى تلك الجمعيّة، تحت رعاية الأب ڤـــنسان، منظَّماتٍ، دائمات الحضور في كلّ مكانٍ يستدعي مساعدتهنَّ، عصيّاتٍ على التعب والملل. وكان معظمهنَّ من طبقة النبلاء، ومن زوجات كبار مسؤولي الدولة. ومنذ البدء أخذت الملكة "آنّ النمساوية" على عاتقها، رعاية تلك الجمعيّة، ودعمتها بنفوذها ومالها.

وقد ذكّرهنَّ الأب ڤـــنسان، ذات يومٍ، أنّ النساء لعبنَ دورًا هامًّا في سنوات الكنيسة الأولى، ثمّ حُسِر هذا الدور منذ القرن التاسع، وها قد شاء الله أن يتوجّه

إلى بعضٍ منهنَّ، ملهمًا إيّاهنَّ أن يكنَّ أُمّهاتٍ لأولادٍ متروكين أو مديرات مستشفياتٍ، أو موزّعات صدقاتٍ، أو حانياتٍ على البائسات. واستنفر منهنَّ بطلات محبّةٍ رائعاتٍ.

وانتُخب الأب ڤـــنسان رئيسًا، مدى الحياة، على الجمعيّة، ونصّ النظام على أن يخلفه، دائمًا، رئيس جمعيّة الرسالة. وكان إلى جانب الرئيس العامّ، رئيسةٌ ومعاونةٌ، وأمينة صندوق، وكانت الرئيسات الأوليات من النبيلات، غير أنّهنَّ رضينَ الخضوع لكاهنٍ قرويٍّ، قادمٍ من ضيعةٍ مغمورةٍ، أكثر من رضاهنَّ الخضوع لأُسقفٍ أرستقراطيٍّ يَعدُدْنَه ندًّا لهنَّ.

وكلّما حلّت كارثةٌ بإحدى مناطق الوطن، كان الأب يجمعهنَّ، ويبيّن لهنَّ المساعدات التي ينبغي تقديمها؛ وغالبًا ما كان يحصل على كلّ ما يرغب في الحصول عليه من أجل غوث المنكوبين. كان يطلب ما يبدو مستحيلاً ولكنّه ممكنٌ وضروريٌّ، وكانت أقواله البسيطة الصريحة، الدافئة، شديدة التأثير عليهنَّ.

وقد باحت إحداهنَّ، يومًا، لملكة پــولونيا "ماري دي غونزاغ" (Marie de Gonzague)، التي سبق لها أن كانت عضوًا في جمعيّة سيّدات المحبّة: "كانت قلوبنا، ونحن نصغي إليه، تلتهب حبًّا لله، مثلما التهب قلب تلميذَي عمّاوس. وكان قلبي يفوح عطرًا لدى سماعه". فأجابت الملكة: "لا عجب في ذلك، فهو ملاك الربّ الذي يحمل في شفتيه جمرات حبّ الله المتّقدة".

أجل، كان عمل الله فيه ينبض بروح القداسة الذي وقاه من التردّي إلى الزهو الذي يولّده، غالبًا، النجاح. وكان دِرْعَه دون العُجب بذاته، وكان تواضعُه الراسخ ينـــزّه عطاءاته من كلّ ما قد يُشعِر المحتاج بالدونيّة والمنّة. وكانت قداسته هي التي تحقّق التوازن بين الجميع، فتجعل الفقير يغفر للغنيّ امتيازاته، والغنيّ ينحني على الفقير انحناءه على محسنٍ إليه.

بلغ عدد المنتسبات إلى الجمعيّة زهاء ثماني مئةٍ، يمثّلنَ الأرستقراطيّة، ونخبة النبلاء، وبورجوازيّاتٍ لم تضيّق الثروة قلوبهنَّ. ومن قاعدة تلك الجمعيّة انطلق الأب ديـــپـــول ولويز دي ماريّاك إلى غوث كوارث الحروب الأهليّة التي كانت تنشب هنا وهناك، في حقبةٍ كانت مسرحًا لأشدّ الكوارث مأساويّةً، ولأروع مُثُل المحبّة بطولةً وإعجازًا.

من هذه الجمعيّة انبثق فريق الأربع عشرة، المؤلّف من متزوّجاتٍ وأرامل، تولّينَ إعداد المرضى لاعترافاتٍ عامّةٍ، بعد أن استعددنَ لهذه المهمّة برياضةٍ روحيّةٍ امتدّت على ثلاثة أشهرٍ، ثمّ أدّينَها برقّةٍ، وتواضعٍ، واحترامٍ، بعيدًا عن أيّ ضغطٍ أو إكراهٍ.

ومنهنَّ مَن أسّسنَ مراكز لحماية الفتيات من الضياع، وإعادة الجانحات إلى السراط القويم والتوبة.

ومنهنَّ فريق "بنات المحبّة"، اللواتي أخذنَ على عاتقهنَّ تعليم الفتيات الصغيرات. ومنهنَّ مَن فتحت بيتها لإطعام الفقراء، حتّى خشي زوجها الإفلاس؛ ومنهنَّ مَن حوّلت منـــزلها مخزن دمًى، توزّعها على الأولاد المحرومين، ولم يكن أحدٌ يردّ لها طلبًا لأنّها لا تطلب لنفسها شيئًا.

ومنهنَّ مَن كرّست أموال ذويها وأصحابها لدعم مشاريع الأب ڤـــنسان الخيريّة، وأضحت أمينة صندوق تلك المشاريع، وكلّما كان أحدها يقع في عجزٍ ماليٍّ يدعوه الأب إلى "سحب شيكٍّ" عليها.

ومنهنَّ مَن فتحت أبواب البلاط واسعةً للأب، ولبّينَ احتياجات مشاريعه بسخاءٍ.

ومن هذه الجمعيّة، أيضًا، انبثق فريق "العصرونيّة"، فكانت خمس نساءٍ من ذلك الفريق يأتينَ في الساعة الثانية من بعد الظهر، وبعد توقّفٍ قصيرٍ في "كاپـــيلاّ" المستشفى، يأتزرنَ، ويتوازعنَ الأطعمة والحلويات المعدّة للمرضى الفقراء؛ فهذه تقدّم الخبز، وهذه تقدّم طبق فواكه مطبوخةٍ ومربّياتٍ، ويدعونَ كلّ مريضٍ إلى

انتقاء ما يطيب له. ومَن لا يقوى على مدّ يده، يطعمنَه بأيديهنَّ. وبما أنّ هذه التقادم كانت تبهظ ميزانيّة الجمعيّة، ارتضت المستشفى اقتسام نفقاتها، وقد حرص الأب على استمرار هذه المبادرة.

ومنذ ١٦٣٤، شرعت أخوات المحبّة، برفقة لويز دي ماريّاك، يساندنَ سيّدات المحبّة. وكان الأب ڤـــنسان يقدّر تفاني السيّدات النبيلات، في أوتيل ديو، وفي كلّ ميدانٍ آخر، وفي الآن عينه يخشى على لويز دي ماريّاك إفراطها في الجهد، خوفًا على سلامتها وصحّتها الهشّة.

وكان يقتضي من أولئك السيّدات الكثير، ولا يتورّع عن تأنيبهنَّ على كلّ تقصيرٍ أو إهمالٍ. وهنَّ كنَّ، إكرامًا لصدقه، ومحبّته، وصراحته، يزدَدْنَ تعلّقًا به، ويتبارينَ على إغداق العون على مشاريعه.

ولا جَرَم أنّ جمعيّة سيّدات المحبّة قد قدّمت خدماتٍ جلّى، وأدّت أدوارًا بطوليّةً في إطار المآسي الوطنيّة. بيد أنّ ما كان يتوجّسه الأب ڤـــنسان قد حدث. فقد كان يخشى تسلّل الكَلَل والحياء البشريّ إلى نفوس السيّدات. وفي الواقع أخذ يتنامى إلى علمه أنّ، في بعض المدن، سيّداتٍ كنّ مندفعاتٍ إلى الخدمة، فأمسَينَ يستحينَ من التنقّل في الشوارع، حيث كنَّ معروفاتٍ ومقدَّراتٍ، وهنَّ حاملاتٌ قدورَ الطعام للمرضى والفقراء، فأوكَلنَ هذه المهمّة لخادماتهنَّ. ورأى الأب في هذه الظاهرة إنذارًا بخمود روح المحبّة.

واتّضحت للأب وللويز دي ماريّاك الحاجة إلى خادمات محبّةٍ يكرّسنَ ذواتهنَّ وخدماتهنَّ طوعًا، وأنّ لا بدّ من إعدادهنَّ عمليًّا وأخلاقيًّا، وروحيًّا وتوجيههنَّ وتثقيفهنَّ. وانحفرت هذه الفكرة في ذهن لويز دي ماريّاك، فكانت كلّما التقت فتاةً تحمل الاستعدادت المطلوبة، تدعوها إلى العمل معها، وتراقبها عن بُعدٍ، وترشدها. وكانت معظم المرشّحات من أعضاء أخويّات المحبّة. وقد تميّزت كثيراتٌ

منهنَّ ببطولاتٍ ومواهب نادرةٍ. أمّا الأب ڤـنسان فقد تلبّث، في البدء، متأنّيًا، وفق نهجه، غير أنّه، تلبيةً لإلحاح الحاجة ارتأى البدء بخطواتٍ اختباريّةٍ.

كانت لويز في الأربعين من سنيها، وقد نضجت، وسيطرت على ذاتها، وتغلّبت على مساقط ضعفها، وعلى هواجسها، واستسلمت لعمل النعمة الإلهيّة. وكان الأب ڤـنسان قد واكبها واختبرها على امتداد عشر سنواتٍ، وأعدّها للسير بمفردها. لا ريب أنّها ستظلّ بين يدي مرشدها، خاضعةً، متواضعةً، ومتردّدةً أحيانًا، مثل كلّ مَن اعتاد الاتّكاء على أذرعة الآخرين. ولكنّها في الحياة اليوميّة، كانت تسير بثقةٍ، ومُجيدةً الإدارة، مستندةً على حبّ الله وعنايته، وعلى خبرتها في شؤون الحياة، وعلى نبوءة الأب ديـپـول الذي صارحها: "يريد ربّنا استخدامك من أجل مجده".

وتحقّقت مشيئة الله هذه بإنشاء جمعيّة أخوات المحبّة، عام ١٦٣٣، التي قال عنها الأب ديـپـول: "لستُ أنا من ابتدع فكرتها، بل كانت فكرة الله". هذه القناعة الوطيدة في نفس الأب كانت تعينه على تخطّي العوائق والعقبات المتراكمة، وعلى إحداث ثورةٍ في الكنيسة، كان قد حلم بها القدّيس فرنسوا الساليزيّ، ولم يتمكّن من تحقيقها، ثورةٍ متمثّلةٍ في جمعيّة راهباتٍ لا يشبهنَ الراهبات، ملتزماتٍ بنذورٍ، ولكن غير محبوساتٍ في أديرةٍ مغلقةٍ، يجُلنَ في الشوارع بلا حجابٍ، وينطلقنَ إلى معالجة المرضى وغوث الفقراء حيثما وُجِدوا.

كان الساليزيّ قد أُكرِه على التخلّي عن حلمه هذا، ولكنّ الأب ڤـنسان مضى في تحقيقه بهدوءٍ، وإصرار مَن يرى هدفه بوضوحٍ، ولا يستكين حتّى يبلغه، مدافعًا عنه ضدّ الجميع، وضدّ كلّ شيءٍ، حتّى تمّ له ما أراد، وشاركته لويز دي ماريّاك حلمه ونضاله، وانطلقت تجنّد متطوّعاتٍ لهذه المهمّة، حتّى بلغ عددهنّ اثنتي عشرة، عام ١٦٣٤.

كانت لويز، منذ عام ١٦٢٩، قد انخرطت في خدمة المحبّة. وبتأسيسها جمعيّة أخوات المحبّة اقتحمت معركة المحبّة، والمرض، والبؤس، بكلّ أشكاله، في المشافي، ومع المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، والأطفال اللقطاء، مغدقةً مع أخواتها الحبّ والبذل في كلّ ميدانٍ. ومع ذلك لم تغفل واجب إقعاد جمعيّتها على قواعد تضمن لها البقاء والاستمرار، وسط عواصف الاضطرابات والاهتزازات الكبرى، وأمواج التحوّلات المتلاحقة، مدركةً أنّ النظام المُحكَم هو العمود الفقريّ الذي لا غنى عنه لحياة الجمعيّة ولبقائها ولوحدة أعضائها وتناغمهم.

وكان الأب قد رسم لأعضاء هذه الرهبنة الوليدة خريطة طريق، تؤكّد فرادة هذه الرهبنة وتميُّزَها، عن سائر الرهبنات، ولا سيَّما الحبيسات، ولطالما ناشدهنَّ:

« فليكنْ ديركنَّ حجرة المرضى،
وصومعتكنَّ غرفةً مستأجرةً،
وسياجكنَّ شوارع المدينة،
وحصنكنَّ الطاعة
وحاجزكنَّ مخافة الله ».

وريثما تصقل التجربة تفاصيل وفاعليّة النظام المؤقّت، وتُتيح وضع نظامٍ نهائيٍّ تصدّقه السلطات الكنسيّة والمدنيّة، لم يكفّ الأب ديـپـول عن مناشدة الأخوات الالتزام الدقيق والوفيّ لهذا النظام، كي يكون لهنَّ أجنحةً تمكّنهنَّ من الارتقاء حتّى الله. وكان يؤكّد لهنَّ أنّهنَّ بخدمتهنَّ الفقراء، يكرّمنَ محبّة الربّ يسوع، ويُفرحنَ قلبه. وما أجمل الدعوة إلى إفراح قلب الله!

وفي مثل نبوءةٍ كان يردّد على مسامعهنَّ قوله: "إذا وفيتنَّ لنظام جمعيّتكنَّ، فسيحقّق الله بواسطة هذه الجمعيّة أمورًا لم يسمع العالم بمثلها قطّ!".

وتحقّقت نبوءة الأب ديـــپـــول، وتجلّت عظمة عمل الله، من خلال تضامن قدّيسَي المحبّة ڤـــنسان ولويز.

كانت لويز، في هذه الأثناء، قد نذرت ذاتها، كلّيةً، لرسالة هذه الجمعيّة، وباشرت مع طلائع أخوات المحبّة عملهنَّ ببساطةٍ وتواضعٍ. في البدء، لم تفرض عليهنّ زيًّا موحّدًا مميّزًا، فاحتفظنَ بزيّهنَّ القرويّ، وبثيابٍ مصنوعةٍ من قماشٍ خشنٍ أزرق ضاربٍ إلى الرماديّ، وبغطاء رأسٍ يقيهنَّ من حرقة الشمس ولسعات البرد. وشيئًا فشيئًا، تطوّر زيّهنَّ، وتوحّد، وصار لقبّعاهٰنّ أجنحةٌ، تدلّ على استعدادهنَّ للطيران إلى حيث تأتيهنَّ صرخات استغاثةٍ.

وكان الأب يلتقيهنَّ باطّرادٍ ويرشدهنَّ إلى واجباهٰنَّ، ويحذّرهنَّ من الأخطاء والمخاطر، ويناشدهنَّ الاحتفاظ بالروح القرويّ، البسيط، الصريح المنـــزّه من الازدواجيّة، ويذكّرهنَّ بأنّهنَّ خادماتُ الفقراء، وبأنّه لا يسوغ أن تأكل أو تلبس الخادمة أفضل ممّا يأكله ويلبسه مخدوموها. فخيرٌ لهنَّ الاكتفاء بالخبز والجبن طعامًا، وبما يبقي لهنَّ قدرةً على العمل، وبالحدّ الأدنى من الإنفاق. ويحذّرهنَّ من الميل إلى إظهار تميّزهنَّ عن الفقراء، روحيًّا وأخلاقيًّا.

وكان يقتضي من القرويّات الأُمّيّات تعلّم القراءة كي يلقّنّها للصغار، وتعلّم الكتابة من أجل التواصل مع رئيساهٰنَّ. وكان يشجّع بعضهنَّ على التمرّس بالخدمات الصحّيّة الأساسيّة، وحسن فهم المريض والفقير، فالفقير هو الأوّل في الكنيسة، وهو الأمير والسيّد، وهو تجسيدٌ لابن الله، فينبغي خدمته بحبٍّ واحترامٍ، أيّةً كانت طباعه وعيوبه. والمريض هو عضوٌ متألّمٌ من أعضاء يسوع، وينبغي مسّه بإجلالٍ وحبٍّ، وهو، نفسيًّا، طفلٌ في أغلب الأحيان، شديد الحساسيّة والهشاشة، توجعه أدنى قسوةٍ، وتريحه أصغر بسمةٍ.

والتعليم الأهمّ الذي كان يدعوهنَّ إلى اكتسابه هو تعلّم مبادئ الدين المسيحيّ من

أجل تثقيف مسيّحيّاتٍ صالحاتٍ، يحسنَّ ممارسة واجباهنَّ. فكان يحثّهنَّ جميعهنَّ على التمرّس بالحياة التأمّليّة والروحيّة، وعلى تطعيم الخدمة الإنسانيّة بالإيمان بالله وبحبّه، ويحرّضهنَّ على التعاضد، فهو ركنٌ أساسيٌّ للحياة الجماعيّة، وشرطٌ لمتانة بنيانها.

وكان يحذّرهنَّ من البطالة، وهدر الوقت، ويدعوهنَّ إلى العمل بلا هوادةٍ، شاعراتٍ، دائمًا، أنّ عليهنَّ إنجاز أعمالٍ كثيرةٍ، ومن ثمّ تفادي الزيارات والأحاديث النافلة، ويناشدهنَّ التزام الصمت، منذ انتهاء عملهنَّ مساءً حتّى صباح اليوم التالي، لأنّ الصمت الخاشع يعزّز مناجاة الله.

غير أنّه كان يؤكّد أنّ لخدمة الفقير والمريض الأولويّة حتّى على التأمّل والعبادة، فإذا دُعينَ إلى غوثٍ ملحٍّ، ألاّ يتحرّجنَ من قطع الصلاة من أجل المسارعة إلى مدّ يد العون، فهنَّ، بذلك، يبعدنَ عن الله من أجل لقاء الله، مؤكّدًا أنّ الفقراء والمرضى هم الذين سيفتحون لهنَّ باب السماء. وكان يناشدهنَّ احتمال أمزجة المرضى، فلا يثُرنَ غضبًا عليهم، ولا يوجّهنَ لهم أقوالاً قاسيةً، فحسبهم ما يعانون، مردّدًا على أسماعهنّ: "اذكرنَ أنّ لهم ملائكةً حرّاسًا غير مرئيّين، ولا تحرمنَهم إلاّ ما قد يسبّب لهم أذًى، واعددْنَهم معلّميكنّ".

كان يدرك المخاطر التي يتعرّضنَ لها، وهنّ يطفنَ وحيداتٍ عزلاواتٍ، في أزقّة المدن والقرى، لا حارس لهنَّ سوى نفوسهنَّ، فيتعرّضنَ للتراخي في التزام النظام، وللإهمال، والتقصير في تسجيل مداخيلهنَّ ونفقاهنَّ. وبما أنّهنَّ كنَّ نساءً وفتياتٍ كانت حشمتهنَّ موضع امتحانٍ، وكان لا بدّ من تحذيرهنَّ من تلك المخاطر بصراحةٍ. وكان يسهر على أدقّ تفاصيل سلوكهنَّ، من حيث الملبس والمأكل، وطريقة المشي، والتحدّث إلى الآخرين، عازفاتٍ عن كلّ ما ينشده العالم، وكأنّهنَّ من كوكبٍ آخر. وكان لا يني يلفت حذرهنَّ إلى الفخاخ التي قد يرتطمنَ بها، مثل الإفراط في الأُلفة مع الآخرين، ومع ذلك إظهار الرقّة للجميع لكيلا يرتدي إمعاهنَّ في الحشمة والتقشّف وجه الكآبة. كان يبتغي أن يبدينَ للآخرين رقّةً، وأن

يتجلّى الفرح على وجوهنّ، وفي الآن عينه إبقاء حاجزٍ لامرئيٍّ يفصلهنّ عن العالم، ويقيهنّ من الخروج عن حدود النظام.

وكان يحذّرهنّ من أيّ ميلٍ نحو الرجال، وحتّى نحو الكهنة، فيحظرنَ دخول أيّ رجلٍ، إلى صومعتهنّ، لأيّ سببٍ كان، لا بل طلب منهنّ أن يطردنَه، هو شخصيًّا، إذا حاول الدخول.

وفي سبيل تشجيعهنّ على التزام النظام كان يستنبط دوافع مشوّقةً. فعلى سبيل المثال، من أجل مساعدتهنّ على الالتزام بواجب الاستيقاظ الباكر، كان يذكّرهنّ، بأنّ موعدَ استيقاظهنّ، في الساعة الرابعة، كانت عشراتٌ بل مئاتٌ من زميلاتهنّ، يستيقظنَ في الدقيقة ذاتها. ويدعوهنّ، إثر ارتداء ثيابهنّ، وترتيب أسرّتهنّ، إلى الركوع والإكباب على التأمّل، أي تجميع أفكارٍ صالحةٍ، من أجل تنفيذها أثناء النهار، والسلوك بوحيها، ولكنّه كان يحذّرهنّ من الانخطافات والخواطر فائقة السموّ، التي قد تكون أكثر إيذاءً من نفعها.

وكان يستشيرهنّ في الأمور العامّة، ويتيح لكلٍّ منهنّ أن تُبدي رأيها، ويحجم عن إعلان رأيه حتّى تُشبَع الأمور نقاشًا واقعيًّا حرًّا. ومع أنّ أمورًا خطيرةً كانت تُناقَش في هذه اللقاءات، بصراحةٍ نادرةٍ، وكانت مخاطر محتملةٌ تُبحَث بجرأةٍ وانفتاحٍ، كانت البهجة تسود هذه اللقاءات، وكانت البسمة تزيّنها، وكان الجميع يمتثلون لرغبات الأب ڤـنسان أكثر من امتثالهم لأيّة سلطةٍ أُخرى. وكان سلوكه ومثاله يفجّران استعداداتٍ رائعةً. فقد سأل الأب، ذات يومٍ، إحداهنّ: "إذا اتُّهمتِ، افتراءً، بأخطاء لم ترتكبيها، ألا يحسن نفيها وإثبات كذبها؟"، فأجابت: "بل أظنّ أنّه أكثر إرضاءً لله، ألاّ أقول شيئًا... فنحن كثيرًا ما نرتكب أخطاءً أُخرى، لا يعلم بها أحدٌ".

وضربت أخرياتٌ في التجرّد وروح الفقر أمثلةً متألّقةً. فقد ألحّت، يومًا، "دوقة إيغيّون"، ابنة أخت الكردينال ريشليو التي كانت تغدق مساعداتها على كلّ

مشاريع الأب ڤـــنسان، أن يفرز إحدى أخوات المحبّة للعمل في قصرها. ومع أنّ تلبية هذا الطلب كانت تخالف نظام الجمعيّة، لم يستطع الأب رفض طلب محسنةٍ عميمة الأفضال على جمعيّته ومشاريعه الخيريّة، فانتدب لهذه المهمّة أختًا كان واثقًا من صلابة قناعاتها. وامتثلت تلك الأخت، مُكرَهةً باكيةً لرغبة الأب. ولكنّها، بعد أيّامٍ معدوداتٍ قضتها في قصرٍ يضجّ بكلّ مظاهر الأُبّهة والبذخ والرفاه، تجلّت عليها أمارات الكآبة، وأمست عاجزةً عن حبس انسياب دموعها، واستفسرت الدوقة عن سبب حزنها، فصارحتها: "أنا هجرت بيت أبي، وكرّستُ ذاتي لخدمة الفقراء، وأنت سيّدةٌ ثريّةٌ رفيعة الشأن، وذات سلطانٍ. ولو كنتِ فقيرةً لسعدتُ بخدمتك!". وعادت إلى الأب دامعة العينين وعاتبته: "إلى أين أرسلتني؟ أإلى بلاطٍ؟". وحدث أمرٌ مماثلٌ مع أُختٍ أُخرى، كُلِّفت بخدمة ملكة پــولونيا، ومع أخواتٍ عديداتٍ طلبتْ منهنَّ الرئيسة العمل لدى سيّدةٍ نبيلةٍ ثريّةٍ، لها على الجمعيّة أيادٍ بيضاء. وكانت معظم المكلّفات بهذه المهمّة يصرِرْنَ على إعفائهنَّ منها، لأنّهنَّ نذرنَ أنفسَهنَّ لخدمة الفقراء، لا لخدمة الأثرياء، ولا للعيش في قصورٍ. وبذلك كنَّ يُبرهنَّ عن إخلاصٍ رائعٍ لدعوتهنَّ، يُدهش حتّى الأمّ لويز نفسها، ولكنّه يثلج صدرها فرحًا.

وبالإجمال بذل الأب ڤـــنسان كلّ كنوز حكمته، كي يؤهّل أولئك القرويّات لحياةٍ نشيطةٍ، بعيدةٍ عن الصوفيّة النافلة وعن الخشونة الفطريّة، وكي يلقّنهنَّ السيطرة على ذواتهنّ، وممارسة المودّة والبساطة، والحذر، في تعاملهنّ مع الآخرين، ومع رئيساتهنَّ، ومع الإكليرُس في المواقع التي يُدعَينَ إلى العمل فيها، ومع المحسنين إليهنَّ، وبخاصّةٍ مع الفقراء، "معلّميهنَّ وسادتهنَّ".

كان قد توقّع المصاعب التي يصدفنَها، وأرشدهنَّ إلى وسائل حلّها أو احتمالها، ولكنّه لم يتهاون، قطّ، مع المعتدّات بذواتهنَّ، والساعيات إلى التظاهر بالتفوّق على زميلاتهنَّ. ولم يكن يتقبّل المزاج السوداويّ الدائم، والكلام الجارح، والتأفّف،

والعجرفة، والازدراء، والشكّ في الآخرين، فالشكّ، حالما يتسرّب إلى الفكر، يطرد احترام الآخر، ويقضي على الوحدة والمحبّة.

وكان من مقتضياته الأساسيّة ألاّ تُقبَل في الجمعيّة فتياتٌ ثريّاتٌ يطلبنَ أن يتمّ كلّ شيءٍ على مستوًى رفيعٍ، وألاّ يفتقرنَ إلى شيءٍ. وكان يناشد جميع الأخوات التلاؤم مع الأمور الصغيرة، ولكنّ ذلك لم يكن يعني ازدراء المواهب، بل توظيفها في أماكنها الصحيحة.

وكانت لويز دي ماريّاك تقاسم الأخوات كلّ تفاصيل حياتهنَّ وعملهنَّ، وتُفيض من حبّها عليهنَّ، موريةً نار الاندفاع حيث كانت آخذةً بالخمود، معالجةً أخطاء المسيرة، مزيلةً الحزازات التي تشلّ النشاط وتُفسد الوحدة، مفجّرةً زخمًا جديدًا حيث ساد الإهمال والتعب، موقظةً الثقة لدى المشكّكات، معيدةً إلى النظام الحرمة التي فقدها، مؤدّيةً كلّ ذلك بعطفٍ، ورقّةٍ، ووقارٍ، ودرايةٍ.

لم تكن، فقط، نشاطًا دائبًا، ولا نزاهةً خالصةً، بل كانت دائمًا رسول محبّةٍ، وملاك رحمةٍ، لا تتلكّأ عن خدمة محتاجين بنفسها، وتقضي ليالي كاملةً، ساهرةً على مرضى ومحتضرين، ناشرةً البسمة على وجوهٍ اكفهرّت أسًى ويأسًا، مفجّرةً بروق رجاءٍ حيثما مرّت.

لا دربَ كان يبدو لها طويلاً، ولا وقتَ غير مناسب، ولا ليلَ دامسًا عندما كانت تقدّم لفقيرٍ غوثًا وعزاءً، ولم يخامرها، يومًا، ريبٌ بأنّها كانت تخدم الربّ بخدمتها البائسين. ولم تملّ من السير بفرحٍ على جميع دروب الصليب.

كانت تنظّم بعقليّة الرئيس المسؤول، وتأمر بقلب الأمّ العطوف، وتدير بيقظةٍ وحكمةٍ.

كانت جمعيّة المحبّة قد وُلِدت في منـــزلها، ونمت في حضنها وبين ذراعيها. وبفضل هذه المبادرات الساهرة، شاعت بين الأخوات طاعةٌ نشيطةٌ، جاهزةٌ،

فرحةٌ، مثابرةٌ، في كلّ حينٍ. فلم تحجم أيّةٌ منهنَّ على الانطلاق، بلا تردّدٍ ولا تلكّؤٍ، إلى أقصى بقاع الأرض، حيث تدعو حاجةٌ إلى الغوث.

وما انفكّت فتياتٌ ريفيّاتٌ يتقاطرنَ صوب مركز أخوات الخدمة، ولا سيّما أنّ لويز دي ماريّاك، والأب ڤـنسان كانا يؤثران، في الجمعيّة، فتياتٍ ريفيّاتٍ، لا تُنفّرُهنَّ المهمّات الوضيعة، ويتميّزنَ بكلّ مؤهّلات الخدمة. ومع أنّ لويز كانت شديدة الحرص على انتقاء المرشّحات، فتستبعد الكئيبات، وتختار متينات الطباع، الفرحات، القادرات على تخطّي الكآبة التي تولّدها مشاهد المآسي اليوميّة، وكانت تحذر، على نحوٍ خاصٍّ، اللواتي لم يكن لهنَّ من دافعٍ سوى الرغبة في الهجرة إلى المدينة، والانعتاق من مصيرهنَّ القرويّ، ونشدان عالمٍ مختلفٍ، أوفر رفاهًا وأقلّ مشقّةً، وكانت تقتضي وجود دعوةٍ حقيقيّةٍ، ورغبةٍ صادقةٍ في خدمة الله، من خلال الفقراء والمرضى، ولا تقبل سوى فتياتٍ يشيد كاهن القرية بأخلاقهنَّ ويوصي بهنَّ، ويرضى ذووهنَّ وأولياء أمورهنَّ بدعوتهنَّ ويباركونها. وكانت تقتضي من القادمات ارتداء ثيابٍ جديدةٍ، وامتلاك مبلغٍ من المال كافٍ لدفع أجور السفر مجيئًا وعودةً، في حال رغبت الفتاة في العودة إلى المنـزل، أو إذا ارتأت مديرتها لزوم عودتها، عقب فترةٍ من الامتحان.

والفتاة التي تُقبَل كانت تخضع لفترة "ابتداءٍ"، تمكّنها من الترقّي في الكمال الروحيّ والتمرّس بمقتضيات الخدمة والتمريض. وكان صقل هذه الثقافة يحتاج إلى وقتٍ ومراسٍ. ولكن، بما أنّ نموّ الجمعيّة لم يكن، دائمًا، موازيًا لتنامي الطلب على خدماتها، كانت لويز تضطرّ، في بعض الحالات، بموافقة الأب ڤـنسان إلى انتزاع مبتدئاتٍ من مقاعد تثقيفهنَّ قبل اكتماله، استجابةً لحالاتٍ ملحّةٍ. وغالبًا ما كان الربّ يعوّض نقص ثقافتهنَّ بإيداعه في نفوسهنَّ الزهد، والصلابة، وروح الفقر، والصبر، والمثابرة، والتواضع، وسخاء البذل.

وبارك الله هذه المبادرة، فنمت الجمعيّة عددًا، وثمارًا خلاصيّةً، نموًّا سريعًا

ومذهلاً، وازداد طلب الرعايا والمشافي والمدارس لخدمات أخوات المحبّة. وكان الأب ڤــنسان قد توقّع هذا الطلب الكثيف، لمتطوّعاتٍ يكتفينَ بالقليل من أجل سكنهنَّ ومعيشتهنَّ، ويبذلنَ قلوبهنَّ وسواعدهنَّ وقواهنَّ بلا حسابٍ ولا تقتيرٍ.

وشاعت رؤيتهنَّ جارياتٍ على أقدامهنَّ، أو طائراتٍ على متن درّاجاتٍ هوائيّةٍ، مزوّداتٍ بأدويةٍ، وضماداتٍ، وأطعمةٍ، وثيابٍ، وأغطيةٍ، مندفعاتٍ إلى تلبية شتّى الاحتياجات الطارئة، مستعجلاتٍ في بلوغ المشافي، أو بيوت المرضى والجياع، غير منتظراتٍ مقابل بذلهنَّ شكرًا أو مكافأةً، ولا حتّى اعترافًا بجميلٍ، بل غالبًا ما كنَّ يُقابَلنَ بالجفوة والشتيمة. ولم تنجُ بعضٌ منهنَّ من الافتراءات، والنمائم، بل حتّى من الإهانات التي غالبًا ما يتعرّض لها من يخرجون عن طوابير الرداءة. ولم تسلم قليلاتٌ منهنَّ من خطواتٍ خاطئةٍ أودت بهنَّ إلى الضياع. بيد أنّ ما كان يجرح قلب الأُمّ لويز هو وفاة بعضهنَّ، من جرّاء اندفاعهنَّ المفرط، وتهاونهنَّ في الوقاية من الأمراض المعدية. فكانت الأمّ لويز تحمّل نفسها جريرة تقصيرها في السهر عليهنَّ. ومن ثمّ لم تعد تطيق رؤية الكآبة على وجوه إحداهنَّ.

وسرعان ما أضحت الجمعيّة الوليدة مشتلاً لمكرّساتٍ متطوّعاتٍ للخدمة المجّانيّة، في كلّ ساحات البؤس والعوز والحاجة، في كلّ جوانب فرنسا، وفي مختلف جهات المسكونة، حيث أضحينَ ممرّضاتٍ في المشافي وفي ساحات القتال، وملبّياتٍ لكلّ نداءات البؤس المتصاعدة من كلّ مكانٍ في فرنسا وفي العالم. حتّى باتت عسيرةً عليهنَّ تلبية كلّ الدعوات المطالبة بخدماتهنَّ، مع أنّ عددهنَّ الذي بدأ بخمسٍ، في منــزل لويز دي ماريّاك تخطّى، في غضون سنواتٍ قليلةٍ، ألوفًا منتشراتٍ في كلّ مطارح البؤس.

بادئ الأمر، بعد أن ضاق منــزل لويز دي ماريّاك بنــزيلاته، اتّخذت جمعيّة أخويّات المحبّة مقرًّا في ضاحيةٍ باريسيّةٍ، حرصًا على حفاظهنَّ على نمط العيش البسيط والمتقشّف. في هذه الأثناء كان الأب ڤــنسان قد انتقل مع مرسَليه من

"معهد الأبناء الصالحين" إلى مقرّ القدّيس لعازر الفسيح. وشقّ على الأخوات بُعد الشُقّة بينهنّ وبين مرشدهنّ ومعلّمهنّ. فعثرت لويز على مقرٍّ أوفر سعةً، وأقلّ بعدًا عن مقرّ القدّيس لعازر. ولكن سرعان ما ضاق، مجدّدًا، ذلك المقرّ بعددهنّ المتنامي باطّرادٍ، فضلاً عن بعده عن وسط المدينة، حيث كانت تستدعي الأخوات واجباتهنّ اليوميّة، وتضطرهنّ إلى قطع مسافاتٍ طويلةٍ، وهدر وقتٍ ثمينٍ، كان يحسن إنفاقه على الخدمة. وحينئذٍ ابتاعت لهنّ جمعيّة الرسالة مقرًّا واسعًا، على مقربةٍ من مقرّ القدّيس لعازر، وسُجِّلت ملكيّته باسم جمعيّة أخوات المحبّة، حالما حصلت على اعترافٍ رسميٍّ.

وكان من ألمع مشاريع الجمعيّة، في المرحلة الأولى، تولّيها، بالكامل، إدارة مستشفى مدينة "أنجي" (Angers)، الذي كان يضمّ مئتي سريرٍ دائمة الإشغال. وقد نظّمت لويز بنفسها عقد إدارة المستشفى، مع مسؤولي المدينة، بدقّةٍ تعلّمتها من الأب ڤــنسان، حريصةً على لحظ كلّ تفصيلٍ، ووضع حلٍّ لكلّ مشكلةٍ قد تنشأ في المستقبل. وكان التفاهم كلّيًّا بينها وبين أُسقف المدينة الذي كان لأخوات المحبّة المرشد الزاخر يقظةً ومودّةً، وكان لهنّ قلبًا كبيرًا، وفكرًا مرهفًا، متجرّدًا.

لقيت الأمّ لويز، في "أنجي" تكريمًا سخيًّا. غير أنّ إشرافها على أدنى التفاصيل قد أنهك قواها، فاعتلّت، وتنامى نبأ اعتلالها إلى باريس مضخّمًا، مقلقًا، فأمطرها الأب برسائل تلحّ في عودتها إلى باريس على محفّةٍ مريحةٍ، وأمعن في توسُّلها مداراة صحّتها خدمةً لله.

ومنذئذٍ، أي منذ عام ١٦٤١ حتّى وفاتها، عام ١٦٦٠ لم يتباطأ بينها وبين بناتها في "أنجي"، تبادل رسائل كانت تبثّهنّ من خلالها عدوى قلبها الكبير، وبساطتها، فتشركهنّ في حياتها وهمومها وتحيا من خلال رسائلهنّ، كلّ لحظاتهنّ. ولكنّها لم تكن تحجم عن تأنيبهنّ عن كل ما تلحظه، لدى بعضهنّ من مظاهر حسدٍ، أو تباهٍ، أو خلافاتٍ داخليّةٍ، وكانت حريصةً على تحذيرهنّ من كلّ خاطرةٍ تخالف دعوتهنّ

المقدّسة، أو تمسّ طهر حبّهنَّ لله وحده، فهذه كلّها أفاعٍ تتسلّل، خلسةً، إلى قلوبهنَّ، وتمعن فيها تسميمًا وقتلاً.

وشاعت سمعة إدارة مستشفى "أنجي" المثاليّة، فتهافتت مستشفيات المدن الأُخرى مطالبةً إدارتهنَّ لها. وكانت لويز تتقصّى، بعنايةٍ، ظروف كلّ طلبٍ، قبل تلبيته، وتلتمس بركة الأب ڤـنسان وتوجيهاته، وتلتزم بها.

ولم تخفَ على أخوات المحبّة عظمةُ المهمّة الموكلة إليهنَّ، والإنجازات التي كنَّ يحقّقنَها، وإكبار الناس لعملهنَّ، ومع ذلك ظَلَلْنَ محصّناتٍ ضدّ الزهو والتعالي.

وهكذا، على امتداد عشر سنواتٍ، دأبت أخوات المحبّة على العمل ببساطةٍ وصمتٍ، بعيدًا عن الضوضاء، فقد كنَّ يَعدُدْنَ ذواتهنَّ لا شيئًا، ولم يخطر لهنَّ طلب اعترافٍ من أسقفٍ أو ملكٍ. ولكن لمّا عظم شأن جمعيّتهنَّ، التمست ترخيصًا رسميًّا وسارع رئيس الأساقفة إلى منحه، محتفظًا لنفسه بحقّ رئاسة الجمعيّة. ولكنّ البرلمان تردّد في الترخيص لراهباتٍ من نمطٍ غير مألوفٍ، يعملنَ خارج ديرهنَّ. وسعدت الأمّ لويز بهذا التحفّظ، حرصًا منها على أن تكون رئاسة الجمعيّة محصورةً في رئيس جمعيّة الرسالة، ضمانًا لوحدة الجمعيّة وتماسكها في المستقبل. ورفض الملك مطلبها، فلجأت لويز إلى الملكة التي التمست عون الحبر الأعظم، وحسم البابا الأمر بإقراره حصر رئاسة جمعيّة أخوات المحبّة بالأب ڤـنسان، وبخلفائه على رئاسة جمعيّة الرسالة. وكان قد أُعدّ لهذه الجماعة نظامٌ، وضعه الأب ڤـنسان بالتعاون مع لويز دي ماريّاك، بعنايةٍ، وقدّمه للأخوات بعباراتٍ مؤثّرةٍ، جاء فيها:

« يا إلهي، ما أروع لقب "خادمات الفقراء والمرضى"! إنّه مرادفٌ للقب "خادمات يسوع المسيح"... ما الذي فعلتنَّ كي تستحققنَ هذا الشرف؟... هذا هو النظام المرسَل لكنّ من الله. فإذا كنتنَّ وفيّاتٍ له، ستفيض عليكنَّ كلّ بركات السماء التي ستباركُكنَّ في عملكنَّ وفي راحتكنَّ، في دخولكنَّ وخروجكنَّ، في ما تعملنَ وما لا تعملنَ. في كلّ ذلك ستسبغ عليكنَّ البركة... ».

وأكّدت أخوات المحبّة، راكعاتٍ باكياتٍ فرحًا واندفاعًا، عزمَهنَّ الالتزام بالنظام. ومنذئذٍ انتشرنَ في كلّ أرجاء فرنسا، ثمّ في جهات المسكونة الأربع، يواكبهنَّ الأب ڤـنسان بروحه وصلواته وسهره، مقتسمًا أفراحهنَّ وشدائدهنَّ. وكان يشبّههنَّ بالنساء القدّيسات اللواتي واكبنَ يسوع أثناء جولاته على أرض فلسطين، شافيًا الأمراض، مضمّدًا الجراح، مواسيًا الأحزان.

كان يشاهدهنَّ ماضياتٍ إلى الخدمة، وكأنّهنَّ ماضياتٌ إلى لقاء أمراء وأصدقاء، ويواكبهنَّ بدعواته ومشاعره، كما يتبيّن من الرسالة التي بعث بها إلى الأخوات المنتدبات لخدمة مقرّ ريشليو:

« لترافقكنَّ، دائمًا، نعمة ربّنا...

"بكلّ قلبي أسأل الربّ أن يسبغ بركته المقدّسة على أخواتنا الحبيبات، وأن يزوّدهنَّ بالروح الذي بثّه في النسوة القدّيسات اللواتي كنَّ يواكبنَه، ويتعاونَّ معه، من أجل غوث الفقراء والمرضى... يا إلهي، ما أسعد هؤلاء الفتيات الصالحات اللواتي يواصلنَ أعمال المحبّة التي مارسها ربّنا على الأرض، حيثما ذهبنَ. ما أجمل مشهدهنَّ، في عيون الله والملائكة، وهنَّ ماضياتٌ لهذه المهمّة الرائعة، التي ارتضاها الله المتأنّس له ولأمّه! وكم ستسعد السماء بهذا المشهد، وما أبهى الإشادات التي سينلنَها في العالم الآخر. فليمضينَ، يوم الدينونة، رافعاتٍ الهامات، فما ممالك الأرض وتيجانها سوى وحلٍ، مقارنةً بما سيُكلَّلنَ به هناك! ».

وهكذا، بعد مضيّ عشر سنواتٍ اندمجت أخويّات سيّدات المحبّة، وبنات المحبّة، في جمعيّة راهبات المحبّة "خادمات الفقراء والمرضى". وفي البدء لم يُلزم الأب راهباته بنذورٍ مؤبّدةٍ، تفاديًا لتذرّع رؤساء كنسيّين بها، كي يُكرِهوا الراهبات على الانحباس في أديرةٍ، ويمنعوهنَّ من خدمة المحتاجين والمرضى في منازلهم وفي المشافي، وبالتالي القضاء على رسالتهنَّ المميّزة. غير أنّه، منذ عام ١٦٤٠، ارتضى أن تُقسِم فئةٌ منهنَّ نذورًا فرديّةً، محدّدة المدّة، تلزمهنَّ بالفقر، والعفّة، والطاعة، وخدمة

الفقراء، وتتجدّد، سنةً فسنةً، يوم **٢٥** آذار من كلّ عامٍ، الموافق لعيد البشارة، وذكرى هجر الأمّ لويز دي ماريّاك العالم. ثمّ، إدراكًا منه للمنعة النفسيّة التي توفّرها النذور للملتزمين بها، وافق على ارتباط حفنةٍ منهنّ بنذورٍ مؤبّدةٍ. ولكنّه، في كلّ الأحوال كان قد أكمل تأهيلهنّ الروحيّ، وزوّدهنّ بمنعةٍ روحيّةٍ، يصونها سهرٌ دائمٌ، تقوم لهنَّ مقامَ الحصن المحكم دون المغريات، والتراخي والوهن.

ولم يستعجل الأب ڤـنسان في وضع نظامٍ دائمٍ لتلك الجمعيّة متيحًا للتجربة والزمن صقل ممارستهنّ، والإرشاد إلى الوسائل الفضلى، والنظام الأمثل. وقد أسهمت لويز دي ماريّاك، في إنتاج نظامٍ يلبّي كلّ مقتضيات رسالة الأخوات، ويضمن استمرارها. وصادق الملك لويس الرابع عشر على هذا النظام النهائيّ، عام **١٦٥٧**، وصدّقه البرلمان في العام التالي.

وكان الأب قد شرع منذ عام **١٦٥٥** يقدّم "أحاديث إلى أخوات المحبّة" يوضح، من خلالها واجباتهنّ، والمُثل المتعلّقة بالمحبّة، والتواضع، والبساطة، مذكّرًا بأنّ غاية جمعيّتهنّ القصوى هي "تكريم الربّ، رئيسهنّ، وخدمته، جسديًّا وروحيًّا في شخص الفقراء، وبصفته ولدًا، ومحتاجًا، ومريضًا وسجينًا".

وبما أنّ مهامهنّ هي غالبًا شاقّةٌ، والفقراء الذين يخدمنَهم ليسوا دائمًا مهذّبين، دمثي الأخلاق، فعليهنّ السهر، بكلّ طاقاتهنّ، على التمرّس بالصبر، وسؤال الربّ أن يغدقه عليهنّ بوفرةٍ، ويهبهنّ مثَل الصبر الذي مارسه، هو، حيال الذين أوسعوه افتراءً، وصفعًا، وجلدًا، وصلبًا.

وكان لا يني يذكّرهنّ بأنّ لخدمة المحتاجين الأولويّة على كلّ واجبٍ آخر حتّى العبادة والصلاة.

القدّيس ڤنسان يحذّر السيّدات من التخلّي عن اللقطاء

تمثال من البرونز تخليداً لمنقذ الأطفال اللقطاء

اللقطاء

ربّما كانت مبادرة الأب ديـــپـــول إلى إنقاذ الأطفال المرميّين من أشدّ مبادراته مسًّا لشغاف قلبه، لأنّها كانت الأكثر تلبيةً لرغبة الربّ الذي جعل من الأطفال الأبرياء والعزّل ممثّلين له على الأرض، ومن كلّ خدمةٍ تُقدَّم لهم خدمةً شخصيّةً له.

في باريس وحدها، كان يُرمى على أبواب الكنائس نحو أربع مئة طفلٍ سنويًّا، وكانوا يوكلون إلى عناية رعيّة نوتردام، التي أوجدت لهم مأوًى، تابعًا لمستشفى أوتيل ديو. غير أنّ مسؤولي الرعيّة، إراحةً لبالهم، كلّفوا بهذه المهمّة لجنةً زوّدوها بالزهيد من المال كي تتدبّر أمرهم، وهذه اللجنة، بدورها، تنازلت عن المهمّة إلى مرضعةٍ جشعةٍ، كانت قد فقدت كلّ شعورٍ أُموميٍّ وإنسانيٍّ، وحصرت اهتمامها في إنقاذ المظاهر، وفي ملء جيوبها مالاً حرامًا، محوّلةً مأوى الأطفال إلى دكّانٍ، ومسلخ دجاجٍ. فكانت لا تتحرّج من تخدير الأطفال لكي لا يزعجها بكاء جوعهم أو وجعهم، فكان معظمهم يلقى حتفه، بعد أيّامٍ معدوداتٍ، وتظلّ هي تحصل على أُجور ادّعائها العناية بهم. ولم تكن تتحرّج من بيع بعضٍ منهم لمتهني التسوّل الذين كانوا يبترون للطفل يدًا، أو ساقًا، أو يقلعون له عينًا، كي يستعطفوا المارّة بمظهر عاهاتهم. وكانت تبيع آخرين لنخّاسين يُعدّونهم ليكونوا عبيدًا وعمّالاً مجّانيّين، وكانت تبيع بعضهم لأمدٍ محدودٍ، لأفراد أُسرٍ مختلفةٍ على اقتسام إرثٍ ثمّ يعادون حالما تتمّ تسوية الخلاف، أو يرمون في الشارع.

ولم يكن يدفع أعضاءَ اللجنة المكلّفة بهؤلاء الأطفال لا حسٌّ بالمسؤوليّة، ولا ذرّةُ فضولٍ، إلى تفقّد مصير أولئك الأبرياء المساكين الصغار.

غير أنّ اطّلاع الأب ديـــپـــول على تلك الفظاعات التي تصم البشريّة بالخزي، وتجرح قلب الخالق الآب، قد سحق فؤاده، وخضّ كيانه، وأثار استنكاره

الصارخ. فلم تعد الراحة تجد إلى نفسه سبيلاً إلاّ بعد انكبابه على معالجتها معالجةً ناجعةً، لا تكتفي بالترقيع الآنيّ، والمعالجة الجزئيّة، بل تقضي، قضاءً مبرمًا، على كلّ استغلالٍ مجرمٍ وذميمٍ. فدعا كوكبةً من سيّدات المحبّة المتبرّعات للخدمة في مستشفى أوتيل ديو، كانت جذوة العطف ما برحت متّقدةً في صدورهنّ، وفي مقدّمتهنّ "دوقة إيغيّون" (Duchesse d'Aiguillon)، التي كانت من أسخى داعمات الأب ديـــبـــول، ودعا معهنّ أخوات المحبّة، للبحث في هذه المأساة، مع علمه بما يحيق بقضيّتها من دقّةٍ، وحساسيّاتٍ، وأحكامٍ مسبّقةٍ.

ومع أنّه لم يصعب، يومًا، على الأب ديـــبـــول استعطاف قلوب سيّدات المحبّة حيال الفقراء والمرضى، وحتّى على السجناء والمحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، مع ما كان يدمغهم من إداناتٍ، إلاّ أنّه لقي مشقّةً في تخطّي جدار نفورهنّ من اللقطاء، مجهولي النسب، وما يوصمون به من عارٍ وخطيئةٍ، واصطباغٍ بلعنة ولادتهم من أُمّهاتٍ مجرّداتٍ من الشرف والإنسانيّة. وكان يُخيَّل لبعضٍ منهنّ أنّ إنقاذهم هو مخالفةٌ للعنة الله، وإهانةٌ للمجتمع الذي يؤثر التستّر على الفضائح والذنوب، وكنّ يعتبرنَ اللقيط حيوانًا مؤذيًا يسوغ قتله، من أجل صالحه، وصالح الجنس البشريّ أجمع. واستنكرنَ أن يطلب الأب ديـــبـــول منهنّ العناية بأبناء الخطيئة؛ ولمّا خاطبهنّ بصوتٍ يرتجف تأثّرًا، ويعبّر عن حزنٍ سحيقٍ، واجهه، للوهلة الأولى، صمتٌ ثقيلٌ، مكتومٌ.

ولكنّ الأب ڤـــنسان كان يُزري بأحكام البشر، ولا يخاف إلاّ حكم الله، ولا يحجم عن تحدّي كلّ مسؤولٍ زائفٍ، أو قاضٍ فاسدٍ، والذين يؤثرون مصانعة البشر على حساب مشيئة الله. وأبى أن يُعاقَب أطفالٌ عن أخطاء والديهم. فأصمّ أذنيه عن كلّ تأويلات البشر وتبريراتهم، ولم يُصغِ إلاّ إلى بكاء أولئك الأبرياء، الذين كان يسمع، من أفواههم، أجمل تسابيح الله، ولا يني يردّد: "لسنا أحرارًا بتقديم الغوث لهم، أو بحجبه عنهم، وإن نحن لم نُغِثْهم في حاجتهم القصوى، فسنستحقّ الإدانة الأبديّة". وكان يعدّ إهمالهم أو إيذاءهم جريمةً أخطر من جريمة قتل هيرودس لأبناء بيتَ لحم وأورشليم.

ولم يكن يكفّ عن ذكر أسماء أنبياءَ وقدّيسين عظماء رماهم والدوهم والتقطتهم أيادٍ حانيةٌ، وأتاحت لهم الترقّي والبروز.

استخدم أكثر الحجج اللاهوتيّة والاجتماعيّة إقناعًا، حتّى بدّد الأحكام المجحفة التي تدين أبرياء بخطأٍ لم يرتكبوه. وحينئذٍ دعا نخبةً من سيّدات المحبّة المتميّزات غيرةً وسخاءً، وأوضح لهنَّ حاجة أولئك الأطفال القصوى إلى العناية، مؤكّدًا أنّ كلّ تقصيرٍ بحقّهم هو جريمةٌ جسيمةٌ. وبفضل حججه المتينة، واندفاع قلبه الكبير أقنعهنَّ بافتتاح فرعٍ خاصٍّ يتولّى العناية بأولئك الأطفال، بالتعاون مع أخوات المحبّة.

كلماته الحارقة خضّت كيانهنَّ، وفجّرت في نفوسهنَّ ينابيع العطف والسخاء، وربّما لم يبذل الأب ديـــپـــول، قطّ، مثل ما بذله في سبيل هذا المشروع من عنادٍ ومثابرةٍ وعطفٍ أبويٍّ. ولا عجبَ إن صوّرَتْه الأسطورة خارجًا في الليالي المثلِجة، ملتقطًا الأطفال المرميّين، وداسًّا إيّاهم في طوايا معطفه، كي يبثّهم الدفء، وكأنّه كان يضمّ إلى صدره كلّ بؤس العالم، وعائدًا بهم إلى أخوات المحبّة الساهرات منتظراتٍ عودته. صورةٌ أخّاذةٌ، ولكنّها انعكاسٌ لواقعٍ أوفر جدوى واهتمامًا وتنظيمًا. فالأب كان عاكفًا على تنظيم خدمة اللقطاء بأدقّ تفاصيلها ومقتضياتها، لاحظًا طريقة إطعام الأطفال وتربيتهم حتّى سنّ الخامسة، ثمّ تعليمهم، حتّى سنّ الثانية عشرة، وإعدادهم لحياة كريمةٍ. ولا ريب أنّ الأب ڤـــنسان قد حمل في قلبه آلاف الأطفال الذين أنقذهم من الموت والبؤس والضياع. وكان كلّ طفلٍ يؤتى به مصدر فرحٍ عارمٍ له. وكان يطرب لثغثغاتهم، وصيحاتهم وبكائهم، التي كانت تسيل إلى نفسه سعادةً تزوّده بالعزيمة على المضيّ قدُمًا في مسعاه. وكم حرص حرصًا يلامس الوسواس على كسائهم وسكنهم وطعامهم ونظافتهم وسلامتهم!

وبأيّ عطفٍ كان ينحني على أولئك الذين لولاه لكانوا غادروا الدنيا، قبل أن تحطّ عليهم نظرةُ حبٍّ!

وتمّ الاتّفاق على إقامة مشروع العناية بأولئك الأطفال، وأوكلت إدارته وتمويله

إلى سيّدات المحبّة، وانتُخبت لويز دي ماريّاك أمينةً عامّةً، ووقع على كاهلها كلّ عبء مسؤوليّة تلك المؤسّسة.

وتبرّع الملك لويس الثالث عشر للمشروع بدخلٍ سنويٍّ قدره أربعة آلاف ليرةٍ، فيما تبرّعت زوجته بضعف هذا المبلغ. ولكنّ دراسةً دقيقةً بيّنت أنّ الميزانيّة المطلوبة من أجل المضيّ بهذه المبادرة إلى غايتها، على نحوٍ لائقٍ، يستلزم لا أقلّ من أربعين ألف ليرةٍ سنويًّا، فدُعيت سيّدات المحبّة إلى التزام كلٍّ منهنَّ بقسطٍ محدّدٍ، من أجل تغطية كامل المبلغ المطلوب. وعُيِّنت لجنةٌ مصغّرةٌ من أجل تذكير المتبرّعات والمتبرّعين بالتزاماتهم وجبايتها في أوانها، والدعوة إلى اجتماعاتٍ عامّةٍ كلّما دعت الحاجة إليها.

ووُزِّع عددٌ من الأطفال على فروع أخوات المحبّة المختلفة، وأُودع آخرون لدى أُسرٍ ومرضعاتٍ كنَّ موضع ثقة الكاهن وأخوات المحبّة، ونُظِّمت لكلّ طفلٍ بطاقةٌ تبيّن وضعه وتطوّرات نموّه، وأصناف العناية التي يتلقّاها. وكانت سيّدات المحبّة وأخوات المحبّة يراقبنَ أوضاع كلٍّ طفلٍ، ويضعنَ بشأنها تقارير. وبالإجمال كان الأطفال ينمون في مناخٍ ريفيٍّ سليمٍ وإنسانيٍّ، مراقَبين، محميّين، محاطين بالعناية، ومعدّين لحياةٍ طبيعيّةٍ. وغالبًا ما كانت تنشأ بين الأطفال والأُسر التي تحتضنهم علاقاتٌ حميمةٌ، علاقاتُ أبناءٍ بوالديهم، بعد أن كانوا مرفوضين مرميّين، وأحيطوا بالحبّ والرعاية، واستعادوا مكانتهم في المجتمع، وتحرّروا من عار ولادتهم.

خطوة الأب ديـــبـــول الأولى، في سبيل منع التجاوزات، تمثّلت في الإحجام عن دفع أجور المرضعات، حتّى تقدّم كلٌّ منهنَّ شهادةً من خوري رعيّتها تؤكّد أنّ الأولاد الذين أُوكل إليها إرضاعهم، ما زالوا أحياءً وفي صحّةٍ جيّدةٍ. وعكف الأب ڤـــنسان والأمّ لويز، معًا، على البحث عن وسيلةٍ مثلى لتوفير غذاءٍ سليمٍ ملائمٍ للأطفال من حليب الأبقار، والماعز.

وكانت لجنة السيّدات قد أصرّت، بادئ الأمر، على الاحتفاظ بالأطفال في مقرّها حيث يتاح لأخوات المحبّة العناية بهم، إذا شئنَ. ولكن سرعان ما فشلت هذه التجربة، بسبب تسلّط مندوبة السيّدات المتعسّف. فاستأجر الأب ديـــپـــول بيتًا، واختار بالقرعة اثني عشر طفلاً، عكفت الأخوات على العناية بهم. وما لبثت أن نشأت مشكلةٌ مقلقةٌ. فقد كان سكّان القرية، تخلّصًا من إزعاج الجنود المستنفرين للخدمة في منطقتهم، يرشدونهم إلى بيت الأطفال فيقيمون فيه قسرًا. ولم يُطِق الأب سكنهم مع الراهبات، فاستعان بأرفع السلطات نفوذًا لمنع الأمر، بلا جدوى، فالمسؤولون قلّما يعيرون هذه الاعتبارات اهتمامًا. وكان لا بدّ له من استئجار بيتٍ وضعه بتصرّف الجنود الغرباء.

وأثبتت الأخوات المشرفات على الأطفال، حيثما كنَّ، مراعاتهنَّ المثاليّة لمبادئ النظافة والوقاية الصحّيّة، التي كانت نادرةً في تلك الحقبة. وحرص الأب ديـــپـــول على تزويد الأطفال بتربيةٍ روحيّةٍ، وعلى تلقينهم الصلاة، ومبادئ التعليم المسيحيّ، والقراءة، وعلى توجيههم توجيهًا يقيهم الميولَ الشرّيرة، مستخدمًا أساليب تطبعها الرقّة، وتستبعد العقوبات الجسديّة القاسية.

وبعد اختبارٍ دام سنتين كان عدد الأطفال قد تنامى، والموارد توفّرت، واتّضح للأب ديـــپـــول أنّ الأوان قد حان كي يتولّى هذا المشروع تولّيًا كاملاً. وأيّدت سيّدات المحبّة قراره في جلستهنَّ العامّة التي عقدنَها في أوتيل ديو، يوم ١٦٤٠/١/١٢.

وسرعان ما اتّضحت الحاجة إلى أماكن تقدّم العناية للأطفال الذين فُطِموا وترعرعوا، وأضحوا بحاجةٍ إلى تعليمٍ. وطمحت سيّدات المحبّة في الحصول على قصرٍ مهجورٍ لهذه الغاية، وكلّفنَ الأب بالحصول عليه من الملكة، فتمّ له ذلك، وانتشت سيّدات المحبّة غبطةً، لم تقاسمهنَّ إيّاها لويز دي مارياك التي كانت أبعدهنَّ رؤيةً. فالقصر قديمٌ، خَرِبٌ، وإصلاحه يقتضي أموالاً طائلةً، فضلاً عن أنّ بناءه لا

يصلح لإيواء أطفالٍ، وهو بعيدٌ عن وسط المدينة، ما يوجب على أخوات المحبّة هدر ساعاتٍ على الطرقات، ذهابًا وإيابًا، ولا سيّما في الشتاء، عندما تكون الطرقات موحلةً. غير أنّها، حيال إجماع الأخريات على التعلّق به، وإغضاء الأب ڤــنسان عن اعتراضاتها، افتقارًا إلى بديلٍ، أكبّت على إصلاح القصر وتأهيله.

ويوم نُقِل الأولاد إلى ذلك المقرّ الجديد، كان لا بدّ من استخدام عربةٍ وحصانٍ. وكانت الطرقات سيّئةً في تلك الفترة من السنة، والسفر في عربةٍ مترجرجةٍ من شأنه إتعاب الأطفال، فتطوّعت أخوات المحبّة لحمل الأكثر هشاشةً على أكتافهنَّ.

واتّخذت الأمّ لويز تدابير لمنح المركز الجديد، بقدر المستطاع، استقلالاً مادّيًّا ذاتيًّا. فقد كان للقصر أراضٍ شاسعةٌ، عمدت إلى زراعتها بالخضراوات الأساسيّة، وكان فيها كرومٌ فأشادت معمل نبيذ كي يسهم بيعُ إنتاجه في تمويل المقرّ، وابتاعت قمحًا، وبَنَت فرنًا، من أجل صنع الخبز الطازج اليوميّ. قسّمت القاعات الكبرى إلى صفوفٍ للتدريس. وكان الأطفال يشرعون بتعلّم القراءة في سنّ الخامسة، وفي سنّ الحادية عشرة يتعلّم الصبيان مهنةً، وتتعلّم الفتيات الأعمال المنـــزليّة، ويمكثنَ في المقرّ، إلى أن يوجد لهنَّ عملٌ، أو أن يتزوَّجنَ، وقد تختار بعضٌ منهنَّ الحياة الرهبانيّة.

كانت الأمّ لويز دي ماريّاك تختزن، في نفسها، كلّ الرقّة المقتضاة لتربية أطفالٍ، وربّما نافسها الأب ڤــنسان رقّةً، كما يتبيّن من نصائحه لبنات المحبّة الموكلات برعاية الأطفال. فقد كان يؤكّد لهنَّ:

« إنّ العناية بهؤلاء الصغار هو مبعث نبلٍ وفخرٍ، بما أنّ والديهم تخلّوا عنهم، فرحّب بهم الله أبوهم، وكلّفكنَّ بأن تتشبّهنَ بالعذراء مريم، وتكنَّ عذراواتٍ وأمّهاتٍ معًا. وما أسعدكنَّ باختياركنَّ لهذه المهمّة! فهؤلاء الأبرياء، لو لم تعتنينَ بهم، لكانوا ماتوا، أو عُذّبوا، أو أصبحوا أشرارًا لا يصلحون لشيءٍ.

ولكنّهم، بفضلكنّ سيترسّخون في المجتمع، وسيبنون أُسرًا مسيحيّةً، فعليكنَّ واجبٌ مقدّسٌ أن تصبحنَ لهم أُمّهاتٍ حقيقيّاتٍ، وملائكةً حرّاسًا وتحمينهم من كلّ شرٍّ، وتبنينَ فيهم نفوسًا رائعةً ».

وقد أسفر النهوض بهذا المشروع عن مصاعب كأداء ألهبت الشيب في رأس الأُمّ لويز دي ماريّاك، وغرست أشواكًا في قدمَيْ الأب ڤـنسان. فما أكثر الذين ادّعوا سلطة مراقبة الأطفال، وتربيتهم كما يرون! وحيال الضغوط الخانقة، والمطالبات اللامعقولة، ومقتضيات المرضعات المسرفة في الطمع، وتهالك البناء الذي اختير لسكن الأولاد تهالكًا مخيفًا أفقده مقوّمات الأمان والصحّة الأساسيّة، ناهيك عن الأزمات المادّيّة المتلاحقة، ونواقيس الخطر التي كانت تطلقها، لطالما راود الأمّ لويز غسل يديها من كلّ مسؤوليّةٍ، والتخلّي عن مهامّها. فكان الأب يتدخّل بحزمٍ، وجدوى، وينقذ الأوضاع لحينٍ. ثمّ لا تلبث كمّاشة الحاجة أن تقبض على الأوضاع وتؤزّمها.

وكان الأب ديـپـول، كلّما لمح بوادر ملَلٍ أو تململٍ أو إعياءٍ لدى الأخوات المعنيّات بالأطفال، يسارع إلى شدّ عزائمهنَّ بأقوالٍ مثل هذه:

« من المؤكّد، يا بناتي، أنّ هذا العمل ينطوي على مشقّةٍ، ولكن أين العمل الخالي من مشقّةٍ؟ ولكنّ مشقّة خدمة الأطفال المرميّين، شأنه شأن كلّ عمل محبّةٍ، تنال مكافأةً جزيلةً تجعل المشقّة محبوبةً. لقد كان بإمكانكنَّ أن تكنَّ أمّهاتٍ في العالم، ولكنّها لا تحاكي هذه الأمومة. فهؤلاء الأطفال يخصّون الله، على نحوٍ فائقٍ، بحيث يمكننا تسميتهم أبناء الله، حقًّا، بما أنّ لا إنسان يقوم لهم مقام الأب... الأنبياء يقولون إنّ أفواه الأطفال تشيد بتسبيح الله، وأنتنّ كنتنّ في ضمير الله منذ الأزل، من أجل خدمة هؤلاء الأطفال الذين يسبّحون الله ويمجّدونه. وفي ذلك مجدٌ عظيمٌ لكنّه جديرٌ بإسعادكنَّ! وكم عليكنَّ أن تشكرن لله هذه النعمة! ».

كان يذكرهنَّ بالشرف السنيّ الذي يَنعمنَ به من جرّاء تربيتهم أبناء الله، الذين كانوا محرومين من اعترافٍ رسميٍّ، ووجدوا عيلةً، وظفروا بأكثر من اعترافٍ، ظفروا بعذوبة الأمومة، منوّهًا بأنّ الله يفرح بما تقدّمه الأخوات من خدماتٍ للأطفال مثلما يفرح بثغثغات أولئك الصغار، وصيحاتهم التي تمسّ شغاف قلبه، وبأنّهنَّ بخدمتهنَّ ممثّلي الربّ على الأرض، يحاكين العذراء البتول والأمّ في آنٍ واحدٍ. وكان لا ينفكّ يشدّ أزرهنَّ بقوله: "لو رعيتنَّ أبناء أُسرٍ ثريّةٍ، لربّما كنتنَّ عانيتنَّ من المشقّة أكثر ممّا تعانينَ من رعاية هؤلاء الأبرياء المرميّين، ولَكُنتنَّ نلتنَّ أجرًا زهيدًا، أجر خادماتٍ، في حين أنّكنَّ، لقاء خدمة هؤلاء المساكين، ستنلنَ الله أبديًّا". وكان يضيف: "لو كان لدى لويز دي ماريّاك ملائكةٌ، لأوكلت إليهم رعاية هؤلاء الأطفال الأبرياء، الذين سيكونون كما تكون أخوات المحبّة، سيكونون صالحين إذا كنتنَّ صالحاتٍ، وأشرارًا إذا كنتنَّ شرّيراتٍ، وغاضبين إذا كنتنَّ غاضباتٍ، ومستهترين إذا استهترتنَّ، وستكوننَّ أنتنَّ السبب".

لم يكن عسيرًا على الأب إبقاء جذوة الخدمة مضطرمةً في قلوب الأخوات اللواتي كرّسنَ ذواتهنَّ للمحبّة. ولكن لم يكن من السهل إبقاء التأهّب للعطاء والسخاء والبذل حيًّا في نفوس السيّدات النبيلات، ولا سيّما عندما كانت الحروب الأهليّة، والاضطرابات السياسيّة والاجتماعيّة تنال من دخلهنَّ المادّيّ الناتج، في معظمه، من غلال أراضيهنَّ الزراعيّة التي كان الجنود يقضون عليها، نهبًا وتدميرًا.

واتّفق أن تخاذلت بعض مَن كان الأب قد ألهب غيرتهنَّ وسخاءهنَّ، متأثّراتٍ بإدانات محيطهنَّ وأوهامه، في ما يتعلّق بلعنة الأطفال المرميّين، وتغلّبت لديهنَّ الكبرياء على العطف.

وفي الآن عينه، كان الطلب على خدمات الأخوات لهؤلاء الأطفال المنبوذين يتضاعف باطّرادٍ، ومشروع رعاية اللقطاء ينمو نموًّا مذهلاً، فكان، مع كلّ ما أعاقه من عقباتٍ، وما اعتوره من مصاعب، قد أنقذ، بين عام ١٦٣٨ وعام

١٦٤٣، نحو ألفٍ ومئتي طفلٍ، وكانت تكاليفه ترتقي مع وتيرة نموّه المتسارع. ومع ذلك، لم يكن الأب ديـپـول يُطيق أن يردّ أيّ طفلٍ، يؤتى به إلى مراكزه. وكانت سيّداتٌ كريماتٌ يتخلَّينَ، في سبيل أولئك الأطفال، لا عن نافلهنَّ فقط، بل حتّى عن حاجاتهنَّ الأساسيّة، من أجل مواجهة الاحتياجات الملحّة. ولكنّ مفاعيل سخائهنَّ كانت محدودة الأمد، ولا تلبث أن تتجدّد الحاجات، وتزداد إلحاحًا.

وحان وقتٌ جفّت فيه الموارد، وواجه مركز الأطفال أزمةً وجوديّةً فالحروب الأهليّة والكوارث الطبيعيّة أنجبت الفقر ونشرته، ودمّرت المزارع وغلالها، وكاد الأطفال يهلكون جوعًا، فلجأت الأُمّ لويز إلى السيّدة "لاموانيون" (Lamoignon)، المعطاء، التي أفرغت بيتها ومخازنها من كلّ محتوياتها. وكانت معظم السيّدات الثريّات قد هجرنَ باريس فرارًا من فقدان الأمن فيها، فالتفتت الأمّ لويز إلى كلّ قادرٍ على إطعام أطفالٍ جياعٍ، ولكنّها لم تلقَ استجابةً تخرجها من أزمتها.

وكان الأب ڤـنسان قد اضطرّ إلى مغادرة باريس المحاصرة. وراح، من مقرّات جمعيّاته خارج باريس، يراسل المسؤولين وأصحاب النفوذ كي يؤمّنوا وصولاً آمنًا للحنطة إلى المراكز التي احتضنت الأطفال. وكان يجهد في حماية هذه المراكز من تعدّيات الجنود الذين انتشروا من حولها. ومع ذلك اضطرّت الأخوات إلى إجلاء أحد المراكز، وإلى الفرار بالأطفال إلى أمكنةٍ أوفر أمانًا.

وكتبت له لويز دي ماريّاك شاكيةً افتقار الأطفال إلى الطعام، والأغطية، والثياب، وأُجور مرضعات الأطفال الذين يرفضون الإرضاع الاصطناعيّ، وإحجام سيّدات المحبّة عن تقديم أيّ عونٍ بحججٍ واقعيّةٍ أو زائفةٍ، معربةً عن خوفها من أن يقضي الأولاد جوعًا، أو أن تضطرّ إلى مطالبة المسؤولين الحكوميّين بإعفائهنَّ من استقبال اللقطاء، وإيكال هذه المهمّة إلى مَن يرونه قادرًا عليها. وكانت قد التمست موافقة سيّدات المحبّة على هذا الإجراء، منعًا للتشكيك، عادّةً الإحجام عن هذا التدبير خطيئةً مميتةً.

ثم ألحقت هذه الرسالة بأُخرى أكّدت فيها أنّ الحاجة إلى معونةٍ فوريّةٍ قد أضحت حيويّةً، إذ خوت خزينتها، خواءً تامًّا، من المال الذي أنفقته على شراء حنطة واستدانت بعض المال لسدّ الحاجة الملحّة إلى ابتياع طعامٍ. وختمت رسالتها بقولها: "ينبغي أن تعقد سيّدات المحبّة جلسةً غدًا، والقيام بعمل إنقاذٍ".

وعقدت سيّدات المحبّة جلسةً، فخاطبهنَّ الأب ڤـنسان بصراحةٍ مُرّةٍ، وقال:

« أيّتها السيّدات، لقد دفعكنَّ العطف والمحبّة على تبنّي هذه المخلوقات الصغيرة، وكنتنَّ لهم أُمّهاتٍ بالنعمة بعد أن هجرتهم أمّهاتهم الطبيعيّات. فهل ستتخلّينَ عنهم الآن، أنتنَّ أيضًا؟ إنّ حياتهم وموتهم بين أيديكنَّ. وسأجري الآن تصويتًا. فقد حان وقت تقريركنَّ عزوفكنَّ عن الرأفة بهم، وأنتنَّ عالماتٌ بأنّ هؤلاء الأولاد سيحيَون إذا دفعتكنَّ المحبّة إلى المثابرة على العناية بهم، وإلاّ فسيُقضى عليهم، ويموتون حتمًا إذا تخلّيتنَّ عنهم! والتجربة لا تدع لكم في ذلك شكًّا. ».

هذه النبرة الناريّة، التي كانت تستمدّ تأثيرها النفّاذ من لهيب قلبٍ مضطرمٍ حبًّا أضرَمَت نيران العطف في نفوس السيّدات اللائي خلعنَ تخاذلهنَّ، وباندفاعٍ عامٍّ، أخذنَ عبء الأطفال على عاتقهنَّ مجدّدًا.

وما انفكّ الإقبال على غوث الأخوات اللواتي أثبتنَ كونهنَّ أمّهاتٍ عطوفاتٍ غيوراتٍ يتضاعف.

ولكن، كان يتّضح للأُمّ لويز دي ماريّاك، يومًا فيومًا، أنّ مساوئ القصر الذي كنَّ قد حصلنَ عليه، وجعلنَه مأوًى للأطفال، كانت أجسم من كلّ توقّعاتها، ولا سيّما في أيّام الاضطرابات والمناوشات الأهليّة، التي كانت تنشب في جواره وتعرِّض الأطفال والأخوات المشرفات عليهم لأخطارٍ مريعةٍ، فضلاً عن جعل الاتّصال بالقصر، وتزويده بالمستلزمات الضروريّة، صعبَيْن، بل متعذّرَيْن.

فاستخدم الأب ديـــپـــول هبةً من الملك لويس الثالث عشر لبناء ثلاثة عشر جناحًا، من أجل إيواء الأولاد الذين تجاوزوا الخامسة من أعمارهم.

وظلّت الأمّ لويز دي ماريّاك عالقةً بين فكّي كمّاشة: الموارد الآخذة في نضوبٍ مستمرٍّ، والنفقات المتزايدة تزايدًا لا هوادة فيه. فالسيّدات المحسنات كنَّ يعتمدنَ، جوهريًّا، على دخل أراضيهنَّ الزراعيّة الذي قضت عليه الاضطرابات. وعلى غرار حالهنَّ، فقدَ مركز الأولاد اللقطاء دخل مزارعه، وأمست الطرقات المؤدّية إليه محفوفةً بالمخاطر. وافتقر الأولاد إلى كفايتهم من الطعام، والألبسة، والأغطية، ومقوّمات العيش. وعزفت المرضعات عن إرضاع الأطفال، بسبب انقطاع أجورهنَّ. وخطر للأُمّ لويز، ثانيةً، إغلاق مقرّات الأولاد. غير أنّ الأب ديـــپـــول لم يستسلم، ودعا السيّدات إلى اجتماعٍ آخر طارئ، غابت عنه كثيراتٌ بعد أن بلّغتهنَّ الرئيسة ضرورة إحضار مالٍ يساعد على مواجهة الأزمة الحادّة. ومرّةً أُخرى، خاطب الأب السيّدات الحاضرات بلهجةٍ مؤثّرةٍ، جاء فيها: "هل ستتخلّينَ عن الأولاد الذين تبنّيتنَّهم؟ إنّ تخلّيكنَّ عنهم يعني قتلهم. وما من أُمٍّ تقتل ابنها. ماذا ستقول الملكة؟ وماذا سيقول المسؤولون الذين أوكلوا إليكنَّ هؤلاء الصغار؟ وماذا سيقول الشعب الذي صفّق لغيرتكنَّ؟ وماذا سيقول هؤلاء الأولاد الذين وثقوا بكنَّ؟ وماذا سيقول الله عندما ستمثلنَ أمامه؟ أنتنَّ مئة سيّدةٍ. وإذا ساهمت كلٌّ منكنَّ بمئة ليرةٍ، سينجو الأولاد. هناك من يجيدون العطاء. فثمّة سيّدةٌ كبيرةٌ (كان يعني الملكة) قد تبرّعت بمجوهراتها. وأنتنَّ تدّعينَ أن ليس لديكنَّ مالٌ، ولكن كم من حلًى وزخارف في منازلكنَّ لا تنفع لشيءٍ؟!"...

ويُقال في هذا السياق أنّه لّما رأى في عنق الملكة "آنّ النمساويّة" نهرًا من الألماس المتلألئ، استلهم الإنجيل وقال لها: "يا سيّدتي لم لا تجعلين من هذه الجواهر خبزًا للأطفال؟". وفي الحال نزعت الملكة عقدها وقدّمته له.

ربّما كانت السهم جارحةً، ولكنّها كانت ضروريّةً. وأصابت هدفها. ورغم

العوَز السائد استطاعت السيّدات سدّ الديون، ودفع مستحقّات المرضعات، وتوفير طعامٍ للأولاد الصغار. غير أنّ أعمال الغوث ما زالت لاهثةً، منهكةً.

واستمرّ مشروع اللقطاء بعد وفاة الأب ديـــپـــول، متخطّيًا الكثير من المغامرات والتعثّرات، إلى أن أُلحِق، أخيرًا، بالمستشفى العامّ. وقد استلهم الذين اهتمّوا بهذا الشأن نهج الأب ڤـــنسان المشبع حنانًا أموميًّا، اتّقاءً للتعثّر وإساءة الهدف. ولم تتخلَّ أخوات المحبّة عن العناية بأولئك الأطفال المساكين. وكانت سيّدات المحبّة قد بذلنَ في سبيلهم من مالهنَّ ونفوذهنَّ بسخاءٍ، وبذلت أخوات المحبّة من ذواتهنَّ وقلوبهنَّ بلا حسابٍ، ولم يكفّ الأب ديـــپـــول عن إذكاء نار العطف في قلوب جميعهنَّ بأقواله الملتهبة، وإيمانه المعدي. وكان الأطفال يرون فيه أبًا لهم، يركضون نحوه، كلّما جاءهم زائرًا، ويلتصقون به، ويدسّون جيوبه التي كان دائمًا يكدّس فيها ما يطيب لهم. وكان حريصًا على تربيتهم برقّةٍ وحزمٍ، كي يجعل منهم مسيحيّين صالحين.

"دار اسم يسوع"

لم يكن بمكنة الأب ديـپول الإعراض عن أيّة ظاهرة بؤسٍ روحيٍّ أو مادّيٍّ والمرور بقرب إحداها، غير مكترثٍ.

وفي عام ١٦٥٠ تبرّع له رجلٌ ثريٌّ بمبلغ مئة ألف ليرةٍ، كي يُقيم به مشروعًا نموذجيًّا دائمًا. فاشترى الأب أرضًا فيها بيتٌ أعدّه ليكون دارًا للعجزة، وفرض على جمعيّة اللعازريّين مبلغًا سنويًّا كفيلاً بإعالة أربعين مسنًّا، يساوي عدد النساء منهم عدد الرجال. ويُختارون من المهنيّين الذين أقعدهم الشيخوخة والمرض عن العمل، وأطلق على هذا المشروع تسمية "دار اسم يسوع".

وقد هدف، من هذا المشروع، تخطّي مجرّد الإحسان المباشر إلى تأسيس مشروعٍ نموذجيٍّ للعمل الإنسانيّ، مناقضٍ للأسلوب السائد في المشافي العامّة. ففي هذه الدار يرتدي النـزلاء ثيابًا نظيفةً، ويتناولون طعامًا صحّيًّا، في قاعات طعامٍ نيّرةٍ وفسيحةٍ، ويصلّون في كاپيلاّ جميلةٍ ومشرقةٍ، ويستطيعون ملء فراغهم بعملٍ يتقنونه ويهوونه، وينفذّونه بشغفٍ وعلى مهلٍ، ويكتسبون به ما يتيح لهم ابتياع ما يحلو لهم أو يشتهونه، آملاً أن تكون هذه الدار، وأسلوب إدارتها، قدوةً وإلهامًا لمشاريع مماثلةٍ.

تولّت أخوات المحبّة خدمة هذه الدار، ودأب الأب ڤنسان على زيارتها بانتظامٍ، والتحدّث إلى نزلائها، وإرشادهم إلى خلاص نفوسهم.

ثمّ عكفت سيّدات المحبّة على إنشاء مشفًى عامٍّ يُودَع فيه المشرّدون والمتسوّلون، وحصلنَ من الملكة على مبنًى كبيرٍ مهجورٍ، أعددنَه، بسخاءٍ لهذه الغاية. ثمّ تبيّن للسلطات الملكيّة أنّ مشروعًا بهذا الحجم لا يسوغ أن يوكل إلى جمعيّةٍ، فحُوِّل إلى مؤسّسةٍ عامّةٍ، أسهم سخاء سيّدات المحبّة في إطلاقها إسهامًا رائعًا.

وفي عام ١٦٥٧، صدر مرسومٌ ملكيٌّ يحظر التسوّل، ويقضي على المتسوّلين بالإقامة في المستشفى العامّ. وكان عدد المتسوّلين في باريس يناهز أربعين ألفًا، منهم عددٌ غفيرٌ من العميان والمقعدين. غير أنّ المرسوم الملكيّ المذكور أحدث ما يشبه معجزةً، فأعلن كثيرون من المتسوّلين شفاءهم من كلّ علّةٍ، وراحوا يبحثون عن عملٍ، فرارًا من السجن القسريّ، وغادر ثلاثة أرباع المتسوّلين مدينة باريس.

ومع أنّ المرسوم الملكيّ كان قد كلّف جمعيّة الرسالة بالإشراف الروحيّ على المستشفى العامّ، وأوكل إلى أخوات المحبّة العناية بمرضاه، إلاّ أنّ الأب ديـپـول، رفض إفراز مرسَلي جمعيّته لهذه المهمّة، فقد كانت مهامّ أُخرى، أخطر شأنًا، تحتاج إليهم، في ميادين مختلفةٍ. ولم تستطع الأُمّ لويز دي مارياك تخصيص أكثر من ثلاث أخواتٍ للعناية بمرضى المستشفى العامّ. وكانت، هي والأب ڤـنسان يعارضان كلّ أسلوبٍ قمعيٍّ يقضي باحتجاز المتسوّلين قسرًا، والانتقاص من كرامة المريض، ومن حرّيّة المتسوّل، ويأبيان التضحية بتلك الكرامة، وبهذه الحرّيّة من أجل النظام، ويؤثران إقناع المتسوّلين بالانضواء طوعًا إلى المستشفى، والإقلاع عن التسوّل، وإشغالهم بما يهوون، ويرغبَان في أن يمسي أسلوب "دار اسم يسوع" للمسنّين، النموذج الأمثل، والأجدر بالتعميم.

أبو الوطن: في مواجهة كوارث الحروب

الكاردينال الوزير ريشليو، وخَلَفه "مازاران" ألّبا، بسياستهما العدائيّة، الدول المجاورة لفرنسا: ألمانيا، والنمسا، والمجر، وإسبانيا، فدفعت بجيوشها إلى المدن الفرنسيّة، والريف الفرنسيّ وأوسعتها قتلاً، وحرقًا، ونهبًا، واغتصابًا، وتدميرًا للحقول والمزروعات، وتعدّيًا على الأهالي. وبما أنّ تلك الجيوش المعادية كانت تتألّف من مرتزقةٍ غالبًا لا يحصلون على الأجر الذي وُعدوا به، فقد كانوا يغنمون كلّ ما تقع عليه أيديهم من مالٍ وطعامٍ، وغلالٍ، ومواشٍ وبهائم.

وقد أثمرت هذه التعدّيات والفظاعات خرابًا شاملاً، وفقرًا مدقعًا، وجوعًا قاتلاً، وهجرةً كثيفةً. فالفلاّح الذي رأى حقوله تُحرَق وتُداس بأقدام الجنود وسنابك الخيل، تركها للبوار، وفقد دافع استثمارها، والذين دُمِّرت بيوتهم، وقُطِعت أرزاقهم هاجروا إلى المدن والقرى الأوفر أمنًا، متسوّلين، مستعطين. وانتشرت المجاعة ومواكبها من الأوبئة والجرائم، والمخازي. فلم يتورّع جياعٌ عن الانقضاض على جِيَف الحيوانات النافقة، وعلى جثث البشر الموتى، والتهام ما يستطيعون التهامه منها. بل أقدم بعضهم على التهام أيديهم وأرجلهم من أجل إسكات غصّات معدهم الخاوية. وضحّت نساءٌ وفتياتٌ بشرفهنَّ لقاءَ كسرة خبزٍ، وباع كهنةٌ أدوات القداديس الثمينة ليهودٍ جشعين، لقاءَ ما يطعمهم يومًا أو يومين.

لقد غرب عن بال السياسيّين أنّ الحرب هي دماءٌ مراقةٌ، وبيوتٌ مدمَّرةٌ، وأرزاقٌ مهدورةٌ، وسيول دموعٍ، وحرمانٌ وإفقارٌ. وبحجّة أمجاد وطنهم أغرقوا مواطنيهم في يمّ البؤس، وويلات الحرب. ادّعوا حبّ فرنسا وأذلّوا الفرنسيّين.

وإزاء هذه الأهوال والمخازي، تجلّت معجزة المحبّة والبطولة. ولم يكن الأب

ڤـــنسان هو بطلها الوحيد، بل كان هو محرّكها ومنظّمها وقائدها، وآزرته جيوشٌ من السواعد البطلة، والقلوب السخيّة الباسلة. فهو لم يستطع الوقوف متفرّجًا على مآسي الحروب ومخازيها، وفيما كان السياسيّون يفاخرون ببطولات مقاتليهم الإجراميّة، كان الأب ديـــپـــول ومرسَلوه، وأخوات المحبّة، وسيّدات المحبّة، يواسون قلب الله وقلوب البشر بسخاء محبّتهم المضطرمة، وبتضحياتهم وبذلهم في سبيل تخفيف آلام ضحايا المجاعة والأوبئة، وعَوَز المهجّرين.

وإن كان سهلاً على المحاربين إشاعة الدمار والبؤس، فكم لزم للأب ورفاقه من تضحياتٍ من أجل ترميم الخراب، وبلسمة الجراح! وكم اقتضى إصلاح أضرار الحرب، وإعادة إعمار ما دمّرته من جهدٍ وتنظيمٍ، فاق بلا قياسٍ ما اقتضاه جنون الحرب!

ولم يسلم مقرّ القدّيس لعازر من شرور الحرب. فمُذ ذاع اقتراب المرتزقة، وعلى رأسهم "جان دي وِرث" (Jean de Werth)، الذي كان مجرّد ذكر اسمه يشيع الهلع في النفوس، ومذ امتلأت الأجواء بروائح الحرائق والدماء، فرّت أفواجٌ من سكّان باريس وضواحيها، حاملين على أكتافهم أطفالهم النيام، ويمّمت جموعٌ غزيرةٌ من الأرياف شطر ملاذ القدّيس لعازر، موئل المحبّة والغوث.

وفتحت راهبات المحبّة أبواب أديرتهنَّ للخائفين والهاربين، وتخلّيْنَ عن أسرّتهنَّ للمذعورين والمنهكين، وللأولاد المرتعدين، وزوّدنهم بطعامهنَّ، وسكبنَ عزاءهنَّ على الذين فقدوا كلّ شيءٍ. وفوق ذلك كان عليهنَّ احتمال فظاظة الجنود الذين اقتحموا الأديرة، وعاثوا فيها فسادًا، قبل أن تفلح جهود الأب ڤـــنسان في إجلائهم عنها.

وكان المرسَلون يواكبون الجنود الفرنسيّين المدفوعين إلى ساحات الوغى، ويساعدونهم على خلاص نفوسهم؛ فيما كانت أخوات المحبّة دائباتٍ على علاج الجرحى وسط دويّ المدافع، وجلبة القتال وتحت وابل القذائف المنهمرة، في حين

كانت أخواتهنَّ في المدن مُكِبّاتٍ على معالجة مرضى الآفات المنتشرة، متعرّضاتٍ لالتقاط عدواهم. وقد لقيت بعضٌ منهنَّ حتفهنَّ من جرّاء هذه العدوى.

غير أنّ الطامّة الكبرى كانت في منطقة "اللورين والألزاس"، حيث احتدم القتال. وكانت تلك المنطقة، عقب سنتين من المَحْلِ والجفاف، تئنّ افتقارًا إلى مقوّمات العيش الأساسيّة، وأجهزت عليها الحرب بفظاعاتها، وقضت على الزهيد المتبقّي، وجعلت أحوالها مريعةً.

وأوفد الأب ديــپــول أحد مرسَليه، على عجلٍ، كي يتفقّد الأوضاع عن كثبٍ، ويطلعه عليها. وكان قد زوّده بمالٍ ومواد غذائيّةٍ لغوث المحتاجين. وما لبث أن بعث ذلك الموفد برسالةٍ هالت الأب، ومزّقت قلبه، فقد جاء فيها: "منذ وصولي شرعتُ بتوزيع ما جئت به. وكان الفقر من الكثافة، والفقراء من الغزارة، بحيث نفد ما لديّ في الحال، ولم أملك ما أقدّمه لكثيرين. أكثر من ثلاث مئة شخصٍ كانوا قد تردّوا إلى مستوًى من الإملاق الأقصى. العديد منهم يشبهون هياكل عظميّةً، يكسوها جلدٌ جافٌّ كالصخر، برونزيّ اللون، مسفرًا، في الوجوه عن أسنانٍ ناتئةٍ جافّة... وعيونٍ غائمةٍ... منظرهم مريعٌ، فأكاد لا أقوى على النظر إليهم. إنّهم يحفرون التربة بحثًا عن جذورٍ يسلقونها ويلتهمونها...".

وتوالت رسائل تصف فظاعاتٍ من كلّ لونٍ، وأرصفةً وعتباتِ كنائس مفروشةً بجثث الذين قضوا نحبهم جوعًا، وبردًا، ومرضًا. وكم من مرسَلٍ هبّ لنجدتهم، فانضمّ إليهم في قوافل الموت!

وقد حملت رسالة أحد المرسَلين صرخة استغاثةٍ مزّقت قلب الأب ديــپــول، فقد جاء فيها: "زوّدني بغوثٍ، أو دعني أمُتْ مع الفقراء".

هذه الصرخات، وأوصاف البؤس المريعة حوّلت الأب ڤــنسان إلى أكثر المتسوّلين إلحاحًا وجرأةً، فلم يدَعْ بابًا إلاّ قرعه، ولم يدَعْ قلبًا إلاّ خضّه، وتبرّع

بكلّ ما كانت مؤسّساته تملكه من مالٍ ومؤونةٍ. ودعا سيّدات المحبّة إلى اجتماعٍ طارئ، وأطلعهنَّ على الأحوال المؤلمة والمخزية التي انتهت إليها المناطق المنكوبة، وناشد سخاءهنَّ، فاستجابت كثيراتٌ بسخاءٍ رائعٍ، وأغدقنَ العطاء. اللواتي كنَّ يواجهنَ نضوبًا في مواردهنَّ الناجمة، في معظمها، عن غلال أراضيهنَّ الزراعيّة، التي قضت عليها الحروب، لم يُحجِمنَ عن بيع الكثير ممّا كنَّ يتباهيْنَ به، في قصورهنَّ، من حلًى وزخارف ثمينةٍ، ومن أوانٍ فضّيّةٍ وذهبيّةٍ. حتّى إنّ بعضهنَّ ضحّينَ بستائر بيوتهنَّ الثمينة، كي تُستعملَ أغطيةً للفقراء والمقرورين. وتبرّع الملك والملكة بمبالغ جزيلةٍ. واستُخدمت الأقمشة الفاخرة التي شُيِّع بها الملك لويس الثالث عشر وعظماء آخرون، كسوةً للعراة.

وهكذا استطاع الأب ڤنسان ديپول إطلاق حملة إغاثةٍ استثنائيّةٍ ومدهشةٍ امتدّت نحو عشر سنواتٍ، وزّع، خلالها، نحو مليوني ليرةٍ نقدًا، وما يساويها قيمةً معوناتٍ عينيّةً، ونحو أربعة عشر ألفِ ذراعٍ قماشًا.

أطلقها بدافع المحبّة، وبمنأًى عن أيّ تكليفٍ رسميٍّ؛ أطلقها وهو صفر اليدين، ومع ذلك جعلها بمستوى وطنٍ، وكأنّه وزير مهجّرين وضحايا حربٍ، أو وزير شؤونٍ اجتماعيّةٍ. فقد كان خبيرًا في استنباط منابع العطاء، واستنهاض الهمم، طافحًا ثقةً مطلقةً بالعناية الإلهيّة، مردّدًا: "صدّقوني عندما يضع الله يده في مشروعٍ يصبح الثلاثة أكثر من عشرةٍ".

وكان الأب، في هذه الأثناء، قد أوفد إلى كلّ مدينةٍ أو قريةٍ منكوبةٍ، مرسلَيْن يستطلعان الحاجات، وينظّمان توزيع المساعدات، وفي كلّ مدينةٍ كبرى، حيث الحاجات جسيمةٌ، كان يعيّن مرسلَيْن مقيمَيْن.

وانطلقت من باريس إلى المناطق المنكوبة قطاراتٌ محمّلةٌ حنطةً، وألبسةً، وأدويةً، كانت أخوات المحبّة، وكهنة القرى يتولّون توزيعها على المحتاجين، بدءًا بالأشدّ حاجةً. ولكنّ عمق البؤس كان بلا قرارٍ، وسرعان ما كانت تذوب الإعانات في

بحر احتياجاتٍ عارمةٍ، لا تني تتكرّر وتتجدّد، فتتصاعد صيحات الاستغاثة ثانيةً، وتتأكّد الحاجة إلى استدرار السخاء أيضًا وأيضًا. وكانت هذه الحلقة من بذلٍ لا يسدّ سوى الزهيد من الاحتياجات المتوالدة والمتجدّدة باستمرارٍ، ولا تشبع من الجوع سوى رمقٍ يسيرٍ، كفيلةً بتثبيط أشدّ العزائم، ولكنّها لم تنلْ، في شيءٍ، من عزيمة الأب فـــنسان الذي كان يزداد إقدامًا وجرأةً، كلّما شاهد جائعًا ينال طعامًا، ومريضًا يستعيد عافيته، ومدنفًا يتنفّس نسْمة حياةٍ جديدةٍ.

ولا ريب أنّ ما ساعده على الاستمرار في هذه الحملة، عبقريّته في التنظيم، وسهره على التفاصيل، وتضامن جيشٍ من القلوب العامرة بالمحبّة مع جهوده.

وكان الأب قد أوعز بتقديم الغوث بدءًا بالأشدّ حاجةً، وبالذين يتعرّضون للموت إذا حُرموا منه أو لم ينالوه في الحال، ثمّ بالمحتاجين الآخرين. وطالب معاونيه في المناطق المنكوبة بتقديم الخبز والدواء، يوميًّا، لمئات الفقراء، فضلاً عن تزويدهم بالثياب، وعن تقديم أدويةٍ للمرضى. وكان الذين بلغت عللهم مرحلة الخطر يعالَجون في مشافٍ، أو في مراكز المرسَلين، والآخرون يعالجون في منازلهم، وأماكن إقامتهم. وكانت المجاعة قد نشرت ظاهرة الصلع، فاهتدى المرسَلون، بإرشاد الأب ديـــپـــول، إلى دواءٍ ناجعٍ لمعالجته.

وحوّل المرسَلون اللعازريّون، في مدنٍ وقرًى عديدةٍ، أجزاءً من مقرّاتهم إلى مشافٍ ومستوصفاتٍ، يستقبلون فيها عشرات المرضى، ويوفّرون لهم فيها العلاج، والمأوى، والطعام، داعمين بذلك، ما سُمِّي "دعوة الأب ديـــپـــول الطبّيّة". فهو كان من روّاد استخدام أدويةٍ مصنوعةٍ من موادّ كيميائيّةٍ، عوضًا عن الاقتصار على مستحضرات الأعشاب من أجل مكافحة الأوبئة والعديد من الأمراض السارية.

وقد ضرب اللعازريّون، في خدمة المرضى والفقراء، أروع مُثُل البطولة. ففي عام ١٦٤٠، لقي أحدهم حتفه، ولم يكن قد تخطّى خمسةً وعشرين ربيعًا، وهو

يعالج مرضى. وانتظم في تشييعه، فضلاً عن أعضاء جمعيّاتٍ رهبانيّةٍ، وكهنةٍ، حشدٌ غفيرٌ من الفقراء المنتحبين.

وبُغية إبقاء جذوة السخاء متّقدةً، طلب الأب من مرسَليه موافاته، بانتظامٍ، بتقارير مفصّلةٍ عن توزيع المساعدات، وعن الخدمات المقدّمة، وعن الاحتياجات التي ما برحت ملحّةً. وكان يطلب أن تُتلى بعض هذه التقارير علنًا في الكنائس كي يَطمَئنَّ المحسنون إلى أنّ عطاءهم سَلَكَ دربه إلى الهدف الصحيح، وأثمر إنقاذًا وحياةً، ولكي يناشد النفوس الكريمة الاستجابة لصيحات الاستغاثة المتجدّدة. ثمّ إنّه أنشأ مجلّةً دوريّةً كانت تنشر أنباء البؤس والسخاء في المناطق المنكوبة.

وكان مقت الأب ديـــبـــول للحرب ولنتائجها الكارثيّة على الأجساد والنفوس قد دفعه إلى مبادرةٍ كفيلةٍ بإيذائه شخصيًّا، وبإضعاف جمعيّته الفتيّة، وبإفقاده دعمًا متينًا. فقد كان واجب المحبّة يحرّره من كلّ خوفٍ، ومن الحياء البشريّ، فلا ينشد إلاّ خدمة الله، وإلاّ غوث كلّ متألّمٍ. ومن ثمّ كان قد تجرّأ وقصد الكردينال "مازاران"، الذي كان يتبوّأ منصب رئيس وزراء المملكة، وركع أمامه، هاتفًا، مردّدًا: "يا صاحب السيادة، هبنا السلام! أشفق علينا! هبْ فرنسا السلام!". وبدا التأثّر على الكردينال، وتظاهر بأنّه يشارك الجميع الرغبة في السلام. ولكنّه زعم أنّ القضيّة لا تتعلّق بإرادته وحده، بل بمجموعةٍ من الأشخاص داخل المملكة وخارجها.

وأيقن الأب أنّ حملةً الإغاثة ستطول. فلا بدّ من تنظيمها. فقد كان راسخ اليقين بأنّ المحبّة ليست مجرّد اندفاعٍ، وارتجالٍ عشوائيٍّ، وبأنّها لا تؤتي ثمارًا إلاّ بقدر ما تُنظَّم وتراقَب. ولذلك كان يرشد مرسَليه إلى طرق التوزيع المثلى والأجدى، ويبيّن لهم تفاصيلها، ويناشدهم التزام محاسبةٍ دقيقةٍ ساهرةٍ. وكان يشدّد على توخّي الجدوى القصوى من كلّ غوثٍ، والتزام الإنصاف في التوزيع، والحرص على التنسيق مع الكهنة والمسؤولين المحلّيّين، ووضع قوائم بأسماء

المحتاجين، وفق شدّة احتياجاهم، وإعادة النظر في هذه القوائم بانتظامٍ، واقتضى منهم إرسال تقارير متواترةٍ عن أعمالهم، كي يرى المحسنون كيف أُنفِقت عطاياهم، ويندفعوا إلى الجود بالمزيد.

وقد جعل من مقرّ القدّيس لعازر مخزنًا لكلّ أنواع المساعدات. ومنطلقًا إلى حيث تدعو حاجةٌ ملحّةٌ إليها، ومن مناطق البؤس المغاثة كان لا يني يتلقّى رسائل شكرٍ تعزّيه، وتقارير تصف حدّة الاحتياجات، وفظاعة الواقع، كانت تمدّه، ولم يكن يتوانى عن تلاوة بعض هذه التقارير في الكنائس كي يُطَمْئِنَ المحسنين ويستدرّ استمرار سخائهم.

ولكن بما أنّ استفحال العوز، والفلتان الأمنيّ، قد ملآ الطرقات باللصوص والجنود الفارّين، فقد أمسى إيصال الإغاثات إلى غايتها شديد الصعوبة، ومحفوفًا بالمخاطر، وأمسى كلّ مسافرٍ معرَّضًا للتفتيش ولتجريده من كلّ ما يملك. وحتّى القطارات كانت تهاجَم وتُسلَب. ومع أنّ تدخّل الأب ديــــپـــول الحازم كان قد أفضى إلى إصدار مرسومٍ ملكيٍّ يقضي بمعاقبة كلّ من يتعدّى على مرسَلٍ أو يسلب إغاثةً، إلاّ أنّ قوافل الإغاثة كانت تستثير، غالبًا، جشع جهاتٍ عديدةٍ، وتذكي لديها شهوة السلب.

وتأكّدت الحاجة إلى وسيلةٍ تضمن سلامة وصول الإغاثات إلى محتاجيها، وعثر الأب ديــــپـــول على ضالّته في أخٍ عاملٍ في الجمعيّة، كان يجمع خصال الأمانة، والبراعة والجرأة، يُدعى "ماتيو رينيار" (Mathieu Regnard)، ولكنّ المرسَلين أطلقوا عليه اسم "رينار" (Renard)، أي ثعلب، من جرّاء ما برهن عنه من فطنةٍ، وحيلةٍ، وبراعةٍ في التملّص من أيدي اللصوص.

كان الأخ "رينار" شديد النحف، وداكن السمرة، ثاقب النظر ومرهف السمع، مهلهل الزيّ، يلبس أسمالاً مهترئةً قذرةً تظهره بمظهر الشحّاذ، لا يغري منظره حتّى اللصوص بتوقيفه وتفتيشه، ولا يغري هزاله حتّى آكلي لحوم البشر

باختطافه. وكان ثاقب الفراسة يتبيّن نوايا أيّ شخصٍ قادمٍ من بعيدٍ. قلبه كان ينبض حبًّا للفقراء، وضميره الصافي كان يحصّنه على الخوف من الموت في كلّ لحظةٍ، وإيمانه المتين بقداسة الأب فـــنسان وقدرتها على حمايته كان يدعم عزيمته على اقتحام أشدّ المغامرات مخاطرةً.

كان، في كلّ سفرةٍ، يحمل بين عشرين وأربعين ألف ليرةٍ يخبّئها في كيسٍ مهترئٍ، تحت كسرات خبزٍ يابسٍ، ويعلّقه بعصًا على ظهره. وقد قام بثلاثٍ وخمسين سفرةً نقل أثناءها نحو مليون ونصف مليون ليرةٍ، ولم يفقد فلسًا واحدًا، مع أنّه وقع ثماني عشرة مرّةً بين أيدي لصوصٍ صوّبوا مسدّساتهم إلى صدره مهدّدين: "نقودَك أو حياتَكّ". فكان يردّ ضاحكًا: "نقودي؟!" وهل ترون فيّ من يحمل نقودًا؟ لو عُرض عليّ أن أعيش خمسين حياةً لقاء فلسٍ واحدٍ، لما استطعت أداء هذا الفلس". وغالبًا ما كان رئيس العصابة يأمر بإطلاق سراحه، والسماح له بمتابعة طريقه. ولكنّه كلّما كان يشتمّ خطرًا داهمًا، كان يبتدع حيلةً تنقذه من ورطته. فذات مرّةٍ لمح عصابةً هاجمةً عليه، فأخبأ النقود في ثغرة شجرةٍ عتيقةٍ، وسار بضع خطواتٍ. ولما بعدت العصابة التي فتّشته ولم تجد لديه شيئًا، عاد فاستعاد أمانته وطريقه.

وفي نوبةٍ أُخرى شاهد فارسًا هاجمًا عليه، شاهرًا مسدّسه، وكانت أمامه كومةُ أعشابٍ وأشواكٍ كثيفةٌ، فرمى فيها هميان النقود، ثمّ رمى عصاه على مقربةٍ منها، ولما دنا منه الفارس أمره بالسير أمامه إلى مكانٍ منعزلٍ كي يفتّشه بعيدًا عن أبصار العصابات. وسار "الثعلب" وهو يحفر بقدميه آثارًا في التربة يستدلّ بها على مخبأ المال. وعندما أوعز إليه الفارس بالتوقّف، التفت نحوه، وشرع ينحني أمامه حتّى يلامس الأرض، مؤدّيًا حركات الاحترام، فظنّه مجنونًا، ومع ذلك فتّشه، ولّما لم يجد معه شيئًا، وخاب ظنّه، أوسعه ضربًا ومضى. فشكر الأخ للربّ الضربات التي تلقّاها، وعاد إلى مخبأ نقوده، مقتفيًا آثار قدميه في التراب، واستدلّ بعصاه المرميّ إلى الأربعة وثلاثين ألف ليرةٍ، وأوصلها إلى غايتها.

قيل إنّ الأخ "رينار" قد نقل على ظهره إلى مواقع الغوث، ما ناف عن مخزون مصرف فرنسا المركزيّ من الذهب. وقد ذاعت روايات مغامراته، فكانت الملكة تستدعيه كي تتمتّع بسماع هذه الروايات، وقالت له، مرّةً: "أنت ساحرٌ حقًّا!" فأجابها: "إنّي مدينٌ بنجاحي لصلوات الأب ڤــنسان، فبفضلها رافقتني دائمًا العناية الإلهيّة وأنقذتني".

وحرص الأخ "رينار"، دائمًا، على استلام إيصالاتٍ موقّعةً بالمبالغ التي كان يوصلها إلى أصحابها، كي يريح قلب الأب ڤــنسان. وغالبًا، ما أُرفقت هذه الإيصالات برسائل شكرٍ كانت تسيل العزاء إلى نفس رئيس جمعيّة الرسالة. فعلى سبيل المثال بعث إليه مسؤولو بلديّة "لونيــڤــيل" (Lonèville)، برسالةٍ جاء فيها: "منذ سنواتٍ عديدةٍ ما انفكّت هذه المدينة الفقيرة تعاني كوارث الطاعون والحروب والمجاعة التي أوصلتها إلى أقصى دركات البؤس التي تغوص فيها الآن. وعوضًا عن المواساة، لم تتلقّ سوى ضغوط الدائنين وشراسة الجنود، الذين سلبونا حتّى الزهيد الذي يقيم أوَدَنا، حتّى خُيِّل إلينا أنّ السماء نفسها لم تعُدْ تؤتينا سوى الشدائد. وإذ بأحد أبنائكم في الربّ يوافينا مثقلاً بمساعداتٍ خفّفت أوجاعنا، وأذكت رجاءنا في رحمة الله. وإذا كانت خطايانا هي التي أثارت غضب الله، فنحن نقبّل، بتواضعٍ، اليد التي عاقبت خطايانا، ونتقبّل عطفه بمشاعر الشكر العميق، ونبارك أدوات رحمته الكبرى، أي الذين دعمونا بحسناهم الضروريّة لنا، ونشكر الذين أوصلوها إلينا، وبالأخصّ أنت أيّها الأب الذي نعدّه، بعد الله، صانع هذا الخير العظيم. سيطلعكم رسولكم على مدى الدمار الذي حلّ بنا، وسيخبركم كم أسعدت مكرمتكم هذا المكان الفقير، حيث الموسرون أنفسهم تردّوا إلى العدم. وسنظلّ نعترف أمام الله بفضل انتشالكم إيّانا من هذا البؤس".

وإلى جانب إرسال مساعداتٍ نقديّةٍ وعينيّةٍ ضخمةٍ إلى المناطق المنكوبة، تعيّن على الأب ديــپــول وفريقه إغاثة الفارّين من جحيم الحرب، وقد لجأ معظمهم

إلى باريس، وتوجّهوا مباشرةً إلى مقرّ القدّيس لعازر، واثقين أنّهم سيلقون فيه مأوًى، وطعامًا ولباسًا، وعلاجًا، وعونًا وعزاءً. وكان قد ذاع في باريس زعمُ نسَب الأب ديــپــول إلى جذورٍ "لورينيّة"، بدليل ما كان يغدقه على اللورينيّين من صنوف الغوث، مع أنّ اللورينيّين كانوا في نظر جهاتٍ فرنسيّةٍ عديدةٍ، غرباء، وليسوا فرنسيّين، فهم طالما أُخضعوا، قسرًا، لسلطة دولٍ أُخرى.

وكانت جمعيّات الأب ديــپــول تقدّم للفارّين من جحيم الحرب المأوى، والحساء، والأمان، والعناية الصحّيّة للمرضى وللمصابين. وكان اللعازريّون يعيدون تأهيل المشافي الموجودة، ويوجدون مشافي جديدةً في الأماكن المفتقرة إليها، حيث تضطلع أخوات المحبّة بمهامّ الممرّضات.

ومع أنّ مهامّهنّ الشاقّة كانت تستغرق وقتًا طويلاً، ولا تتيح لهنّ فسحةً لالتقاط أنفاسهنّ، كان الأب يناشدهنّ تخصيص فسحاتٍ قصيرةٍ للعناية بنفوسهنّ، وللصلاة الكفيلة بمدّهنّ بالعزيمة والثقة بالله، بإبقاء جذوة المحبّة متّقدةً فيهنّ، ولكي تظلّ النعمة الإلهيّة تمدّهنّ بالشجاعة والثبات.

وعندما كان يرسلهنّ إلى المناطق المنكوبة لغوثها، كان يشدّد على نبل رسالتهنّ، ويُشبّههنّ بالمخلّص الذي حطّ على الأرض كي يرمّم ما أفسده آدم. وقد خاطبهنّ، يومًا، بقوله: "ها إنّ الملكة تطلب مُضيِّكنّ من أجل تضميد كلوم الجرحى الفقراء. ويا له من داعٍ للتواضع أمام الله الذي يستخدمكنّ من أجل هذه المهامّ الجسيمة!... إنّ البشر يحاربون من أجل قتل بشرٍ آخرين، وأنتنّ تحاربنَ من أجل إصلاح الشرّ الذي اقترفوه هم. فيا لها من بركةٍ إلهيّةٍ!... إنّ هوّة الخراب تصرخ إلى السماء. ولكنّ أهل الحرب يفتقرون إلى الرحمة، ولا يخشون مهاجمة المنقذين، وسلب المعونات. ولا تتدنّى القوافل الملكيّة، في ميدان هذه الجرائم والموبقات، سفالةً، عن اللصوص وقطّاع الطرق".

ولم يغفل الأب ديـــپـــول ومرسَلوه مهجّرين كانوا ينعمون بالبحبوحة واليُسر، وأفقرهم الحرب، بعد أن التهمت النيران قصورهم وممتلكاهم وأرزاقهم. وكان منهم نبلاء ووجهاء سابقون، باعوا ما استطاعوا بيعه، ولملموا ما استطاعوا لملمته من بين الأنقاض، وفرّوا بما أنقذوه. ولكنّهم مع مرور الشهور، واستمرار الحرب والاضطرابات في موطنهم، أنفقوا كلّ ما جاؤوا به، ووقعوا في العَوَز. غير أنّ عزّة نفسهم منعتهم من مدّ يد السؤال، وآثروا معاناة الحرمان والجوع، صامتين.

واستوضح مرسَلٌ الأبَ ديـــپـــول عن وسيلةٍ لغوث أولئك الذين أودت بهم ظروفٌ قاهرةٌ إلى دركات المهانة، فأجاب الكاهن القدّيس: "سؤالك يسعدني، أجل من الواجب إسعاف هؤلاء النبلاء، الذين أدار لهم الدهر ظهر المجنّ، إكرامًا لربّنا الذي كان فائق النبل، وموغلاً في الفقر، في آنٍ معًا".

وبعد إعمال الفكر واستلهام العناية الإلهيّة، ارتأى الأب إيكال هذا الأمر إلى نخبةٍ من علّيّة القوم الذين عمرت نفوسهم بالورع ومخافة الله، ومحبّة القريب. ودعا ثلّةً منهم إلى اجتماعٍ بيّن لهم فيه سموّ عمل الإحسان هذا، فانبروا لمدّ يد العون وكان في طليعتهم صاحب قلبٍ كبيرٍ، وسخاءٍ استثنائيٍّ، يدعى السيّد "رينتي" (Renty)، وتعهّد فريقٌ منهم بزيارة أولئك الذين جار عليهم الزمن، في مساكنهم، واستبيان حاجاهم وحاجات أفراد أسرهم. ثمّ تكاتف جميعهم على توفير مستلزمات عيشٍ كريمٍ لأولئك المنكوبين، شهرًا فشهرًا، وتعهّد كلٌّ منهم بقسطٍ شهريٍّ لهذه الغاية. واستمرّوا يجتمعون يوم الأحد الأوّل من كلّ شهرٍ، في مقرّ القدّيس لعازر. ويقدّم كلٌّ منهم قسطه للشهر القادم. واتّفق، ذات يومٍ، أنّ التبرّعات التي جُمِعت لم تكن كافيةً، فاستدعى الأب ديـــپـــول القيّم على جمعيّته، واستوضحه عن المال المتوفّر بين يديه، فأوضح أنّ المتوفّر يكاد لا يكفي لإطعام أفراد الجمعيّة يومين. ومع ذلك أوعز إليه الأب أن يضيف هذا المال الزهيد إلى التبرّعات التي جُبِيت، لإتمام المبلغ المطلوب، لكي لا ينقص شيءٌ من حصّة أيّ

مهجّرٍ، مؤثرًا أن يجوع هو ورفاقه على أن يعاني المهجّرون المنكوبون. وكان أحد المتبرّعين الحاضرين قد تنصّت إلى ما جرى من حديثٍ بين الأب وقيّم جمعيّته، فتأثّر حتّى أعماقه. وفي صباح اليوم التالي، أرسل إلى جمعيّة المرسَلين كيسًا يحتوي ألف فرنكٍ، فوضع الأب هذا الكيس أمام أمين الصندوق قائلاً: "انظر كم الله كريمٌ، وجسامة الفوائد التي يؤدّيها عن المال الذي نقرضه له!".

وكان الأب، في خضمّ تلك المحنة قد أنقذ مناطق كاملةً، واستقبل في مقرّات جمعيّاته مواكب غفيرةً من المهجّرين، وأنفق مبالغ طائلةً من أجل إطعامهم، ولم يتوانَ عن الاستدانة في هذا السبيل.

استمرّت هذه المعونات سبع سنواتٍ. ولمّا استقرّت الأحوال في منطقة "اللورين"، ساعد الأب ڤـنسان ورفاقه المهجّرين على العودة إلى منازلهم، وعلى استئناف حياتهم المعتادة. وساعدوا الفلاّحين الذين عادوا، وأولئك الذين كانوا قد تلبّثوا في أراضيهم، على استئناف حياةٍ طبيعيّةٍ، فزوّدوهم بأدوات حراثةٍ جديدةٍ، وببذورٍ يزرعونها، وبالمال الضروريّ للعمل، وسعوا إلى إيجاد عملٍ لمن يستطيع عملاً؛ وقدّموا للنساء والفتيات مغازل وغزولاً. وبالإجمال ساعدوا كثيرين على الانطلاق مجدّدًا إلى حياةٍ كريمةٍ، بمنأًى عن الاعتماد على المساعدات الدائمة التي باتت متعذّرةً، من جرّاء نضوب الموارد. وحينئذٍ التفت الأب ورفاقه والمحسنون إلى نبلاء بريطانيّين وإسكتلنديّين كاثوليكيّين كانوا قد أُكرهوا على هجر مواطنهم فرارًا من الاضطهاد، ووفّروا لهم مثل ما كانوا يوفّرون للنبلاء اللورينيّين من معوناتٍ، وثابروا طويلاً على هذا الغوث.

وشهد أحد المحسنين أنّ مبلغ التبرّعات نقصه، ذات مرّةٍ، ثلاث مئة ليرةٍ كي يفي بالمطلوب، فلم يتوانَ الأب ديـپـول عن تقديم هذا المبلغ الذي كان قد تبرّع له به رجلٌ كريمٌ من أجل شراء حصانٍ بدلاً من حصانه العجوز الذي طالما كبا به، وأوقعه أرضًا وجرحه وأوجعه.

وحينئذٍ التفت الأب وأفراد جمعيّاته إلى مناطق أُخرى في شمال فرنسا، كانت تعاني كوارث مماثلةً، ولا سيّما مناطق "أرتوا" (Artois)، و"پيكاردي" (Picardie)، و"شمپانيا" (Champagne)، حيث كان السكّان يعانون موتًا حيًّا، أو يسوقون حياةً هي والموت سيّان. وأظهروا إلى أيّة قمّةٍ شاهقةٍ تستطيع المحبّة التسامي.

كانت ينابيع الغوث آخذةً في النضوب، فاستعان الأب ڤنسان بالصحافة، وتعاون مع مؤسّساتٍ أُخرى، ناشطةٍ في هذا المضمار، ولا سيّما جمعيّة القربان المقدّس، مستنفرًا القلوب والعزائم، ومنظّمًا توزيع المساعدات المتوفّرة، حريصًا على إيلاء الأولويّة في منح المساعدات الشحيحة إلى الأشدّ حاجةً، والذين قد لا يتاح لهم العيش بمعزلٍ عنها.

وفي كلّ مكانٍ كان يستعين بكبار القلوب، وراسخي الخبرة الذين يقيّمون الأشياء بمجرّد لمسها، ويبرعون في تقليبها على جميع جوانبها، ويكتشفون خفاياها، ويعرفون، مثلاً، منح أدوات الزراعة إلى مَن يحسنون استخدامها، ويعطون البذار إلى مَن يودعه الأثلام ويرويه ويسمّده، لا إلى مَن يلتهمه. وهو كان، دائمًا، فلاّحًا مع الفلاّحين، ومهندسًا مع البنّائين، وصوته يعلو ذودًا عن الضعفاء، ويسيل عذوبةً من أجل تعزية البائسين وشدّ أزرهم. ولطالما أقدم على تدابير جريئةٍ وضعته في مواجهةٍ مع الكردينال الوزير الشرس، "مازاران".

ولم يقتصر الأب ديپول على إنقاذ الأجساد. فقد صدمه الإهمال الروحيّ الذي كان المهاجرون ضحيّته، لأنّ رعاتهم لقوا حتفَهم، أو فرّوا بحثًا عن الأمان. وحرموهم نعمة الأسرار المقدّسة، فقرن هو غوثهم المادّيّ بغوثٍ روحيٍّ، وأعدّ لهم رياضاتٍ روحيّةً في كنيسةٍ بضواحي باريس.

ولم يكتفِ بإنقاذ البلاد من الجوع، بل أعاد إليها قلبًا خفّاقًا بالمحبّة. وكان يستعين على كلّ مكمن خَلَلٍ بمن هم به خبراء. وكانت محبّته مواكبةً لكلّ امرئٍ في حياته اليوميّة، ودمجه في الحياة، وفي الدأب على العمل، وفي الإيمان بالله.

وقد آتت جهوده ثمار خلاصٍ شهيّةً نستطيع تقييمها من خلال رسالتَيْن: ففي رسالةٍ بتاريخ ١٦٥١/٥/٢٢ وجّهها إليه مسؤولو مدينة "ريتيل" (Rethel)، جاء: "لا أحد، حتّى الآن، سوى أنتم وأعوانكم، أشفق على معاناتنا. فمنذ سنتين منطقة "شمـــپـــانيا"، وبخاصّةٍ مدينتنا، لا تعيش إلاّ بفضل المساعدات التي تجودون بها علينا. ولكانت كلّ المنطقة قد أُهملت، ولكان كلّ ناجٍ من الحرب، قد لقي حتفه جوعًا ومرضًا، لو لم توفدوا أحد مساعديكم، كي يغدق علينا غوثه، تنفيذًا لأوامركم، وينتشلنا من بؤسنا الأقصى، ويهبنا الحياة. إنّ المنطقة بأجمعها مدينةٌ لكم".

وقد كتب له، أيضًا، الجنرال "سان كنتان" (Saint Quentin): "إنّ منصبي، واطّلاعي على ما جرى يوجبان عليّ أن ألتمس منكم، بتواضعٍ سحيقٍ، أن تبقوا أبًا للوطن، إنقاذًا لحياة جموع الفقراء والمحتضرين، والمعانين الذين يحيطهم مرسَلوك بأسمى غوثٍ وأكرمه".

الأب ديپول وثورات "المقلاع" (la fronde)

واستحقّ الأب لقب "أبي الوطن"، بفضل ما بذله من مساعٍ جريئةٍ من أجل إعادة السلام إلى البلاد، وتهدئة النفوس، وما أسداه من خدماتٍ حيويّةٍ من أجل إنقاذ ألوف البشر من الموت جوعًا، في غمرة الثورات التي مزّقت فرنسا منذ مطلع عام ١٦٤٩، حتّى نهاية عام ١٦٥٢، وسُمِّيت ثورات "المقلاع". ثوراتٍ تعدّدت أسبابها، وتعدّد أبطالها، واندرجت على ثلاث مراحل، وانفجرت بعد جيشانٍ مكتومٍ استمرّ خمس سنواتٍ.

فإثر وفاة الكردينال الوزير ريشليو، توافدت إلى البلاط ثلّةٌ ممّن ادّعوا أنّهم كانوا ضحاياه، وأنّه غمط حقوقهم، وأقصاهم عن مناصب كانوا هم الأولى بها، آملين في استرجاعها. ولكنّ الوصيّة على العرش، آثرت العمل بوصيّة وزيرها الراحل، وعيّنت خلفًا له دبلوماسيًّا إيطاليّ الأصل يُدعى "مازاران"، وحصلت له على رتبة الكردينال، مع أنّه لم يكن يحمل أيّة رتبةٍ كهنوتيّةٍ.

كان "مازاران" قد عمل في خدمة البابا "أوربان" السابع، الذي عيّنه قاصدًا رسوليًّا في فرنسا، حيث لفت انتباه ريشليو بذكائه وحنكته، فمنحه الجنسيّة الفرنسيّة، ونصح الوصيّة على العرش بتعيينه خلفًا له، لأنّه رأى فيه الشخص الأقدر على إبقاء أركان الدولة ثابتةً، حتّى يبلغ الملك لويس الرابع عشر السنّ التي تخوّله الصعود على العرش، والقبض على مقاليد الدولة.

وسرعان ما أثبت "مازاران" أنّه أبعدُ توغّلاً في الديكتاتوريّة من سلَفه، وأشدّ إمعانًا في التسلّط، فأثار نقمة جميع الفئات.

كان "مازاران" "ماكيافيليًّا" مكتملاً، ولم يكن يستهويه سوى السلطة والمال، ولا يحجم عن أيّة جريمةٍ في سبيلهما. وكان الخداع قبّعته وجلبابه وحذاءه. فقد

نشأ خادمًا لدى زعماء عصاباتٍ صقلّيّين، ومنفّذًا بارعًا لجرائمهم ومخازيهم. وترسّخ في خلَده اليقين بأنّ الاستقامة لا تصلح إلاّ لخداع البسطاء السذّج، وأنّ من يأخذ الشرف والفضيلة على محمل الجدّ، إنّما هو أحمق. فكان يتظاهر بأنّه مرهَقٌ بهموم الدولة، في حين لم يكن يهمّه سوى مغانمه الخاصّة. وكان يتظاهر بالاستقامة والتفاني في خدمة أسياده، ومصلحة الدولة، كي يغرف أكثر ما يستطيع إلى غَرفه سبيلاً، بلا حسابٍ ولا عقابٍ. وكان يُغدق الوعود على سائليه والمتظلّمين، وهو عاقدٌ العزمَ على الإخلافٍ بوعده. وكان يسرّب الرعدة إلى قلوب أبرياء، ثمّ يوهمهم بأنّه غفر لهم ذنوبًا لم يرتكبوها.

وكان والده قد ربّاه على مصانعة العظماء والتزلّف لهم، والاطّلاع على أكثر أسرارهم خفيةً وكتمانًا من أجل ابتزازهم. وكان ينصحه بأن يسعى إلى تجميع كلّ المفاتيح في يده، وعندئذٍ يشكو بأنّ جهوده لا تُكافأ المكافأة الكافية، ويعطي ذاته الحقّ بمكافأة نفسه. وإذا رفع معترضٌ صوتَه، فمئات الفضائح معدّةٌ لإخراسه. كان، إذا ضعف يمسي جبانًا زاحفًا، وعند أوّل انتصارٍ كانت الكبرياء تعمي بصره. وكانت نقمةُ الشعب تسرّب الخوف إلى نفسه، أحيانًا، ولكنّها لم تدفعه، يومًا، إلى إجراء العدل. وكان يتنصّل، شخصيًّا، من مسؤوليّة كلّ ضيمٍ يلحق بالشعب، ويلقي بالوزر كلّه على الملكة.

وحمايةً لنفسه نقل عدوى هوى المال إلى النبلاء، وشجّعهم على عدم التحرّج من أيّ عائقٍ دون سلب المال العامّ. وأفسد السياسيّين بجعل السياسة فنّ الخداع، والغشّ، والكذب، والظلم، والأنانيّة التي تلبس قناع التفاني في سبيل الصالح العامّ، وتلتمس النجاح على حساب بؤس الجموع، وخراب البلاد.

ومن ثمّ أمعن في إرهاق الشعب بالضرائب، بحيث لم يبقَ للناس سوى نفوسهم ونَفَسهم، كما قيل. حتّى إنّ قاضيًا رفيعًا خاطب الملكة قائلاً: "تأمّلي، يا سيّدتي، في سرّ ضميرك، ما سبّبتِه من بؤسٍ شاملٍ. ولا تنسي كوارث الأرياف حيث لا توقُّع

السلام، ولا شرف الانتصار في المعارك، ولا الافتخار بأقطارٍ محتلّةٍ، تستطيع إشباع المفتقرين إلى الخبز، ولا هم يعدّون غار النصر من ثمار الأرض...".

وانضمّ إلى الشعب الناقم البرلمانيّون الذين تمرّدوا على قراراتٍ ملكيّةٍ أوحاها "مازاران" نفسه، تقضي بالحدّ من صلاحيّاتهم وسلطاتهم، انتقامًا من رفضهم لسلطته المطلقة، ولفرضه مضاعفة الضرائب، وفرضه ضرائب جديدةٍ على شعبٍ يئنّ عَوَزًا، إثر محلِ مواسم زراعيّةٍ متعاقبةٍ، من أجل تغذية حروبٍ عبثيّةٍ رفعت نفقات الدولة إلى ثلاثة أضعافها.

وفضلاً عن ذلك أسرف "مازاران" في منح امتيازاتٍ لمحظيّين، وأزلامٍ فاسدين، وارتكب خطأً مميتًا عندما أمر باعتقال برلمانيّين، وهم خارجون من قدّاسٍ، وعلى رأسهم رئيس المجلس، السيّد "بروسّيل" (Broussel)، الذي كان معبود الجماهير، بسبب نزاهته، وصدقه، وبساطة عيشه. وهبّ الشعب مطالبًا بالإفراج الفوريّ عنه، ونُصِبت المتاريس في كلّ أحياء باريس. ففرّ البلاط و"مازاران"، خلسةً إلى ضاحية "سان جيرمان آن لي". (Saint Germain en Lay). وشرع "مازاران" يفرض حصارًا على المدينة، متوقّعًا إخضاع الثائرين بتجويعهم. ولمّا شرع الشعب يئنّ جوعًا، اعتزم البرلمان التفاوض مع البلاط، وقصد وفدٌ منه "سان جيرمان"، ولكنّ الملكة، بتحريضٍ من "مازاران"، رفضت مقابلتهم.

وهصرت قلب الأب ڤـنسان مشاهد التشرّد والجوع، فأقدم على مغامرةٍ لم تخفَ عليه عواقبها، ولكن لم يكن بوسع أحدٍ سواه الإقدام عليها، فهو وحده قادرٌ على مصارحة الملكة والتأثير عليها بصفته مرشدَها الروحيّ، وعضوًا في مجلس الضمير.

إذن، صباح ١٦٤٩/١/١٤، باكرًا، امتطى الأب حصانًا، وصحبه أحد إخوة جمعيّته، وانطلقا صوب "سان جيرمان". وكان الطريق محفوفًا بالمخاطر، زاخرًا بالعوائق، وبحواجز الثوّار، وحواجز الملكيّين، وكلٌّ من الفريقين كان يشتبه بعمالة

الأب لخصمه. ولّما وصل الأب ورفيقه إلى قرية "كليشي"، كان الأهالي مستنفَرين، لأنّ ألمانًا كانوا قد أمعنوا أثناء الليل، في القرية سلبًا وتدميرًا، وكاد الأهالي يُلحقون أذًى بالأب وصاحبه، لولا أنّ أحدهم تعرّف خوري الرعيّة السابق، فتمكّنا من متابعة طريقهما. وكان نهر السين قد فاض، وغمرت مياهه الطرقات، ولم يتردّد الأب ورفيقه في مخرها، ووصلا مبلّلين إلى مقصدهما.

جثا الأب أمام الملكة، تواضعًا واسترحامًا، وخاطبها بصراحةٍ وجرأةٍ، مؤكّدًا أنّ تجويع الناس جريمةٌ كبرى، وأنّه لا يسوغ إماتة آلاف الأبرياء بجريرة عشراتٍ من الثائرين. ولم يُخفِ عنها أنّ الشعب لن يستكين ولن يهدأ إلا بابتعاد "مازاران" عن الأبصار، وعن التحكّم بمصير العباد، لأنّ الشعب يعدّ "مازاران" هو سبب كلّ كوارث البلاد.

وتلبيةً لرغبة الملكة، قابل الأبُ "مازاران"، وأطلعه على الأحوال المريعة التي تردّى إليه الشعب، وحذّره من عواقب لعبته الخطيرة، ومن انتقامٍ عقيمٍ سيرتدّ شرًّا على الجميع. ودعاه إلى التواري، ريثما تهدأ النفوس، وختم خطابه بقوله: "ضحّوا بذاتكم، وانأوا، ولو مؤقّتًا، رأفةً بفرنسا!".

وقد اعترف الأب ڤـــنسان، لاحقًا، أنّه، في حميّا اندفاعه، علت نبرتُه، وبلغت حدّةً غير مألوفةٍ لديه. ولم يُطِقْ "مازاران" أن يُخاطَب بهذه اللهجة، ولكنّه، إدراكًا لما كان يحظى به الأب من احترام الملكة، تظاهر بالاقتناع، وزعَم أنّ كلّ ما قام به كان بدافع حرصه على أن يحترم الشعب الملكة ويطيعها، في حين كان، في سرّه، يعدّ نفسه هو الملكة. وتظاهر بالتعاطف مع آلام الشعب، ولكنّه استدرك بأنّ عليه إعمال الفكر، ومناقشة الأمر مع مستشاره الذي كان "صوت سيّده". بيد أنّ عنف لهجة الأب كانت قد خضّته. وفي الوقع أخذ الحصار يتراخى، وشرعت حمولات طحينٍ تنهج طريقها إلى العاصمة. وبعد مضيّ بضعة أسابيع، ارتضى "مازاران" التفاوض مع البرلمان، وأبرمت معاهدة "رويّ" (Rueil)، في آذار ١٦٤٩.

كان الأب ڤـــنسان قد أسدى خدمةً جلّى للفريقَيْن، ولكنّ الفريقين تنكّرا له. فالثائرون الذين أنقذهم من الجوع عدّوه خائنًا. وكان زهاء ستّ مئة جنديٍّ قد اقتحموا مقرّ القدّيس لعازر، وأقاموا فيه، وأمعنوا فيه تدميرًا، ونهبًا، ومصادرةً، وباعوا مخزونه من الحنطة، وأحرقوا مخزونه من أحطاب التدفئة.

في هذا الجوّ العاصف تعذّرت على الأب العودة مباشرةً إلى باريس، فانطلق إلى تحقيق أمنيّةٍ، طالما راودته، ولكنّه لم يكنْ ينعم بفسحة وقتٍ من أجل تحقيقها، ومضى إلى تفقّد عشرات مؤسّساته المنتشرة في شتّى أنحاء فرنسا. ومع أنّ هذه الرحلة قد آتته شيئًا من هدوء الريف، بعيدًا عن زحام باريس وضوضائها، واستعادة حلاوة ذكريات رسالاته الأولى، والتقاء صديقه الجنرال إيمانويل "دي غوندي"، في إحدى قراه، وكان الجنرال، حينذاك، قد هجر العالم، وأصبح كاهنًا في جمعيّة "الأوراتوار"، إلاّ أنّ أنباء باريس وشتّى مناطق الريف التي دنّستها الجيوش والميليشيات المتحاربة، ونشرت فيها البؤس، ما انفكّت تنهمر عليه وتحزنه.

كان النبأ الفاجع الأوّل الذي هبط عليه هو نبأ الكوارث التي حلّت بمقرّ القدّيس لعازر، على يد جنودٍ وعصاباتٍ، نهبته، وألحقت أضرارًا بالغةً بمحتوياته وبالماشية والدواجن والمزروعات وبالأبنية، وادّعت فئةٌ من المخرّبين أنّها تنفّذ أوامر البرلمان، ولمّا بُلِّغ البرلمان بهذه التعدّيات، أمر بطرد الرعاع، وبإرسال جنودٍ، كلّ يومٍ، لحماية المقرّ، وضمان أمنه. ولكنّ اللعازريّين، في هذه الأثناء، كانوا قد جُرِّدوا، وأمسوا عاجزين عن إغاثة أيٍّ كان، وحتّى عن توفير أوَد العيش لأعضاء الجمعيّة وفروعها. وزاد الطينَ بلّةً أنّ مزرعة الجمعيّة الكبرى، كانت قد نُهبت، أيضًا، وشرّدت قطعانها، وأنّ الطرقات كانت قد قُطِعت وأُقفلت، فتوقّفت عربات النقل التي كانت الجمعيّة تستثمرها، عن العمل.

وكان لا بدّ من انتظار شهرين، وحدوث بعض هدوءٍ واستقرارٍ، قبل أن يستأنف اللعازريّون توزيع كمّيّاتٍ ضئيلةٍ من الحنطة، على نحو ثلاثة آلاف فقيرٍ.

وعدّ الأب هذا الصحو العابر "عزاءً جمًّا، وسعادةً كبرى، في خضمّ المحنة القصوى التي تجتازها البلاد".

ومن الريف دأب الأب على توجيه رسائل إلى جمعيّاته وفروعها، مرشدًا إلى مواجهة نضوب الموارد، وداعيًا إلى الحرص على الزهيد المتبقّي، والتقتير في استخدامه، والاكتفاء بما لا بدّ منه للبقاء، ومع ذلك تقديم كلّ غوثٍ ممكنٍ.

ومع أنّه كان قد بلغ السبعين من العمر، ومع معاناته آلامًا مضنيةً في ساقيه اللتين انتشرت فيهما القروح والالتهابات، وجعلت سيره شاقًّا وموجعًا، ومع أنّ الحمّى لم تكن تفارقه، لم يكن يتوانى عن القيام برحلاتٍ طويلةٍ ومتعبةٍ، على متن حصانٍ، متحدّيًا المخاطر الأمنيّة، وحالة الطرقات الخطيرة، حتّى إنّه انزلق، ذات يومٍ، مع حصانه في نهرٍ، وكادت المياه الجليديّة تجرفه وتقضي عليه. وعندما كانت المسالك مسدودةً، والعبور متعذّرًا، كان، تفاديًا للبطالة والجمود، ينصرف إلى حملات تعليمٍ دينيٍّ. وكانت أخواتٌ من قرى مجاورةٍ تأتينَه بأدوات الكتابة، وبالزهيد من الطعام، وتشعلنَ له نارًا في البيت أو الكوخ الذي أوى إليه. كي يدفئ يديه المتجمّدتين. ويستطيع التواصل، بالرسائل، مع سائر رفاقه وفروع جمعيّاته.

واعتلّ، ذات يومٍ، اعتلالاً خطيرًا، فاستقدم رفاقُه، من غير علمه، ممرّض مقرّ القدّيس لعازر لمعالجته.

ولكم كان يُحزن الفلاّح الكامنَ فيه، مشهدُ مواشٍ تائهةٍ، كان الجنود قد فتحوا لها أبواب الحظائر، بعد أن نهبوا المستودعات. وقد انطلق، مرّةً، في إثر قطيعٍ مشرّدٍ، واستعاد مئتين وأربعين خروفًا وحصانين.

وبقدر ما كانت تسعده رؤية مقارّ ناجيةٍ من التعدّيات، ومزدهرةٍ، كان يؤلمه اضطرابُ حالِ بعض مقرّات بنات المحبّة، وتعرُّضهنّ للاضطهاد والاتّهام الباطل باحتكار المساعدات المعدّة للفقراء، فكان ينبري للذود عن حياضهنّ، ولإثبات

براءة الأخوات، ولكن كانت توجعه ملاحظة مشادّاتٍ داخليّةٍ، بين أفرادٍ منهنَّ، ويبعث بمقترحاتٍ إلى لويز دي ماريّاك من أجل معالجة الخلَل.

وفيما كان مكبًّا على تفقّد فروع جمعيّته، وصلت إليه رسالةٌ من دوقة "إيغيّون"، تنبئه بأنّ مساعيه في سبيل إحلال السلام قد شرعت تؤتي ثمارها، وأنّ لقاءً وشيكًا سيُعقَد بين البرلمان والبلاط لهذه الغاية. ولكنّها نصحته بالمكوث حيث كان، حتّى تنجلي النتائج. وفي الآن عينه كانت لويز دي ماريّاك تلحّ عليه بالعودة فورًا، من أجل إنقاذ مشروع الأطفال اللقطاء من نهايةٍ كارثيّةٍ. وكانت الملكة، أيضًا، تدعوه إلى الإسراع بالعودة، لأنّها كانت في حاجةٍ ملحّةٍ إلى نصحه، وصلاته.

وكان هو يروز ثقل المهامّ التي تنتظره في باريس: إنقاذ مؤسّسة اللقطاء من الإغلاق، ومن إعادة الأولاد إلى الشارع؛ وترميم مقرّ القدّيس لعازر الذي نُهِب، وأُفرغ من محتوياته، وانتشر فيه الخراب، وتضميد جراح النفوس المكلومة، وإرشاد النفوس التائهة بحملات رسالةٍ استنفر لها مرسَليه، ومعظم الكهنة الذين عرفهم في "لقاء الثلاثاء". إلى أن استعجلت "دوقة إيغيّون" عودتَه، وأرسلت له العربة التي كانت سيّدات المحبّة قد أهدَينَه إيّاها، لسنواتٍ خلت، والتي شرع الصدأ يأكلها من جرّاء عدم استخدامها. ولم يكن للأب مفرٌّ من الاستجابة لكلّ تلك الدعوات. وفور عودته إلى باريس، بادر إلى إعادة الأحصنة إلى الدوقة التي استنجدت برئيس الأساقفة، من أجل إكراه الأب ديپول على الاحتفاظ بالعربة وأحصنتها، وعلى استخدامها في تنقّلاته. فاستسلم على مضضٍ، وبات يدعو العربة "هذا العار"، ويدعو إلى مشاركته استخدامها، كلّ مارٍّ متعبٍ يصدفه في شوارع باريس.

ومن باريس التي عاد إليها في شهر حزيران ١٦٤٩، استعاد الأب مساعيه من أجل إحلال السلام. وفي هذا السبيل ضاعف جهوده في كلّ اتّجاهٍ. فناشد الملكة وابنها بالعودة إلى العاصمة، واستلام مقاليد الدولة فيها، وترسيخ الاستقرار، وإنهاء الصراعات التي لا تؤدّي إلاّ إلى الدمار والكوارث. والتمس عون الحبر الأعظم،

ملاذه الأخير؛ ودعا "مازاران" الذي كان قد نأى إلى أطراف المملكة، سعيًا إلى تهدئة النفوس، بناءً على اقتراح الأب ديـــپـــول، إلى معاملة الثائرين برفقٍ، وبروح العفو والغفران. فكان جواب "مازاران" إقصاء الأب عن مجلس الضمير، لأنّه لم يعُدْ يطيق منافسًا لنفوذه في البلاط، ولكي يوصد باب البلاط، نهائيًّا، في وجه الأب ديـــپـــول الذي كانت صفته مرشدًا روحيًّا للملكة تبرّر وتستدعي ارتياده القصر باطّرادٍ، عيّن معرّفًا آخر للملك لويس الرابع عشر، عند صعوده على العرش. وفي الواقع لم يكن الأب ڤـــنسان يرغب في شيءٍ أكثر من رغبته في النأي عن جوّ البلاط.

وكان تناحر الكبار والمسؤولين عن الحكم قد أنزل بالشعب أدهى الكوارث، وبهظ همُّ البائسين فكرَ الأب وقلبه، واشتعلت فيه غيرةٌ لاهبةٌ إلى الإغاثة. وتضامنت على مواجهة هذا الوضع المؤلم شتّى الجمعيّات والرعايا، وأُوكلت إلى كلٍّ منها إغاثة دائرةٍ أو دائرتين من دوائر باريس، وأُوكلت دائرتان إلى اللعازريّين، ولكنّهم كلّفوا اليسوعيّين بإحداهما، كي ينصرفوا إلى العناية بقرًى خارج باريس كانت رازحةً تحت بؤسٍ ماحقٍ.

ونشبت ثورةٌ ثانيةٌ، من جرّاء خلافٍ بين "مازارن" و"أمير كوندي"، إذ ادّعى كلٌّ منهما الانفراد بفضل إحراز النصر، وقمع الثورة الأولى. وأوْحت إليهما كبرياؤهما الانتقام من باريس، وانتقام كلٍّ منهما من الآخر. وفي حميّا الصراع بينهما صفع أمير كوندي "مازاران". الذي انحنى إخفاءً للعار. ولكنّه استطاع تسريب القناعة إلى الملكة بأنّ الأمير ينوي إزاحة الملك الفتى عن العرش، واغتصاب مكانه، وكانت الملكة آنذاك، واقعةً تحت تأثير "مازاران"، ولا حُلمَ لها ولا أمنيّةَ سوى رفع ابنها إلى العرش حالما يبلغ السنّ القانونيّة. فوقّعت أمرًا بعزل أمير كوندي، وكلّ مناصريه الأمراء، مثيرةً نقمتهم العارمة. وفرّ الأمراء إلى الريف من أجل إعداد خطط انتقامهم. وسرعان ما اشتعلت حربٌ أهليّةٌ، وأخذت باريس تجيش، وانضمّ البرلمان

إلى الأمراء ووجّه إلى الملكة ثلاثة إنذاراتٍ: الاعتراف بجميع حقوق البرلمان الدستوريّة؛ والإفراج عن الأمراء، وإقصاء "مازاران". وخاف "مازارن" على حياته، وتولّى بنفسه إطلاق سراح الأمراء إمعانًا في الخبث، وفرّ إلى ألمانيا.

وأشاعت عودة الأمراء إلى باريس موجة حبورٍ، وتيّار فوضى أدّى إلى نهب منـــزل "مازاران". وطالب الشعب بإبقاء الملك وأُمّه سجينَيْن، حؤولاً دون التحاقهما بالوزير الهارب، وبفرض رقابةٍ مستمرّةٍ عليهما كي يطمئنّ الشعب إلى أنّ الملك ما زال موجودًا، وفي مأمنٍ.

ولكنّ أمير كوندي كان على خلافٍ شديدٍ مع فئةٍ من مناصريه، فعقد معاهدةً سرّيّةً مع الإسبانيّين. وحينئذٍ أدرك الشعب والبرلمان خطأهما القاتل؛ وأقاما حلفًا حياديًّا من أجل إحلال السلام، سلامٍ حقٍّ، منـــزّهٍ من المكائد، ولا مكان فيه لمازاران ولغرباء، سلامٍ قائمٍ على الملك فحسب، الذي كان قد بلغ الرابعة عشرة، وحقّ له القبض على زمام المملكة.

وبانطفاء نيران الثورة الثانية، أشعل أمير كوندي المتحالف مع الإسبانيّين، الثورة الثالثة، بهدف القضاء على الملك. وفي هذه الأثناء كان "مازاران" قد استنفر، في ألمانيا، جيش مرتزقةٍ من سبعة آلاف مقاتلٍ، ودخل به منتصرًا إلى شمال فرنسا، وواصل مسيرته نحو البلاط، المقيم في مدينة "پـــواتييه" (Poitiers)،.

وأذهلت الباريسيّين عودةُ الإيطاليّ الذي تخيّلوا أنّهم تخلّصوا منه إلى الأبد. فالتحمت أشلاء الثوّار من جديدٍ، ودعا البرلمان إلى القضاء على "مازاران" قضاءً مبرمًا، واستُدعي أمير كوندي إلى باريس، واختلطت الأمور على الجميع. ولّما خيّل إلى أمير كوندي أنّه سيّد باريس بلا منازعٍ، انقلب على البرلمان، واستنهض الشعب على البورجوازيّة، واستغلقت الأمور على الشعب، الذي انتشى بالدم والدويّ، فانجرف إلى القتل العشوائيّ، وأحرق دار البلديّة الغاصّة بالناس. وكان القوم يدهشون، عند استيقاظهم، في اليوم التالي، من الفظاعات التي اقترفوها في ساعات جنون الليل.

وأجمعت الجهات كلّها على ضرورة إحلال السلام بأيّ ثمنٍ، ما عدا التنازل عن إبعاد "مازاران". ولم يكن بمقدور الأب ڤـنسان أن يبقى متفرّجًا. وكان، في هذه الأثناء، قد رمّم مقرّ القدّيس لعازر، وجعل منه ملاذًا للمشرّدين، ومستودع طعامٍ للجياع. ومنعًا لتكرار التعدّيات السابقة كان قد أقام على المقرّ حراسةً شديدةً يقظةً.

ولكنّ المهمّة السياسيّة التي وقعت على عاتقه كانت أشدّ وعورةً. فالبلاط و"مازاران" كانوا يترصّدون اللحظة المواتية من أجل العودة إلى باريس. وقابل الأب ديـپـول الملكة حاملاً لها مقترحات البرلمان من أجل التسوية. ثمّ قابل "مازاران" وكان لقاؤهما عاصفًا.

من الجليّ أنّ الرجلين ما كانا يستطيعان التفاهم. فـڤـنسان كان يرى في "مازاران" العقبة الكأداء في وجه السلم، وهو كان يريد السلم بكلّ جوارحه. وكان "مازاران" يرى في الأب ڤـنسان رجلاً طموحًا راغبًا في لعب دورٍ بارزٍ، وأداةً ساذجةً بيد من كان يمقتهم: جمعيّة القربان المقدّس، وسيّدات المحبّة، وزوجات البرلمانيّين. وكم كان يودّ سجنه! ولكن كان يعتريه، إزاءه، ضربٌ من الخوف الغامض، وكان عليمًا بتأثيره على الملكة، وعلى سيّدات باريس النبيلات وزوجات كبار المسؤولين. ومن ثمّ رفض عرضه للسلام، بذريعة أنّ الضمانات المقدّمة غير كافيةٍ. وجريًا على عادته آثر المماطلة والمخاتلة، وهو الذي طالما صرّح: "إنّي أخفي نواياي، وأوارب، وأسعى إلى التسوية والتهدئة بقدر ما يسعني، ولكن، عند الضرورة، أُظهر ما أنا قادرٌ عليه". وقد ضرب أسطع مثالٍ على المخاتلة والخداع، عندما طلب من الملك أن ينفيه، ودبّج بنفسه، نصّ قرار نفيه، واستجاب الملك لرغبته، ولكن تبيّن أنّ قرار نفيه زخر إشادةً بالوزير وكَيْل مدائح له، حتّى بدا قرار النفي، وكأنّه دعوةٌ إلى البقاء. وهكذا، ظلّ، رسميًّا، منفيًّا، ولكنّه في الواقع لم يغادر منصبه. وفيما كان الشعب توّاقًا إلى التصفيق للملك، صُدِم بالكردينال الرهيب.

وفي هذه الأثناء كان أمير كوندي يجول في الريف بخمسة عشر ألف جنديٍّ،

كانوا، في الواقع خمسة عشر ألف لصٍّ، ينهبون كلّ ما تقع عليه أيمانهم. واكتظّت شوارع باريس بالمهجّرين، ومعظمهم فلاّحون نُهِبت مواسمُهم، ولم يبقَ لديهم ما يمكّنهم من زراعة أراضيهم ثانيةً. وكان يموت في باريس نحو عشرة آلاف نسمةٍ كلّ شهرٍ، ولا يتدنّى عدد المشرّدين المفتقرين إلى مأوًى عن عشرين ألفًا، ولا ما يطعمهم، أو يكسيهم، أو يؤويهم.

وحاول جنودٌ اقتحام مقرّ الأولاد اللقطاء، واعترى الأُمّ لويز دي ماريّاك الخوفُ على الأخوات، والفتيات المراهقات. ولم يبقَ من الحنطة ما يكفي لإطعام الأولاد.

ودُنِّست الكنائس، وسُرقت الأواني الكنسيّة الثمينة، والحُلى الكهنوتيّة، وبلغ البؤس قممًا مروّعةً. ولم يبقَ من موئل رجاءٍ سوى الأب ڤـــنسان ومؤسّساته الخيريّة.

وخُيِّل إلى "مازاران" أنّه سيهدّئُ الأحوال بإعلانه أنّه عائدٌ إلى باريس بجيشٍ جرّارٍ. ولكنّ البرلمان سارع إلى إعلان خيانته العظيمة، وتحليل دمه.

ووسط طوفان الفوضى والبؤس، تلقّى الأب ديـــپـــول استغاثةً من مدينة "ريتيل" (Rethel) تشكو: "الاختلاسات والسرقات التي يقترفها أصدقاءُ زائفون، وتدمير المباني، وقطع الأشجار المثمرة، وجرائم القتل والتدنيس، كلّ هذه أفعالٌ يوميّةٌ تجري أمام بيوتنا، ويعدّها فاعلوها مهاراتٍ متاحةً...".

وبعد الإسهاب في سرد ووصف شتّى الفظاعات المروّعة، توسّل مسؤولو تلك المدينة تبليغ ظلامتهم إلى القادرين على غوثهم، ورفع الضيم عنهم.

وتواردت أنباءٌ عن فظاعاتٍ وانتهاكاتٍ مماثلةٍ، من قرًى ومدنٍ عديدةٍ أُخرى.

وكانت مواسم عام ١٦٥١، الزراعيّة كارثيّةً، فتقاطرت أفواج النازحين، وارتفعت أسعار الحبوب ارتفاعًا صاروخيًّا، حتّى بلغت مستوياتٍ مذهلةً. وعبّر الأب ديـــپـــول عن هوله فكتب: "إنّنا نعاني اضطراباتٍ لم يسبق لها مثيلٌ. وباريس تعجّ بالفقراء. ومع ذلك اقترفت جيوش الأمراء المتخاصمين مجازر مروّعةً.

ولم يبقَ للمرسَلين اللعازريّين من ملاذٍ سوى الصوم والصلاة، وقضاء ساعاتٍ ركوعًا أمام الهيكل تكفيرًا عن جرائم التدنيس التي ارتكبها مرتزقةٌ في كلّ مكانٍ.

وكان بعضهم قد اقترح على الأب ديـــپـــول أن يبيع ما يحصل عليه من حنطةٍ، بأسعارٍ مخفّضةٍ، ولكنّه آثر أن يوزّع الحنطة على المعوزين مجّانًا، وكان يعدّ فعله هذا إقراضًا لله، بفائدةٍ مجزيةٍ.

وإراحةً لمواطنيه اعتزم الأب ديـــپـــول ركوب المركب الخشن، وخوض أدهى المخاطر، فكتب بتاريخ ١٦٥٢/٨/١٦، إلى الحبر الأعظم ملتمسًا تدخّله من أجل إحلال السلام. ثمّ وجّه رسالةً مباشرةً، بتاريخ ١٦٥٢/٩/١١، إلى "مازاران" دعاه فيها إلى البحث في قضيّة السلام بحثًا صريحًا وعميقًا وجذريًّا، وكانت رسالته، في الواقع، وثيقةً تاريخيّةً نموذجيّةً، تميّزت بوضوح رؤيتها، وسداد حكمها، وصراحتها وجرأتها. فقد وصفت، بواقعيّةٍ، غليان الشعب، وتوقه إلى عودة الملك والملكة إلى العاصمة، ولكن في جوٍّ من الهدنة، والعفو والغفران، والنأي عن كلّ ما قد يثير نقمة الجموع، مثل معاقبة من يعدّهم "مازاران" أعداءه، والتخلّي عن التحالف مع الإسبانيّين وسائر الأجانب، والفصل بين عودة الملك وأُمّه، وعودته هو، فالأفضل أن يقرّر الملك بنفسه عودة الوزير، بعد استقراره على العرش، واطّلاعه على الواقع الماثل. وحذّره من إقفال أبواب البلاط، من قِبَل غرباء مأجورين، في وجه الأمراء الفرنسيّين الراغبين في التفاهم مع الملك. وإلاّ فسيتحوّل غضب الشعب إلى هياجٍ وثورةٍ. وختم رسالته بتأكيد حياده الشخصيّ، وعدم انحيازه إلى أيّ فريقٍ، وأنّ السلام هو مبتغاه الوحيد.

ولكن يبدو أنّ جواسيس "مازاران" قد استبدلوا هذه الرسالة بأُخرى مزوّرةٍ، كي يطّلع عليها الملك.

ردُّ فعل "مازاران" التلقائيّ على رسالة الأب كان غضبًا وهياجًا ترجمها بمنعه الأب من دخول البلاط. غير أنّ صراحة الأب ديـــپـــول كانت قد زعزعت

كيانه، فعمل، مُكرهًا، بنصائحه، وبما أنّه كان قد اتّخذ هو بنفسه قرار نفيه، غاب عن الأبصار، وعاد الملك وأمّه إلى باريس، بمعزلٍ عنه، فاستقبلهما الشعب بتظاهرات فرحٍ مدوّيةٍ. وهكذا انتهت الثورة الثالثة، واتّضح لكلّ مراقبٍ أنّ الأب ڤـــنسان هو الذي وضع لها نهايةً.

ولكن كانت للثورة ذيولٌ. إذ ما زال أمير كوندي وحلفاؤه الإسبانيّون محكمين سيطرتهم على الريف الفرنسيّ. وكانت محاربتهم تستلزم فرض مزيدٍ من الضرائب، واستنفار محاربين. واضطرّ الملك الفتى، ثانيةً، إلى الاستعانة بخبرة "مازاران"، فاستدعاه، ولكنّ مازاران أعدّ تدابير حمايته قبل عودته، فأقصى خصومه الخطيرين وسَجَن من استطاع سجنه، وكان يَعدّ ألدّ أعدائه الأُسقف المشاغب "جان فرنسوا پــول دي غوندي"، الذي أصبح، لاحقًا، "كردينال ريتز" (Retz)، والذي كان يتأهّب لخلافة عمّه على منصب رئيس أساقفة باريس. وسعيًا إلى الحؤول دون بلوغه هذه الغاية، أمر "مازاران" بسجنه، ولكنّ الأسقف كان قد وكّل مساعده، توكيلاً قانونيًّا، بتسلّم منصب رئاسة الأسقفيّة باسمه. وبصفته الكنسيّة هذه غدا "مازاران" عاجزًا عن النيل منه. واستطاع الأسقف "دي غوندي"، من خلال مغامراتٍ حافلةٍ بالمخاطر، الفرار من سجنه، وبلوغ روما، حيث استقبله، بحفاوةٍ، الحبر الأعظم. غير أنّ مكائد "مازاران" أوحت إلى الحبر الأعظم بدعوة رئيس أساقفة باريس إلى الإقامة في بيت جمعيّة الرسالة في المدينة الخالدة. وتلقّف "مازاران" هذه الذريعة كي يأمر كهنة الرسالة بمغادرة روما والعودة إلى باريس، مُلحِقًا بجمعيّة الأب ديــــپـــول إهانةً مدوّيةً، وضررًا جمًّا، لم يستطع مؤسّس الجمعيّة تقبّلها ولم يتوانَ عن مواجهة "مازاران"، ثانيةً. وكان لقاؤه به دبلوماسيًّا، ولكن حازمًا، ومن خلاله أثبت الأب، في آنٍ واحدٍ، وفاءه لآل "دي غوندي"، واحترامه لرغبة البابا، وتعذّر رفضه استضافة مسؤولٍ كنسيٍّ كبيرٍ. ولم يكن بوسع "مازاران" سوى التظاهر بتفهّم موقف الأب.

ومع كلّ هذه المزعجات العارضة التي كان على الأب تحمُّلها، والعقبات التي كان عليه تذليلها ظلّ همّه الأكبر: الرسالة، وأعمال المحبّة، وتأهيل الإكليرُس. وربّما كانت تطمس هذا الهمّ الجوهريّ مؤقّتًا، الضرورةُ الملحّةُ في إغاثة الفقراء، وسكّان باريس وضواحيها، التي دمّرتها الاضطرابات السياسيّة. وفي حين كان الملك ووزيره مكبَّيْن على الإعداد للحرب، والبرلمان والأمراء مشغولين بخلافاتهم، كان همّ الشعب آخذًا بكلّ ذهن الأب ديـــپـــول، وكانت قضايا الناس المعيشيّة تسكن قلبه، وتقضّ مضجعه. ولكم كانت مساحة مآسي الشعب شاسعةً! وفي أتّون جحيم المآسي لم تتوقّف مؤسّسات المحبّة عن إغداق الغوث، وعن تقديم الحساء يوميًّا لنحو أربعة عشر ألف جائعٍ.

وكان الأب يجمع، كلّ يومٍ، سيّدات المحبّة، ويتقصّى معهنَّ الحاجات الشعبيّة اليوميّة الملحّة. وكان قد جعل من مقرّ القدّيس لعازر ملجأً للكهنة المهجّرين، واستضافت لويز دي ماريّاك راهباتٍ وفتياتٍ، فقدنَ مسكنهنَّ. وجُهّزت الساحات العامّة لاستقبال مهجّرين ومشرّدين، وقُدِّم، في كلّ حيٍّ حساءٌ شعبيٌّ، وأُشعلت النار في الطرقات والمدافن كلّما اشتدّ البرد قرسًا. وفي كلّ يومٍ كانت الحاجة إلى المال تزداد ضغطًا، وفي كلّ يومٍ كانت معجزة سخاء المحبّة تتكرّر، متحدّيةً العَوَز والحرمان. كانت الأبواب تُقرَع، ورسائل الاستغاثة تمضي إلى كلّ مكانٍ، ويستجيب لها من لم يتوقّع أحدٌ استجابته.

وتمثّلت أبهى مأثرة سيّدات المحبّة في افتتاح مخزنَيْ محبّةٍ في الضواحي الباريسيّة، حيث تكدّست في بناءٍ فسيحٍ، مُحكَم التنظيم، كلّ ما تبرّع له الخيّرون من أثاثٍ وألبسةٍ، وأطعمةٍ، وأدواتٍ مهنيّةٍ، وبذورٍ زراعيّةٍ، وكانت سيّداتٌ كريماتٌ يسهرنَ على تنظيم التوزيع، متجنّباتٍ أيّ هدرٍ، فمتاع الفقراء مقدّسٌ.

ومن أحد المخزنَيْن، كانت تنطلق شرقًا على متن قوارب، ومن المخزن الآخر، كانت تنطلق شمالاً، عرباتٌ محمّلةٌ بشتّى الموادّ والأمتعة، لتوزيعها في الضواحي،

وفق قوائم معدّةٍ بعنايةٍ، تلبيةً لطلباتٍ ملحّةٍ. وكان حسُّ التنظيم الذي تميّز به الأب يطبع كلّ تلك المبادرات، ويقيها من علّتي المحبّة الفوضويّة: الهدر والاستغلال.

كلّ صنوف البؤس قرعت باب الأب ديـــپـــول، فلبّاها جميعها. ومثلما كان البؤس بلا حدودٍ، كانت المحبّة بلا حدودٍ.

وكان شتاء **١٦٥٢**، ممعنًا في القسوة، وقد جاء بموكبٍ قاتلٍ من العلَل والكوارث، وقضى على مئات المهجّرين الذين غصّت بهم الملاجئ. وحاصر فيضان نهر السين القرى، فهبّت أخوات المحبّة لمعالجة المرضى، فيما حمل كهنة الرسالة وإخوتهم معدّات الغوث، وانطلقوا بها على متن قوارب إلى المناطق المنكوبة.

والمجتمع الذي برهن عن عبثه وتفاهته وقسوته، عندما ساهم في الاضطرابات المجرمة والمدمّرة، شارك، هو نفسه، في معجزة المحبّة، وفي تضميد الجراح التي أحدثها بنفسه. فما من شعبٍ يبقى إذا خوت صدور أفراده من رعشة محبّةٍ، وإن لم يبقَ له من واقعٍ سوى الحقد، والأنانيّة، والقسوة.

وكان للأب ڤـــنسان فضلُ استكشاف كنوز المحبّة الغافية في قلب كلّ إنسانٍ، وإيقاظها، واستنفار النوايا الطيّبة التي انضمّت إلى نواياه، وتكاتفت مع عمله. وكان هو السلطة التي تنتج وتبني وتحيي، لأنّها قائمةٌ على المحبّة، والتفكير السليم.

وسعيًا إلى وضع حدٍّ نهائيٍّ للصراعات ومآسيها، لاذ الشعب إلى شفيعة باريس، القدّيسة جنـــڤـــييـــڤ. وجال تطوافٌ بذخائرها في شوارع العاصمة، حيث احتشد أمراءُ وبرلمانيّون، وسكّانٌ ملهوفون، اشتركوا جميعهم في توسُّلٍ حارقٍ إلى إحلال السلام. وكتب الأب ڤـــنسان، بهذه المناسبة: "التماسًا لإنهاء آلامٍ كان الجميع يعانونها، بشفاعة هذه القدّيسة، لم يُشاهَد، قطّ في باريس مثل كثافة هذه الحشود الشعبيّة. ولا مثل هذه المظاهر التقويّة. وفي اليوم الثامن، فرّ "دوق لورين"

بجيوشه المتمترسة عند أبواب باريس، عائدًا إلى موطنه، قُبَيْل هجوم جيش الملك على جيوشه... واستُهلّت مفاوضات سلامٍ. وإنّنا نسأل الله أن يحقّق السلام". وفي ١٦٥٢/١٠/٢٢، أُعلنت الهدنة، وكتب الأب لأحد أصدقائه: "أدعوك إلى شكر الله لأنّه أعاد الملك والملكة إلى باريس... إنّه ليتعذّر تخيّل الفرح العارم الذي أشاعته هذه العودة في نفوس الفرقاء أجمعين. وقد زالت آثار الاضطرابات السابقة، وهذا ما يلهمنا رجاءً عظيمًا، بانتهاء الاضطرابات الداخليّة في المملكة".

وربّما غرب عن بال فرنسيّين كثيرين أنّه كان لهم، إلى جانب شفيعتهم السماويّة، القدّيسة جنـڤـييـڤ، شفيعٌ على الأرض هو الأب ڤـنسان ديـپـول. وربّما لم يرَ معظم الفرنسيّين منه سوى وجه المحبّة، المتمثّل في دأبه على إطعام الفقراء، وحماية فتيات الريف، واستثمار المزارع من أجل مواجهة العوز، واستنفار جيوش المتطوّعين للخدمة؛ ولكنّهم لم يروا، منه وجهَ القدّيس المصلّي من أجل إبعاد الأذى عن البلاد، ورفع الضيم عن المسحوقين.

ولطالما حمّل ذاته مسؤوليّة ما حدث، وما عدّه تقصيرًا منه، وأمعن تكفيرًا عنه، غير محجمٍ عن أيّة مغامرةٍ أو مخاطرةٍ في هذا السبيل.

لقد أرسله الله نعمةً لفرنسا، و"أبًا للوطن"، ودأب على إخماد الثورات، وتهدئة سَورات غضب الشعب، وتخفيف بؤسه. ولم ينبض قلبه، يومًا، إلاّ محبّةً، ولم ينطق لسانه إلاّ صدقًا وجرأةً، وكان دائم الأهبة لبذل ذاته في سبيل افتداء الآخرين.

توسّعٌ وانتشارٌ

مشاريع الأب ديـــپـــول، كانت ماضيةً نموًّا مطّردًا، محدثةً تضخّمًا في النفقات. ولم يكن يفارق الأب همّ الموازنة بين المداخيل المتدنّية، والنفقات المتنامية باطّرادٍ. فكان هو وجمعيّته يمعنون في التقشّف، وكانت العناية الإلهيّة الساهرة تزوّده باحتياجات مشاريعه الأساسيّة، من خلال أيادٍ بيضاء، ونفوسٍ عامرةٍ بالسخاء.

وقد عهدت الفترة الممتدّة بين عامي ١٦٤٣ و١٦٤٥، توسُّعًا رحبًا. ففي عام ١٦٤٣، أُنشِئ فرعٌ للجمعيّة في مدينة "كاهور" (Cahors)، بدعمٍ من أُسقف المدينة. وأُكمل مشروعٌ للعناية بالمحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، في مدينة مرسيليا، بعد توقّفٍ دام سنواتٍ، بسبب الافتقار إلى المال اللازم، إلى أن تعهّدت دوقة "إيغيّون" بإكماله. وبهذه المناسبة اتّفق أُسقف مرسيليا الجديد والدوقة والأب ڤـــنسان على تدشين المشروع برسالةٍ روحيّةٍ كبرى يفيد منها المحكومون على متن مراكبهم، التي كان عددها يناهز العشرين، وعلى كلٍّ منها نحو مئتين وستّين محكومًا. وبما أنّه لم يكن بمكنة الأب تجنيد سوى خمسةٍ من مرسَليه لهذه الرسالة، فقد استعان بالعديد من الجمعيّات الأُخرى. وقاد الرسالة الأُسقف بنفسه، وكان للرسالة، في نفوس المحكومين، أصداءٌ مدوّيةٌ. وكتب صحافيٌّ: "لقد تبدّل وجه مراكب المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ حتّى غدت تحاكي أديرةً".

وإثر هذا النجاح الباهر، تقرّر إنشاء فرعٍ لجمعيّة الرسالة في مرسيليا، وتعهّدت دوقة "إيغيّون" بتقديم مبلغ أربعة عشر ألف ليرةٍ من أجل نفقات أربعة مرسَلين يقومون برسالاتٍ منتظمةٍ للمحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ.

وعام ١٦٤٤، افتتحت الجمعيّة فروعًا جديدةً في عدّة مدنٍ فرنسيّةٍ.

ومع أنّ هذه الفروع الجديدة كانت تنعم باستقلالٍ ماليٍّ، يغنيها عن التماس

دعم المركز الرئيسيّ، وعن طلب إسهام الرعايا في نفقات الرسالات التي تُقام لها غير أنّها كانت تكبّد الجمعيّة أعباءً ماديّةً باهظةً، ناتجةً عن إعداد كهنةٍ وإخوةٍ، يديرون هذه الفروع، فضلاً عن نفقات تأهيل كهنةٍ مكلّفين بخدمة رعايا منطقة "اللورين"، وسواها من الرعايا المنكوبة. وكان همّ توفير الأموال اللازمة يستنــزف شطرًا راجحًا من وقت الأب وقواه، ولا سيّما أنّه كان عليه، في دوّامة هذه الهموم، التصدّي لمشكلاتٍ غير متوقّعةٍ. فقد كان الكردينال ريشليو قد تبرّع للجمعيّة بمداخيل بعض أملاكه، وعاجلته المنيّة قبل أن يتاح له تسجيل هذه الهبات، رسميًّا. وتخاصم الورثة بشأن اقتسام ثروته، تخاصمًا دام سنواتٍ من المحاكمات. وجهدت دوقة "إيغيّون"، وريثة ريشليو الرئيسة، في التعويض، ما استطاعت، عن الأضرار اللاحقة بالجمعيّة، من جرّاء هذه الخصومات.

وكان الملك، أيضًا، قد وقف مبالغ ناتجةً عن ريع مؤسّساتٍ وعقاراتٍ ملكيّةٍ من أجل تغطية نفقات فروعٍ للجمعيّة أُنشئت تلبيةً لطلبه. ولكنّ الظروف الضاغطة أكرهت الملك على بيع أقسامٍ من هذه العقارات والمؤسّسات، حارمًا الجمعيّة من ريعها. وحينئذٍ كان الأب يُكرَه على تقليص حجم بعض فروعه، تماشيًا مع تدنّي المداخيل. ولكنّ دوقة "إيغيّون"، لم تقبض يدها يومًا، واستمرّت تغدق مساعداتها، بقدر ما تتيح لها قدراتها. لا بل إنّها شجّعت الأب ديـــپـــول على افتتاح فرعٍ للجمعيّة في روما، ووعدته بدفع خمسة آلاف ليرةٍ سنويًّا، من أجل تغطية نفقاته. وكانت الدوقة، تنفيذًا لنذرٍ التزمت به التماسًا لشفاء الكاردينال من العلّة التي أودت بحياته قد تبرّعت بهبةٍ خصّصتها لتأهيل مرشّحين للكهنوت في روما، منذ عام ١٦٤٢.

ومن قبل، كان الأب ڤــنسان قد تبيّن ضرورة حضور جمعيّته في روما من أجل التواصل مع الحبر الأعظم، والدوائر الــڤــاتيكانيّة. ومنذ عام ١٦٣١ افتتح في المدينة الخالدة مقرًّا صغيرًا، لا يستثير ريبة أحدٍ. وقد تعاقب على إدارته مرسَلون

متباينو الطباع والمهارات، ولكنّهم كانوا، جميعهم، مُشبَعين بروح مؤسّسهم، ومؤمنين بأنّ على المرسَل أن ينهض برسالةٍ. فقاموا برسالاتٍ، ورياضاتٍ روحيّةٍ، وأعدّوا إكليريكيّين للكهنوت، وغرسوا روح الإصلاح الكاثوليكيّ في عاصمة الكثلكة، مدهشين جمعيّاتٍ عريقةً تملك قدراتٍ جسيمةً. وكانوا، حالما امتلكوا اللغة المحكيّة لبّوا طلبات الأساقفة، وبشّروا الأرياف مثلما بشّر الأب ديـپـول الريف الفرنسيّ، ولكن مراعين اختلاف المناخ.

فالمجتمع الريفيّ الإيطاليّ كان ما زال مقيّدًا بالإرث الهمجيّ، والتقاليد العنيفة، وطغيان مظاهر القوّة. فالسيادة للحديد والثأر، والخلاف لا يُحَلُّ إلاّ بطلقة بندقيّةٍ أو بطعنة خنجرٍ. وفي الواقع لا شيء يُحَلّ لأنّ العنف يقابَل بعنفٍ أشدّ شراسةً، وكلّ أذًى يستدعي اثّئارًا. ولا أحد يخرج مجرّدًا من سلاحٍ، حتّى إذا جاء إلى الكنيسة، والكاهن نفسه يودع سلاحه على الهيكل، تحسّبًا لكلّ اعتداءٍ طارئٍ.

وتصدّى المرسَلون اللعازريّون لاستئصال هذه الآفة، وبرهنوا عن قدرة إقناعٍ حملت مئات الإيطاليّين على إلقاء السلاح، مذرّفين الدموع. كثيرون منهم شخصوا، مسلّحين، إلى كتّاب بالعدل حيث وقّعوا معاهدات غفرانٍ وصداقةٍ، وتخلٍّ عن الماضي، وتعهُّدٍ بمستقبلٍ خالٍ من الانتقام. وحينئذٍ ألقوا سلاحهم، وألقاه بعضهم عند أقدام منبر الوعظ. وهكذا استبدل المرسَلون حقبةً وثنيّةً همجيّةً، بحقبةٍ حضاريّةٍ مسيحيّةٍ. ومنذئذٍ أصبحوا، هم، الحكَم في فضّ الخلافات بين الناس. وبفضلهم استمرّ هذا النهج، مع نكساتٍ صغرى عابرةٍ.

ولم تقتصر هذه التحوّلات على روما، بل شملت، أيضًا، ضواحيها، وحتّى كورسيكا. ولكأنّ عهد فرانسوا الساليزيّ، وأنطونيو البادواني قد عاد، وعجزت الكنائس عن استيعاب حشود المصلّين، فاضطرّ المرسَلون إلى إقامة القداديس في البراري، حيث كان القوم يبكون خطاياهم، ويعلنون توبتهم على رؤوس الشهود، ويرتمون عند أقدام المرسَلين. وأعلنت الخطيئة هزيمتها أمام النعمة.

وقد استجرّ نجاح هذه الرسالة رسالاتٍ أُخرى في شتّى أرجاء إيطاليا. ففي عام ١٦٤٥، التمس الكردينال أُسقف جنوى إيفاد مرسلَيْن إلى مدينته، ووضع بتصرّفهما مركزًا جديدًا، وشاركهما ممارساتهما الروحيّة، وواكب رسالاتهما، وأخذه الإعجاب بذينك المرسلَيْن اللذين كانا كتلةً من تقوًى وديناميكيّةٍ، وحنكةٍ. ولّما انتشر وباء الطاعون في المدينة حاصدًا الأرواح بالجملة، واجهه الكردينال والمرسَلان ببسالةٍ بطوليّةٍ، غير مكترثين بمغبّة معالجة المرضى ودفن الأموات، ولقوا، جميعهم، حتفهم، ثمنًا لغيرتهم وبذلهم.

وفي ذلك العام عينه، التمس مركيزٌ مسؤولٌ عن حكومة "تورينو"، كان قد أُعجب بما لحظه من غيرةٍ لدى المرسَلين اللعازريّين، إرسال ستّة كهنةٍ، إلى المدينة، حيث سيتولّون الوعظ، وسماع الاعترافات، وإقامة القداديس. بيد أنّ الأب ديپول ذكّره بأنّ غاية جمعيّته هي تبشير سكّان القرى المهملين، وفرز له كاهنًا واحدًا يدعى "جان مارتان" (Jean Martin)، الذي تألّق تفانيه بالعذوبة والمثابرة، وغيرةٍ حارقةٍ، وبذلٍ لامحدودٍ. وبما أنّه كان هشّ البنية وحفاظًا على صحّته، كان الأب ڤنسان يطالب طبّاخ المركز بأن يعدّ له حساء طيورٍ مسمّنةٍ يدعم قواه المنهكة.

ثمّ انتدب الأب ڤنسان هذا المرسَل ورفيقًا له يدعى الأب "بلاتيرون" (Blatiron)، الذي كان يرأس رسالة جنوى، لإطلاق رسالةٍ في كورسيكا، وبالتحديد في منطقة "نيولو" (Niolo)، وهي وادٍ طوله نحو اثني عشر كيلومترًا، وعرضه كيلومتران، يصار إليه عبر دروبٍ صخريّةٍ وعرةٍ. وكان موضعه هذا قد جعل منه مخبأً للأشرار وقطّاع الطرق، حيث ليس من يجرؤ على ملاحقتهم.

وللوهلة الأولى اتّضحت للمرسَلين مشقّة تبشير تلك الرعيّة الغريبة، فقلّةٌ من سكّانها يذكرون أنّهم عُمِّدوا؛ والجريمة في نظرهم فضيلةٌ كبرى، والأطفال يتعلّمون الاثّئار قبل أن يتعلّموا المشي والكلام، وكلٌّ يأخذ حقّه بيده؛ ممارسات الزنى شائعةٌ، والتناحر وتبادل الأذى والإهانات تقاليد واسعة الانتشار.

ومع ذلك، شمّر المرسَلان عن سواعدهما، وهبّا لتلقين الشبّان مبادئ خلاصهم الأساسيّة، وباشرا بسماع اعترافاتٍ عامّةٍ. وكانت مهمّتهما الأشدّ عناءً هي جلب المتخاصمين إلى المصالحة. وخلال خمسة عشر يومًا، لم يُفلح المرسَلان إلاّ في حمل شابٍّ واحدٍ على الصفح عن آخر، كان قد ضربه بمسدّسه على رأسه. وكان العامّة يأتون لسماع الوعظ ممتشقين سيفًا على جنبهم، وبندقيّةً على كتفهم. أمّا اللصوص، فكان كلٌّ منهم يشخص متقلّدًا مسدّسَيْن وخنجريْن أو ثلاثة خناجر، وما إن يسمعوا دعوةً إلى الصفح والمصالحة حتّى يغادروا الكنيسة.

ووَمَضت فكرةٌ مضيئةٌ في خاطر الأب "بلاتيرون"، فامتشق صليبًا ورفعه عاليًا، ودعا جميع الحاضرين، باسم الربّ أن يتقدّموا، ويقبّلوا الصليب، معلنين رغبتهم في الصفح عن خصومهم. وكان رجال الدين في طليعة المتقدّمين، فأعلن خوري قريةٍ صفحه عن قاتل ابن شقيقه، وحذا حذوه آخرون. وفي اليوم التالي عُقِدت مصالحةٌ عامّةٌ، ودُوِّنت تصاريح لدى كاتبٍ بالعدل تنهي خلافاتٍ طويلة الأمد. وذُرِّفت دموع الفرح، وتبودلت العناقات.

ولئن كان انتحاب تائبين بين يدي معرّفيهم مألوفًا في أماكن أُخرى فمثل تلك الدموع، في رعيّة "نيولا" كانت معجزةً.

رسالة پولونيا

"ماري لويز دي غونزاغ" (Marie Louise de Gonzague)، أميرةٌ فرنسيّةٌ، كانت عضوًا في جمعيّة سيّدات المحبّة المساعدات في خدمة مرضى "أوتيل ديو". وقد تميّزت بجمالها الباهر، وبعطفها على الفقراء والمتألّمين. ومذ التقت الأب ڤـنسان فُتِنت بقدرته على الإقناع، وببساطته الإنجيليّة، وبسموّ قداسته، وبحَدبِه على المحتاجين. وكانت تدعوه: "يا أبتِ الطيّب".

وكان ملك پـولونيا، إثر ترمّله، قد طلب من فرنسا إحدى أميراتها، فرشّحها له "مازاران". ومنذ تتويجها ملكةً، في العاشر من شهر آذار ١٦٤٦، رغبت في إدخال روح الرسالة إلى پـولونيا، وفي الاستعانة بالمرسَلين اللعازريّين من أجل تبشير الريف، وإعداد كهنةٍ، وإشادة إكليريكيّاتٍ وأخويّات محبّةٍ.

وطلبت من الأب ديـپـول إرسال تسعة مرسَلين. ولكنّ ظروفًا سياسيّةً معقّدةً تضافرت على إرجاء تلبية طلبها، حتّى شهر أيلول ١٦٥١، وحينئذٍ أرسل لها أربعة مرسَلين فقط، واعدًا بإرسال المزيد حالما تتوفّر له القدرة على ذلك. وعيّن على رأس هذا الوفد أحد ألمع مرسَليه، المدعوّ "لمبير أوكوتّو" (Lambert aux Couteaux)، الذي أخذ عن رئيسه تصميمه، وحذره، وخضوعه للعناية الإلهيّة، وحسّه الواقعيّ، وحرارة غيرته. وكان الأب شديد الاعتماد عليه، وقد صرّح أنّ بعاده عنه كان بمثابة اقتلاع إحدى عينيه، وبتر إحدى ذراعيه.

وما كاد المرسَلون يستقرّون في پـولونيا حتّى اجتاح كراكوڤـيا وباء الطاعون، وأمعن حصدًا للأرواح، ولا سيّما أنّ السلطات أهملت التدابير الوقائيّة إهمالاً تامًّا، ولم تُعنَ بفصل الأصحّاء عن المصابين. وسادت الفوضى، ولم يجرؤ أحدٌ

على معالجة المصابين؛ وبقيت الجثث مرميّةً في المنازل أو في الشوارع، تنهشها الكلاب والذئاب. وخشي المواطنون الخروج من منازلهم، فقضى الجوع على من عفا عنهم الوباء. وهبّ المرسَلون للغوث، بغيرتهم المعهودة، فاعتلّ الأب "لمبير". وما إن تماثل للشفاء حتّى أصاب الوباء ڤـرسوڤـيا، فانبرى الأب "لمبير" مع مرسَلٍ آخر، من أجل تنظيم الإسعاف في العاصمة، وبذلا، في هذا المضمار، جهودًا بطوليّةً، قدّرتها الملكة أرفع تقديرٍ، وكتبت إلى الأب ڤـنسان: "لمّا تبيّن الأب لمبير الطيّب خوف الـپـولونيّين من الطاعون، وافى إلى ڤـرسوڤـيا كي ينظّم الأمور، تخفيفًا عن الفقراء. وقد أمرتُ بتأمين سكنٍ له في القصر، بل في غرفة الملك ذاتها". وكانت بنات المحبّة قد حططنَ، أيضًا، في ڤـرسوڤـيا، وحظينَ بترحيب الملكة وإعجابها.

وفي شهر كانون الثاني من عام ١٦٥٣، مضت الأسرة الـپـولونيّة المالكة إلى حدود البلاد الشرقيّة، ورافقهم الأب "لمبير"، وانتهز سانحة وجوده على مقربةٍ من زميلٍ له كان يخدم رعيّةً في تلك المنطقة، فزاره، واعتلّ، ولقي وجه ربّه بعد ثلاثة أيّامٍ، ولم يكن له من العمر سوى سبعٍ وأربعين سنةً. ونزف قلب الأب ڤـنسان حزنًا على ابنٍ حبيبٍ، كان شذا فضائله يعطّر الأجواء التي يمرّ بها. وقد رجّح كثيرون أنّه لو كُتب له طول الحياة، لكان طوّر پـولونيا تطويرًا جذريًّا. وكتب الأب ڤـنسان معلّقًا: "كان الأب الفقيد موغلاً في البراءة، والطيبة، والمثاليّة، وكان الله هو مكافأته". وكان يهزّه وضع مرسَليه الآخرين، فقال عنهم: "كم عانوا في پـولونيا! كابدوا المجاعة والطاعون، والحروب. كانوا وسط الجنود، ووقعوا بأيدي جنود الأعداء. امتحنهم الله بكلّ المصائب والآفات. وها نحن هنا لا نتحرّك، ولا يخفق لنا قلبٌ، ولا تلهبنا غيرةٌ. نحن نشهد الآخرين يواجهون المخاطر خدمةً لله، ونظلّ جبناء مثل دجاجاتٍ مبلّلةٍ. يا لبؤسنا، ويا لهواننا!".

وكتبت الملكة إلى الأب ڤـنسان: "إن لم ترسل لي أب "لمبير" آخر فسأقع في

ورطةٍ قاتلةٍ". وفي شهر آب ١٦٥٣، لبّى الأب طلبها، وأوفد لها رئيس فرع الجمعيّة في مدينة "تروا" (Troyes)، مع إكليريكيٍّ، ومجموعةٍ من راهبات الزيارة، رغبت الملكة في أن يكنّ إلى جانبها. ولكنّ قراصنةً بريطانيّين اختطفوا الموكب كلّه، فاتّضح للأب ديپول أنّ القرصنة ليست حكرًا على البرابرة. وبذل جهودًا مضنيةً حتّى أفرج عن المخطوفين الذين واصلوا طريقهم، برًّا، حيث وصل المرسَلون في كانون الثاني ١٦٥٤، في حين تلكّأ وصول الراهبات حتّى شهر تمّوز من العام نفسه.

وفي تلك الأثناء كانت مخاوف حربٍ جديدةٍ تجتاح النفوس، وقد عزّزها حدوث خسوفاتٍ طويلةٍ متلاحقةٍ، أذاعت الذعر في القلوب، وبلّغها المرسَلون إلى الأب ديپول الذي لم يكن يُعير هذه الترّهات بالاً، ولكنّه، إراحةً لضميره، استشار فلكيًّا شهيرًا، وطمأن مرسَليه بقوله: "لو صحّت توقّعات العامّة، وأسفرت كلّ الخسوفات التي حدثت سابقًا إلى دمارٍ عامٍّ، لما كان بقي إنسانٌ واحدٌ على سطح الأرض". غير أنّ الحرب أُعلِنت، في هذه النوبة، وكانت من أكثر الحروب دمويّةً وإزهاقًا للأرواح، وتشويهًا لـپولونيا، الواقعة بين فكّي كمّاشةٍ: الروس من جانبٍ والسويديّين من جانبٍ آخر. وقد استشرس السويديّون على نحوٍ خاصٍّ، وأفرغوا كلّ أحقادهم الدفينة على الكهنة، والكنائس، والمؤسّسات الكاثوليكيّة. وكان كلّ أذًى ينزل بـپولونيا يدمي قلب الأب ديپول، ويلهبه خوفًا على مرسليه وراهباته، الذين برهنوا في هذه المحنة، عن بطولةٍ يتعذّر وصفها.

عام ١٦٥٤ كُلِّف المرسَلون بخدمة رعيّة الصليب المقدّس، على مقربةٍ من ڤرسوڤيا، ثمّ كُلِّفوا بخدمة رعيّةٍ أُخرى، وما لبث أن تكاثرت المشاريع، فاعتزم الأُسقف إرسال مرشّحين للكهنوت من أجل اجتياز فترة إعدادٍ في رعيّة الصليب المقدّس. وطلب أميرٌ پولونيٌّ تأسيس فرع رسالةٍ على مقربةٍ من "غدانسك" (Gdansk)، وطالب مسؤولون في مدينة "ڤيلنا" (Vilna) بإنشاء أخويّة محبّةٍ،

وإنشاء إكليريكيّةٍ. ولكنّ نشوب الحرب أطاح بكلّ هذه المشاريع، وانتاب الأب ڤــنسان خوفٌ من انهيار الكاثوليكيّة في أوروپـــا.

وكان المرسَلون وأخوات المحبّة قد انصرفوا إلى معالجة جراح الحروب. ولكنّ الجيوش السويديّة نشرت الخراب في ڤــرسوڤــيا، ونجا مرسَلٌ كان هناك، بأعجوبةٍ، من الموت، فيما جُرِح آخر، ولم يكن مهربٌ من إعادته إلى فرنسا. وأُحرِقت كنيسة القرية التي كان يخدمها أحد المرسَلين، وقُتِل خادمها، وفقد المرسَلون كلّ شيءٍ. وجهد الأب ديـــپـــول في شدّ عضد مرسَليه، وجاء في إحدى رسائله لهم: "كان من الحقّ أن يكون لكم من المصاب العامّ نصيبٌ، والله الذي سمح بذلك، سيتكرّم عليكم بتعويضكم ما فقدتموه، إذا كانت تلك هي مشيئته، وفي الوقت الذي يرتئيه".

ولم يضنّ الأب ديـــپـــول بتضحيةٍ كي يعينَ پـــولونيا، ويخفّف عنها أعباء كوارث الحرب. ولم يرتَح له بالٌ حتّى عُقِدت معاهدة صلحٍ، يوم ١٦٦٠/٥/٣، بين الملوك المتحاربين.

رسالاتٌ في الجزر البريطانيّة

وكانت للرسالات في الجزر البريطانيّة صبغةٌ أُخرى. ففيها واجه المرسَلون الاضطهاد الوحشيّ، في سياق صراعاتٍ سياسيّةٍ ودينيّةٍ لا رحمة فيها. وكان الڤاتيكان، عام ١٦٤٥ قد ناشد الأب ديپول إيفاد مرسَليه إلى إيرلندا دعمًا لحركة النهضة الكاثوليكيّة التي انطلقت عام ١٦٤١، إثر الثورة الإيرلنديّة. ولهذه الغاية عينها سيمَ عدّة أساقفةٍ، وتلقّى اثنان منهم رتبة الأُسقفيّة في كنيسة القدّيس لعازر في باريس. ولاقت مناشدة الڤاتيكان من الأب ڤنسان استجابةً طافحةً بالحماس، إذ كان قد انضمّ إلى جمعيّة المرسَلين نحو خمسة عشر كاهنًا إيرلنديًّا، اختار منهم الأب ستّةً، ورافقهم ثلاثة كهنةٍ فرنسيّين. ووصلوا جميعهم، عام ١٦٤٧ إلى إيرلندا، حيث انشطروا إلى فريقين واهتمّوا برعيَّتَيْن. وكان الشعب الإيرلنديّ، إجمالاً، قد احتفظ بحرارة إيمانه الكاثوليكيّ، ورحّب بالمرسَلين اللعازريّين ترحيبًا حارًّا.

كانت الغيرة الرسوليّة تلهب قلوب جميع المرسَلين، ولكن لم ينجُ أحدٌ منهم من الاضطهاد. ففي إحدى الرعيَّتيْن أُحرِق ألفٌ وخمس مئة مؤمنٍ، أحياءً، في الكاتدرائيّة التي لجأوا إليها. وعام ١٦٤٨، عاد إلى فرنسا مرسَلان فرنسيّان وآخرُ إيرلنديٌّ، وعام ١٦٤٩، إثر إعدام الملك ستوارت لشارل الأوّل، اجتاح كرومويل بجيشٍ عارمٍ مدينة دبلن، بقصد القضاء على الكاثوليكيّين.

وكان قد تلبّث في مدينة دبلن أربعة مرسَلين، فباشروا رسالةً في رعيّة "ليميريك" (Limerik)، عام ١٦٥١، تحدوهم غيرةٌ متّقدةٌ. ولكنّ تلك الرعيّة تعرّضت لحصارٍ قاتلٍ من قبل صهر كرومويل، دام ستّة أشهرٍ، وأدّى إلى نشر وباء

الطاعون الذي أودى بحياة ثمانية آلاف شخصٍ. وطورد الكهنة، وفرّ المرسَلون ما عدا أصغرهم، الأخ "تادّي" (Taddée)، الذي فزع إلى قريته حيث قبض عليه البريطانيّون، وبتروا يديه ورجليه، ثمّ حطّموا رأسه، على مرأى أمّه. وقد سكن ذلك الأخ في قلب الأب ڤــنسان، بصفته شهيد الرسالات الخارجيّة الأوّل، ومن أحبّ مرسَليه.

ولا ريب أنّ المرسلين اللعازريّين، رغم الاضطهادات – بل ربّما بفضلها – قد بثّوا في إيرلندا روح جمعيّة الرسالة، الذي تولّى اللعازريّون الإيرلنديّون، من بعدهم، صونه وتنميته.

واعتملت في نفس مرسلَيْن كانا قد عادا من إيرلندا، رغبةٌ في الانطلاق إلى إسكتلاندا، والجُزر المجاورة لها، والتي كانا يتقنان لغاتها الخاصّة، واستحصل لهما الأب ڤــنسان على إذنٍ بذلك، من مجمع نشر الإيمان. وفيما كانا يترقّبان، متنكّريْن في زيّ تجّارٍ، مركبًا يقودهما إلى غايتهما، التقيا نبيلاً إسكتلانديًّا تطوّع لحمايتهما، وإيوائهما في قصره، لدى وصولهما. وقد واصل أحدهما سفره إلى جزر "الإبريد" (Hébrides)، وتلبّث الآخر في إسكتلاندا، حيث انضمّ إليه مرسَلٌ آخر إسكتلانديّ الأصل. وقد ساق هذان المرسَلان حياة تشرّدٍ، وتوارٍ، بسبب حذرهما الدائم من كلّ غريبٍ، ومتجنِّبَيْن توجيه أيّة رسالةٍ قد تفضح هويّتهما. ودأبا على دعم الكاثوليكيّين الفقراء، في الجزيرة، وعلى تبشير الآخرين. ولمّا توفّي أحدهما، عام ١٦٥٧، بكاه السكّان المحلّيّون بكاءهم أبًا عطوفًا. ولكنّ الأب ڤــنسان لم يُحَطْ علمًا بوفاته، إلاّ بعد ستّة أشهرٍ.

وشاع أمر اعتناق بروتستانتيّين المذهب الكاثوليكيّ، فاستشاط قسّيسون بروتستانتيّون غيظًا، واستعانوا بكرومويل الذي شنّ حملة تفتيشٍ واعتقالاتٍ في كلّ أرجاء الجزيرة، وأُلقي القبض على أحد المرسَلَيْن. ولمّا تنامى نبأ اعتقاله إلى علم

الأب ڤـــنسان، تجاذبته مشاعر متضاربةٌ، فهو لم يستبعد استشهاد مرسَله، وكان يرى في هذا الاستشهاد، إذا حدث، كرامةً وفخرًا. ولكن من جانبٍ آخر، كان يتألّم لما قد يتعرّض له المرسَل من تعذيبٍ وإهانةٍ. وقد أوجز مشاعره، أمام مرسَليه بقوله: "أعترف أنّني، حسب الطبيعة، مفجوعٌ جدًّا، وألمي عميقٌ. ولكنّني، روحيًّا، أعتبر أنّ علينا مباركة الله، وتقبّلَ استشهاده تقبّلَنا لنعمةٍ سنيّةٍ".

واتّفق أن أُطلق سراح المرسَل، فهرع عائدًا إلى تلال إسكتلاندا.

رسالة مدغشقر

إثر الخيبات التي مُنيت بها الرسالات في دولٍ أوروپـيّةٍ، امتدّ نظر الأب ديـپـول، إلى آفاقٍ بعيدةٍ. فقد كان يسكنه هاجس تنكّر الغرب ليسوع، ونأيه الفعليّ عن تعاليم الإنجيل. فتطلّع إلى نشر هذه التعاليم إلى أقاصي الأرض عملاً بمشيئة الربّ.

ولّما طلب مجمع نشر الإيمان إقامة إكليريكّياتٍ في الشرق الأقصى، وتأهيل إكليرُس وطنيٍّ، لم يحمله الغرور على ادّعاء قدرة جمعيّته الهشّة على تحمّل هذه المهمّة الثقيلة، فاختار لها نخبةً من الذين عرفهم في لقاء الثلاثاء.

أمّا في ما يتعلّق برسالاته، فهو، وفقَ أسلوبه، كان ينتظر إشارةً واضحةً من العناية الإلهيّة، قبل إقدامه على أيّة خطوةٍ. وقد جاءته هذه الإشارة عندما طلبت منه شركةٌ تجاريّةٌ فرنسيّةٌ كانت قد نالت حصريّة التجارة مع مدغشقر، تعيين كهنةٍ يخدمون الجالية الفرنسيّة هناك. وبما أنّ هذا الطلب قد وُجِّه له من خلال القاصد الرسوليّ، فقد توسّم فيه الإشارة المنتظرة، إشارةً جليّةً لا لَبْس فيها. وعندئذٍ، لم يعد عائقٌ قادرًا على ردعه أو توقيفه عن تلبية الدعوة الإلهيّة.

حتّئذٍ كانت جزيرة مدغشقر شبه مجهولةٍ. وكلّ ما كان يُعرف عنها أنّها شاسعة الأطراف، وأرحب مساحةً من فرنسا، متعدّدة المناخات، والإثنيّات، والألوان. مناخها القاتل لم يردع تجّارًا، جارين وراء الربح، عن اقتحام تلك البلاد، وهو، بالأحرى، لم يتوانَ عن إيفاد مرسَلين ساعين إلى خلاص النفوس.

كان قد سبق ليسوعيّين برتغاليّين أن بشّروا الجزيرة، ولكنّهم جاءوا مصحوبين بجنودٍ قساةٍ، وتجّارٍ جشعين، تعاملوا مع السكّان الأصليّين تعاملهم مع قطعانٍ. وبالتالي فقد قوبل اليسوعيّون بعداءٍ وانغلاقٍ، لم يقوَ على تبديدهما لا تفانٍ ولا

بطولةٌ ولا قداسةٌ. وكانت المناوشات المستمرّة بين بروتستانتيّين وكاثوليكيّين قد أثارت حيرة السكّان الأصليّين وشكوكهم.

وكان ملك البلاد ينحني أمام القوى العسكريّة البرتغاليّة، ولكن حالما تبعد دبّاباتهم ومدافعهم، كان يمعن في اضطهاد المرسَلين.

وكان الأب ديـــپـــول قد كلّف بمواكبة الحاكم اثنين من مرسَليه، ولم يتحمّل أحدهما مناخ البلاد، فلقي حتفه بعد أسابيع قليلةٍ، أمّا الآخر، المدعوّ الأب "ناكّار" (Nacquart)، فصمد مدّةً أطول في البلاد، وأثبت تميّزه، وفرادته، وقداسته. كان قوّةً لا تهدأ لها حركةٌ؛ مشرقَ المحيّا، صريحًا، باطنه على شفتيه، ولا أحد يقوى على مخالفته أو معارضة دماثته، ومرونة فكره. وكانت طيبته تقوده بيُسرٍ إلى قلوب الآخرين. وقد أتقن، بسرعةٍ، اللغة المحلّيّة، ووضع، بها، كتاب تعليمٍ مسيحيٍّ، بسيطًا، يفهمه الشعب بسهولةٍ. كانت عظاته تؤتي معجزاتٍ، وثقته المطلقة بالله، تحصل له من الله على كلّ ما يطلب. وكانت نفسه تضجّ بالمشاريع الرسوليّة الطموح، الرامية إلى النهوض بالسكّان الأصليّين روحيًّا ومادّيًّا.

وكان هو ورفيقه، أثناء رحلتهما إلى مدغشقر، قد تحادثا، على متن السفينة، مع حاكم الجزيرة العتيد، الذي وعدهما بمساعدتهما على التبشير. ولكنّه مذ استقرّ به المقام، لم يهتمّ إلاّ ببسط سلطته وترسيخها، وبتقييد نفوذ المرسَلين.

ومع ذلك، حقّق الأب إلى أقصى حدٍّ، توقّعات الأب ديـــپـــول. الذي وصفه، عندما انتدبه لهذه المهمّة، بأنّه "أقدس قربانةٍ في الجمعيّة"، ووصف الرسالة الموكلة إليه بأنّها "دعوةٌ توازي، عظمةً وسموًّا، دعوة أعظم قدّيسي الكنيسة"، وأضاف: "التواضع، وحده، كفيلٌ بتلبية هذه النعمة، على أن يواكبه تسليمٌ تامٌّ لكلّ الذات، وثقةٌ لامحدودةٌ بالخالق، وسخاءٌ جمٌّ، وجرأةٌ كبرى، وإيمان إبراهيم، ومحبّة بولس، وموكب الغيرة، والصبر، والاحترام، والفقر، والعطف، والكتمان، ونصاعة السلوك، والرغبة الصادقة في بذل كلّ الذات، وكلّ شيءٍ في سبيل الله...".

عقَبة الأب "ناكّار" الكأداء كانت الجالية الفرنسيّة المؤلّفة من مغامرين ساعين وراء المال بأيّ ثمنٍ، ولا يقيّدهم أيّ رادعٍ أخلاقيٍّ. وفي حين كان الكاهن يرى في المواطنين المدغشقريّين بشرًا مدعوّين إلى معرفة الله، وممارسة حياةٍ حضاريّةٍ مسيحيّةٍ، ويعاملهم معاملة أخٍ لهم، لم يكن الحاكم يتطلّع إلاّ إلى المنافع الماليّة، وكان متسلّطًا كأنّه ملكٌ مطلق الصلاحيّة لا يؤمن إلاّ بالقوّة. كان يعامل المواطنين الأصليّين معاملة المتوحّشين. ولدى أيّة أمارة تمرُّدٍ كان يمعن حرقًا وقتلاً وسلبًا لكلّ ما يحتاج إليه من مؤنٍ. كانت الأعمال تطغى على سلوكه وتفكيره، ويظنّ أنّ لا مكانة للإنسانيّة في بلدٍ لا يعدّ سكّانه بشرًا.

الحاكم والمرسَل نزعتان متناقضتان تصادمتا، وكادت نزعة العنف تبطل مفاعيل المحبّة.

ومتخطّيًا هذا العائق، انطلق الأب لزيارة الملك، الذي كان بدائيًّا في إطار حضارةٍ مسيحيّةٍ. كان وثنيًّا معمَّدًا، ولكنّه ظلّ تائهًا بين تقاليد آبائه، والتعاليم التي سُرِّبت إلى ذهنه. وهو نفسه لم يكن واثقًا من هويّته. غير أنّ موقفه الودّيّ من المرسَل حمل كبار القوم على احترامه، ودفع صغارهم إلى الإحاطة به، إجلالاً وفضولاً. وقد برهن المرسَل عن مهارةٍ في جمع الشعب، وإثارة فضوله، واجتذابه. وكان، عملاً بنصيحة الأب ڤـــنسان، قد رسم، بألوانٍ صارخةٍ، لوحةً كبيرةً، كان يطويها، ويلقيها على كتفه، وحيثما يلتئم جمعٌ من الناس، كان يبسطها ببطءٍ، ويبيّن للأنظار الفضوليّة، وللأذهان المثارة، حقائق المسيحيّة الأساسيّة. وهكذا، ببساطةٍ، كان يوقظ الضمائر. غير أنّ تثقيف الأذهان كان أشدّ اقتضاءً. ولم يكن يلبّي طلبات العماد إلاّ للّذين كان واثقًا من رسوخ إيمانهم، وقدرتهم على الصمود. وكانت النساء، خاصّةً، اللواتي يُعامَلْنَ في بيوتهنَّ على أنّهنَّ عبيداتٌ، يدهشنَ ويسعدنَ بأن يُعدَدْنَ مخلوقاتٍ بشريّةً، يحقُّ لها أن تصلّي وتدعو الله. وسرعان ما أمسيْنَ شطر الرعيّة الأشدّ حرارة إيمانٍ.

واتّضح للمرسَل "ناكّار"، بعد قضائه سنةً في مدغشقر، أنّ ترسيخ المسيحيّة فيها يستلزم كنيسةً، ومقرًّا للرسالة، وعشرة مرسَلين يغطّون البلاد بأكملها، وأخوات محبّةٍ يُعنين بالمرضى، والنساء، والأولاد، وإخوةً مساعدين مهندسين، وأطبّاء ومدرّسين، وإكليريكيّةً تعدّ كهنةً من أبناء البلاد. ولكن ما كاد الأب "ناكّار" المضطرم غيرةً رسوليّةً يُعدّ برنامجًا لمشروعه هذا حتّى صرعه مُناخٌ لم يتّخذ حياله أيّ تدبيرٍ وقائيٍّ، وعاجلته المنيّة باكرًا. وبكاه جميع المدغشقريّين الذين عرفوه، وبكاه الحاكم، ولكنّ نبأ وفاته لم يبلغ مسامع الأب ڤـــنسان إلاّ بعد سنواتٍ.

ولكنّ ربيع التبشير المزهر هذا لم يؤتِ الثمار المرجوّة. ولكأنّ موت الأب "ناكّار" قد حرّر الملك من الخوف الذي كان يفرضه عليه رجل الله، ولم يعُدْ يجد أمامه سوى أنصاف مسيحيّين لا يقيم لهم وزنًا. فحرَّض الشعب على الغرباء، ونظّم مناوشاتٍ، فشاعت ممارسات الخطف والسلب. وأنهض الملك جيشًا قوامه اثنا عشر ألف جنديٍّ، وضرب الحصار على مقرّ الحاكم الفرنسيّ، ولكنّ بضع طلقات مدفعٍ كانت كافيةً لتبديد جيشه وفراره، وأُلقي القبض على الملك، وأُهين، وهمدت الثورة.

ومع أنّ الأب ديـــپـــول لم يُحَطْ علمًا بوفاة الأب "ناكّار" إلاّ بعد انقضاء ثلاث سنواتٍ عليها، كان قد أوفد إلى مدغشقر، من أجل دعمه ومساعدته مرسَلَيْن وأخًا. ولكنّ وصولهم إلى غايتهم قد تأخّر كثيرًا، بسبب تعرّضهم للخطف، وللأنواء المناوئة. وريثما وصلوا كانت قد نشبت ثورةٌ شعبيّةٌ وقُمِعت. وكانت الجالية الفرنسيّة قد أُهملت. والمواطنون الذين اعتنقوا الدين المسيحيّ فقدوا السند والمرشد، وتراخت مبادئهم الأخلاقيّة، وعادوا إلى تقاليدهم الوبيلة. وفوجئ الوفد القادم بوفاة الأب "ناكّار"، وبضياع كلّ شيءٍ وباحتراق القلعة، وتبعثر الجالية.

وكان البوْن شاسعًا بين الأب "ناكّار"، والمرسَل الذي خَلَفه، الأب "بورديز" (Bourdaise). فقد كان بطيء الفكر، وكان قد لقي مشقّةً في استيعاب عقائد اللاهوت. ولكنّه كان يملك نفسًا من نارٍ، وعزيمةً فولاذيّةً، وسلطةً يصعب مقاومتها.

وفوق هذا وذاك كان طبيبًا جرّاحًا، وصاحب حدسٍ ثاقبٍ يمكّنه من صنع أدويةٍ قلّما تخيب نتائجها، حتّى ظنّه الشعب البسيط ساحرًا أقوى من سحَرتهم. وكان كلّ مَن يلقى الشفاء على يده يطلب العماد. فاكتسب نفوذًا واسعًا وراسخًا. وحيثما مرّ كان الأولاد يتراكضون في إثره، من أجل رؤيته، ولمس ثوبه، وسماعه. وذات يومٍ، فيما كان يتلو صلوات سواعيّته، جثت من حوله زمرةٌ منهم.

وشعر الذين كانوا قد اعتنقوا المسيحيّة على يد الأب "ناكّار". أنّهم استعادوا كلّ ما تعلّموه منه، وأنّهم أضحوا أشدّ ورعًا.

وكان الأب ڤـــنسان قد أرسل عام ١٦٥٦ مجموعةً أُخرى من ثلاثة مرسَلين لدعم الأب "بورديز". ولكنّ أحد الثلاثة لقي حتفه على متن الباخرة التي كانت تقلّهم. وانتقل الآخران إلى خالقهما بعد ثلاثة أشهرٍ، إذ إنّهما في اندفاع غيرتهما، قد أهملا تدابير الوقاية من الأمراض السارية. ولكم شقّ على الأب "بورديز" أن ينعيهما، مبلّغًا النبأ المفجع إلى الأب ڤـــنسان، بصفته السنديانة التي ظلّت صامدةً في العاصفة، والخادم الوحيد البائس الذي ظلّ حيًّا كي ينعي إخوانه، بقلبٍ ممزّق. وما لبث أن هوى، هو أيضًا، ضحيّة نوبة زحارٍ قاتلةٍ في ١٦٥٧/٦/٢٥. ولم يبلّغ الأب ڤـــنسان نبأ هذه الخسارة الفادحة، إذ إنّ سلسلةً من الطوفانات قطّعت الاتّصالات بين مدغشقر والخارج، مدّةً طويلةً، وأذكى هذا الانقطاع قلق الأب ڤـــنسان على مرسَله الحبيب.

ويوم ١٦٥٨/١١/١١، دعا الأب ديــــپــــول جميع أبناء جمعيّته إلى الصلاة من أجل المرسَلين الذين يواجهون أخطارًا، وبغتةً قطع الصلاة، وهتف بلهفةٍ: "أيّها الأب بورديز!". ثمّ تابع: "يا إخوتي، إنّ الأب بورديز، البعيد جدًّا عنّا، والوحيد، قد أنجب ليسوع، بمشقّةٍ وعنايةٍ، العديد من أبناء البلاد حيث هو الآن. فلنصلِّ من أجله!" ثم هتف، ثانيةً، وبتأثّرٍ بالغٍ. "أيّها الأب بورديز، هل ما زلت حيًّا؟" إذا كنت حيًّا، فليحفظ الله حياتك، وإذا كنت في السماء فصلِّ من أجلنا!".

وقد رئف الله بالأب ڤـنسان، فأخفى عنه نبأ وفاة الأب بورديز، حتّى وفاته. ولم يُعيَّن خلفٌ لذلك المرسَل الفذّ، إلاّ بعد مضيّ سنواتٍ، وبعد انتقال المؤسّس إلى ديار ربّه.

لقد تكالب القدر، بكلّ قسوته، على رسالة مدغشقر، وكانت أصداء ما حلّ بها في مركز القدّيس لعازر، جارحةً وموجعةً. بيد أنّ الأب ڤـنسان كان يتقبّل الضربات بألمٍ، ولكن بسجوّ نفسٍ. وبعد كلّ نازلةٍ كان ينهض ويعيد الكرّة، مثل فلاّحٍ متجذّرٍ في تربته، إثر موسمٍ قضى عليه الصقيع، وموسمٍ تالٍ قضى عليه البَرَد، لا يتوانى عن حرث حقله مجدّدًا، وبذره، وإعداده لموسمٍ جديدٍ، بيدٍ لا ترتجف، وقلبٍ لا يفقد الرجاء.

ولكم واجه المرسَلون من عواصف هوجاء، وأمواجٍ غاضبةٍ! وكم من قراصنةٍ وقطّاع طرقٍ! وكم رافق الأب ڤـنسان بفكره وقلبه، كلّ مخاطراهم ومغامراهم وتضحياهم، وبطولاهم! وكم أحزنه ألاّ يستطيع متابعة أخبارهم أحيانًا! وكم منهم، من لقي حتفه، وهو ظلّ سنواتٍ يظنّه حيًّا!.

وكان الأب ديـپـول قد استقدم أربعة فتيانٍ من مدغشقر، كي يثقّفهم، ويُعدّهم لخدمة نفوس مواطنيهم. ولكن كان الخوف يأخذ بكلّ أوتار كيانه من أن تتأثّر نفوسهم البريئة بوبال العالم الغربيّ الذي فقد الكثير من عذوبة المسيحيّة وسموّها وشمولها. فكان يتمنّى أن يتولّى ملاكٌ تثقيفهم، ولذلك اعتزم تولّي هذه المهمّة بنفسه، وإعادهم مرسَلين إلى مسقط رأسهم.

وبما أنّ شعوره بدنوّ أجله كان يحاصره، فقد كان دائم الخوف من إهمال رسالة مدغشقر التي كلّفت جمعيّته من التضحيات أثقلها وأوجعها. وبأيّة عباراتٍ مؤثّرةٍ أفصح عن هذا الخوف عندما خاطب رفاقه قائلاً: "أيبلغ بنا الجبن والتخاذل أن نتخلّى عن هذه الكرمة التي انتدَبنا الله للعناية بها، لأنّ أربعةً، أو خمسةً، أو ستّةً من رفاقنا لاقوا حتفهم فيها؟ وما رأيكم بجيشٍ يفرّ من المعركة، إذا فقد بضعة آلافٍ من جنوده؟ وكم ستكون هذه الجمعيّة جبانةً، وخاضعةً لدوافع اللحم والدم!".

وظلّت رسالة مدغشقر مستقرّةً في قلوب اللعازريّين. وإن كان مرسَلوها قد غادروها مع جلاء المستعمرين عنها، إلاّ أنّهم عادوا إليها في القرن التاسع عشر، وما زالوا فيها. وها قد كرّت خمسة قرونٍ، وقد دخل الإنجيل إلى كلّ أرجاء الجزيرة، وباتت فيها جماعاتٌ مسيحيّةٌ مزدهرةٌ؛ وتحقّقت رغبة الأب "ناكّار"، ونشأ فيها إكليرُسٌ وطنيٌّ، وأمسى للجزيرة أُسقفٌ، وانضمّت إلى اللعازريّين جمعيّاتٌ رهبانيّةٌ أُخرى، من أجل النهوض بهذه الرسالة.

رسالاتٌ في أفريقيا الشماليّة

لم تَمَّحِ، يومًا، من ذاكرة الأب ديپول أيّام الأَسْر التي قضاها في تونس، وخبرة المعاناة الروحيّة والجسديّة التي يعانيها الأسرى الأوروپيّون هناك.

كانت تلك البلاد، آنذاك، تابعةً للحكم العثمانيّ، الذي يقيم علاقاتٍ دبلوماسيّةً مع الدول المسيحيّة الغربيّة. وكان القناصلة الفرنسيّون في تونس والجزائر يذودون عن مصالح شتّى الدول المسيحيّة الغربيّة، ما عدا بريطانيا التي كان لها قنصلها الخاصّ.

ومع أنّ الاتّفاقات المبرمة بين الباب العالي والسلطات الفرنسيّة كانت تمنع أَسْر فرنسيّين، إلاّ أنّ حكّام الجزائر وتونس لم يكونوا يتورّعون عن فعل ما تمليه عليهم أهواؤهم. وكانت مراكبهم، ومراكب قراصنتهم تجوب البحار تعقّبًا للبواخر الأوروپـيّة، فينهبون بضائعها، ويأسرون ركّابها. وكانت تبلغ بهم الجرأة أن يرسوا على شواطئ فرنسيّةٍ، وإيطاليّةٍ، وإسبانيّةٍ، وينهبون القرى، ويأسرون الأهالي ويبيعونهم في الساحات العامّة، بيع البهائم. فكانت الفتيات يملأنَ حرَم الحكّام، والأمراء، والأثرياء، وكان الرجال الأشدّاء يباعون في سوق النخاسة، ويُخضَعون لأكثر الأعمال مشقّةً. وقد يُستثنى من هذه السُّخر الذين يُعلِنون اعتناقهم الإسلام. ولكن لم يكن هذا الإعلان كافيًا لإعتاقهم من ربقة العبوديّة.

وكان ملوك فرنسا يستنكرون، بين حينٍ وآخر، هذه الممارسات المناقضة للمعاهدات المعقودة، ومع أنّ الموفدين المكلّفين بتبليغ هذا الاستنكار كانوا يقابَلون باحترامٍ زائفٍ، ووعودٍ خلّبٍ، لم يكن يتبدّل من الواقع شيءٌ. وكان القناصل يُهدَّدون أو يُرشَون، أحيانًا.

وكانت صيحات استغاثة أولئك الأسرى تدوّي في نفس الأب ڤنسان،

هاتفةً: "نحن إخوتك، نُباع بيع البهائم، تحرقنا هجيرة الصحراء، وتلتهمنا الحمّى، وتمزّقنا ضربات السياط. إنّنا قابعون في جحيم القنوط، ولا رجاء لنا، فأغِثْنا!". وكان الأب يرفع ناظريه إلى الربّ مستعينًا: "ساعدني، يا ربّ، كي أعتق من القيود أيديهم، وأنتشلهم من هوّة البؤس. فأنت تتألّم فيهم ألمًا بلا حدودٍ!".

ولكنّ الأب ديـــپـــول، مع اعتزامه معالجة هذه الآفة المؤلمة، كان، جريًا على نهجه المعتاد، لا يُقدم على أمرٍ حتّى يشهد إشارةً من العناية الإلهيّة. وقد أتته هذه الإشارة من الملك لويس الثالث عشر الذي أوعز إليه إرسال كهنةٍ لرعاية الأسرى المسيحيّين الذين قُدِّر عددهم، آنذاك، بثلاثين ألفًا. وكان إرسال هؤلاء الكهنة يقتضي موافقة حكّام البلاد المعنيّة. وأسفر البحث عن ثغرةٍ في الاتّفاقات المعقودة بين العثمانيّين والسلطات الفرنسيّة، يمكن الدخول من خلالها. فقد كان يحقّ لكلّ قنصلٍ أن يستقدم كهنةً يراعون حاجات أُسرته ومقرّه الروحيّة. وضمانًا لولاء القناصل وتعاونهم، ارتأت دوقة "إيغيّون" شراء قنصليّتيْ تونس والجزائر، وتعيين قناصل فيهما، لا ريبة في ولائهم.

وعام ١٦٤٥ أوفد الأب ديـــپـــول المرسَل الأوّل، كي يكون في خدمة القنصل الفرنسيّ في تونس. كان يُدعى "جوليان غيران" (Julien Guerin)، وكان متملّكًا من ضبط اندفاعه التلقائيّ بالحذر والحيطة. وكانت أساليبه الراقية الماهرة تسرّب القناعة إلى الأذهان والنفوس. فنفذ، بيُسرٍ، إلى قلب الحاكم، واستطاع مقابلة الأسرى في سجونهم، والتحدُّث إليهم بحرّيّةٍ، ونظّم لهم طقوس عبادةٍ، في كاپـــيلات السجن. وانطلق إلى تحقيق رسالته، تلهبه نارٌ مقدّسةٌ. فدأب على زيارة السجون، وممارسة الأسرار الخلاصيّة فيها، وصالح مع الله أُناسًا نأوا عن الربّ سنواتٍ، وخفّف حدّة بؤسهم، وبلسم جراحهم بقدر استطاعته، وكتب، عنهم، رسائل إلى ذويهم، مطفئًا قلقهم، وقلق ذويهم القاتل، وأشعل بارقة رجاءٍ في جحيم بؤسهم، وأدهش حتّى جلاّديهم بصموده في وجه التهديدات والشتائم. وقد سأله

باي تونس، يومًا، عن سبب اختلافه إلى سجون الأسرى. فأجابه: "ألم يخبرك رجالك أنّ الأسرى يصبحون أكثر طاعةً، وأنشط عملاً، عندما يحرّضهم الكاهن على احترام وصايا الله؟".

هذا النجاح شجّع الأب ڤــنسان على دعم الأب "غيران" بمرسَلٍ مساعدٍ، وكان اختياره لهذا المرسَل مدهشًا. كان اسمه "جان لو ڤــاشي" (Jean le Vacher)، في الرابعة والعشرين من سنيه، يبدو فتًى غرًّا، ولكنّ حدْس الأب ڤــنسان كان قد اكتشف فيه جمال نفسٍ فذًّا، ومستقبلاً مجيدًا، ورسولاً شهيدًا. ففضلاً عن البسمة التي حاكى بها ذلك المرسَل رفيقه الذي سبقه، وافتتح بها قلوب المسؤولين والمواطنين، كان "جان لو ڤــاشي" يمتلك رؤيةً ثاقبةً، وملَكَة القرار والتنظيم، والإقدام على تحمّل المسؤوليّات.

وجديرٌ بالتنويه أنّه كان اعتلّ، في فرع الرسالة في مرسيليا، قبل إبحاره إلى غايته، ورئف رئيس الدير، هناك، بصغر سنّه، وأرجأ انطلاقه حتّى يستعيد قواه. وتنامى هذا الأمر إلى علم الأب ڤــنسان، فبعث إلى رئيس فرع مرسيليا برسالةٍ يمكن تلخيصها بهذا المعنى: "إذا كان الأب "لوڤــاشي" من الوهن بحيث لا يستطيع السير إلى المركب، فليُحمَل إليه حملاً، وإذا عجز، أثناء الرحلة، عن تحمّل جوّ البحر، فيُلقَ به إلى الماء!". وما هذه الرسالة إلاّ دليلٌ على ثقة الأب ڤــنسان المطلقة بمرسَله الشابّ، وعن رغبته العارمة في أن يشهده في ساحة الرسالة. وفي الواقع بعد إتمام هذا المرسل رسالةً باهرة النتائج في تونس، أُوفد إلى الجزائر حيث مكث منذ عام ١٦٦٨ حتّى عام ١٦٨٣. وعندما نشبت حربٌ بين الجزائر وفرنسا، حاول الجزائريّون إكراهه على اعتناق الإسلام، وحيال رفضه الصامد، وضعوه في فوّهة مدفعٍ، وقذفوا به إلى البحر.

ولكنّه، قبل ذلك، كان قد وصل، عام ١٦٤٧، إلى تونس حيث وجد الطاعون منتشرًا، موقعًا الويلات. وقد برهن، بتعاونه مع المرسَل الآخر "غيران"، عن بطولةٍ

في البذل، أذهلت المسلمين. ولكنّ الداء قضى على زميله، وعلى القنصل، وبقي هو وحيدًا في الساحة، وتولّى إلى جانب مهامّه الرسوليّة، المهامّ القنصليّة، وأثبت، في ممارستها، حنكةً تتخطّى قدرات عمره.

وتلبية لرغبة الـڤـاتيكان في نأي الكهنة عن مناصب دبلوماسيّةٍ، حاول الأب ڤـنسان تحرير مرسَله من الأعباء القنصليّة، وانتدب لهذه المهمّة رجلاً كان يثق باستقامته، وورعه، وحنكته، ولكنّ حاكم تونس رفضه، واضطرّ المرسَل الشابّ إلى الاستمرار في رعاية مصالح مواطنيه. ورغم مضايقاتٍ لم تهادنه يومًا، أبدى غيرةً مذهلةً، تجلّت يوم علم أنّ باخرةً سترسو في مرفأ "بيزرت" (بنْزِرت)، مثقلةً بأسرى يكادون يقضون نحبهم جوعًا ووجعًا، ويأسًا، فخفّ إلى المرفأ، وابتاع ثلاث أبقارٍ، وعمل على ذبحها، وتقطيعها وطهيها، وتوزيعها على الأَسْرى، مثبتًا أنّه من أصحاب القرار الذين يمضون مباشرةً إلى غايتهم، مذلّلين كلّ العقبات، ولا شيء يعيقهم.

وبمناسبة عيد الفصح أمضى الأب "لوڤـاشي" ثماني ليالٍ متعاقبةٍ في السجن، من أجل سماع اعترافات الأسرى المساكين الذين كانوا يقضون يومهم منذ الفجر عاملين في المناجم، ويعودون إلى السجن ليلاً، مكدودين، فزوّدهم بأسرار الخلاص، وأشاع السلام في نفوسهم.

واتّفق له أن عمّد، في السجن، حفنةً من الأَسْرى الذين طلبوا العماد وألحّوا في الطلب، ولم يفشِ سرّه أحدٌ. وقد أرجع، أيضًا، إلى الدين المسيحيّ رجلاً جامايكيّ الأصل، أقرّ على الملأ: "أجل مات المخلّص من أجلي، ومن الحقّ أن أموت من أجله". ثمّ مضى إلى باي الجزائر، ورمى بالعمامة أمامه معلنًا: "لقد خدعتموني! ولكنّني، الآن، أُعلن أنّني مسيحيٌّ، فافعل بي ما تشاء. وسيعينني مخلّصي على تحمّل كلّ العذابات". فأمر الباي بإحراقه حيًّا.

وكان المرسَلُ قد كتب، ذات يومٍ، إلى الأب ڤـنسان: "لدينا، هنا الحرب، والمجاعة، والطاعون، وليس في جيبنا فلسٌ. ولكنّ عزيمتنا متينةٌ!". وقد رأى فيه

الأب ڤـــنسان كلّ ما كان يعجبه ويقدّره: الحقيقة والمحبّة. وكان يسعد ويفخر برواية أفعاله، في كلّ مجالسه.

في هذه الأثناء كانت رسالة الجزائر تواجه مصاعب كبرى. وكان ثلاثةٌ من المرسَلين قد لقوا، فيها، حتفهم. ولم يبقَ سوى واحدٍ، يُدعى الأخ "بارّو" (Barreau)، الذي تميّز بالاندفاع، وسخاء النفس حتّى البطولة. ولكنّ تلقائيّته كانت تفقده، غالبًا، الاعتدال وسداد التقدير، وتوقعه في ورطاتٍ عويصةٍ. ودأب جزائريّون على ترصّد أخطائه، من أجل إهانته وابتزازه. وسارع الأب ڤـــنسان إلى دعمه بمرسَلٍ قد يقيه من التهوّر، وناشدهما، كليهما، العزوف عن النقاشات والسجالات الدينيّة، وعن دعوة أبناء الجزائر إلى اعتناق المسيحيّة، وحصر اهتمامهما بالأَسْرى المسيحيّين، والاحتفاظ بالاعتدال مؤكّدًا لهما: "إنّ الخير الذي يبتغي الله تحقيقه، يتحقّق بذاته، وبمعزلٍ عنّا. فليغلب عطفكما على جهدكما. وبواسطتكما سيحقّق الله، وحده، ما يعجز عنه جميع البشر مجتمعين، العاملين بمعزلٍ عن الله".

وقد نهج المرسَل الجديد وفق نصح الأب ڤـــنسان مع الأَسْرى الذين وجدوا في دينه تخفيفًا لبؤسهم. أمّا الأخ "بارّو"، فعجز عن ترويض اندفاعه، ولم يتورّع عن التعهّد بمبالغ طائلةٍ من أجل تحرير أسرى، وغالبًا ما كان يعجز عن الوفاء بتعهّداته. وقد استغلّ جزائريّون مسقط وهنه هذا، واندفاعه المتهوّر فحمّلوه مسؤوليّة كلّ تاجرٍ فرنسيٍّ استدان من مواطنٍ جزائريٍّ، ولم يفِه دينه. وحينئذٍ كان يُسجَن ويوسع ضربًا، ويُسام كلّ أصناف التعذيب. وكان الأب ڤـــنسان يبذل كلّ ما يسعه من جهدٍ كي يفرج عنه، ولا يتردّد عن مطالبة الملك التوسّط لدى الباب العالي من أجل عزل الباشا الذي يُخضع الأخ "بارّو" لعذاباتٍ وحشيّةٍ، وللإهانات.

ومع أنّ رسالة الجزائر آتت ثمارًا طيّبةً، كان وضع الأَسْرى المسيحيّين عصيبًا، لا يطاق. ولم يكن أمام جمعيّة الرسالة والسلطات الفرنسيّة سوى وسيلتين لتحريرهم: دفع فدياتٍ طائلةٍ، أو تحريرهم بالقوّة. وابتدأت الجمعيّة بدفع

الفديات، وكان مقرّ القدّيس لعازر المركز الرئيس لتلك المبادلات، ففيه كانت تجمع التبرّعات من مساهمات أهالي الأسرى، ومن هبات سيّدات المحبّة السخيّة، ومن الأموال التي كانت تجبى في الكنائس لهذه الغاية. وكانت رسالة مرسيليا تتولّى إيصال المبالغ إلى المرسَلين والقناصل. وكان لكلّ أسيرٍ ثمنٌ يحدّده الآسرون. وقد دفع المرسَلون، في هذه الصفقات، أكثر من مليونٍ ونصف مليون ليرةٍ، وحرّروا بها نحو ألفٍ ومئتي أسيرٍ.

واقترحت دوقة "إيغيّون" اللجوء إلى القوّة، وإطلاق حملةٍ عسكريّةٍ من أجل تحرير الأسرى، وكلّفت بهذه المهمّة دوق "بوسون"، ولكنّه تردّد، وماطل. وحينئذٍ، تذكّر الأب ڤـــنسان الكابتن "پـــول"، أحد فرسان مالطا المتميّز ببسالته، والذي كان قد صادفه في مكتب "مازاران". وكلّف أشخاصًا باستطلاع رأيه في الحملة. ولّما لمس منه استعدادًا لها، كلّف الأب "جيت" (Get) رئيس فرع الرسالة في مرسيليا باستبيان شروطه وقدراته، وبالتفاوض معه، وتعهّد هو بالحصول على موافقة الملك، والكردينال الوزير. واستشار الأب ڤـــنسان، في هذه القضيّة، شخصَيْن عدّهما "أفضل عقلَيْن في باريس"، فأكّدا له أنّ المهمّة ممكنةٌ ومرغوبٌ فيها. وحينئذٍ أرسل الأب ديـــپـــول إلى الأب "جيت" مبلغ ثلاثين ألف ليرةٍ من أجل تنفيذ الحملة. ولكنّه، في سرّه، كان يمزّقه هاجس وفاء الكابتن "پـــول"، ولذلك طلب من رئيس فرع مرسيليا تبليغه بأنّه سيدفع له، مقدَّمًا، عشرين ألف ليرةٍ، وسيدفع عشرة آلافٍ بعد نجاح الحملة. وفي الآن عينه تأكّد من ردود فعل السلطان الذي كان يعدّ أَسْر المسيحيّين في الجزائر تمرّدًا على سلطته، وخرقًا للمعاهدة المبرمة بينه وبين ملك فرنسا. وكان جميع الرسميّين مشجّعين لهذه الحملة، وهو كان يتطلّع بقلقٍ وفراغ صبرٍ إلى نتائجها، ولكنّ المنيّة عاجلته قبل أن يطّلع عليها.

وجديرٌ بالتنويه أنّ الكنيسة، حينذاك، كانت تؤيّد استخدام القوّة من أجل تحرير أَسْرى مستعبَدين، وتباركه.

وفي هذه الأثناء كان الكابتن "پـــول" قد انطلق بأسطولٍ كي يفرض الحصار على مدينة الجزائر. ولكنّ عواصف هوجاء أبقته في عرض البحر، وحالت دون إرسائه. وبما أنّه كان، بفطرته، مغامرًا لا يحتمل الجمود، لم يُطِقْ أن يبقى، طويلاً، مجمّدًا في عرض البحر، فعاد أدراجه، ولم يتحقّق حلم الأب ڤـــنسان بتحرير جميع الأسرى، إلاّ عام ١٨٣٠.

بيد أنّ الأب ڤـــنسان كان قد أدّى للأسرى ولذويهم خدمةً جلّى. فانقطاع تبادل الأخبار بينهم قد جعلهم أمواتًا بعضهم لبعضٍ. وأكبّ الأب ديـــپـــول على معالجة هذه المأساة الإنسانيّة. فدعا كلّ أسيرٍ إلى كتابة أو استكتاب رسالةٍ إلى ذويه. وكان المرسَلون يوصلون تلك الرسائل إلى ذوي الأسرى المفجوعين. وهؤلاء، بدورهم كانوا يكتبون أو يستكتبون ردودًا، ويرفقونها، إذا استطاعوا، بمبالغ زهيدةٍ، ويسلّمونها إلى المرسَلين، الذين يوجّهونها إلى مركز القدّيس لعازر، ومن هناك تواصل رحلتها إلى مرسيليا، حيث تنظّم جداول بالرسائل والطرود الموجّهة إلى الجزائر وتونس. أمّا المبالغ الماليّة الضئيلة فكانت تتحوّل إلى حوالاتٍ على صرّافين، وتنقَل إلى القناصل، أو يُكلَّف بإيصالها إلى أصحابها تجّارٌ يمارسون هذه المهمّة.

وكانت الرسائل الواردة من أَسْرى تونس والجزائر، وكذلك من أَسْرى تولون ومرسيليا تسلك طريقًا معاكسًا، وتتجمّع في مقرّ القدّيس لعازر، ومن هناك تسلك طريقها إلى القرى والدساكر والأكواخ، مبدّدةً يأس من غابت عنهم، منذ شهورٍ، أخبار أحبابهم، وتسيل العزاءَ إلى نفوسهم.

ولطالما أكبّ الأب ڤـــنسان، قُبَيْل وفاته، على تنظيم جداول بالرسائل المرسَلة والواردة، وتأمين وصولها إلى أصحابها.

وكانت مأثرة ذلك البريد المجّانيّ المرتجل من مآثر فكر الأب التنظيميّ، ومن سخاء قلبه الذي قلّما أحبّ قلبٌ مثل حبّه للشعب البسيط.

الفصل السادس

غروب حياة عملٍ وقداسةٍ

« ميزةُ القلوب الكبيرة أنّها تكتشف حاجةَ زمانِنا الأساسيّة، وتكرّسُ ذاتَها لتلبيتِها ».

"لاكوردير"

شيخوخةٌ وجيعةٌ ونشيطةٌ

عام ١٦٥٣، دَعَته دوقة "إيغيّون" إلى ترؤّس اجتماعٍ لسيّدات المحبّة، فاعتذر عن الحضور لأنّه كان يشارك مرسَليه رسالةً في الريف. فاستشاطت الدوقة غيظًا، وأَنزلت أشدّ اللوم بالمرسَلين اللعازريّين الذين سمحوا لأبيهم أن يتعرّض للتعب ولِلَفحات القيظ، وهو في سنٍّ متقدِّمةٍ، وصحّةٍ هشّةٍ، ويعاني عِلَلاً عديدةً. لامَتهم لتعريض كنــزهم الثمين، نادر المثال، للمخاطر، ولتعريض ذواتهم بالتالي لأفدح خسارةٍ. والواقع هو أنّ المرسَلين لم يستحقّوا لومًا، فهم كانوا يحيطون أباهم الحبيب بأرقّ عنايةٍ، ويحاولون وقايته من النسمة العابرة. ولم يكن أحدٌ يقدّر، أكثر منهم، ثمن حضوره. ولكنّه، هو، كان يعدّ إحجامه عن أيّ عونٍ يسعه تقديمه لفقراء القرى، خيانةً لدعوته، وإهانةً لله. وإذا هو حزم أمره على فعلٍ ما، فما من قوّةٍ تردعه عنه، إلاّ الله وحدَه.

كان قد بلغ الثالثة والسبعين من عمره، وقد واكب سنواته هذه، منذ وقوعه في الأَسْر، وهو في ريعان الشباب، موكبٌ من الآلام والعلل جعل حياته ضحيّةً كاملةً إكرامًا للربّ. وشاء الله أن تكتمل تضحياته بأوجاعٍ مضنيةٍ، وبانهيار قدرته على الحركة كرّست متانة صبره، وتوّجت صمود حبّه.

فسَهمُ القراصنة التي أصابت ساقه أثناء عمليّة اختطافه، قد أحدثت جرحًا بليغًا لم يعالَج معالجةً سليمةً، ولم ينجُ قطّ من عواقبه الوبيلة. وأثناء إقامته في بيت الجنرال "دي غوندي"، تورّمت ساقاه وقدماه، وخلّف هذا الورَم وجعًا لازمه سحابة حياته. وكان قد أصبح شديد التحسّس لِلَسعات الهواء البارد، وواكبته حمًّى راجعةٌ كانت تزول، تارةً، في غضون أيّامٍ معدوداتٍ، وتدوم، طورًا، أسابيع، بيد أنّها لم تمنعه، يومًا، عن النهوض، كلّ يومٍ، في الساعة الرابعة، والانخراط في انشغالاتٍ

مرهقةٍ على امتداد ساعاتٍ من الليل والنهار. وقد اعتاد مقاومة الحمّى بالدفء، صيفًا وشتاءً، مستخدمًا أغطيةً صفيقةً، ومحيطًا نفسه بأوعية ماءٍ ساخنٍ. ولكنّ هذا العلاج، فضلاً عن أنّه لم يكن يؤتيه أيّة راحةٍ، كان يسبّب له، ضيقًا شديدًا، وخصوصًا عندما كان يشتدّ الحرّ صيفًا، حارمًا إيّاه راحة النوم التي كان في أشدّ الحاجة إليها، وكان ينال من قدرته على مقاومة التعب، ويغرقه، أحيانًا، في نوبات إغفاءٍ عابرةٍ، تأخذ به في غمرة انشغاله، وبحضور شخصيّاتٍ مرموقةٍ. إلاّ أنّه لم يعزُ، يومًا، هذه النوبات إلى افتقاره إلى القدر الكافي من النوم، بل كان يفسّرها بما يدعوه "بؤسه" وهوانه.

وفضلاً عن هذه الحمّى الراجعة، كانت تنتابه، مرّةً أو مرّتين، كلّ سنةٍ، حمَّى رباعيّةٌ. ولكنّ المدهش أنّه قد حقّق أعظم إنجازاته حين كان ضحيّة هذه الحمّى، فهو، حينئذٍ عوضًا من الإخلاد إلى الراحة، كان ينصرف بكلّ عزيمته وجهوده إلى مواساة الفقراء، وخلاص نفوسهم، وتقديم أجلّ الخدمات للكنيسة.

عام ١٦٤٥، مُني بعلّةٍ كبرى، كانت تودي به إلى الهذيان فكان لاوعيه يسفر عمّا يفيض به قلبه من تقوى راسخةٍ، إذ لم يكن يكفّ عن ترديد هذا الدعاء: "تنازل، يا ربّ، واقبلني بروحٍ متواضعٍ، وقلبٍ نادمٍ تائبٍ!". وفي غمرة اعتلاله حدث أمرٌ عجيبٌ. فقد اشتدّت به العلّة حتّى كادت تطيح بحياته. واتّفق أنّ كاهنًا آخر في الدير كان، أيضًا، معتلاًّ، فقدّم لله أيّامه وحياته افتداءً لحياة رئيسه. ومنذئذٍ لحظ الساهرون على صحّة الأب ڤـنسان أنّه قد أخذ يميل إلى التعافي، فيما تدهورت حال الكاهن العليل، إلى أن أودت به العلّة، في وقتٍ قصيرٍ، وليلة وفاته سمع الساهرون على الأب ڤـنسان ثلاث طرقاتٍ على باب حجرته، ولكنّهم لم يجدوا لطارقٍ أثرًا، ولكنّ الأب ڤـنسان كلّف أحد الكهنة الحاضرين بتلاوة صلاة الأموات، مع أنّه كان ما زال يجهل وفاة الكاهن.

ومنذ عام ١٦٥٦، لم تهادنه هجمات الحمّى، التي عجزت عن الحدّ من اندفاع

نشاطه. واتّفق أنّ علّةً ألّمت بعينَيْه وفشلت كلّ العلاجات في شفائها، فنصحه أحد الأطبّاء بتقطير دم حمامةٍ مذبوحةٍ حديثًا في عينه. ولّما جيء بالطير رفض الأب ذبحه، مؤمنًا أنّ لله وسيلةً أُخرى لشفائه، إذا شاء، وهذا ما حدث فعلاً.

شارف الثمانين، وقد تجعّد وجهه، وتقوّست كتفاه، وعجزت ساقه عن حمله، وأمسى يعرج مثل والده، ولم يعد يستغني عن عكّازه. ولكنّ ناظريه بقيا متألّقَيْن يقظَيْن، وظلّ فكره يضجّ حيويّةً ويشعّ نورًا.

كانت قد تكالبت عليه الحمّيات، ونزلت به كلّ أصناف الوهن. ومع ذلك لم تطوِه الشيخوخة على ذاته، بل كانت له مرحلة وضع اللمسات الأخيرة على منجزاته العديدة. فإثر إبعاده عن مجلس الضمير، كان هذا المجلس قد ألغى جلساته. ولكنّ الأب ڤـنسان لم ينقطع عن مقابلة الملكة، وحتّى الكردينال الوزير، كلّما فرضت عليه مصلحة الشعب هذه المقابلات.

وثابر على الاختلاف إلى دير راهبات الزيارة، ومشاركة الراهبات لقاءهنّ الشهريّ، والإشراف على انتخاباتهنّ الداخليّة، وبقي رئيسًا على تلك الجمعيّة حتّى مماته. ولم يكفّ عن المشاركة في اجتماعات سيّدات المحبّة، وأخوات المحبّة، وعلى إدارة جمعيّة الرسالة.

وما عاد يستطيع الاستغناء، في تنقّلاته، عن استخدام العربة التي أهدته إيّاها دوقة "إيغيّون"، مع أنّه كان يسمّي تلك العربة "عارَه" وعلّة خزيه، وكان ينتقم لنفسه منها بدعوته إلى مقاسمته إيّاها الفقراء والمتعبين الذين يصدفهم في طريقه.

عام ١٦٥٨، تلقّى موافقات الـڤـاتيكان على جمعيّات الرسالة، وأخوات المحبّة، وعلى نذورهم ونذورهنّ غير المألوفة في ذلك العهد، غير أنّ حدْسه الثاقب وإصراره الصامد مكّناه من الحصول عليها. ويوم ١٦٥٨/٥/١٧، دعا إلى اجتماعٍ عامٍّ، وزّع، أثناءه، على جميع الآباء المجتمعين نسخ نظام جمعيّتهم النهائيّ،

في تأثّرٍ شاملٍ طافحٍ، ولا سيّما أنّ غاية الجمعيّة الرئيسة كانت "إعلان الإنجيل للفقراء، أسيادنا ومعلّمينا". ولطالما انتظر المرسَلون هذا النظام في صيغته النهائيّة، بعد اختبارٍ عمليٍّ وطويلٍ لكلّ بنوده، وصقلها، وتثبيتها. وكان يُخيَّل للأب أحيانًا أنّ ما تحقّق يحاكي الأحلام، ويتخطّى الواقع. وكان يعدّد المشاريع الكثيرة التي رأت النور، وازدهرت، ويعترف، فرحًا: "الله وحده هو الذي ألهمها لجمعيّتنا". وقد اعترف المرسَل "دوكورنو" (Ducournau)، أنّ الجوّ الذي ساد توزيع نسخ النظام، وما واكبه من أقوال الأب ڤــنسان، ذكّر جميع الحاضرين بالجوّ الذي سبح فيه تلاميذ يسوع، عقب تأسيس سرّ الأفخارستيّا.

وبما أنّ المنغّصات تواكب غالبًا الأفراح الكبرى، توفّي في تلك السنة عينها، ١٦٥٨، زوجان كانا قد وهبا الجمعيّة مزرعةً كبيرةً، ما انفكّ الأب ڤــنسان دائبًا على توسيعها، وإتقان استثمارها حتّى غدت بمثابة أهراء للعازريّين. وعقب وفاة الواهبَيْن، أقام ورثتهما دعوى مطالبين باسترداد المزرعة. وخلافًا لتأكيد القانونيّين تعذُّرَ انتزاع تلك الهبة من الجمعيّة، تغلّب تأثير الجنسينيّين، والنــزعة العلمانيّة المعارضة لتحويل الممتلكات الخاصّة إلى الكنيسة، فقضت المحكمة بأرجحيّة صوتٍ واحدٍ لصالح الورثة. وتطوّعت ثلّةٌ من المحامين للطعن بهذا القرار اللاشرعيّ، ولكنّ الأب ڤــنسان رفض المضيّ قدُمًا في الاستئناف وفي خوض المحاكمات، مذكّرًا بموقف الربّ الذي مثل مرّةً واحدةً أمام محكمةٍ، ولم يفُه بكلمةٍ دفاعًا عن نفسه... وكافأته العناية الإلهيّة، إذ توفّي في تلك الآونة مستشارٌ في الدولة كان أوصى للعازريّين بمبلغٍ يفوق قيمة المزرعة المسلوبة.

وعام ١٦٥٨ طلبت الملكة بإلحاحٍ من الأب أن يقيم رسالةً في أبرشيّة "ميتز" (Metz)، رغبةً منها في دعم الكاثوليكيّين، فأوكل الأب هذا الأمر إلى كهنة لقاء الثلاثاء، وهؤلاء نسّقوا، محلّيًّا، مع الشمّاس الإنجيليّ، الأسقف العتيد، بوسّويه، أمير الخطابة والفصاحة منقطع النظير. واندرجت الرسالة في ظروفٍ مناخيّةٍ قاسيةٍ،

إذ ألَمّ بفرنسا بردٌ قارسٌ، تلاه ذوبان جليدٍ أحدث طوفاناتٍ مريعةً. ونهضت في وجه المرسَلين والوعّاظ عقباتٌ كأداء، ذلّلوها بمشقّةٍ، وأسبغوا على الرسالة نجاحًا باهرًا. وكان على الرسالة أن تشمل ستّ عشرة رعيّةً، وفي كلٍّ منها، أُعدّت الشروط المثلى لإقامة الواعظين، ولاندراج الرسالة على خير وجهٍ. وقدّم الكهنة المحلّيّون للكهنة القادمين خير مؤازرةٍ. وتميّز "بوسّويه"، في هذه المناسبة، بالتواضع، فلم يعظ، يومًا، في كاتدرائيّةٍ، مكتفيًا بالوعظ في كنائس قرويّةٍ متواضعةٍ، أمام جمهورٍ مؤلّفٍ من جنودٍ وعمّالٍ، وبأسلوبٍ مغرقٍ في البساطة، مجرّدٍ من أساليب الفصاحة، وتناولت عظاته النميمة والتوبة، والمحبّة الأخويّة... فضلاً عن جلستَي تعليمٍ مسيحيٍّ، كلّ أُسبوعٍ.

وكانت هذه الرسالة مثاليّةً، وأحدثت تحوّلاتٍ مدهشةً في نفوس بروتستانتيّين. وكان الإقبال على سماع الوعظ، والاعتراف، والتناول من الكثافة بحيث استدعى المرسَلون رفدًا، وتنامى عدد الواعظين، أثناء الأسبوع العظيم، إلى أربعين واعظًا، وكانت غيرة الآباء المرسلين حارقةً، معديةً، وعبّر "بوسّويه" عن فرحٍ غامرٍ، واستغرق في شكر الأب ڤـنسان، إثر انتهاء الرسالة. وكان تأثّر الأب ڤـنسان متفجّرًا عندما تلا على مسامع رفاقه رسالةً من "بوسّويه"، يُنبِئه بها أنّ جماعة كهنةٍ قد تأسّست في "ميتز"، وفق نموذج لقاء الثلاثاء.

وظلّت هموم الرسالة، وسائر المؤسّسات والمشاريع التي أنشأها الأب ڤـنسان في فرنسا وخارجها، والعقبات التي لا تني تنهض في وجهها، تحاصره، وتفرض عليه مواجهتها وحلّها؛ ولم يكن له من وسيلةٍ إلى المواجهة والحلّ، سوى الرسائل التي تبقيه على اتّصالٍ دائمٍ، وعلاقةٍ وثيقةٍ بإخوته وأخواته، ومؤسّساته. وكانت مساحات تأمّلٍ وصلاةٍ تملأ فسحات الفراغ المتبقّية له، ولا تدع لنومه وراحته سوى أقلّ من خمس ساعاتٍ في اليوم.

رسائله

في كلّ بقعةٍ من أوروپا وأفريقيا، فكرُ ڤنسان ديپول حاضرٌ، فاعلٌ، كما هو حاضرٌ وفاعلٌ في أفقر زوايا الريف الفرنسيّ، وفي العاصمة.

وكما هو عظيمٌ في هذه الأماكن كلّها، هو عظيمٌ داخل بيته، وفي حميميّة حياته اليوميّة، وعظيمٌ في مشاريعه الجريئة.

إن لم يكن راكعًا أمام الهيكل، فهو سجين غرفته العارية. وفي كلّ الأحوال هو يصلّي، ويدير، وينظّم كيانًا جبّارًا من المشاريع الإنسانيّة والروحيّة، نما بين يديه، ومدّ فروعه إلى كلّ أرجاء فرنسا، وأنحاءٍ عديدةٍ في الغرب والشرق، حتّى غدا مقرّ القدّيس لعازر هو محرّك المحبّة في العالم، والأب ڤنسان هو مشغّل هذا المحرّك.

لم يكن ينسى شيئًا، مستعينًا بخريطتين: الذاكرة والعقل.

خريطة الذاكرة تحتوي ثبتًا ووصفًا لكلّ فروع الرسالة، وأخوات المحبّة، ومراكز المحبّة، ولقاء الثلاثاء، وأسماء الأساقفة وعناوينهم، وجميع المسؤولين الكنسيّين والرسميّين الذين مدّوا له يدهم، والذين لا بدّ من معرفتهم من أجل خير جماعته وخير الكنيسة جمعاء. خريطةٌ شاملةٌ تحتوي تفاصيل جغرافيّةً واقتصاديّةً، ويمكنه، في كلّ لحظةٍ فتح الصفحة التي يريدها منها، وتصوّر الأبنية وساكنيها، وأثاثها، وتفاصيل محتوياتها حتّى أدقّها، وتبيّن احتياجاتها وطاقاتها. ويرى الأشخاص وخصال كلٍّ منهم، وطباعه، والطريقة المثلى للتعامل معه، ولاستنباط خير ما لديه. وبفضل البريد المتدفّق عليه كلّ يومٍ، تتجدّد صورة الخريطة بلا توقّفٍ، وتلبس وجهًا قشيبًا عاكسًا حقيقة الواقع الماثل، في اللحظة الراهنة.

أمّا خريطة القلب فتريه بوضوحٍ، من الداخل، سريرة كلّ شخصٍ، واحتياجاته،

ومعاناته، وترشده إلى أسلوب معالجتها. لكلّ فردٍ من مرسَليه، وإخوته، وأخواته، وراهباته، وخادمات المحبّة مكانته الخاصّة، ومنها يتسلّل إلى قلبه فيكتب لمن معاناته طافحةٌ، وتُطلَب منه تضحيةٌ جسيمةٌ: "يا مَن هو أكثر من عزيزٍ على قلبي..." يحبّ جميعهم وجميعهنّ حبًّا جمًّا، ولكنّ قلبه يخفق بوقعٍ مميّزٍ لمن تميّزوا بالتضحية، والعطاء، وبخاصّةٍ الأمّ لويز دي ماريّاك التي أمست الأداة التنفيذيّة لفكره الجبّار، بعد أن حوّلتها النعمة الإلهيّة، تحت إشرافه، فأدارت مؤسّسة بنات المحبّة بحزمٍ وكفاءةٍ، وبمنأًى عن إشغال بال رئيسها بالتفاصيل، وأقدمت على مبادراتٍ كانت، دائمًا، مستوحاةً من فكر الأب فـــنسان، بعد أن تماهت معه في أسلوب خدمة الله.

ومع أنّه كان من المتوقّع أن ترتبك نفسه، ويضطرب ذهنه، من جرّاء ازدحام الخريطتين بالأحداث والتغيّرات المطّردة الطارئة عليهما، وأن يبهظ قلبَه عبءُ الشدائد المنهالة على أحبابه، إلاّ أنّ معجزةً فائقةً احتفظت له، حتّى سنّ الثمانين، بفكرٍ شابٍّ، متّقدٍ، نيّرٍ، وبقلبٍ فتيّ النبض، دافئٍ. وقد أظهرت رسائل سنواته الأخيرة، أنّ أقواله كانت ما زالت تسبح في النور والفرح الساجي، الذي غلّف سيرته كلّها. ومع نأي رسائله عن المغالاة، والعنف، والاستثنائي، إلاّ أنّها تلامس، في بعض جوانبها عظمةً فريدةً لأنّها لا تبتغي إلاّ الخير والمحبّة.

قُدِّر عدد الرسائل التي دبّجها خلال خمسين سنةً بثلاثين ألفًا، ولكنّ المقرّبين منه يؤكّدون أنّ هذا الرقم هو أدنى من الواقع. فالرسائل كانت وسيلة إدارته الأنجع، والرباط الذي يبقيه على علاقةٍ دائمةٍ وحيّةٍ مع أعضاء جمعيّاته، وكأنّه يعيش معهم يومًا فيومًا.

كان يطالب رؤساء الفروع أن يوافوه، باطّرادٍ وانتظامٍ، بأنباءٍ مفصّلةٍ عن مراكزهم، وبحساباتٍ دقيقةٍ. وكان هو يردّ على كلّ رسائلهم، ويجيب على كلّ أسئلتهم. وكان يشارك مرسَليه الماكثين بقربه أخبار الرسالات البعيدة، ويتلو على مسامعهم الرسائل الواردة، مبقيًا جذوة الرسالة متّقدةً في قلوبهم، فكان كثيرون

يعلنون عن رغبتهم في الشخوص إلى المواقع الأشدّ خطرًا، مثل مدغشقر حيث قضى نحبهم جميع المرسَلين الذين وطئوا ثراها.

في البدء كان يكتب بيده، ولكن عندما تراكمت أعباؤه، استعان بسكرتيرتين. وكان يشرع بإملاء رسائله عليهما منذ الصباح الباكر، ولا يفرغ منه إلاّ في ساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل. ولا ريب أنّ تلك الرسائل كانت ترتدي ضرورةً جوهريّةً لأنّها كانت تزوّد جميع مفاصل مؤسّساته وجمعيّاته بديناميّة فكره، وبوحدة الأسلوب، مثلما يتزوّد جسمٌ كبيرٌ بدم القلب، ومثلما يتغذّى فكرٌ كبيرٌ بتبادل الآراء والخواطر.

المواضيع التي تناولها برسائله شديدة التشعّب والتعقيد، ولكنّ هذه الرسائل تميّزت دائمًا بالبساطة والوضوح. فهو يمضي، مباشرةً، إلى صلب المواضيع، ويعبّر عن آرائه بعباراتٍ بسيطةٍ، منــزّهةٍ من كلّ لَبْسٍ وغموضٍ. وتعابيره عذبةٌ تزدهي بطلاوة الطبيعة، وتفوح بشذاها، وتزيّن جوانب منها الفكاهة، في إطار المحبّة، وطابعها الدائم هو الطيبة، وكلّ شيءٍ فيها يبتغي العطاء. وهو لا يكتب إلاّ لكي يعطي، لأنّه لا يحيا إلاّ لكي يعطي كلّ ما لديه، ويبذل ذاته، حتّى عندما يستهدف الإصلاح، لأنّه امتلك سرّ تحويل التأنيب ذاته إلى هبةٍ جزيلة الثمن.

أحـاديثُه إلى مُرسَليه

كان يتحدّث إليهم، ثلاث مرّاتٍ، على الأقلّ، كلّ أُسبوعٍ. كان يُعدّ أحاديثه ولا يكتبها. ولكن، منذ عام ١٦٥٧ أخذ أحد أمناء سرّه يلخّصها، ويدوّنها، في نهاية كلّ جلسةٍ. مواضيعه المفضّلة: تثقيف الكهنة. هذا الموضوع كان يتناوله بفكرٍ متيقّظٍ للتفاصيل الواقعيّة، ويضرمه حبٌّ لله يتعذّر كبحه. وكان فكره يجول حول: المحبّة، التواضع، الفقر، الوداعة، التجرّد، الانقياد لمشيئة الله، البساطة، الأوهام، الخضوع للأنظمة، والصمت.

لم يكن يحدّد لمحاضراته موضوعًا يتناوله بمنهجيّةٍ، بل كان يحدّد هدفه، وينطلق إليه بكلّ اندفاعه، وكانت بعض أقواله تجرّه إلى مواضيع جانبيّةٍ لها بموضوعه صلةٌ. فذات يومٍ إذ كان يحاضر عن الفقر، هتف فجأةً:

« يا ربّ، كيف لي أن أتكلّم عن ذلك، أنا البائس الذي كان لي، في أحد الأيّام، حصانٌ، وعربةٌ، وكان لي غرفةٌ، وموقدٌ، وسريرٌ مريحٌ، وأخٌ، وكثيرون يعنون بي. ولا أفتقر إلى شيءٍ؟! أيّ مثالٍ سيّئٍ أُعطيه أنا للجمعيّة بخرقي نذر الفقر، في كلّ هذه الأمور، وفي أمورٍ أُخرى مماثلةٍ! أستغفر عنها الله والجمعيّة التي أرجوها تحمُّلي في شيخوختي، وليهبني الله نعمة إصلاح ذاتي، وقد بلغت هذه السنّ، ويمكّنّي من الاستغناء عن هذه النوافل، بقدر ما أستطيع! ».

وكان مستمعوه قد ركعوا، تأثّرًا، لدى سماعهم هذا الهتاف، فرجاهم أن يقفوا.

وكانت له فرصةٌ أُخرى لقدح الأذهان، كلّما اجتمع أفراد جمعيّته من حوله من أجل التأمّل والصلاة، ويدعو الجميع إلى اقتراح موضوع تأمّلٍ ودعاءٍ. فيستطلع بلا تمييزٍ، رأي القدامى والجدد، المرسَلين والإخوة، وكان يلتقط العبارة الأكثر إلهامًا، ويجعل منها مادّةً للتأمّل والصلاة.

وكانت تلك له مناسبةً من أجل إبداء رأيه في مواضيع حسّاسةٍ، وللتنديد بأخطاءٍ، ولتقويم اعوجاجاتٍ طارئةٍ، أيًّا كان مصدرها، ولم يكن يتحرّج من تأنيب مرسَلٍ قديمٍ أمام إخوةٍ جدُدٍ. ولكنّه لم يكن يجرح أحدًا، بل كان يلوم نفسه في المقام الأوّل، عن كلّ خطأٍ وشططٍ. وإذا ركع مذنبٌ مصغيًا إلى تأنيبه، فكان يركع، هو، أيضًا، أمامه، ويرجوه، باسم الربّ، أن يتقبّل العقاب. وفي كلّ سانحةٍ، كان يبذل ذاته، بلا تحفّظٍ.

وكان يرافق أقواله بحركاتٍ من محيّاه ويديه تسبغ على أقواله حيويّةً، وكانت تلك الحركات تساعد على إيصال أفكاره، أكثر من أقواله، وتبقي الأذهان يقظةً.

القدّيس ڤنسان يخاطب سيّدات المحبّة وبنات المحبّة

أحـاديثه إلى "بنـات المحبّة"

بعد جمعيّة الرسالة، كانت المكانة الأثيرة في قلب الأب ديــپــول هي لبنات المحبّة. وكثيرًا ما كان يزور بيتهنَّ القريب من مقرّ القدّيس لعازر، فيأتيه سيرًا على الأقدام متّكئًا على عكّازه. فقد كان يشدّه، دائمًا، التوق إلى تبادل الآراء مع لويز دي ماريّاك، التي شاخت، هي أيضًا، وعجزت عن الحركة.

وذات يومٍ، إذ كان داخلاً إلى بيتهنَّ شاهد أختًا حاملةً في يدٍ حُزَمًا، وفي اليد الأُخرى دلو ماءٍ، مرتبكةً، فأخذ الدلو من يدها، صامتًا، وأوصله إلى المطبخ، رغم سنِّه.

كان لقب خادمات الفقراء الذي أطلقه على أولئك الأخوات يطربه، فله ولهنَّ الفقراء هم السادة والأمراء، والأثيرون في ملكوت السماوات. وكان حريصًا على أن تحافظ بنات المحبّة على روح الخدمة وروح الفقر، لأنّ روح الفقر، وحده، قادرٌ على تخفيف عبء الفقر. وقد حرص، دائمًا، على تثقيفهنَّ وترسيخ معنى المحبّة في نفوسهنَّ. وكان يقيم لهنَّ ندواتٍ منتظمةً، ولكن لم يُحفَظ سوى القليل ممّا قاله لهنَّ أثناء تلك الندوات. وكانت الأخوات يلتئمنَ، عقب كلّ حديثٍ، حول رئيسهنَّ، ويعبّرنَ عن انطباعاتهنَّ ونواياهنَّ. وكان الأب يشجّعهنَّ بأسئلةٍ مثل قوله: "وهل أنتنَّ متأهّباتٌ للخضوع، دائمًا، لنظامكنَّ؟"، فيُجبنَ بالإجماع: "نعدُك بذلك!".

وكان لأقواله تأثيرٌ نفّاذٌ على سلوكهنَّ. فقد حدّثهنَّ، ذات يومٍ، عن المصالحة، فركَعت بعضهنَّ، تلقائيًّا، مستصفحاتٍ أخرياتٍ كنَّ قد أسأنَ إليهنَّ، فركعت هؤلاء أيضًا، طالباتٍ الصفح من اللواتي استصفَحْنَهنَّ، لأنّهنَّ بدأنَ بإغضابهنَّ، ودفعنَهنَّ إلى فِعل ما فعلنَ.

وكان الأب ينهي كلّ جلسةٍ بمباركة بناته. ولكنّه، ذات يومٍ، اعتذر قائلاً إنّ خطاياه تجعله غير جديرٍ بمنحهنّ البركة، ولذلك سيسأل الربّ أن يباركَهنّ عنه. فهوَينَ على ركبهنّ راجياتٍ ألاّ يحرمهنّ فوائد بركته. فاستسلم لطلبهنّ، لأنّه كان يحبّ أولئك الأخوات اللواتي يحببنَ الفقراء.

معظم مواضيع أحاديثه كان يتناول حبّ الله وحبّ الفقراء أكثر من حبّهنّ لذواتهنّ، لأنّ الربّ علّم أنّ هذا الحبّ المزدوج يختزل الشريعة والأنبياء.

وانطلاقًا من هذا المبدأ كان يتطرّق إلى كنه دعوتهنّ، وإلى غاية جمعيّتهنّ، ومحبّة الفقراء، وخدمة المرضى، والصلاة، والتأمّل، والرقّة، والمصالحة، والخضوع للنظام، والتجرّد، والعمل، والفقر، والانتظام، والثقة بالعناية الإلهيّة، والإشادة بفضائل الأخوات المتوفّيات.

وكان يذكّرهنّ بأنّ ميزة أخوات المحبّة عن راهبات الجمعيّات الأُخرى هي روح المحبّة، والتواضع، والبساطة، والتعاون. وكان يشدّد على واجب احتمالهنّ بعضهنّ لبعضٍ، عدّة مرّاتٍ، كلّ يومٍ، وإلاّ لتفتّتت الجمعيّة، ولأصبحت حجر عثرةٍ للآخرين.

وكان يحذّرهنّ من الكبرياء، والزهو، والعُجب بالذات، والميل إلى إبراز شكلهنّ وملبسهنّ، الكفيل بتدمير جمعيّتهنّ. ويعيد إلى أذهانهنّ أنّ المحبّة هي ميزتهنّ، وأنّ للفقراء، بصفتهم أسيادًا حقُّ أمرهنّ.

وكان يناشدهنّ الحفاظ على روح فتيات القرى، من حيث جاء معظمهنّ. وكانت أحاديثه، في هذا الموضوع، تضجّ رقّةً، وطلاوةً، فهو عليمٌ بما يتحدّث عنه. ومع ذلك لم يخفَ عنه أنّ في الريف فتياتٍ يحدوهنّ روح المدينة، وأنّ في المدينة فتياتٍ تنبض نفوسُهنّ بروح القرويّات.

وكان يوجز روح فتاة القرية بالإغراق في البساطة، والنأي عن السعي إلى

التميّز، وعن الأقوال مزدوجة المعنى، وعن التشبّث بآرائهنَّ، وبالميل إلى تصديق ما يُقال لهنَّ. ولدى بعضهنَّ تواضعٌ سحيقٌ، فهنَّ لا يتباهينَ بمال ذويهنَّ، ولا بذكائهنَّ ووداعتهنَّ؛ بل يتساوينَ مع الأخريات، ويرضينَ بما يهبهنّ الله، ولا يتطلّعنَ إلى شهرةٍ وثروةٍ، وفصاحةٍ؛ ويتمتّعنَ بالاعتدال في المأكل والمشرب واللباس. عملهنَّ شاقٌّ، وطعامهنَّ زهيدٌ، ومسكنهنَّ متقشّفٌ.

وغالبًا ما تطرّق، في أحاديثه إليهنَّ، إلى تفسير نظام جمعيّتهنَّ، وإلى ترسيخ معانيه في نفوسهنَّ.

وكان يرى أنّ الفتاةَ دائمةَ الكآبة والحزن، قليلةَ الكلام، سوداويّةَ المزاج تؤوي شيطانًا استولى على قلبها، وأغلقه، وأطبق فمها، فباتت عاجزةً عن الإفصاح عن شكاواها واضطراباتها أمام رئيساتها، معرّضةً دعوتها للانهيار والضياع.

أمّا التي قيّدت قلبها، من غير سببٍ، بأختٍ، أو ببيتٍ، أو برعيّةٍ، أو بمعرّفٍ، أو بحليةٍ، فقد فقدت حرّيّتها وسداد تفكيرها.

والقاعدة الكبرى للأخوات، في غمرة دأبهنَّ، وهمومهنَّ، وتجاربهنَّ، هي الثقة بالعناية الإلهيّة، ثقةً بنويّةً، أي الإيمان بأنّ الله يُعنى بمن يخدمونه، عنايةَ أبٍ ببنيه، فليستسلمنَ لقيادته، مثلما يستسلم طفلٌ لمرضعته، غير عابئٍ إن هو لطا على ذراعها اليمنى أو على ذراعها اليسرى، وليبقينَ على صلةٍ وُثقى بالله، من خلال الصلاة، والتأمّل، والعبادة، وخدمة كلّ فقيرٍ ومريضٍ.

أحـَـاديثه إلى "سـيّدات المحبّة" وإلى "راهبات الزيارة"

بعد أن استقرّت أحوال فرنسا، عمومًا، خفّت وتيرة اجتماعات سيّدات المحبّة الطارئة. وكان النظام الذي فرضته عبقريّة الأب ديـــپـــول على الجمعيّات التي أنشأها قد جعلت حضوره الدائم فيها أقلّ إلحاحًا. ومع ذلك ظلّ يتحدّث إلى السيّدات، كلّما دعت إلى ذلك ضرورةٌ، إذ ما زال هناك العديد من الفقراء، والأطفال اللقطاء، والرسالات البعيدة التي يتعيّن دعمها، والأَسرى المستعبَدين الذين يتعيّن تحريرهم. وكانت سيّداتٌ عديداتٌ قد نأينَ عن الاجتماعات، بسبب الوفاة، أو السفر، أو المرض، أو الإفلاس. وحلّت محلّهنَّ سيّداتٌ قادماتٌ، غالبًا، من الطبقة البورجوازيّة، التي حافظت على ثرواتها أكثر من طبقة النبلاء.

وظلّ السخاء وفيرًا، ولكنّه أضحى أقلّ عفويّةً واندفاعًا. وكان خطاب الأب فـــنسان خبيرًا بالنفاذ إلى صناديقه، واستخراج ما يسدّ الاحتياجات الطارئة الملحّة.

ومع وهن قواه ظلّ الأب ديـــپـــول رئيسًا على دير راهبات الزيارة، بنات القدّيسة مريم، وفاءً للقدّيس فرانسوا الساليزيّ، وظلّ يشرف على انتخاباتهنَّ، ويرأس مجلسهنَّ كلّ شهرٍ، ويبدي رأيه في الأمور العامّة، عندما يرى في ذلك نفعًا أو واجبًا. وكانت أحاديثه إلى أولئك الأخوات، ترتدي طابع الألفة والحميميّة. غير أنّ أولئك الراهبات كنَّ أرقى ثقافةً من أخوات المحبّة، وكنَّ، يجهدنَ في إبراز معارفهنَّ، كلّما سألهنَّ. ولكن لا ثقافتهنَّ، ولا زيارة عظماء فرنسا لديرهنَّ كانت تثير لديه دهشةً أو إعجابًا.

ويُروى أنّ الملك لويس الثالث عشر قد أُغرم بالآنسة "لويز دي لافاييت" (Louise de Lafaillette)، فلجأت إلى دير الزيارة. ومع ذلك ما انفكّ الملك

يختلف إلى ذلك الدير طالبًا مقابلتها. فأوعز ريشليو بإبعادها عن باريس، حؤولاً دون تلك المقابلات. ولكنّ الأب ڤـــنسان آثر بقاءها حيث هي، وحضّها على إقناع الملك بالنأي عنها إرضاءً لله، وخدمةً لفرنسا. فاستجابت الآنسة لنصيحة الكاهن. وجاءها الملك في ليلةٍ عاصفةٍ، فرجته أن يعود إلى قصره وزوجته، وألاّ يعرّض ذاته لمخاطر العاصفة، فلبّى رغبتها. ويُعتقَد أنّ الملكة حبلت، في تلك الليلة، بلويس الرابع عشر. بهذا الحدث وسواه، يمكن القول إنّه كان للأب ديـــپـــول يدٌ مؤثّرةٌ على تاريخ فرنسا.

إدارته

لم تكن مشاريع محبّة الأب ديـــپـــول فوضويّةً، وإلاّ لما نمت ولا دامت. كان طبعه يدفعه إلى وضع إطارٍ وحدودٍ لكلّ أمرٍ. وكان يؤمن أنّ الفاقة تُفسِد بقدر ما يُفسِد البطر. فلم يزدرِ مقوّمات العيش، ولم ينكر للطعام والشراب والسكَن حقّها، ولكنّه لم يولِها أكثر من حقّها، وقد حرص، دائمًا على إبقاء جمعيّته في مأمنٍ من العوَز، وبمنأًى عن البحبوحة، في آنٍ معًا.

كان يردّد القول إنّ نشاطات الذهن لا تعتمد على العقل وحده، بل لا غنى لها من مساعدة المعدة، والكبد، والرئتين من أجل سداد الحكم، واستقامة الوظائف العقليّة.

وكان يعارض الذين يفسّرون دعوة يسوع إلى تجنّب الإسراف في الإعداد لعيش الغد، وحمل همّه، دعوةً إلى التواني، والكسل، واللامبالاة، ولا إلى الإحجام عن نشر البذار في التربة، إعدادًا لموسمٍ قادمٍ يوفّر مستلزمات العيش للآتي من الأيّام. ولم يكن يهمل أيّ تدبيرٍ يضمن وسائل الحياة. فإن رأى تربةً بورًا هبّ لحراثتها وزرعها، وإذا شرع ببناءٍ، كان يحذر من أن يتسلّل إليه أيّ عامل نقصٍ أو إهمالٍ قد يؤدّي إلى انهيار البناء، وكان يقي كلّ بدايةٍ من أخطار النهاية.

ولم يكن يطيق أن يدع شيئًا للصدف، أو أن يغامر، أو أن يقامر على ثقته المطلقة بالعناية الإلهيّة، بمعزلٍ عن واجب الجهد الذاتيّ. ولم يكن يسرف في الاعتماد على نوبات السخاء البشريّ، ويحذر من بناء مستقبل مشاريعه عليه، ولكنّه لم يكن يتوانى عن اللجوء إليه كلّما اشتدّت الحاجة.

ولم يقدم، قطّ، على مشروعٍ لم يتأكّد أنّه مدعوٌّ إليه. وإذا جاءته دعوةٌ إليه، فإن كانت الدعوة إلهيّةً يكبّ على الإعداد له أفضل إعدادٍ، وإن كانت الدعوة بشريّةً،

فكان يفنّد المشروع من كلّ جوانبه، ويسارع إلى رفضه والنأي عنه حالما تخامر ذهنه ريبةٌ في سلامة وسائله أو أهدافه، أو إذا قُيِّد بشروطٍ تحدّ من حرّيّة قراره فيه. أمّا إذا اعتزم المضيّ فيه فلا يدع بقاءه معرّضًا لأهواء الصدف والطوارئ، بل يضمن له كلّ مقوّمات الثبات والبقاء والديمومة، والاستقلاليّة الذاتيّة.

وكان شديد الحرص على احترام الاستحقاقات سواءٌ كانت له أو عليه، سواءٌ كانت دفعًا أو قبضًا. وكان ساهرًا على تزويد كلّ ممتلكات جمعيّاته بوثائق كاملةٍ لا ثغرة فيها، ولا خلَل، ولا نقص، لكيلا يستطيع طامعٌ الطعن في ملكيّتها، وحرمان الجمعيّة منها بعد وفاته. وكان يحذِّر جمعيّاته، باستمرارٍ، من أيّ هدرٍ، ويدعوها إلى حصر نفقاتها بمقدار مداخيلها. وكان يفضّل المُلك الثابت الدائم على الدخل المعرّض للتقلّص أو التلاشي. وكان يثبّت كلّ تداولٍ بعقودٍ موثّقةٍ، ويتحاشى عن الديون، والوعود الكاذبة.

ممتلكات جمعيّاته هي ملك الفقراء. ولذلك كان يجهد في استثمارها أفضل استثمارٍ، ويستنبط منها أوفر النتائج لخير الجميع. وكان يكلّف بهذه المهمّة إخوته المساعدين، كلاًّ في المضمار الذي يتقنه، ويحرّضهم على إرواء التربة بعرق جباههم. وكان يدعو الأخوات، عند فراغهنَّ من مهامّهنَّ ألاّ يستسلمنَ للفراغ، بل أن يُكبِبْنَ على الحياكة والخياطة وشتّى الأعمال اليدويّة الكفيلة بتأمين نفقات معيشتهنَّ، وتحرّرهنَّ من الاعتماد على الجمعيّة، وتحرير الجمعيّة من عبئهنَّ. وكان لمثالهنَّ تأثيرٌ خيّرٌ على نساء الريف. وكم حوّل مثالهنَّ ساعات ثرثرةٍ ونميمةٍ إلى عملٍ مبهجٍ ومنتجٍ!

ولم يكفّ عن تحذير رؤساء الفروع من الاستكانة إلى توفّر كلّ ما يلزم من سكنٍ مريحٍ، وطعامٍ جيّدٍ، وشرابٍ عذبٍ، ومن نشدان الرفاه، ويدعوهم لتفادي الخمول ببذل جهدٍ يساوي جهد الفلاّحين في حقولهم، والعمّال المياومين في سعيهم

وراء لقمة العيش، والجنود في ساحات الوغى. ولا يني يؤكّد لهم أنّ ممتلكاتهم لا تخصّهم إلاّ بقدر ما يعزفون عن استملاك شيءٍ منها، ويذكرون الغرض من إيكالها إليهم، فيردّد على مسامعهم: "لا حقّ لكم إلاّ في أن تعيشوا وتلبسوا، وكلّ ما عدا ذلك هو ملك الفقراء". وكان يحذّرهم من الانزلاق إلى حبّ الامتلاك وإساءة الأمانة لكيلا يحاكي مصيرهم مصير يهوذا.

وكان الوقت هو أكثر ما يحذّرهم من هدره، ويدعوهم إلى أن يكونوا ضنينين به، ولا يبدّدوا منه دقيقةً واحدةً، فللدقيقة قيمةٌ فائقةٌ. ولذلك حدّد موعد الاستيقاظ في الرابعة صباحًا، والنوم في التاسعة مساءً، مع اعترافه بصعوبة هذا التوقيت، وبصراعه الصباحيّ، أحيانًا، مع الوسادة. ولكنّه كان يؤمن بأنّ الأجساد تعتاد ما تمارسه كلّ يومٍ، حتّى يصبح توقيت الاستيقاظ الباكر جرس إنذارٍ طبيعيًّا وتلقائيًّا. وكلّ تنازلٍ للجسد عن هذا النظام يصبح له مطلبًا دائمًا.

والواقع أنّ معظم أعضاء الجمعيّة صاروا يستطيبون هذا الاستيقاظ الباكر. فكلّ امرئٍ يتوقّع شيئًا جميلاً يفقد، في سبيله، الرغبة في النوم. والنهار يستمرّ كما بدأ، والأيّام المليئة بالعمل تملأ النفس رضًى، وتمضي سريعًا... وكان الأب، في كلّ ذلك، قدوةً لرفاقه. فقد طاف كلّ أنحاء فرنسا على متن حصانٍ، أكثر ممّا فعل نابــليون. وكان، دائمًا، حركةً لا تهدأ، متحاشيًا عن كلّ ما قد يصرفه عن مهامّه الأساسيّة، ومتجنّبًا المناسبات الرسميّة العقيمة، وكلّ ما ليس من صلب رسالته.

وفي كلّ ما فعله وكتبه قَرَنَ، دائمًا، الحذر بالبراعة. كان يشرع بالتحصّن حيال غير المتوقّع. فكان يحسب، بقدر الاستطاعة، حسابًا لكلّ ممكن الحدوث، مستبعدًا كلّ تهوّرٍ أو إهمالٍ أو تخاذلٍ. وفي الآن عينه كان يتقبّل بسجوّ نفسٍ، كلّ مكروهٍ طارئٍ، على أنّه امتحانٌ إلهيٌّ. وبذلك حقّق معجزة موازنةٍ نادرةٍ بين الكفاية والفقر. فقد امتلك عقاراتٍ ومزارع، وعاش في شبه زنزانةٍ. تعامل بملايين الليرات، ولم يملك لنفسه فلسًا. وقلّما وُجِد من ساواه استقامةً، ونزاهةً، وصدقًا.

وظلّ يعمل حتّى نفسه الأخير. كان كلّ تأسيسٍ جديدٍ يضاعف التزاماته، وكان يطّلع على تفاصيل كلّ مشروعٍ، ويوليه من الاهتمام كأنّه هو مشروعه الوحيد.

وبفضل انتظامه، ونهجه، وسرعة بديهته، وسداد حكمه، وذاكرته الجبّارة، نهض بكلّ واجباته خير قيامٍ، وساس دوائره المتعدّدة، الجسيمة، بدقّةٍ، ووضوحٍ، وبمنأًى عن كلّ خلطٍ بينها.

كان وقْعُ خطواته البطيئة هو الوقع الأخير في ممرّات ودهاليز مقرّ القدّيس لعازر، وكان مصباحه هو المصباح الأخير الذي يُطفَأ في ذلك المقرّ.

وكان النعاس الذي يتغلّب عليه أحيانًا، في زحمة انشغالاته، ينبئه بدنوّ الأجل الذي سيريحه، أخيرًا، من كلّ عناءٍ.

وبالإجمال نفّذ الأب ڤنسان ديپول خير تنفيذٍ شعار القدّيس "إينياس دي لويولا": "اعمل وكأنّ كلّ شيءٍ يعتمد على عملك، وصلِّ كأنّ كلّ شيءٍ يعتمد على الله".

نهاية حياة قدّيسٍ

مع تدهور قواه، وعجزه المطّرد عن الحركة، ظلّ الأب ديپول ساهرًا، يقظًا على مشاريعه العديدة والجسيمة، التي نمت وازدهرت وتفرّعت في كلّ اتّجاهٍ، ومُحكِمًا الإمساك بمقاليدها.

وفي غروب عام ١٦٥٨، فيما كان عائدًا من مهمّةٍ، برفقة كاهنٍ، انكسرت العربة التي كانت تقلّهما، وسقط منها الأب ڤنسان، فاصطدم رأسه بالحضيض، صدمةً أحدثت فيه جرحًا بليغًا، وأشاعت فيه حمًّى حارقةً. وتوالت عليه بعدئذٍ شرّ أنواع العلل والأوجاع. وقد مكّنه تقبّله تلك المحَن بصبرٍ واستسلامٍ للمشيئة الإلهيّة من مواساة إخوته في الجمعيّة، المبتلين بأوجاعٍ وأمراضٍ، وكان لهم مثالاً حيًّا، إذ كان يُعدّد لهم الأمراض التي امتُحِن بها على امتداد حياته، وكانت له حافزًا على المضيّ قدُمًا في أعمال المحبّة.

ومنذئذٍ تعذّر عليه الخروج من مقرّه، وأمسى يعاني مشقّةً في الانحدار إلى كنيسة الدير، للاحتفال بالذبيحة الإلهيّة، وللمشاركة في اللقاءات والحوارات الكهنوتيّة، إلى أن فقد القدرة على ارتقاء درجات السكرستيّا، فغدا يُلبَس حلّة القدّاس أمام الهيكل، ويعلّق، مازحًا، أنّه أضحى يقلّد الأساقفة. وشيئًا فشيئًا، اضطرّ إلى إقامة القدّاس في غرفة تمريض الدير، القريبة من حجرته، ولّما فقد القدرة على استخدام رجليه، وتعذّر عليه الاحتفال بالذبيحة، واقفًا، أمسى يتابع جالسًا، قدّاسًا يحتفل به كهنةٌ آخرون، على مقربةٍ منه.

وتنامى ورم ساقيه وتقيّحهما، وغدا يجد مشقّةً فائقةً في الاستلقاء، وبات ينام جالسًا على كرسيٍّ. ويومًا فيومًا كان يزداد عجزًا في الوقوف والمشي، وإذا حاول السير، فكانت كلّ خطوةٍ يخطوها منبع آلامٍ حادّةٍ.

ومنذ عام ١٦٥٩، ولج مرحلة استشهادٍ حقيقيٍّ، اكتملت بالتهابٍ في ذراعه اليسرى، سرعان ما تحوّل إلى أُكالٍ (غرغرينا) أغرقه في بحرانٍ من الأوجاع الطاحنة.

كان ينوس رويدًا رويدًا، وعزف عن الطعام، وطلب ألاّ يُؤتى إليه إلاّ بالزهيد الذي يبقيه على قيد الحياة، على ألاّ يتضمّن أيّ طعامٍ مرهفٍ. غير أنّ طبيبه وأصدقاءه أقنعوه، بعد لأيٍ، بارتشاف مرقٍ مركّزٍ، وتناول قطعة دجاجٍ صغيرةٍ. غير أنّه، بعد تناوله مرّتين هذه الوجبة، قسرًا، أصرّ على إبعادها لأنّها توجع قلبه. وخشي مرافقوه أن يحاول، على غفلةٍ منهم، الوقوف والسير، فيقع، واقترحوا تحويل الحجرة الملاصقة لحجرته إلى مصلّى، يُقام فيه قدّاسٌ يستطيع متابعته، من حجرته بلا حاجةٍ إلى مجيئه إليه. ولكنّه رفض هذا الاقتراح رفضًا قاطعًا. وحينئذٍ جاؤوه بكرسيٍّ متحرّكٍ يوصله إلى غرفة التمريض، بمنأًى عن كلّ خطر وقوعٍ، ولكنّه ماطل شهرًا قبل ارتضائه هذا الحلّ. واستخدم هذا الكرسيّ، للمرّة الأولى يوم عيد انتقال السيّدة العذراء، وظلّ يستخدمه حتّى وفاته بعد ستّة أسابيع. ولكن كان يحزنه تكليف أخوَيْن بنقله إلى المصلّى الذي لا يتخطّى بعده عن حجرته أربعين خطوةً.

وبالإجمال كانت له السنتان الأخيرتان من عمره استشهادًا دائمًا ومضنيًا. ومع ذلك لم يحِدْ، ثانيةً واحدةً، عن صبره، وشكره للربّ أن أتاح له التمثّل بقسطٍ ضئيلٍ من آلامه. وكان قد طلب، شدًّا لأزره، أن يوضع أمامه صليبٌ خشبيٌّ؛ كان لاينِي يخاطبه مردّدًا: "آه! يا مخلّصي...".

ولم يتخلَّ عن أيّةٍ من ممارسات التقشّف التي درج عليها طيلة حياته، ولم يرتضِ، قطّ، أن يُؤتى إليه بفراش وثيرٍ، مكتفيًا بفراش قشٍّ يستلقي عليه لكي لا تتّسخ أرض غرفته بالقيح المنساب من قروحه، انسياب ساقيةٍ، أحيانًا.

ومع وهنه المتفاقم، لم يُغفل، لحظةً، الاهتمام بشؤون جمعيّاته، ومختلف الجمعيّات الأُخرى الموكلة إلى إدارته، ولم يتخلَّ، يومًا عن الاضطلاع بالمهمّات المناطة به.

وحيث لم يكن يستطيع المضيّ، كان يوفد كهنته مزوّدًا إيّاهم بإرشاداتٍ حول ما يتوجّب قوله وفعله، وبالمواقف التي يجدر الالتزام بها. وما انفكّ يتلقّى وابلاً من الرسائل ويردّ عليها، ويجمع مسؤولي جمعيّته ومعاونيها، ويحدّثهم جماعيًّا أو فرديًّا، وفق مقتضيات الظروف، ويحاورهم في شتّى الشؤون، ساهرًا على كلّ أمرٍ، متمّمًا كلّ مهمّةٍ وواجبٍ، وموفدًا مرسَلين إلى حيث تستدعيهم الحاجة.

ورغم كلّ جهوده في سبيل مواصلة العمل، حان وقتٌ بات فيه عاجزًا عن الكلام إلاّ بمشقّةٍ كبرى، ولكنّه ظلّ يتحدّى الانهيار التامّ. وكان يخطب، أحيانًا، لمدّةٍ تزيد عن نصف ساعةٍ، مدهشًا المستمعين برصانة حديثه، وحكمته، وقوّة منطقة، وعذوبته، بحيث أقرّ بعضهم أنّهم لم يسمعوه، قطّ، يتحدّث بمثل هذا المنطق، وهذه العزيمة. وكان أهل البيت والزائرون، على السواء، يدهشون، مع كلّ أصناف معاناته وأوجاعه، ومع مواكب همومه وهواجسه، من احتفاظه برقّته وبشاشته، وأقواله الطافحة مودّةً. وإذا ما استوضحه أحدهم عن أوجاعه، فكان يعدّها تافهةً لا تستأهل الاهتمام، فهي لا شيءَ مقارنةً بآلام المخلّص، عادًّا إيّاها عقابًا استحقّه. وكان يسارع إلى تحويل الحديث إلى مواضيع أُخرى. وإذا كان أحد محدّثيه مبتلًى بعلّةٍ، فكان يُسهب في الاستيضاح عنها، ويستغرق في تعزيته وشدّ عضده.

الساعَات الأخيرة

كلّ ما انتهى إليه الأب فـنسان من أوهانٍ، وما حلّ به من عِلَلٍ، كان يوحي إليه بدنوّ أجله. وإذا كانت الشيخوخة قد أوهت جسده، غير أنّها عجزت عن المسّ بإرادته، وكان حتّى لهاث احتضاره تلخيصًا للمبادئ التي قادت كلّ مسيرته.

وفيما كانت خشية فقدانه تهيمن على نفوس رفاقه، وتملأها جزعًا وقلقًا، كان هو، على غرار سمعان الشيخ، ينتظر تلك اللحظة بفرحٍ وسجوّ نفسٍ، متألّمًا بابتهاجٍ، وبروح تواضعٍ وتوبةٍ، داعيًا الله، توّاقًا إلى الارتماء بين ذراعيه، ومستسلمًا بكلّ طاقات كيانه لمشيئته، مودعًا جسده ونفسه بين يديه. ومن المحقّق أنّ حياته كلّها كانت تأهّبًا لهذه اللحظة الحاسمة. وهو كان قد أَلِفَ، منذ سيامته الكهنوتيّة، تخصيص دقائق، عقب المناولة، من أجل الاسترحام بالمحتضرين، وراحة نفوس الراقدين، معدًّا بذلك لاحتضاره. وكان قد باح لأحد كهنته: "منذ ثماني عشرة سنةً، لم أُخلد، ليلةً، إلى النوم، إلاّ مستعدًّا للموت في تلك الليلة عينها". وغالبًا ما ردّد على مسامع رفاقه: "ذات يومٍ، سيثوي في التراب جسد هذا الخاطئ البائس، وسيتحوّل رمادًا، وستدوسونه بأقدامكم". وعند وفاة كلّ مرسَلٍ، كان يرفع هذا الدعاء: "إنّك تمهلني يا الله، وتأخذ إليك خدّامك، وأنا الزؤان الذي يسيء إلى الحَبّ الجيّد، الذي تحصده أنت. فيما أنا أشغل التربة، عبثًا. فلتكنْ مشيئتُك!".

ولطالما أشاد بفكرة الموت، وناشد رفاقه أن يتأهّبوا له بالأعمال الصالحة. وأن ينظروا إليه واثقين بعطف الله ورحمته، وألاّ يتيحوا لفكرة الموت أن تسرّب إلى نفوسهم انهيارًا أو جزعًا. وكان يحرّضهم على إحالة تلك الفكرة في أذهانهم، مرّتين أو ثلاث مرّاتٍ يوميًّا، ولكن بعيدًا عن التوقّف عندها.

ومع اقترابه من أبواب الأبديّة، احتفظ كلامه بالبساطة، والنأي عن العبارات الجليلة، التي ترتدي لباس الوصيّة الأخيرة، لأنّه كان حريصًا على المضيّ بلا ضجيجٍ، ولا إزعاجٍ، ببساطةٍ ويسرٍ مطلقَيْن، وكأنّ الموت هو حدثٌ عاديٌّ من أحداث الحياة اليوميّة، بل كأنّه أكثرها بساطةً.

ومع كلّ خطوةٍ كانت تدنيه من القبر، كانت تستحوذ على ذهنه فكرة إيكال متابعة عمله لا إلى شخصٍ واحدٍ، قد ينتزعه الموت، هو أيضًا، بعد فترةٍ قد تطول أو قد تقصر، بل إلى الجمعيّة كلّها، المشبعة بفكره، والكفيلة بالازدهار المطّرد، طالما ظلّت وفيّةً لنظامها.

من قبل، كان يعلّل قراراته ويفسّرها. ولكن عندما أمست ساعاته محدودةً، صار يكتفي بعباراتٍ وجيزةٍ. وبعد أن كان يعتمد على الاختبار والتجربة، بات يكتفي بالاتّكاء على النظام، الذي صقلته ستّون سنةً من العمل والممارسة. ولم يعد يثق بتجارب قصيرة الأمد، وبالنوايا الطيّبة فقط، ولا ينتدب لمهامّ الإدارة إلاّ الذين أثبتوا إلمامًا راسخًا بروح الجمعيّة، ووفاءً صامدًا لنظامها.

وقد وقَتْه نزاهته وواقعيّته من الوقوع في نزعة الشيخوخة إلى ازدراء الحاضر، والإشادة المفرطة بالماضي الجميل. بل كان يأخذ على ذاته إخفاقه في الإفادة من الماضي الإفادة المثلى، وتلكّؤَه عن الإحاطة بما صار يعرفه ويراه بوضوحٍ، في شيخوخته. كان ينطلق شطر الأبديّة مصوّبًا نظره صوب الآتي، وغير ملتفتٍ إلى الوراء.

ولم تنثنِ صلابة عزيمته في كلّ ما له صلةٌ بالنظام. فلم يتحرّج، مثلاً، من رفض طلب ملكة پـولونيا تغيير شكلّ قبّعات أخوات المحبّة العاملات في بلادها، أو أيّ تعديلٍ في زيّهنّ الرامز إلى نمط عيشهنّ، ووحدة نظامهنّ.

وفي تلك اللحظات الحاسمة وجّه رسالةً إلى الجنرال "دي غوندي"، الذي كان قد أصبح كاهنًا في جمعيّة "الأوراتوار"، مستصفحًا عمّا سبّبه له من خشونةٍ، وشاكرًا، بتواضعٍ، دعمه الودّيّ له، وإحساناته الجسيمة لجمعيّة الرسالة. وبدافع

عرفان الجميل كتب أيضًا إلى تلميذه ابن الجنرال "دي غوندي" الأصغر، الذي كان قد أصبح "كردينال ريتز"، وكان منفيًّا خارج فرنسا، قائلاً:

« لديّ من الأسباب ما يجعلني أظنّ أنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي أتشرّف، فيها، بمراسلة نيافتكم، بسبب تقدّمي في السنّ، وعلَلي الكثيرة، التي تقودني إلى منبر الديّان... طالبًا صفحكم عمّا قد أكون أسأت به إليكم، عن غير معرفةٍ، وما لم أكن لأفعله قاصدًا. وبثقةٍ أوكل إلى نيافتكم جمعيّة الرسالة الصغيرة التي أسّستموها، ودعمتموها، وميّزتموها، والتي، بصفتها عمل أيديكم، هي خاضعةٌ وشاكرةٌ لكم، خضوعها وشكرها لأبيها وأسقفها. وفيما أُصلّي، في هذه الدنيا، من أجل نيافتكم، ولأسرة "ريتز"، سأوصي بكليكما في السماء، إذا تكرّم عطف الله، وتقبّلني فيها. ».

يوم ٢٦ آب ١٦٦٠، فيما كان لويس الرابع عشر، يدخل مع زوجته الثانية الإسبانيّة إلى العاصمة التي تربّع على عرش بلادها حديثًا، مثقَلَيْن بالجواهر، ورافلَيْن بأفخر الحلل والحلى، في موكبٍ حاشدٍ صاخبٍ، وسط تصفيق الجموع وقرع الأجراس، كان الكاهن الشيخ، على مقربةٍ من مسرح الفخامة، قابعًا في غرفةٍ عاريةٍ، زريّة الأثاث، متهالكة الأرضيّة، طريح الفراش، يتابع أصداء العرس الملكيّ، متصوّرًا وجوه الممثّلين الرئيسيّين، الذين طالما جالسهم، وتناقش معهم، ونصحهم. كان قد عرف الملك طفلاً متشبّثًا بثوب أمّه، وواكب احتضار أبيه، وطالما تصادم مع الكردينال الوزير "مازاران"، القابض على مقاليد الدولة. ولطالما خالط أمراء البلاد وقادها، الذين كانوا يخطرون في البلاط، بأفخر أزيائهم، وهو في صايته السوداء المهترئة، ومع ذلك فارضًا احترامه على الجميع.

وكان قد راقب وجه الأيقونة الآخر، وشاهد، بأسًى، إلى جانب استعراض مظاهر الغنى والأبّهة الوقحة، بؤسَ الشعب الذي يصفّق الآن لملكه العائد. ولطالما شاهد كوارث ومآسي نشرها المتصارعون على السلطة والنفوذ.

ولطالما جهد في بناء سدٍّ في وجه طوفان البؤس، والعِلَل الروحيّة والجسديّة، وواجه مع ثلّةٍ ضئيلةٍ من المرسلين والأخوات الراهبات سيلاً مدمّرًا مريعًا، وتآزر مع علمانيّين، واستنبط منهم منابع المحبّة، مردّدًا على مسامع الجميع: "فلنحبّ الله، يا إخوتي، ولنعبّر له عن حبّنا بجهود سواعدنا وعرق جباهنا!".

وكان، هو، قد استنفد قطرات قواه الأخيرة، ولم يعد له سوى أيّامٍ معدوداتٍ على أرض الجهاد، وقد ناهز الثمانين من العمر. وكم طويلاً كان الدرب الذي اجتازه، مذ تخلّى عن رعاية بهائم والده الفلاّح!

ولو شاء الأب ديـبـول استعراض ماضيه، لوجد فيه من أسباب الرضى والاعتزاز ما يتمنّاه كثيرون.

فجمعيّة الرسالة، إنجازه الأكبر، التي أسّسها، لخمسٍ وثلاثين سنةً خلت، مع مرسلَيْن اثنين، كانت حينئذٍ تعدّ، في صفوفها، أكثر من أربع مئة مرسَلٍ، منتشرين في ثلاثين أبرشيّةً فرنسيّةً، يسوسها أساقفةٌ، أسهم معظمهم في لقاءات الثلاثاء، وتشرّبوا بروحها. وفي الآن عينه كان عشرات مرسَليه يقومون برسالاتٍ بعيدةٍ، في مختلف أقطار المسكونة، شرقًا وغربًا.

وكانت الفتيات الريفيّات الاثنتا عشرة اللواتي التففْنَ، لثلاثين سنةً خلت حول "لويز دي ماريّاك"، قد أصبحنَ جماعةً تضمّ أكثر من ستّ مئة عضوٍ، وافتتحت لها دورًا في أكثر من ثلاثين أبرشيّةً.

وكانت مدارس اللعازريّين، ومشافيهم، ومياتمهم، تواكب الإكليريكيّات التي تثقّف كهنةً، في مناخٍ مسيحيٍّ، ناهضٍ وفق روح المجمع التريدنتينيّ.

وبفضل الأب ديـبـول، ومرسَليه وأخواته كان الجهل والبؤس قد تراجعا شوطًا شاسعًا، في الأرياف والمدن، وكان الأطفال المرميّون قد لطوا بين أذرعة أمّهاتٍ حنوناتٍ. وكان السجناء قد غدوا ينعمون بزياراتٍ، ومعوناتٍ نفسيّةٍ

وجسديّةٍ، ولعلاجٍ لجراحهم وأمراضهم، وكانت المظالم النازلة بالمحكومين بأشغالٍ شاقّةٍ، قد خفّت وطأةً. وكان وجه فرنسا قد تحوّل، واكتسب أنسنةً. وكانت ثمار جهود المرسَلين اللعازريّين قد امتدّت إلى إيطاليا، والجزر البريطانيّة، وپولونيا، ومدغشقر، والجزائر، وتونس.

وكان الأب ديپول، في سرّه، يشكر جميع رفاق الطريق والتضحية، الذين ساندوه، ودعموه، وأبرزهم "لويز دي ماريّاك"، والسيّدة "دي غوندي"، وملكة پولونيا، ودوقة "إيغيّون"، والسيّدة "غوسّو"، والآنسة "دوفاي"، والآباء "پورتاي"، و"لمبير"، و"بوسّويه"... وإخوته الشهداء.

وكان تسارع انهيار قواه، وتفاقم فتك عِلله المتعدّدة، وبلوغ وهنه حدوده القصوى، وتحوّل التهابٍ كان قد ألّم بذراعه اليسرى إلى أُكالٍ (غرغرينا) سبّب له آلامًا طاحنةً، كلُّ هذه كانت إشاراتٍ واضحةً إلى اقتراب نهايته. وجاء الإنذار بنهايته الوشيكة الأشدّ وضوحًا وإيلامًا، من خلال وفاة أوفى معاوناته، "لويز دي ماريّاك"، التي كانت تلهبها رغبةٌ حارقةٌ في رؤيته ونيل بركته قبل رحيلها، ولكنّها، تقديرًا لما كان يعانيه من آلامٍ وعجزٍ عن الحركة، اكتفت بطلب كلماتٍ مخطوطةٍ بيده تكون لها زادًا، فكتب لها: "ستمضين أوّلاً، وسألحق بك قريبًا".

كانت السماء هي الأفق الوحيد الذي تطلّع إليه رجاؤهما، والذي سعيا إليه، وسط ضجيج العالم، عاملَيْن بنشاطٍ، مستغرقَيْن في التأمّل والصلاة، بانيَيْن، مؤسّسَين، مثقِّفَيْن، خادمَيْن الصغار والفقراء والمهمّشين، أُسوةً بالذي مات طوعًا من أجل إنقاذهم، وتكريمًا له، من خلالهم.

كانت الأمّ لويز دي ماريّاك، للأب ڤنسان نفسًا شقيقةً، استطاع الاتّكاء على أزرها، وغيرتها وحنكتها. وكان قد قال عنها، منذ عام ١٦٤٧، وهو يشهد هزال جسدها، وشحوب محيّاها: "إنّي أرى فيها ميتةً تخرج من قبرها. والله يعلم كم تقطن فيها قوّة الروح!".

وكان الأب قد اعتاد، عند وفاة كلّ أخت محبّةٍ أن يزور ديرهنَّ ويستعرض معهنَّ فضائل الراحلة. ولكن، من جرّاء ما كان يعانيه من آلامٍ، وظروفٍ قاهرةٍ، تلكّأ قيامه بهذا الواجب حيال أعزّ الأخوات على نفسه، ولم يتمكّن منه إلاّ بعد مرور أربعة أشهرٍ على وفاتها، واستهلّ حديثه بهذه العبارة المؤثّرة: "أخواتي الحبيبات، أشكر الله أن أبقاني على قيد الحياة حتّى الآن، وأتاح لي أن أراكنَّ مجتمعاتٍ. ولكم تمنّيت جمعكنَّ، في ذروة اعتلال الراحلة، ولكنّني كنت مصابًا، أنا أيضًا، بعلّةٍ أوهنتني كثيرًا. هكذا شاء الله من أجل خير تلك التي سنتحدّث عنها". وجريًا على عادته، وقبل الإفصاح عن رأيه، طلب من الأخوات إبداء آرائهنَّ الخاصّة، فتكلّمنَ بمشقّةٍ، لأنّ الدموع كانت تخنقهنَّ. وقد أجمعنَ على إعلان أنّها كانت تحبّ التواضع، وتحبّ الفقر، وتحبّ أخواتها. واكتفى الأب بإعلانه مرّاتٍ عديدةً، أنّها كانت قدّيسةً. ولكنّه لكي لا يثبّط أيّةً منهنَّ، أقرّ بأخذه عليها حدّة طبعها، وتسرّعها أحيانًا، ولكنّه لاحظ أنّها كانت تعتذر عن هذه الهفوات في الحال، وأكّد أنّها، مع هذه الثغرات الصغيرة، في صرح كمالها، لم تقترف، قطّ، خطأً جسيمًا. وختم خطابه بقوله: "كانت نفسًا طاهرةً في كلّ شيءٍ، طاهرةً في شبابها، طاهرةً في زواجها، طاهرةً في ترمّلها... طِبْنَ خاطرًا، يا بناتي، فلكنّ أمٌّ في السماء!".

وكان قد تزامن إنذار وفاة الأمّ لويز، مع إنذار رحيل عزيزٍ آخر، ورفيقٍ آخر للأب ديـــپـــول: رفيقه الأوّل على درب الرسالة، والمستشار الأمين، والسند المتين، الذي يمكن الركون إليه، المرسل المحبّ الذي ارتبط برئيسه بأواصر صداقةٍ صامتةٍ، رقيقةٍ، فاعلةٍ، الأب "پـــورتاي"، التلميذ، ورفيق الساعات الأولى.

وكان الأب، كلّما استعاد شيئًا من قواه، يخطو بضع خطواتٍ داخل مقرّ القدّيس لعازر، متّكئًا على عصاه، مثلما يتّكئ فلاّحٌ شيخٌ على محراثه، وقد خلت قسمات وجهه من كلّ ما يشير إلى قسوةٍ أو ابتذالٍ، والنور المنبعث من عينيه اللتين ظلّتا متألّقتَيْن يضفي على كلّ محيّاه نبلاً ورقّةً.

واستمرّ ينوس على مهلٍ، بسكونٍ وهدوء. ويوم الخامس والعشرين من شهر أيلول ١٦٦٠، ظهرًا، أغفى إغفاءةً عميقةً وطويلةً، وهو جالسٌ على كرسيّه المتحرّك. واستفسره أحد إخوته الكهنة عن هذه الإغفاءة غير المعتادة، والتي لم تكن ناتجةً عن سهرٍ أو تعبٍ مفرطٍ، فأجاب، مبتسمًا: "إنّه الأخ (وعنى به النعاس) المعلن عن قدوم أخته (وعنى بها الموت).

في اليوم التالي، ١٦٦٠/٩/٢٦، طلب إنهاضه، وإلباسه، واقتياده إلى القدّاس، رغم النعاس المهيمن عليه. واستمع إلى القدّاس، وتناول، ولّما أُعيد إلى حجرته، هوى إلى سباتٍ سحيقٍ، غير معتادٍ، وجهد أخٌ في إيقاظه، ولكنّه سرعان ما هوى، ثانيةً، إلى السبات. فاستُدعي طبيبٌ على عجلٍ، ولكنّ النطاسيّ وجده في حالةٍ من الوهن الأقصى الذي لا يسمح إعطاءه أيّ دواءٍ، فنصح بمنحه مسحة المحتضرين، وقبل انصرافه جهد في إيقاظه، وحمله على الكلام، فرنا إليه بوجهٍ باشٍّ يشعّ مودّةً، ولكنّه لم يستطع التفوّه إلا ببضعة ألفاظٍ مبهمةٍ.

وسأله أحد أعضاء جمعيّته أن يبارك جميع أعضائها الحاضرين والغائبين، فرفع رأسه بمشقّةٍ، وأجال أنظارًا فرحةً بالمحيطين به، وتفوّه ببضعة ألفاظ المباركة، ثمّ أكملها بصوتٍ خافتٍ. وإذ كانت قواه تنطفئ، ونهايته تُقبِل مسرعةً، مُنِح مسحة المحتضرين. وقضى ليلةً هادئةً، في حوارٍ عميقٍ مع الله، وفي التماس رحمته وعونه، وتأكيد حبّه البنويّ لمن كان له خيرًا من أبٍ.

عند الساعة الحادية عشرة غمره العرق، وفي الواحدة والربع ليلاً، طلبوا منه مباركة أُسرته الروحيّة، فأجاب: "فليباركها الله!"، ثمّ أردف: "لا بدّ من إتمام ما بُدئ به".

وكان إلى جانبه كاهنٌ لا يني يردّد: "إنّ الله مع الصالحين"، فقال له: "كفى!". لأنّه لم يكن يطيق، في تلك اللحظات الحاسمة، أن يلهيه شيءٌ عن الخواطر التي كان يجيلها في ذهنه، وهو صامتٌ، مغمض العينين؛ كانت جميع مراحل حياته تطوف في

مخيّلته، وكان يسأل الله أن يبارك، على التوالي، الرسالات، واللقاءات، والكهنة، وسيّدات المحبّة، وأخوات المحبّة، ونزلاء مقرّ "اسم يسوع"، والمحسنين، والأصدقاء...

وربّما كان يتخيّل موكب مستقبليه: مرسَليه الذين سبقوه إلى السماء، من شتّى أرجاء المسكونة، من فرنسا، وإيطاليا، وإيرلندا، وپـولونيا، والأخت الوفيّة لويز دي ماريّاك.

ولمّا ذُكرت عبارة "بالربّ أثق"، نهض قليلاً، وقبّل الصليب، وتمتم: "إنّي أثق".

وعند الساعة الخامسة صباحًا، وفيما كان أعضاء جمعيّته ملتئمين في الكنيسة، يصلّون من أجله، مستدعين الروح القدس، استدعاه الله كي يكافئ حياةً بُذلت حبًّا وعطاءً، وسخاءً، وتضحياتٍ. وبهدوءٍ، وصمتٍ، وبمنأًى عن الاختلاجات والتوتّرات، انسحبت نفسه من جسده الواهن، ولكنّها أبقت على محيّاه، السجوَّ والعذوبةَ والرقّة، وجلال القداسة التي تعاضدت السنوات على رسمها فيه. رَحَل وسلاحه بيده، ومحيّاه يشعّ سلامًا سنيًّا. وسُجِّل في شهادة الوفاة: "تُوفّي جالسًا على كرسيّه، مرتديًا ثيابه، قرب الموقد. وكان منظره أكثر جلالاً ومهابةً من أيّ يومٍ".

وأَعلنت الملكة آنّ النمساويّة: "بفقدان الأب ڤـنسان، فقدت الكنيسة، وفقد الفقراء كلَّ شيءٍ".

كان قد ضرب أروع مثالٍ في احتماله نزاعًا متماديًا في صبرٍ بطوليٍّ، بعد أن كان قد أدهش الجميع بإمعانه اندفاعًا وبذلاً، كلّما طعن قلبَه رحيلُ أحد رفاقه.

وعند الساعة الواحدة، ظهر ذلك اليوم، ١٦٦٠/٩/٢٧، اجتمع أعضاء جمعيّته، واستمعوا إلى نصّ النظام الذي ينظّم انتخاب وكيلٍ ريثما تنتخب الهيئة العامّة رئيسًا جديدًا. وفُتِح الصندوق المحتوي على تسمية الأب ڤـنسان للوكيل

الذي سيتولّى إدارة الجمعيّة، إلى أن يتمّ انتخاب رئيسٍ جديدٍ. وكان خيار الأب ديـــپـــول قد وقع على الأب "ألميداس"، وهو ابن أخي السيّدة "غوسّو" (Gaussaut)، أولى رئيسات سيّدات المحبّة. وكان ذلك المرسَل قد ترأّس عدّة رسالاتٍ في مختلف أنحاء فرنسا. وكان الأب ڤـــنسان، في سنواته الأخيرة، قد أبقاه إلى جانبه، كي يطلعه على كلّ أمور الجمعيّة.

وطلبت دوقة "إيغيّون" الاحتفاظ بقلبه في إناءٍ فضّيٍّ، وأُودِع جثمانُه في نعشٍ من رصاصٍ ضمن تابوتٍ خشبيٍّ، ودفن في كنيسة القدّيس لعازر. ثمّ أقام له اللعازريّون جنازةً رسميّةً، في كنيسةٍ باريسيّةٍ، وأكّد الأُسقف الذي أبّنه على مدى ساعتين، أنّه لم يتمكّن من سرد سوى النـــزر من مناقبه، ولو هو شاء الإحاطة بها كلّها، لكفت مواعظ صيامٍ كاملٍ.

وأقامت كنائس باريس ومدنٍ فرنسيّةٍ أُخرى، التي كانت رعاياها تعترف بفضله عليها صلواتٍ جنائزيّةً، تكريمًا لمزاياه، وتخليدًا لذكراه.

وتردّدت في شوارع باريس هتافاتٌ تقول: "لو كنت أنا بابا روما، لأعلنتُ هذا الرجل قدّيسًا، في الحال".

غير أنّ دعوى تطويبه لم تبدأ إلاّ بعد انقضاء خمسٍ وأربعين سنةً. وكانت جمعيّة الرسالة قد طلبت قبل عشرين سنةً فتح ملفّ تطويب مؤسّسها، ولم تُباشَر الإجراءات إلاّ في عام ١٧٠٥. وكان معظم شهود العيان قد لقوا حتفهم، ومع ذلك تمّ استماع شهادات ٢٩٩ شاهدًا، منهم لعازريّون، وبنات المحبّة، وأطبّاء، وفلاّحون. وأُجريت تحقيقاتٌ في كلّ الأماكن التي مرّ بها، أو قضى فيها ردحًا من الزمن.

وكان من المعتاد أن يُدعَم طلب التطويب بإجماع المسؤولين الكنسيّين. وكان عدد الأساقفة، آنذاك، في فرنسا يبلغ مئةً وسبعةً وعشرين أُسقفًا. ولكن لم يوقّع على طلب تطويب الأب ديـــپـــول سوى اثنين وثلاثين منهم. ولم يخفَ عن ذهن الحبر الأعظم، آنذاك، أنّ تمنّع أكثريّة الأساقفة الفرنسيّين عن التوقيع يعود إلى

نزعة العديد منهم إلى الأنغليكانيّة والجنسينيّة، اللتين قاومهما الأب ڤـــنسان بحزمٍ. وكان كثيرون منهم ناقمين عليه، أو حاسدين له لأنّ البلاط الملكيّ استدعاه، وفتح له أبوابه وأغلقها في وجههم.

ولئن كان كلّ إنسانٍ مدعوًّا إلى القداسة، فقليلون هم الذين يبلغونها، إذ إنّ القداسة لا تُعطى مجّانًا لأيّ إنسانٍ، بل يجب اكتسابها بكفاحٍ بطوليٍّ، وبتضحياتٍ موجعةٍ، وبخضوعٍ دائمٍ لعمل الله، وبمسيرةٍ شاقّةٍ نحو الكمال.

وإعلان القداسة يقتضي تمحيصًا دقيقًا وصارمًا، ومناقشاتٍ حادّةً، ويجتاز مراحل متتاليةً، تبدأ بإعلان المرشّح "مكرّمًا"، ثمّ طوباويًّا، بعد تأكيد خلوّ سيرته من كلّ نقصٍ وشائبةٍ، وإثبات سوقه سيرةً مثاليّةً، وبطوليّةً، تؤكّدها علاماتٌ فائقة الطبيعة. ثمّ يُقتضى حدوث عجائب مثبتةٍ لا ريب فيها، بشفاعة المرشّح للقداسة، قبل إدراج اسمه في قائمة القدّيسين. وقد تستلزم هذه الإجراءات عشرات، بل مئات السنين.

وقد أخضعت الدوائر الـــڤــاتيكانيّة للتمحيص أربعة آلاف صفحةٍ متضمّنةٍ شهاداتٍ، ونتائج تحقيقاتٍ. وكانت أبرز المآخذ التي سجّلها "محامو الشيطان" على الأب ڤـــنسان دي پـــول صداقته للمدعوّ "سان سيران" مروّج النـــزعة الجنسينيّة، واقتباسه أساليب الخيمياء (alchimie) وطبّ الأعشاب من الطبيب التونسيّ الذي استعبده، واستخدامه للعطوس، بناءً على وصفة طبيبٍ من أجل مكافحة زكامٍ عنيدٍ.

ثم شُرِّحت بدقّةٍ مجهريّةٍ مراسلاته الكثيفة، وكتاباته الروحيّة تثبُّتًا من سلامة عقيدته. وقد استغرق هذا البحث ستّ سنواتٍ، حتّى عام ١٧١٥.

وتوقّف البحث عدّة سنواتٍ من جرّاء اضطراباتٍ دينيّةٍ ووطنيّةٍ، حالت دون استكماله حتّى عام ١٧٢٧. واستغرق نظر البابا بينيدكتُس الثالث عشر في الملفّ سنتين. ويوم ١٧٢٩/٨/٢١، ازدانت بازيليك اللطران بالدمقس الأحمر، المرصّع بالشرائط المذهّبة، واستنارت هياكلها بالشمعدانات الجسيمة المضاءة، وزُيّن عرش

القدّيس بطرس بشجيراتٍ مزيّنةٍ بالزهور، ومنه أعلن البابا بينيدكتُس الثالث عشر، الأب ڤنسان ديپول طوباويًّا، أمام لوحةٍ جسيمةٍ تصوّره جالسًا على غمامةٍ، ومحاطًا بملائكةٍ تواكبه إلى السماء.

وكأنّ جسامة أعمال البرّ التي حقّقها الطوباويّ في حياته، ومجموعة الفضائل البطوليّة التي قادت مسيرته لم تكن كافيةً لإثبات قداسته. وانقضت ثماني سنواتٍ أُخرى في مناقشة ثماني معجزاتٍ تمّت بشفاعته، وانتهى البحث إلى إقرار أنّ أربعًا منها لا يمكن الطعن في صحّتها، ويستحيل حدوثها بوسائل طبيعيّةٍ، كما يستحيل الشكّ في أنّها دمغة الله التي تؤكّد منشأها.

ويوم ١٧٣٧/٦/١٦، أعلن البابا كليمان الثاني عشر ڤنسان ديپول قدّيسًا، وأُدرِج اسمه في سجلّ قدّيسي الكنيسة الكاثوليكيّة.

قد تبدو طويلةً فترة السبع وسبعين سنةً التي انقضت بين تاريخ وفاته، وإعلان قداسته، ولكن يجدر التذكير بأنّ إعلان قداسة معظم معاصريه قد استغرق مهلةً أطول. فقد أُعلنت قداسة معاونته، رئيسة جمعيّة بنات المحبّة، "لويز دي ماريّاك"، بعد انقضاء ٢٧٤ سنةً على وفاتها، وأُعلنت قداسة الصوفيّ "يوحنّا الصليب" (Jean de la Croix)، بعد ١٣٥ سنةً، وقداسة "جانّ دي شانتال" بعد انقضاء ١٢٦ سنةً.

وقد تبيّن الحبر الأعظم أنّ قدّيسنا قد استحقّ هذا التكريم لأنّه انتصر على نزعات الخطيئة الرئيسة فيه، وانتصر في معاركه الاجتماعيّة على ظلم المستبدّين، ومكر المفسدين، وإغواء الهراطقة؛ ولأنّه قبل إقدامه على أيّ مشروعٍ كان يسترشد بمشيئة الله، ويتسلّح ببركته ونِعمه وثقته المطلقة فيه، وبالصلاة الحارّة، ولأنّ "قدّيس الفقراء" لم يُبعد، قطّ، الله عن فكره، ولأنّ قداسة موته تجعل كلّ إنسانٍ يتمنّى أن يموت مثله. ثمّ عدّد الحبر الأعظم، وفصّل المعجزات التي تمّت بشفاعته. وحدّد يوم تكريمه في الثامن عشر من شهر تمّوز، كلّ عامٍ.

الفَصْلُ السَّابِعُ

رائدٌ وقدّيسٌ

مَــلامح

اللوحات التي رُسِمت للأب ڤــنسان تعود إلى سنواته الأخيرة، وابتدع رسّاموها طائفةً من الحِيَل حتّى استطاعوا تثبيت ملامحه، لأنّه كان يأبى، بإصرارٍ، اتّخاذ موقفٍ يسهّل رسمه أو تصويره. وكان رفاقه، حرصًا على إثبات ملامحه للخَلَف، وإزاء رفضه القاطع للوقوف أمام رسّامٍ، قد جاؤوا إلى مقرّ الجمعيّة برسّامٍ مموّهٍ بشكل طالب رياضةٍ روحيّةٍ، كي يلتقطَ، خفيةً، ملامح القدّيس، بأكبر قدرٍ من الدقّة، ويخلّدَها على لوحةٍ.

وتُظهر اللوحات التي شاعت، بعدئذٍ، وجهًا هادئًا ينطق بالصدق والمودّة، ويقرن البساطة بالوقار، تطلّ منه عينان ثاقبتان تطفحان رقّةً ونورًا، وذكاءً وتواضعًا، عينان غائصتان في تأمّل آفاق السماء ووهاد البؤس، ويشحذ رؤيتهما منظار الطيبة، والعطف، والاتّحاد بالله؛ وتحيق بعينيه غضونٌ تحاكي أشعّةَ نورٍ تختزل سيرةً طويلةً حافلةً بالصراع وبالخبرات المكتسبة في ميادين المحبّة.

ويتوسّط الوجه أنفٌ مستطلعٌ يحُدّ من فضوله حذَرٌ مكتومٌ، وظُرفُ بسمةٍ عذبةٍ، وينتهي الوجه بذقنٍ مناضلةٍ، طالما اصطدم بصلابتها مُدّعون وقحون.

وله العديد من الرسمات الرمزيّة تظهره إحداها ممسكًا في يُسراه طفلاً لاطيًا على صدره، وفي يمناه ممسكًا يدَ ولدٍ يسير إلى جانبه، متشبّثًا بجبّته، تشبّثه برجاء الحياة. وفي هذا السياق يقول الكاتب الفرنسيّ "أندريه فروسّار": "تقتضي الدقّة رسمه حاملاً على ذراعيه أربعين ألف طفلٍ"، فعدد الأطفال الذين أنقذهم الأب ڤــنسان من موتٍ محتّمٍ، أو من مصيرٍ بائسٍ، لا يحيط به إحصاءٌ".

وتؤكّد جميع تلك اللوحات أنّ هذا العملاق الذي طغى طيفه على كلّ عصره،

ومع كلّ ما أُسبغ عليه من أمجادٍ وتكريمٍ، ظلّ فلاّحًا ملتصقًا بالتربة، محقّقًا شعار صديقه القدّيس فرنسوا الساليزيّ: "علينا أن نُزهرَ حيث غَرَسَنا الله".

أمّا الصورة الداخليّة التي تعكسها كتاباته وسيرته، فتُظهِر رجلاً متينًا، متعدّد المواهب، غنيّ الطاقات والخصال، متواضعًا ولكنّه صلبٌ، مشحوذ العزيمة، ورقيقًا على غير ضعفٍ، بسيطًا منــزّهًا من العُقد النافلة، رئيس عدّة جمعيّاتٍ كبرى، مؤسّسًا لمشاريع جبّارةٍ، مندفعًا في خدمة أُمّه الكنيسة، دائبًا على تلبية احتياجات آلاف الفقراء، باذلاً ذاتَه في سبيل إسعافهم، ومع كلّ ذلك مستشارًا للبلاط، ولكبار المسؤولين.

تراكمُ كلّ تلك المهامّ التي قام بها أروعَ قيامٍ، كان يلتهم وقته، ولا يتيح له فسحةً للشعور بأسقامه الجسديّة وأوجاعها، أو للتعبير عن إرهاقه، بيد أنّه لم يحلْ دون مثابرته على الصلاة والتأمّل والعبادة، ولم يُلحَظ لديه، قطّ، توتّرٌ أو اضطرابٌ. وكان سجوّه الدائم مذهلاً، لأنّه كان سعيدًا بتنفيذ مطالب الله، ووطيد الإيمان بأنّ الحكمة الحقّة تكمن في اقتفاء العناية الإلهيّة خطوةً خطوةً. ولذلك كان يلتزم الصبر حتّى تتّضح له إشارات مشيئة الله. وحينئذٍ كان ينبري لها بعنادٍ لا ينثني وبعزيمةٍ لا تلين.

كانت حياته مديدةً، في مقياس زمانه. ويمكن تفسير بطء زحفه إلى الشيخوخة برفضه التخلّي عن العمل الذي ظلّ مكبًّا عليه حتّى النفَس الأخير. ولوحظ، في أيّامه الأخيرة، أنّه أمسى أقلَّ حذرًا وتأنّيًا، وأشدّ إقدامًا على مكافحة البؤس، وكأنّه توّاقٌ إلى إفاضة أكبر قدرٍ من مخزون محبّته، قبل رحيله.

وفي سبيل تحقيق القدر الأقصى من الخدمات، استفاد من كلّ الكفاءات المتوفّرة، فكان رائدًا في إيلاء أدوارٍ قياديّةٍ لنساءٍ يمتلكنَ أفكارًا خلاّقةً، وتنبض قلوبهنَّ بالمحبّة، وبالعطف الأموميّ، الذي يدفعهنَّ تلقائيًّا وبحميّةٍ إلى العناية بالصغار وبالمحرومين، والمتوجّعين. وبذلك استنبط كنوز السخاء من قلوب سيّدات المجتمع الراقي، وكنوز الحنان والتفاني من قلوب فتياتٍ قرويّاتٍ. ومستعينًا بكلّ هذه الطاقات والكنوز حقّق معجزاتٍ.

وكذلك كان رائدًا في إشراع أبواب الكنيسة لجميع أبنائها، وفي الدعوة إلى تعاون الإكليرُس مع العلمانيّين، فأدّى للكنيسة والمجتمع خدماتٍ جُلّى.

وبالإجمال كان بطل عملٍ من طرازٍ فذٍّ، وعملاق محبّةٍ منقطع النظير، وكان رجل المفارقات، وفوق كلّ شيءٍ، كان رجل صلاةٍ، وكان قدّيسًا.

بطَلُ عمَلٍ

لم يحجم الأب ڤـنسان، يومًا عن أيّ مشروعٍ أظهرت له العناية الإلهيّة رغبتَها فيه، مهما كان جسيمًا، ومهما استلزم تنفيذه من جهدٍ وبذلٍ، فاضطلع بمشاريع تستلزم عشراتٍ بل مئاتٍ من الرجال للنهوض بها، ومتابعتها، والسهر عليها.

ما من مشروعٍ كان من بنات أفكاره، ونتيجة تخطيطه وحساباته. بل كان حالًما يلمح إشارة الله إلى عملٍ، وتقرع باب نفسه دعوة المشيئة الإلهيّة إلى تنفيذه، يهبّ له، بلا تلكّؤ. وحينئذٍ كان حريصًا على إحاطته بكلّ ألوان العناية، ولا يهمل تفصيلاً كفيلاً بضمان إكماله على أحسن شكلٍ، وبضمان إثماره واستمراره.

وكان ينكبّ على تنفيذ المشاريع بذهنٍ حاضرٍ، يقظٍ، وبعزيمةٍ لا عهد لها بهدنةٍ، ولا ينال منها كللٌ، ويواصل عمله بانتظامٍ ووضوح رؤيةٍ، متحمّلاً مشقّاتها بصبرٍ، وهدوءٍ، وبثقةٍ وطيدةٍ أنّ ما يشاؤه الله يتحقّق، ولكن ليس بمعزلٍ عن جهود من اتّخذهم أدواتٍ لعمله.

ولطالما حذّر رفاقه من الاكتفاء بتأمّل الفضائل السامية، وبمناجاة الله أعذب مناجاةٍ، والإحجام، بعد ذلك، عن الجهد، والتألّم، والتضحية، ومواساة الفقراء وغوثهم، والبحث عن النعجة الضالّة، وبمنأًى عن التأفّف من العِلل، والمِحَن، والعقبات الطارئة، داعيًا إلى تحويل كلّ تطلّعٍ سامٍ، وكلّ تأمّلٍ روحيٍّ، إلى فعلٍ واقعيٍّ. فما التمنّيات التي لا تنقلب عملاً إلاّ دخانٌ ووهمٌ، وكلّ إيمانٍ لا يُترجَم عملاً، إنّما هو عقيمٌ وباطلٌ...

لقد ناشد مرسَليه أن يحوّلوا صلواتهم وتأمّلاتهم غذاءً روحيًّا للمحتاجين وأن يجعلوا من رؤية الله في الآخرين الدافع الأقوى على إغداق أعمال المحبّة. كان يقرأ بعطفٍ وحنانٍ الرسائل التي تبعث بها إليه أنظار المرضى، وأيدي الفلاّحين والعمّال

المخشَوشِنة، وعيون الأطفال المشعّة، وأكتاف العبيد والأسرى والمحكومين بالتجذيف، أكتافٍ مزّقتها السياط. ولطالما ناشد رفاقه أن ينظروا إلى المتألّمين نظرة يسوع لهم، قائلاً: "ما أجملَ أن ننظر إلى الفقراء نظرةَ يسوع إليهم، وأن نقدّرهم مثل تقديره لهم! أمّا إذا نظرنا إليهم نظرةً بشريّةً، ووفقَ روح العالم، فسيبدون جديرين بالازدراء".

لقد جعل ڤـنسان ديــپــول من العمل صلاةً، ومن الصلاة مدخلاً وحافزًا إلى العمل، ومصنع محبّةٍ، فكان قدّيسَ العملِ، وعملاقَ المحبّة.

ودعا رفاقه أن يكونوا، أُسوةً به، متفرّغين للعمل بلا عائقٍ، متحرّرين من الهموم الخارجيّة، ومتجرّدين من الذات، منقطعين لخدمة الله، بمنأًى عن كلّ غايةٍ شخصيّةٍ متّحدين بيسوع، ومنفّذين لمشيئته ولتعاليمه. وبذلك حوّل نظريّات الصوفيّين إلى روحانيّة عملٍ.

وكان خير معينٍ له على العمل المثمر الصبر، والتأنّي والتحاشي عن استعجال الأمور والنتائج، وعن "تخطّي تدابير العناية الإلهيّة"، وفق تعبيره. فقد آمن أنّ من يستعجل يتقهقر، فآثر انتظار إشارات الله، بمعزلٍ عن كلّ رغبةٍ شخصيّةٍ، انتظارًا ساكنًا لامباليًا، كان يتعلّمه من كلّ ما يشهده. فذات مساءٍ، إذ كان عائدًا من جولاته، لاحظ زمرةً من البغال منتظرةً، بلا حراكٍ، خروج أصحابها من نُزلٍ كانوا يتناولون فيه العشاء، ولقّنه هذا المشهد روعــةَ صبر البغال، وهدوءها، بانتظار أوامر أصحابها، واستخلص كم نحن جديرون بالتمثّل بها، وبانتظار مشيئة سيّدنا، بمثل صبرها.

ولكنّ هذا الصبر الساجي لدى الأب ديــپــول ليس توانيًا مجرّدًا من الشعور، بل هو موقف تأهّبٍ وجهوزيّةٍ، وترقُّبٍ للإشارات التي يعبّر الله، من خلالها، عن مشيئته ودعوته. وحالما نتلقّى هذه الإشارات علينا أن نهبّ لتلبيتها بكلّ طاقاتنا. صبره، إذن، ليس إغفاء العذارى الحمقاوات، ولا تصاممٌ عن دعوات الله، بل هو تركيزٌ للطاقات.

وهذا الصبر المتأهّب، لا يُصار إليه إلاّ بالحبّ، والصلاة، والتأمّل، وبامتحانٍ للذات، وبتعقّبٍ للعيوب من أجل مكافحتها، وللفضائل من أجل تنميتها، وبتجنيد كلّ الطاقات وتأهيلها لتلبية نداء النعمة بلا تلكّؤٍ.

وقد حرص الأب ديــــبـــول على إشراك مَن يغيثهم في إنقاذ ذواهم، وصيانة كرامتهم، فكان يحرّضهم على العمل، ويوفّر لهم وسائله. فكان يسارع إلى تزويد سكّان المناطق الريفيّة المنكوبة، فور استقرار الأحوال فيها، بآلات الحراثة، وبالبذار للزرع، وبموادّ الغزل والحياكة للنساء. وكان يندّد بكلّ هدرٍ أو إهمالٍ للموارد، الناتجة عن جهود العاملين.

وقد لازَمه الشعور بأنّ كلّ ما حقّقه من أعمال محبّةٍ، وكلّ ما أسداه من خدماتٍ هو نعمةٌ من الله، وتقدمةٌ له. ومن ثمّ كان عمله:

– مقدَّسًا، لأنّ الله هو ملهمه وهو غايته القصوى والوحيدة، ولأنّه كان وسيلةً إلى إرشاد البشر إلى الله، وإلى حبّه لهم.

– متجرِّدًا، من كلّ مطمعٍ شخصيٍّ، لا يبتغي لا مجدًا، ولا متعةً شخصيّةً، ولا خيرًا فانيًا، ولم يكن يَنشد، من ورائه، سوى تمجيد الله، وخلاص النفوس وتقديسها.

– متواضعًا، فهو لم يدّعِ، قطّ، فضلاً شخصيًّا، في شيءٍ ممّا أنجزه. وإذا خامره في أمرٍ شكٌّ، لم يكن يتوانى عن طلب نصح مَن يعدّهم أوفر منه علمًا وخبرةً، وحنكةً. وكان روح يسوع هو هاديه، ودليله، في كلّ حينٍ.

وكان كلّما داخله شعور خيبةٍ من ضآلة إسهامه في مقاومة كثافة المآسي المحيقة به، يذكر نصح الساليزيّ له أن يَعدّ نفسه محض آلةٍ في يد الربّ، وأنّ حسبَه أن يكون طيّعًا لها.

وكان دائم التعاطف مع أوهان الآخرين، مقدّرًا لطاقاهم وظروفهم.

– مثابرًا، لا تثبّطه تعثّرات المؤسّسات الناشئة، لأنّه كان يؤمن أنّ عمل النعمة

يحاكي، في نواحٍ عديدةٍ، عمل الطبيعة التي تلد أشياء تشوبها البشاعة والهزال، ولكنّها لا تني تطوّرها وتقوّمها، وتكملها حتّى تبلغ ملء بهائها.

– جريئًا، لا تفلّ حدّة عزيمته مقاومةٌ، ولا توهنه مصاعب، ويتخطّى العقبات بالصبر والصلاة.

– مستقيمًا، لا يحيد قيد شعرةٍ عن مبادئه، ولا يثنيه حياءٌ بشريٌّ عن دروب الربّ.

– بسيطًا، وشفّافًا، منزَّهًا من كلّ خداعٍ وتمويهٍ، ومن كلّ عقدةٍ.

– دقيقًا، في اختيار الوسائل التي توصله إلى الهدف الذي يَعدّه الأكثر إرضاءً لله.

– حريصًا على تجنّب تشكيك أيٍّ كان.

– كَتومًا، متجنِّبًا إفشاء الأمور قبل الأوان، فلا يطلع عليها إلاّ المعنيّين بها، لكيلا يُفسدها المغرضون. ولطالما أكّد أنّ إبليس يعبث بأعمال الخير التي تُفشى وتُذاع بلا سببٍ، فتصبح مثل ألغامٍ أُبطل مفعولها.

– حذرًا، يتفادى الالتزام المتسرّع، والاندفاع الجامح، والخطوات التي لم تستوفِ نصيبَها من النضج. ومن أقواله في هذا السياق: "ليس أكثر شيوعًا من المشاريع المتسرّعة". ولذلك لم يكن يقدم على مشروعٍ إلاّ بعد أن يؤمّن له مقوّمات الاستمرار لكيلا يكون لهيب قشٍّ يهبّ بسرعةٍ ويخمد بسرعةٍ.

– صارمًا، في تنفيذ مشيئة الله، وفي كلّ ما يتّصل بتقدّم رفاقه الروحيّ، وبانتظام جمعيّاته.

فلا عجب، والحالة هذه، أن نمت مشاريعه نموًّا مذهلاً، وأن آتت البذورُ التي غرسَها حصادًا وفيرًا.

وإنّ مجرّد تعداد المسؤوليّات الجسام التي تراكمت على كاهله لَيبعث على الدوار. فهو مرشد السجون، ورئيس جمعيّة الرسالة، وجمعيّة بنات المحبّة، وراهبات الزيارة، وسيّدات المحبّة، وراعي عشرات أخويّات المحبّة، والمشرف على طغمةٍ من المشاريع الخيريّة...

وقد بنى مدارس وإكليريكيّاتٍ، ونظّم رياضاتٍ روحيّةً للمُقدِمين على السيامة الكهنوتيّة، وأنشأ لقاءات الثلاثاء، وأوجد ملاجئ مريحةً ونموذجيّةً للمسنّين. وأدخل لمسةً إنسانيّةً إلى السجون والمستشفيات. وتحت رعايته جدّدت سيّدات المحبّة أساليبَ خدمة المشافي، وأنشأنَ مياتم، وملاجئَ للفتيات الجانحات.

وفوق كلّ ذلك كان مقرّ القدّيس لعازر يُطعِم، كلّ يومٍ، ألوف الفقراء الجياع. وهو كان دائم السهر على أدقّ مفاصل مؤسّساته، موفّرًا للجياع طعامًا، وللمشرّدين مأوًى، وللخائفين والمتألّمين رجاءً، وبالإجمال كان لهم أبًا، وأخًا، ونصيرًا، كان لهم القدّيس ڤـــنسان.

تعبيرًا عن سعة رقعة نشاط الأب ڤـــنسان، كتب "أندريه فروسّار":

« اِفتحْ باب مكتب لاهوتيٍّ يكسوه الغبار، تسمع الأب ڤنسان يدافع عن العقائد المسيحيّة الكبرى مع ملافنة الكنيسة.

"وإذا ارتعد، قرًّا، طفلٌ مرميٌّ عند عتبة كنيسةٍ، فهوذا الأب ڤنسان يهبّ لانتشاله.

"اِدفعْ بوّابة مزرعة قريةٍ، فيمرّ أمامَك كاهنٌ معتذرًا، فإذا به الأب ڤنسان المستعجل لتعميد حفيدٍ وليدٍ، أو لتزويد محتضرٍ بالأسرار، أو لإفراغ محتوى جيوبه على زاوية منضدةٍ، أو ليحدّث أفراد الأسرة عن المخلّص، قرب الموقد.

"وها هو، على امتداد خمسٍ وثلاثين سنةً قريبٌ من الصغير والكبير، ومن العالم والجاهل. ».

ومن المحقّق أنّ من أسرار نجاح الأب ڤـــنسان، عبقريّته التنظيميّة. ففي كلّ عهدٍ قام مَن اندفعوا إلى أعمال محبّةٍ كانت تنتهي معهم. وتميّز الأب ڤـــنسان بوضع قواعد دقيقةٍ تنظّم عمل المحبّة، وتضمن لها الاستمرار والنموّ، وتتعاقب أجيالٌ على مواصلتها.

وجمع الأب ڤــنسان إلى التنظيم إدارةً يقظةً، قرَنت الحزم بالرقّة والتواضع. وكان الحزم عنده ليّنًا نفاذًا، لا يني ينمو ويغتني بقدر ما يتّحد بجميع الآخرين، لأنّه كان يؤمن أنّ شمس العطف والرقّة تذيب دروع الأنانيّة، حتّى التي تتّصف بقسوةٍ فولاذيّةٍ. وتأكيدًا على ضرورة الحزم، كان ينصح "لويز دي ماريّاك"، أن تتشدّد حزمًا، بقوله: "إنّ عذوبتَكِ تحتاج إلى قطرات خلٍّ".

واتّسمت إدارته بالثبات، فهو مذ تبيّن دعوتَه انبرى لها بكلّ عزيمته، ولم يحِد عنها قيدَ شعرةٍ، جاهدًا، دائمًا، في غرس حياة يسوع في النفوس من خلال المحبّة، والتواضع، والبساطة، والتضحية، والعطف، والغيرة الرسوليّة. وكما أنّ عمل الله متجذّرٌ في كيانه الذي لا يتغيّر، كذلك ينبغي أن تكون غاية عملنا ثابتةً غير خاضعةٍ للتغيير. ولكن بما أنّ الله، كي يعبر إلى نفوسنا، يغيّر أساليب تعبيره عن مشيئته، وفقًا لتبدّل الظروف وتأثيرها على فهمنا، فعلى الرسل التمثّل به، واستخدام اللهجة التي تنفذ إلى النفوس، وتؤتي ثمارها. الله، إذن، ثابتٌ في غاياته، ولكنّ أساليبه ليّنةٌ. ومن ثمّ، بنى الأب ڤــنسان عمله على أسُسٍ أربعة:

– يجب أن تتحوّل الحياةُ عملاً.
– ليس للحياة وللعمل عمقٌ وحقيقةٌ إلاّ في الإيمان.
– على الحياة في الإيمان أن تتّسع باستمرارٍ، وتماشي المتغيّرات لكي تحافظ على بقائها واستمرارها.
– لكلّ مهمةٍ، ولكلّ دعوةٍ مقتضياتٌ معيَّنةٌ.

وهو عملَ دائمًا، كي يجد الله في أعماله، ملتزمًا، دائمًا بالحذر، أي ببساطة السيرة ونقاء النيّة. فلا يباشر عملاً إلاّ بعد التحديق إلى الله، والتماس مشاركة روحه، ودعمه لجهوده ومشاريعه، والتوافق مع نظرته إلى الأمور التي غالبًا ما تختلف عن نظرتنا إليها، تفاديًا للوقوع في أخطاءٍ جسيمةٍ.

كان يعمل كي يجد الله في أعماله، وكان يتّحد بإخوته المتألّمين كي يوثّق اتّحاده بالله، وكان، دائمًا، ممثّلاً عطف الله، ووفيًّا لمقتضيات التجسّد حيث شاءت العناية الإلهيّة أن يكون ويعمل، وكان دائمًا نصيرًا للصغار، ندًّا للكبار، قارنًا المرئيّ باللامرئيّ، والنباهة بالطيبة، حازمًا ولكن دمثًا ليّن العريكة، وكان الإنجيل يُقرأ على وجهه، وفي أعماله.

وقد آمن دائمًا أن ليس هناك مهامّ كبيرةٌ ومهامّ صغيرةٌ. فالجوهريّ يتخطّى قياسات الإنجاز المعهودة. لأنّ كثافة الحبّ الذي يرافق العمل هو مقياسه الصادق.

وكان يقدّس كلّ أعماله بجعلها وسيلةَ بحثٍ عن الله، وإرضاءٍ له.

البِـذرة الصَغيرة نَمَـت

كان الأب ڤـــنسان قد حرص على وصف جمعيّاته بالصغيرة، لم يكفّ، يومًا، عن اعتبار جمعيّة الرسالة صغرى الجمعيّات. فهي، في الواقع، وُلِدت مفرطة الصغر، ولكنّها كانت بذرةً منتقاةً، وغُرست في أرضٍ خصبةٍ، فآتت حصادًا وفيرًا، وتكاثرت تكاثر الخبز والسمك بين يدي الربّ، متخطّيةً كلّ توقّعٍ، ومحقّقةً حلم المؤسِّس، الذي باح لإخوته، في أيّامه الأخيرة: "ليست دعوتنا أن نمضي إلى رعيّةٍ، أو إلى أبرشيّةٍ، بل إلى الأرض جمعاء. وما هي مهمّتنا؟ إضرام قلوب البشر أجمعين... فلا يكفي أن نحبّ، نحن، الله، إن لم يعرفه قريبُنا ولم يحبّه".

ومع أنّ المؤسّس القدّيس واجه، أثناء حياته، سدودًا من المقاومة، ثمّ مع أنّ جمعيّته تعرّضت، عقب وفاته، لجمٍّ من التعدّيات والاضطهادات، فهي ما انفكّت تزدهر وتنتشر حتّى باتت موجودةً في القارّات الخمس. وهل أَفصَح من الأرقام؟ فقد بدأ اللعازريّون حفنةً، وصاروا عشراتٍ، فمئاتٍ، فألوفًا. وعددهم، اليوم، مع كلّ ما حلّ بالجمعيّات الرهبانيّة والكهنوتيّة من ضمورٍ في العقود الأخيرة، يبلغ ٣١٠٧ أعضاء، منهم اثنان وثلاثون مطرانًا، وألفان وثماني مئةٍ وواحدٌ وخمسون كاهنًا، وواحدٌ وسبعون شمّاسًا، ومئةٌ وأربعةٌ وعشرون أخًا مساعدًا، ومنهم تسعةٌ وعشرون مرشّحًا للكهنوت والأخوّة، يتأهّبون لنذورهم الدائمة. ولهم مئتان وثمانيةٌ وتسعون ديرًا ومقرًّا، في ثمانية وسبعين بلدًا.

ويناهز عدد بنات المحبّة خمسةً وعشرين ألفًا. أمّا أعضاء الجمعيّات المختلفة المنتسبة إلى القدّيس ڤـــنسان فيبلغ عددها نحو مئتين وخمسين ألفًا. وهناك زهاء خمس مئة جمعيّةٍ نسائيّةٍ تعمل تحت راية "قدّيس المحبّة".

بين عام ١٦٢٨ و١٦٦٠، أقام اللعازريّون أكثر من ألف رسالةٍ، وأعدّوا، في مقرّاتهم، للسيامة الكهنوتيّة زهاء أربعة عشر ألف كاهنٍ جديدٍ، ونظّموا أكثر من عشرين ألف رياضةٍ روحيّةٍ، وفّرت للذين مارسوها جوّ الصمت والورع والتأمّل، فضلاً عن الإقامة والطعام المجّانيّين. وانتزعت جمعيّاتهم من براثن هلاكٍ محقّقٍ أكثر من عشرة آلاف طفلٍ مرميٍّ؛ ونَعِمَ بشتّى أصناف غوثهم مئاتُ ألوف المحرومين.

والمعجزة الكبرى هي أنّ هذه الإنجازات المدهشة استمرّت وازدهرت عقب وفاة المؤسّس، لأنّه أقامها على أُسُسٍ متينةٍ، وزوّدها بتنظيمٍ عبقريٍّ يضمن لها النموّ والاستمرار. فقد عهدت جمعيّة اللعازريّين الصغيرة، منذ عام ١٦٧٣ ازدهارًا مذهلاً، حتّى غدا عدد فروعها في فرنسا ١٦٨ فرعًا. وكانت تدير خمسًا وخمسين إكليريكيّةً، وتخدم عددًا مماثلاً من الرعايا.

وفاق ازدهار جمعيّة بنات المحبّة، ازدهار جمعيّة الرسالة، سرعةً واتّساعًا. فقد لبّت الفتيات المكرّسات لخدمة البائسين نداء استغاثتهم باندفاعٍ، وبذلنَ، في سبيلهم، ذواتهنّ، بالكلّيّة، وبلا تحفّظٍ ولا حسابٍ.

ومع أنّ الثورات المناوئة للدين قد أوسَعت مؤسّساتهنَّ اضطهادًا، وسلبًا، وإغلاقًا، وحظرًا، حتّى كادت تقضي عليها، إلاّ أنّهنَّ كُنَّ لا يلبثنَ أن ينفضنَ عنهنَّ غبار الدمار، ويهببْنَ لمتابعة رسالتهنَّ بعزيمةٍ صلبةٍ لا تنثلم ولا تنكسر. وما زالت آلاف مراكزهنَّ، وألوف راهباتهنَّ، في عشرات البلدان، عاكفاتٍ على تخفيف أوجاع إخوة يسوع المتألّمين، يحدوهنَّ روحُ الأب ڤـنسان وأُمُّهنَّ لويز دي ماريّاك.

وما زال مركزهنَّ الرئيس، القائم في شارع باك ١٤٠، في باريس، يستقبل كلّ يومٍ، وكلّ ساعةٍ، أفواج الحجّاج القادمين من كلّ أفقٍ، وكلّ لونٍ ومنشأٍ، ولا سيّما بعد أن باركته الأُمّ العذراء بظهورها، للأخت القرويّة، "كاترين لابوريه" عام ١٨٣٠، وأوعزت لها بسكّ "الإيقونة العجائبية" التي طافت ملايين نسخها كلّ أصقاع المسكونة، وما زالت تزيّن أعناق ألوف المؤمنين. ومع أنّ قداسة رئيستهنّ

الأولى لويز دي ماريّاك لم تُعلَن رسميًّا إلاّ عام ١٨٣٤، إلاّ أنّها كانت قد بثّت روحَها في قلوب طغماتٍ من الفتيات اللواتي اندفعنَ في تيّارها.

وما فتئت آلاف المتطوّعات المنتسبات إلى سيّدات المحبّة، في خمسين بلدًا يُغدقنَ سخاءهنَّ وعطفهنَّ على مختلف ضحايا الحرمان.

وما انفكّت جمعيّات القدّيس ڤـنسان ديـپـول تزرع المحبّة، في كلّ أرجاء المسكونة، دافقةً حيويّةً وتضحياتٍ. وما زال مشعلها ينتقل من يدٍ إلى يدٍ، مخلِّدًا ذكرى المؤسّس الذي وعد رفاقه: "ستكونون في بالي، عند الله".

وكان اللعازريّون، إثر همود الاضطهادات التي فرّقتهم قد عادوا إلى باريس عام ١٨١٦، وعُوِّضوا عن مقرّهم الذي دُمِّر وحُوِّل إلى استعمالاتٍ أُخرى، ببناءٍ في شارع "سيـڤـر" (Sevres) الباريسيّ، اتّخذوا منه مركزًا رئيسًا لجمعيّتهم؛ وعام ١٨٣٠ نقلوا إليه رفات المؤسّس من كاتدرائيّة نوتردام. أمّا قلبه فما زال محفوظًا داخل إناءٍ ثمينٍ، في كابيلاّ مركز بنات المحبّة، في شارع "باك".

وما انفكّ شغف الأب ديـپـول بالرسالات يلهب قلوب مرسَليه، ويدفعهم إلى كلّ أرجاء المسكونة. فبين عامي ١٨٣٩ و١٨٥٣، انطلقوا إلى الأميريكيّتين، وإلى الحبشة، والصين، والفيليـپـين، وأستراليا، وفلسطين، والجزائر، وتركيّا، وسورية، وإيران. ونَمّوا نشاطهم وخدماتهم في معظم البلدان الأوروپـيّة.

وفي الصين سفك مرسَلوهم دماءهم، عساها أن تكون بذار مسيحيّين كُثُرٍ. وقد تميّز اثنان من شهدائهم: أحدهما الأب "فرنسوا ريجيس كولي" (François Règis Colet)، الذي وطئ أرض الصين، وهو في الثامنة والعشرين من سنيه، ولمّا لاحقه الاضطهاد، عمل في الخفاء، إلى أن وشى به مسيحيٌّ جبانٌ فاعتُقل وكُبِّل، ويوم ١٨٢٠/٢/١٨، عُلّق على صليبٍ، بعد أن بشّر بالصليب تبشير الأبطال، مضحّيًا بحياته. وقد أعلن قداسته البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني عام ٢٠٠٠.

أمّا الشهيد اللعازريّ الثاني في الصين فهو الأب "جان غبرييل پـيربوار" (Jean Gabriel Perboyre) الذي كان، أيضًا، ضحيّة وشاية مسيحيٍّ جبانٍ، فحوكم وأُدين يوم ١٨٤٠/٩/١١، وكان، حينئذٍ في الثامنة والثلاثين من سنيه. ونُفِّذ به الإعدام خنقًا وهو معلّق على صليبٍ. وأُعلنت قداستُه عام ١٩٩٦. وكان قبل إعدامه قد هتف: "آه! ما أجمل هذا الصليب المغروس وسط أرض ملحدين، والذي طالما ارتوى بدماء رسل يسوع!".

وما زال الأب ديـپـول حاضرًا، ففي عمله وفي سيرته ما يتخطّى الزمن. ولا ريب أنّه لو عاش اليوم، لما تغيّر شيءٌ في دوافعه وسلوكه. ولكن يسوغ التساؤل كيف كان سيستخدم الهاتف والإنترنيت، من أجل ترسيخ المحبّة وإشعاعها، والمضيّ قُدُمًا على دروب محبّةٍ لا حدود لها، سعيدًا بنشر إنجيلٍ يشعّ نارًا تضرم القلوب، ونورًا ينير الدروب، على خطى يسوع، الذي جاء إلى العالم كي يخلّصه، ويغدق عليه حبّ أبيه، وعاش فقيرًا خادمًا للفقراء.

وقد علّمنا الأب ڤـنسان أن نكون دائمًا شرارةً تُشعل حبّ الله في القلوب، اليوم، من أجل بناء غدٍ سليمٍ وعادل.

وقد عهدت مشاريعه الخيريّة وثبةً جديدةً وجسيمةً عام ١٨٣٣، عندما أسّس الأستاذ الجامعيّ الشابّ "فريدريك أوزانام"، مع ثلّةٍ من زملائه، جمعيّةً مستوحاةً من روح الأب ڤـنسان وعمله الخيريّ، وتحت شفاعته، وباسمه: "جمعيّة القدّيس ڤـنسان ديـپـول"، مشرعًا لمشاريع ذلك القدّيس آفاقًا لا حدّ لاتّساعها.

كان فريديريك "أوزانام"، الذي أعلن البابا يوحنّا بولس الثاني قداسته في ١٩٩٧/٨/٢٢، يتميّز بذكاء حادٍّ، وكفاءاتٍ فكريّةٍ رفيعةٍ. وقد حصل على شهاداتٍ عليا في الحقوق، والآداب، واللغات القديمة، والأديان. وإلى ذلك كان يحرّكه قلبٌ سخيٌّ، وإيمانٌ مسيحيٌّ راسخٌ، دفعه إلى الاستجابة لاحتياجات زملائه الروحيّة، ومواجهة الفكر الـڤـولتيريّ المنتشر في الجامعات، حتّى أضحى رائد

الكاثوليكيّة الاجتماعيّة، وخير معبِّر عن تعليم الكنيسة الاجتماعيّ الحديث. وكان قد استفزّه، يومًا، ادّعاء زميلٍ له أنَّ المسيحيّة ماتت لأنّها غدت عاجزةً عن ابتداع أساليب لمكافحة البؤس، فقال: "كفى كلامًا عن المحبّة، ولنعكف على أعمال محبّةٍ!". وهل في هذا المجال قدوةٌ خيرٌ من القدّيس ڤـنسان دي پـول؟

دعا، إذن، "أوزانام" رفاقَه إلى غوث الفقراء في أماكن سكنهم، عوضًا عن انتظار مجيئهم استجداءً للغوث. وبما أنّه ورفاقه لم يكونوا يعرفون أماكن سكن المحتاجين، فقد استعانوا بالأخت "روزالي" (Rosalie Rendu)، وهي من بنات المحبّة، وكانت تحظى بشعبيّةٍ واسعةٍ في أحياء باريس الفقيرة. فلطالما وزّعت على الفقراء حساءً مجّانيًّا، وأقامت ميتمًا، ومأوًى، ومستوصفًا. ونالت تهنئة ناپـوليون الثالث. وتوفّيت عام ١٨٥٦، منهكةً ولكن طافحةً محبّةً، وقداسةً. فاقتادت "روزالي" أولئك الشبّان التوّاقين إلى بذل محبّتهم، وإلى أن يكونوا وسطاء بين المنعَمين والمحتاجين، في حين كان الأغنياء ينـزعون إلى التمترس في بذخهم، ولامبالاتهم، وتجاهل واجباتهم الإنسانيّة.

وأسوةً بشفيع جمعيّتهم، أهاب "أوزانام" برفاقه تأسيس محبّتهم على الصلاة الجماعيّة، والحياة الأسراريّة المشتركة. و"أوزانام"، على غرار مثاله وشفيع جمعيّته، كان يرى في كلّ إنسانٍ بائسٍ، كائنًا يستحقّ الاحترام والإجلال. وكان قد كتب، عام ١٨٤٨: "هناك نوعان من الغوث أحدهما يُذِلّ المغاثين، والآخر يكرّمهم... فالغوث يكرّم المغاثَ عندما يتوجّه إلى أسمى ما فيه، ويولي الأولويّة للعناية بنفسه، ولكلّ ما يساعده على أن يكون حرًّا، وكلّ ما يجعله كبيرًا. والخدمة تصبح تكريمًا عندما تجمع إلى الخبز الذي يغذّي، زيارةً تواسي، وإرشادًا ينير، وقبضة يدٍ لطرد الإحباط واليأس، وعندما تتعامل مع الفقير ليس فقط معاملة الندّ، بل معاملة المرؤوس للرئيس، بصفته مرسَل الله إلينا. وحينئذٍ، يستحقّ الغوث الاحترامَ لأنّه مهيّأٌ ليكون تبادلاً".

وعلى غرار القدّيس ڤـنسان، لم يكن "أوزانام" يدين المحتاجين، ويرفض بحزمٍ كلّ تدبيرٍ قسريٍّ يرغمهم على الحجز أو القمع اللذَين يمقتونهما.

ويبلغ عدد أعضاء جمعيّة القدّيس ڤـنسان دي پـول التي أنشأها "أوزانام" والناشطة في مئةٍ وثلاثين بلدًا زهاء تسع مئة ألف عضوٍ.

وعام ٢٠١١ اعترف المجلس الاقتصاديّ والاجتماعيّ في منظّمة الأمم المتّحدة بجمعيّة القديس ڤـنسان دي پـول، مؤسّسةً ذات منفعةٍ عامّةٍ، تحيا بالهبات التي يحوّلها كلّ فرعٍ من فروعها إلى معوناتٍ للقريبين منه في الحيّ وفي الرعيّة، وهدفها الأخير هو، وفق قول "أوزانام"، "إحاطة العالم بشبكة محبّةٍ".

ولا تتحرّج هذه الجمعيّة المعتزّة بإرثها الثمين، من التجديد الدائم، بل إنّها تدأب بحثًا عن وسائل جديدةٍ كفيلةٍ بتلبية احتياجات العصر الراهن المستجدّة.

عام ١٨٨٥، أعلن البابا ليون الثالث عشر القدّيس ڤـنسان دي پـول شفيعًا لجميع المؤسّسات الخيريّة السائرة في تيّاره، والملهمة بمثاله. وكان ذلك البابا قد دفع الكنيسة، بحزمٍ، على درب الدعم غير المشروط للأكثر هشاشةً وحرمانًا، ورأى في القدّيس ڤـنسان المدافع الأجرأ عن المحرومين، في مواجهة المتخومين، ومحرّك كوكبةٍ من المؤسّسات الخيريّة. واليوم، أيضًا، يحيي البابا فرنسيس ذكرى عملاق المحبّة، بعد أن أمست ثروات العالم حكرًا في أيدي حفنةٍ من مفرطي الثراء، بينما تئنّ ملايين المحرومين افتقارًا إلى أوَد العيش.

ولا تقتصر إنجازات الأب ديـپـول على المؤسّسات التي أنشأها، بل ما زال مثاله فاعلاً، في نفوسٍ كثيرةٍ، انتزع من مستنقع حمأها شذرات ذهبٍ خالصٍ. ولطالما ألهم أبناءً للكنيسة، وما زال يلهم نفوسًا قد يتبرّأ بعضها من رداء الدين، ولكنّها لا تحجم عن التمثّل بالقدّيس ڤـنسان في مضمار العناية بالأطفال المرميّين، وعن تأسيس جمعيّات متطوّعين لغوث ضحايا الكوارث. وربّما يؤثر هؤلاء رفع

شعار التضامن عوضًا من شعار المحبّة. ومع ذلك لا يستطيعون إنكار تأثير مدرسة "ڤـــنسان دي پـــول" على أذهانهم وقلوبهم.

وما زالت المدن والقرى العديدة التي وعظ القدّيس ڤـــنسان على منابرها، وأرسى فيها أُسُس العطاء والتضامن، وأنشأ فيها أخويّات محبّةٍ، تفوح بشذا قداسته، ونَفَسُه يعطّر أجواءها، وسكّانها يفخرون بآثاره فيها، ويخلّدون ذكراه بكنائس وشوارع تحمل اسمه وتتبارك به. وما زالت روحانيّته فاعلةً في روح مسيحيّين كُثُرٍ، وفي أعماق كلّ مَن تقطنه المحبّة. وتكريمُه يتخطّى حدود وطنه إلى معظم أقطار المسكونة، ويسكن قلوب مؤمنين وغير مؤمنين.

وإن كان فيلم "السيّد ڤـــنسان"، الصادر عام ١٩٤٧، قد أخذ بألباب ألوف المشاهدين، فهل مَن يستطيع إنكار أنّ صيحة الأب پـــيير، مؤسّس عمّاوس، التي هزّت فرنسا عام ١٩٥٤، كانت صدًى لنداءات القدّيس ڤـــنسان، وأنّ الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة التي أذهلت العالم بأمثلة محبّتها، وملأت الكون بجيش راهباتها ومرسَليها المنقادين بروحها وقدوتها، كانت في أعماقها متأثّرةً بالقدّيس ڤـــنسان، الذي ورّث العالم صورةً خالدةً وفذّةً لمحبّةٍ مجّانيّةٍ لا حدود لها.

وما زال القدّيس ڤـــنسان ينجب أبطال محبّةٍ، في كلّ بقعةٍ من العالم ويستخرج تبرًا خالصًا من كلّ بؤرةٍ موحلةٍ.

وإلى جانب مؤسّسات المحبّة التي أنشأها أو ألهمها القدّيس ڤـــنسان، نشط أصدقاؤه في سبيل متابعة أعمال أخويّات المحبّة التي أنشأها في رعيّة "شاتيّون" عام ١٦١٧، وانضمّوا تحت تسمية "الاتّحاد الدوليّ للمؤسّسات الخيريّة". الذي بات يُعَدّ مؤسّسةً نسائيّةً غير حكوميّةٍ، تضمّ أكثر من مئتي ألف متطوّعةٍ يسعَينَ إلى "تنمية المسؤوليّة الاجتماعيّة المشتركة، ومساعدة الأشدّ حرمانًا على الاندماج في مجتمعهم، وتمكين النساء، ولا سيّما الفقيرات، من تولّي دورٍ اجتماعيٍّ، نشطٍ، وفاعلٍ، ومعترفٍ به".

وبالإجمال، طوّر القدّيس ڤـنسان فكر الإحسان الاجتماعيّ، وأيقظ، في الكنيسة، وفي مؤسّسات الدولة، وفي المجتمع عمومًا، وعيًا لهذا الواجب. وأسّس نظام معالجةٍ اجتماعيّةٍ يوحيها الروح، يقوم على مبادئ الرغبة في هذه المعالجة، وعلى اعتبارها واجبًا، لأنّ كلّ إنسانٍ ضعيفٍ يستحقّ أن يُعنى به، وأنّ الواجب الاجتماعيّ لا يرضى بوجود البؤس، بل يقتضي معالجةً منظّمةً له، لأنّ لا شيء مستحيلٌ حتّى في أدهى الكوارث.

وما انفكّت كتائب اللعازريّين واللعازريّات، المنصوريّين والمنصوريّات، تبتدع حلولاً لمواجهة الأشدّ عوزًا وتألّمًا. وما أعظم السعادة التي يتذوّقونها عندما تمتدّ إليهم، شاكرةً، أيدي من همى عليهم ندى غوثهم، وعزائهم ومواساتهم!

عملاق المحبّة

« ليست المحبّةُ مجرّدَ عطاءٍ...

بل هي أن يجرحَنا جرحُ الآخرين ».

"الأب پيير"

بفطرته أحبّ ڤنسان ديپول الفقراء أقرانه، فقد وُلِد فقيرًا، وتذوّق مرارة الفقر وحلاوته. وبصفته مسيحيًّا رأى الله في كلّ فقيرٍ، ووضع الفقير في أساس روحانيّته، وعدّ الفقراء أسيادًا ومعلّمين لأنّهم يمثّلون يسوع الفقير، وبقدر ما يتّحد المسيحيّ بفقرهم ويسعفه يتّحد بيسوع.

لقد أحبّ الله في البشر المتألّمين، منفّذًا وصيّة الله الأولى والأهمّ، وجوهر المسيحيّة. وتميّزت محبّته بإنسانيّتها، متغلّبةً على النزعة البشريّة الفطريّة إلى النأي عمّن لا شأن لهم، والغارقين في البؤس والإهمال، والذين يصعب إحاطتهم بعطفٍ تلقائيٍّ.

وقد امتلك الأب ڤنسان موهبة حبّ الوجه البشريّ الذي يزداد بهاءً بقدر ما يتوغّل في المعاناة. فكانت محبّته ترقيةً لشعورٍ فطريٍّ شديد الأَسْر. ولذلك كان جِرْسُ صوته، عندما كان يتحدّث عن فقراء الريف، وعن المتسوّلين، والمرضى، والأطفال المرميّين، ومنكوبي الحروب، يعبّر عن نبرة عطفٍ أموميٍّ، غريبةٍ عن ذلك العصر المهتدي بعقلٍ ديكارتيٍّ قاسٍ.

ولطالما دفعته المحبّة إلى مخاطراتٍ مخيفةٍ. بيد أنّ محبّته لم تكن عمياء. بل كانت بعيدة الآفاق، عميقة الرؤية، واستحقّت له لقب "رسول المحبّة". ومثلما كان قدّيسَ العمل وبطلَه، كان عملاقَ المحبّة وبطلَها وقدّيسَها. وبتأكيده أنّ الفقراء أسيادنا عنى أنّه كان يرى فيهم حضورًا روحيًّا، وقد قرن، في خدمته لهم، عنايته بأجسادهم بعنايته بنفوسهم. ومن جرّاء حرصه هذا على معالجة الإنسان بأكمله حمل همّ النفوس، ومنحها الخلاص، وغمرها بالنِعم. وبرهن عن اهتمامه الصادق بأبناء القرى المهملين، من خلال حرصه على تزويدهم بذهب كلام الله الخلاصيّ، إلى جانب مدّهم بالغوث المادّيّ. ولذلك أقام الرسالة في صدر اهتمامه، بدافع حرصه على أن ينعم الجميع بكنوز الإنجيل الخلاصيّة.

لقد أنفق حياته، مكبًّا على معالجة جميع أصناف البؤس الجسديّة والروحيّة، مبتكرًا لكلّ علّةٍ دواءً، ولكلّ بؤسٍ العلاج الملائم. فكان رائدًا في العناية بالأطفال المرميّين، وفي مواساة السجناء، والمحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، وفي تخفيف معاناتهم ما استطاع إلى تخفيفها سبيلاً؛ وفي غوث المناطق المنكوبة، والمهجّرين. ومهّد طريق كلّ متطوّعٍ لمدّ يد العون، في هذا المضمار، في جيله وفي الأجيال اللاحقة.

وعلّم أنّ المحبّة ليست مجرّد توزيع حسناتٍ، بل هي تعليم البائسين استعادة كرامتهم المسلوبة، والقبض على مقاليد مصيرهم بأيديهم.

وهو، مع انغماسه اليوميّ في مستنقعات البؤس، لم يعتَدْ، قطّ، رؤية أوجاع الآخرين، بلامبالاةٍ. وكانت كلّ مصيبةٍ تحلّ بأيّ إنسانٍ تستدرّ دموعه، وتدفعه دفعًا لا يُقاوَم، إلى معالجتها.

كان يجد الله في داخله، ويراه في نفس كلّ محتاجٍ ومتألّمٍ، حيث يقيم الله إقامةً مكتومةً، وغالبًا مجهولةً، لا تتبيّنها إلاّ القلوب المصغية إلى نداءات المحبّة. وقد أنفق الأب فـــنسان عمره كلّه خادمًا الله في القريب، ومساعدًا إيّاه على وعي وجود

الله فيه، منفّذًا تعاليم محبّة يسوع. كان يرى يسوع، بوضوحٍ، في الفقير، فأثبت أنّنا عندما نجد مشقّةً في التمثّل بيسوع الفقير ومحبّة الفقراء، فليس ذلك لأنّنا لا نحبّ الفقير حبًّا كافيًا، بل لأنّنا لا نحبّ الله الحبّ الوافي.

انعطاف الأب ڤـــنسان على تخفيف آلام المحكومين بالأعمال الشاقّة، آلامٍ لم يكن حتّى الجنرال "دي غوندي" المسؤول عن البحريّة الملكيّة والسجون ملمًّا بها، قد أيقظ ضمائر الكثيرين على هذه المظالم وأمثالها، وشحذ فيها الشعور بواجبها الإنسانيّ والمسيحيّ، وأطلق أعمال محبّةٍ باهرةً بحجمها وسرعة تنفيذها ونموّها. وربّما لم تكن قسوة عصره ناجمةً عن ضمور الشعور الإنسانيّ ولامبالاته، بقدر ما كانت ناجمةً عن عمًى أخلاقيٍّ، وجهلٍ للمظالم التي تُرتكَب في كلّ ساعةٍ، بمنأًى عن عين الرقيب والحسيب، وعن مقتضيات الضمائر. بيد أنّ هذا السبات الأخلاقيّ لم يكن مؤهّلاً لإيقاظه سوى قدّيسٍ حقٍّ، صاغه روح الإنجيل، وقدرات عطف المخلّص اللامحدودة. وكان هذا القدّيس هو الأب ڤـــنسان ديـــپـــول الذي وصفته السيّدة دي غوندي بأنّه "ملاكٌ من السماء"، والذي أثبت بكلّ أقواله وأفعاله أنّه، بلا منازعٍ، عملاق المحبّة، وأنّ المجتمع، بمعزلٍ عن المحبّة الفاعلة يتحطّم وينهار تحت وقر المصالح الخاصّة، والأنانيّات والمطامح والكبرياء.

كان أسقفٌ فرنسيٌّ قد قال عنه إنّه وُلِد من أجل إنجاز خيرٍ عظيمٍ، ومن أجل درء شرورٍ جسيمةٍ. وهو بيّن للعالم أجمع فداحة احتكار الخيرات المعطاة لخير الجميع، من قِبَل أفرادٍ جشعين. وما كان يعدّه آخرون إحسانًا، رأى هو فيه عدلاً وواجبًا. وصارح الحكّام أنّهم لم يُوَلّوا الحكم لكي يغتنوا ويُغنوا ذويهم وأقرباءهم، بل من أجل إجراء الحقّ والمساواة، وإعداد مستقبلٍ مشرقٍ للرعيّة، وللعناية بالأمّهات، والأطفال، والمرضى، والفقراء، والمسنّين. ولم يكفّ عن تأكيد أنّ كلّ إنسانٍ مسؤولٌ ليس فقط عمّا يقترفه من شرٍّ، بل أيضًا، عن الشرّ الذي يشهده، ويسكت عنه، وعن الخير الذي يحجم عن فعله، وأنّ لا أحد يستطيع غسل يديه من مسؤوليّة البؤس العامّ.

شعار الأب ڤــنسان كان: "صلِّ واعملْ!"، وقد تبنّت هذا الشعار جميع المؤسّسات التي ألهما روح ڤــنسان ديــپــول.

ومحبّته كانت مبنيّةً على تبنّي هموم الآخر، ومنحه المودّة والرقّة، وهي علامات الروح القدس المدوّنة في قلب كلّ إنسانٍ. والمحبّة له كنــزٌ، لأنّها نابعةٌ من المخلّص، الذي، أثناء عبوره على أرضنا، كان للفقراء معينًا، وللصغار نصيرًا؛

وكان الأب ڤــنسان رائدًا في جعل عمل المحبّة جماعيًّا، وكان راسخ اليقين بأنّ الإخاء والعطف على الجميع، ولا سيّما على الأكثر هشاشةً، إنّما هما عطيّةٌ إلهيّةٌ تفرض علينا ألاّ نحيا من أجل ذواتنا، بل من أجل مَن تأنّس الله، وتواضع، وصُلِب، وقام من أجلهم؛

ولكي لا ينضب نبع المحبّة الذي فجّره، استنفر الأب ڤــنسان، من حوله، جيشًا من مرسَلين تجيش نفوسهم بروح التضحية والخدمة والبذل، وكتائب غفيرةً من السيّدات المندفعات، بعطفهنّ الأموميّ، إلى مواساة كلّ بؤسٍ، وتخفيف كلّ عبءٍ، وتضميد كلّ جرحٍ.

وهل مَن يستأهل لقب "عملاق المحبّة"، أكثر ممّن آمن وعلّم أنّ كلّ إنسانٍ بائسٍ يستدعي اهتمام الآخرين به، وأنّ أدهى الكوارث يمكن معالجتها بتوافق الإرادات، وتكاتف الجهود وتنظيمها؛

– وممّن أنشأ وألهم أروع مشاريع المحبّة، التي غمرت العالم أجمع بثمارها العذبة؛

– وممّن شملت مبادرات عطفه جميع مطارح البؤس،

– وممّن صوّره الرسّامون، تارةً حاملاً طفلاً لاطيًا على صدره، وممسكًا بيد طفلٍ آخر، متشبّثٍ بثوبه؛ وتارةً أُخرى يقبّل أغلال سجينٍ محكومٍ بالأشغال الشاقّة؛ أو منحنيًا على عليلٍ في مستشفًى؛ وداعيًا، في كلّ ظرفٍ ومكانٍ، إلى العطف والتعالي عن الأنانيّات، مفجّرًا ينابيع السخاء؛

ومن كان:

– لاهوتيّ الفقر، ومرشد ضمائر الملوك والحكّام، وموقظًا الناس أجمعين على بؤس المحرومين والمظلومين.

– مؤسّسًا عبقريًّا، لا يخمد له نشاطٌ، ولا تحدّ عمله سوى حدود الطاقة البشريّة؛

– ومن كان يتأنّى في الإعداد لمشاريعه، ويحكم تنظيمها، ويُعدّ لها عوامل الاستمرار، ويقيمها على أُسسٍ روحيّةٍ وإنسانيّةٍ وطيدةٍ، وعلى حنكةٍ تنظيميّةٍ فائقةٍ، تؤهّلها لتخطّي العقبات التي قد تنهض في طريقها.

– مَن لم يكن يقيس العمل بنتائجه، فحسب، بل أيضًا، وخاصّةً، بمقدار الحبّ الذي يواكبه، ولا يقيم وزنًا إلاّ لتنفيذ مشيئة الله.

– من لم يكن يميّز بين مهامّ كبيرةٍ ومهامّ صغيرةٍ، فالجوهريّ عنده يتخطّى القياسات المعهودة.

– من تحلّى، في سبيل تحقيق مشاريع محبّته، بسلطةٍ متواضعةٍ، وبكاريسما تجتذب مودّة وتعاون الآخرين، وبحرصٍ على الوقت الذي لا يهدره في التنظير، بل يتبيّن، تلقائيًّا، مساقط الخلَل والفشل، بفضل نظرةٍ ثاقبةٍ واقعيّةٍ؛

– من لقّن مرسَليه وراهباته البذلَ بفرحٍ، لأنّ مَن يلقى مشقّةً في التمثّل بيسوع، لم يصِلْ، بعد، إلى حبّه حبًّا حقًّا مقدّسًا.

أجل، من أجل كلّ هذه الأسباب، مجتمعةً...

كان ڤـنسان ديـپـول "عملاق المحبّة".

رجلُ المفارقَات

وكان الأب ڤـــنسان "عملاق المحبّة" لأنّه كان "رجل المفارقات".

كتب "أندريه فروسّار": "إن لم يكن التاريخ هو ضجيج الأحداث السياسيّة والمدنيّة، وهياجَها، وإن كان لتاريخ النفوس من الشأن أكثر ممّا لكتاب طلاسم الدم والدموع، حيث لا تني إمبراطوريّاتٌ تدوّن وتمحو نسخة مخاطرة بابل، فحينئذٍ، يمكن اعتبار القرن السابع عشر هو قرن الأب "ڤـــنسان دي پـــول". وقد سمّي ذلك القرن "القرن العظيم"، مع أنّه حفل بالاضطرابات والحروب والمآسي، لأنّه كان قرن عباقرة الأدب والمسرح والفلسفة... وقرن "ڤـــنسان دي پـــول".

وكان الكاتب البريطانيّ "تْشِسْترْتُنْ"، قد قال: "من المفارقات أنّ كلّ جيلٍ يتبنّى القدّيس الذي يعارضه معارضةً كلّيّةً". فالقرن الثالث عشر، قرن التجّار والصناعيّين، وجد مرسَله الأوحد في ما كان يمقته أشدّ مقتٍ: "الشحّاذ الإيطالي، القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ. وعلى مشارف الحرب العالميّة الأولى حظيت بأوسع شعبيّةٍ الراهبة الشابّة المرتبطة، طوعًا، بنذور الطاعة، والعفّة، والفقر، تيريز الصغيرة، من ليزيو، التي ناقضت كلّ طموحات جيلها وتطلّعاته.

وقد خالف الأب ديـــپـــول ميول عصره إلى أن شرع عصره يتبنّى بعض مُثُله. وقلّما ظفر إنسانٌ، بعد موته، بمثل ما ظفر به "ڤـــنسان دي پـــول" من اعتراف مواطنيه بجميله، ومع تباينهم عنه في عاداتهم، وأهوائهم، وميولهم الهجينة، وادّعاءاتهم الباطلة. فعصره كان يقدّس القسوة والسطوة، وهو توغّل في ممارسة الوداعة والرقّة حتّى أصبحت له طبعًا وأسلوب حياةٍ. ومعاصروه كانوا ضنينين بتألّق صورهم في عيون الآخرين، في حين ارتضى الأب ڤـــنسان تهمة السرقة من

قاضٍ متسرّع الحكم، حفاظًا على سمعة الشابّ الذي ارتكب السرقة. وكان ديدن معاصريه السعي المحموم إلى الأمجاد، في ساحات الوغى، وفي الصالونات الاجتماعيّة والأدبيّة، وفي البلاط، وعلى المسارح، وحتّى على منابر الوعظ. وكان المجد للأدباء هو أقصى ما يتطلّعون إليه، بل كان الشمس التي بها يستدفئون، والشراب الذي به ينتشون، والسماء التي بها يتلحّفون. وبالمقابل كان الأب ڤـنسان يمارس تواضعًا صادقًا سحيقًا، أدّى أروع دليلٍ عليه، لّما دعته الملكة إلى تكذيب تُهَمٍ أُلصقت به افتئاتًا، فاكتفى بالقول: "يا سيّدتي، أنا خاطئٌ كبيرٌ". ولّما أصرّت الملكة على أن يدافع عن نفسه، قال لها: "قيلت أشياءُ كثيرةٌ أُخرى عن ربّنا يسوع المسيح، ولكنّه لم يسعَ، يومًا، إلى تبرير نفسه". وكان تواضعه مبنيًّا على تأمّله في تنازل الله الطوعيّ إلى دركات البشريّة الدنيا، وفي ارتضائه التجسّد ومخاطره. وقد وضع الأب ڤـنسان نفسه تحت الأرض لأنّ يسوع وطئها بقدميه.

ريشليو بنى دولة فرنسا على البذخ والسطوة، وڤـنسان أدخل الفقير في صميم النفس الفرنسيّة، والنفس البشريّة، وجعلهما أكثر استجابةً لنداء العدل، رغم استغراقهما المطمئنّ في أحضان الرفاه. وولّد في أعماق كلّ أُنثى أصيلةٍ سيّدةَ محبّةٍ، أو بنتَ محبّةٍ، وولّد مرسَلاً في قلب كلّ فتًى ورجلٍ، حتّى لدى من لا يكدحون إلاّ في سبيل مصالحهم وعيشهم. وجعل من الروح البشريّ مزيجًا من فرح حياةٍ، وصوفيّةٍ صارمةٍ، وحكمةٍ حذرةٍ، والتزامٍ جريءٍ.

وُصف قرنُه بالعظيم. ولكن أين العظمة في الحماقة والشراسة المدجّجتيْن بالسلاح، المتنكّرتَيْن للعدل والرحمة، وفي أشجارٍ تحوّلت مشانق، وفي بيوتٍ تفحّمت، وزراعاتٍ أُتلفت، وفي المجاعة والأوبئة التي لفّت بكفَنِها الناجين من الهلاك بعد مرور العسكر والمرتزقة!

أين العظمة لو لم تومض شعلة رجاءٍ، ولو لم تسرِ رعشة رأفةٍ، لّما انبرى الأب ڤـنسان وجيش محبّته يعالجون المرضى، ويضمّدون الجراح، ويطعمون الجياع،

ويؤوون المشرّدين والمهجّرين، وينقذون الأطفال المرميّين والميتّمين، ويعيدون استثمار الحقول التي بوِّرَت، ويُدخلون لمسة النعمة الإلهيّة إلى نفوسٍ هجرها النبل الإنسانيّ.

هذا الإبحار بعكس التيّار الجارف كان عاملاً أساسيًّا في تحويل راعٍ أُمّيٍّ إلى مستشارٍ للملوك والحكّام، وفي جعل مَن نهج درب الكهنوت طمعًا في ترقٍّ اجتماعيٍّ، من ألمع وجوه التجدّد الكاثوليكيّ، في كلّ زمنٍ، وفي جعل ابن فلاّحٍ فقيرٍ يوزّع على المحتاجين أكثر ممّا حوته خزينة بنك فرنسا من أموالٍ، ويضحي أبًا وملاذًا للفقراء والأطفال واللقطاء واليتامى، والمرضى والعاجزين، والمحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، ومنقذًا للمنكوبين، ومخلّصًا من الموت المحتّم جياعًا وضحايا الحروب والكوارث.

وكيف لا يكون رجل مفارقاتٍ، من كانت حياته اقتفاءً أمينًا لخطى الربّ على أرضنا، وأروع تنفيذٍ لعظة الجبل، التي أحدثت أخطر ثورةٍ في الحضارة الإنسانيّة، وفي مبادئ السلوك الأخلاقيّ، وناقضت تعاليم مَن سبقوه، ومن تلوه من فلاسفةٍ، وحكماء، وزعماء رأيٍ، ومنظّرين، ودعاة مذاهب.

فهؤلاء بنوا سعادة الإنسان على الأنانيّة، والسعي إلى الثروة، والملذّات الجسديّة، والقوّة، والتفوّق، والأمجاد، وعدّوا كلّ انحناءة عطفٍ على فقيرٍ أو مهملٍ، انحطاطاً، فادّعى "ماركُسْ أُريليوس"، أنّ البكاء مع الباكين ضعفٌ، وزعم "شيشرون" أنّ العطف حزنٌ وبيلٌ، ورأى فيه "سينيكا" زلّةً عاطفيّةً، ورفع "ڤـــرجيل" شعار اللامبالاة: "لا عطف على فقيرٍ، ولا حسدَ لغنيٍّ"، أمّا "نيتشه" فدعا إلى إبادة الضعفاء حرصًا على سلامة المجتمع.

وخالف يسوع كلّ هؤلاء، وأضرابهم، وكلّ الذين ألّهوا القوّة، والثروة، والمتعة، واستنكروا إحاطة الصغار والمحرومين والمظلومين ببادرة عطفٍ، وأعلن أنّ السعادة الحقّة هي إسعاد المحرومين منها، وأهاب بتلاميذه وأتباعه أن يروه في كلّ فقيرٍ فيغيثوه، وفي كلّ جائعٍ فيُطعموه، وفي كلّ عطشانٍ فيرووا ظمأه، وفي كلّ عارٍ

فيكسوه، وفي كلّ مشرّدٍ فيؤووه، وفي كلّ مريضٍ فيعالجوه، وفي كلّ مظلومٍ فيرفعوا عنه الضيم، وفي كلّ مُذَلٍّ فيعيدوا إليه كرامته، وفي كلّ أسيرٍ فيفتحوا له أبواب الحرّيّة، ولو كلّفهم ذلك مالهم، وصحَّتهم، وراحتهم. وعلّمهم أن ترتعش أحشاؤهم تعاطفًا مع كلّ بائسٍ، فتجرحهم جراح المكلومين، وينحنوا على إسالة العزاء والفرح في قلوب ضحايا الحرمان والظلم، متحرّرين من شهوة المال، وأَسْر المتاع الزائل، وأن ينبذوا كلّ عداوةٍ وروح انتقامٍ، ويحيطوا الناس أجمعين، حتّى الأعداء، بحبٍّ خالصٍ، ويبادلوا العداوة بالمودّة، والشرّ بالخير، والبغضاء بالعطف، رافعين، في كلّ ظرفٍ لواء المحبّة والتضحية.

لطالما أخذ "غاندي" على معظم المسيحيّين إحجامهم عن السلوك وفق تعاليم عظة الجبل، التي جعلته يعشق الناصريّ الذي علّم ألاّ تعايشَ بين المحبّة والانتقام والكبرياء. فعندما يُعاشُ تعليم يسوع، على أرض الواقع، يصبح هذا الواقع إبداعًا يتعذّر وصفه، ولا يمكن تلقينه بالخطابة، ولا تبليغه إلاّ من فمٍ لفمٍ، ومن قلبٍ لقلبٍ.

وهذا ما فعله رجل المفارقات: ڤــنسان ديــپــول.

مِدْخَر القدّيس ڤنسان دي پول

ڤنـَان القدّيـس

إنّ كلّ ما عمله وعلّمه الأب ڤـنسان نابعٌ من روحانيّةٍ واضحةٍ، بسيطةٍ، سهلة القراءة، لا تدهشنا بقدر ما تدفعنا إلى العمل بموجبها، ويمكن تلخيصها في أنّنا، نحن البشر، لا شيء، وأنّ الله هو كلّ شيءٍ. نحن عمّالٌ مياومون عند الله، وفي هذه المهمّة يكمن كرامتنا وشرفنا. وواجب العامل أن يقف كلّ وقته وطاقته على أداء عمله حسب رغبة سيّده، لكي يؤتي عملُه أوفرَ الثمار. وتحقيق ذلك يستلزم استسلامًا تامًّا لمشيئة الله، وثقةً مطلقةً بأنّه سيبارك أعمالنا، بقدر ما نتمّم مشيئته، ويستلزم، أيضًا، تحرّرًا من كلّ قيدٍ، جسدًا حرًّا، وفكرًا حرًّا، وقلبًا حرًّا. والخطوة الأولى نحو هذا التحرّر هو الزهد بالدنيا، وبتر كلّ ارتباطٍ لنا بمتاع الأرض، والتضحية بكلّ قرارٍ شخصيٍّ غير ملهمٍ من الله، الذي يعيّن لنا مهامّنا.

وكان الأب ڤـنسان، في الأشهر القليلة التي سبقت وفاته، قد عرّف القداسة بأنّها "الانسلاخ عن متاع الدنيا، حبًّا بالله، واتّحادٌ بمشيئته الإلهيّة... وهل هناك ما يفكّ ارتباطنا بالدنيا، ويربطنا بالسماء، مثل التعاليم الإنجيليّة؟ إذن، القول بأنّ شخصًا ينفّذ التعاليم الإنجيليّة، يعني أنّه مقيمٌ في القداسة.

وقد التزم الأب ڤـنسان بهذه المبادئ الأساسيّة، وانتهج الصلاة، والاتّحاد الوثيق بالله، والتمثّل بمسيرة المخلّص على الأرض، وتنفيذ تعاليمه على أرض الواقع، مؤمنًا أنّ الصلاة والإيمان لا يُثبتان صدقهما، ولا يؤتيان ثمارًا خلاصيّةً، إلاّ إذا تُرجِما أفعالاً. وقد ارتقى به هذا الالتزام إلى ذرى القداسة.

كان قدّيسًا لأنّ مرجعه ونبراسه كانا الاقتداء بحياة يسوع على الأرض، والتوافق الدائم مع مشيئته، فكانت حياته إنجيلاً حيًّا. ولأنّه فتح أشرعته للروح القدس، مستسلمًا لقيادته حيثما يشاء.

وإن كان لكلّ قدّيسٍ مسيرته التي لا تشبه مسيرة أيّ قدّيسٍ آخر، فقداسة

الأب ڤــنسان لم تتحقّق وفق منهجٍ ثابتٍ، محدّد الخطوات والمراحل، بل كانت ثمرة حياةٍ حافلةٍ بالتعرّجات، وتتويجًا لمسيرةٍ بطوليّةٍ قوامها الإمعان في التصعيد والتضحية، ونشدان الله، والسعي الدؤوب الموجع نحو الكمال، وتوثيق الاتّحاد بالله. لقد صاغ هالة قداسته بجهادٍ حثيثٍ، وشاقٍّ، ولم يبلغ القداسة إلاّ بثمن دماءٍ، وأوجاعٍ، وتضحياتٍ جمّةٍ، جعلت حياته صراعًا دائمًا مع الجميع، ومع ذاته.

فالقداسة لم تكن هدفه ومحرّكه في شبابه، ولم يكن الكهنوت الذي جهد في نيل نعمته، في سنٍّ مبكّرةٍ، طريقًا اختاره دربًا إلى القداسة، بل كان وسيلةً إلى ترقٍّ اجتماعيٍّ ينشله هو وذويه من براثن الفقر. وقد اقتاده هذا التوجّه إلى مغامراتٍ شديدة البعد عن هيكل الربّ.

لم يكن قدّيسًا منذ مولده، ولكنّه بقي نقيًّا، سخيّ القلب، رقيقه، وكان ينعم بقدرٍ وافٍ من سموّ الفكر يتيح له التحليق عاليًا في الأجواء الصوفيّة، فوق ادّعاءات عصره ورذائله. وكان يملك من سموّ النفس والدماثة ما جعله صنوًا لكلّ إنسانٍ، وبنوعٍ خاصٍّ، لكلّ متألّمٍ.

ربّما تلكّأ الأب ڤــنسان في اكتشاف دعوته الحقيقيّة، ولكنّه برهن على أنّ موعد انتهاج المرء الدرب المدعوّ إلى سلوكه ليس أبدًا متأخّرًا. فهو لم يسلك دروب القداسة منذ صباه، ولم يهتدِ، في سنٍّ مبكّرةٍ إلى أسلوب توجيه وجوده الوجهة المطلوبة منه. ولكنّه، مذ وعى دعوته انبرى لها، بكلّيّته، بروحانيّةٍ عميقةٍ، وبقناعةٍ لا تهتزّ، ولم يحِدْ عنها قيدَ شعرةٍ. ومكّنه وفاؤه الأمين والدائم لإيحاءات العناية الإلهيّة من الإمساك، في الوقت المناسب، بالإرشادات الموحاة إليه ومن تنفيذها.

ومنذئذٍ، انتهج مسيرةً روحيّةً كثيفةً، وانطلق في رحابها، محدّقًا إلى سيرة يسوع التي قرنت البساطة والتواضع بالسموّ والإعجاز. ومنذ الوهلة الأولى تبيّن أنّ خدمة الفقراء هي التعبير الأصدق عن محبّة الله، ولم يكفّ عن تذكير رفاقه: "فلنحبّ الله، وليكن هذا الحبّ على حساب ذراعينا وعرق جباهنا!" وقد جمع، في حبٍّ واحدٍ، عبادة الله في القربان، وخدمته في فقرائه، وألقى نظرةً واحدةً على البشر أجمعين، أيًّا

كان مركزهم، مساويًا الملك والأمير بالفقير والشحّاذ، وفي كلٍّ منهم كرّم الربّ، وهو راسخ القناعة بأنّ لا شيء يساوي نفسًا، أيًّا كان الهيكل الذي تقطنه.

وفي صمتٍ وتؤدةٍ وجّهته العناية الإلهيّة نحو الدروب التي أوصلته إلى ذرى الكمال. وكان تدبيرَ العناية الإلهيّة الأوّل التقاؤه الأب "بيرول" (Bérulle) – الكردينال العتيد – الذي تميّز، في تلك الحقبة، بتصوّفه، وبمؤلّفاته اللاهوتيّة الراقية، فتأثّر بروحانيّته، ولكنّه لم يجد فيها دربه، لأنّه كان أشدّ ميلاً إلى العمل في حقل الربّ من التوغّل في التأمّلات الصوفيّة، ولأنّ "بيرول" كان يحبّ الله في الله، وهو، ڤـــنسان، كان يحبّ الله في البشر.

غير أنّ حدْسَ الأب "بيرول" الذي استشعر في الأب ڤـــنسان طاقاتٍ جبّارةً كامنةً، قد ساعده على اكتشاف دربه، فعمل، بدءًا، على تعيينه خادمًا لرعيّة "كليشي"، ففتحت هذه المهمّة ذهنه على حقيقة الخدمة الكهنوتيّة؛ وبعدئذٍ أسهم في تعيينه خادمًا لرعيّة "شاتيّون"، حيث اكتشف، على أرض الواقع، طبيعة رسالة خدمة الفقراء. وبين هاتَيْن المهمّتين، كان للأب "بيرول" يدٌ في تكليفه بتقديم الإرشاد الروحيّ للجنرال "دي غوندي" وزوجته، وبتربية أبنائهما. وبما أنّ تلك الأُسرة كانت تمتلك العديد من القرى، والأراضي الزراعيّة الشاسعة، وكانت السيّدة "دي غوندي" تقضي قسطًا كبيرًا من السنة في تلك الممتلكات الريفيّة، فقد تسنّى للأب ڤـــنسان أن يروز حجم البؤس المادّيّ والروحيّ الذي يعانيه سكّان الريف، ورداءة الخدمة الروحيّة التي يسديها لهم كهنةٌ مرتزقةٌ يفتقرون إلى العلم والكرامة والأخلاق. ومن ثمّ استطاع الأب ڤـــنسان تقدير رحابة الرسالة المقتضاة، من أجل تقويم هذا الوضع المأساويّ. وقرّر التصدّي لهذه المهمّة، وقدّم له الجنرال وزوجته في سبيل تحقيق هذه الرسالة خير دعمٍ، وأسخى مساعدةٍ وأكرمها.

ربّما ابتغى الأب "بيرول"، عندما كلّفه برعاية أُسرة "دي غوندي"، وبخدمة رعيّتي "كليشي" و"شاتيّون"، امتحان مواهبه، وإيقاظه على دعوته الكهنوتيّة،

ولكن لم يخطر بباله، حينذاك، أنّه كان يعدّ جنديًّا لقيادة جيشٍ من المرسَلين، ومن خدّام إخوة يسوع الأثيرين، الصغار والمتألّمين، والمحرومين.

وهيّأت العناية الإلهيّة للأب ڤـــنسان لقاءً آخر حاسمًا مع قدّيسٍ معاصرٍ له، وقمّةٍ من قمم الروح الشامخات، المتمثّل في أسقف جنيـــڤ "فرانسوا الساليزيّ"، وكان الأب ڤـــنسان قد أُعجب بمؤلّفاته، واستغرق في تمعّنها، وأحبّ مؤلّفها، مذ التقاه، وتبعه بفرحٍ غامرٍ، وتتلمذ على يديه، بلا تحفّظٍ، وارتقى معه معارج الصوفيّة، ولكنّ تواضعه بيّن له أنّه غير مدعوٍّ إلى المكوث على تلك القمم. بيد أنّه كان قد عثر، في فكر الساليزيّ، على ما لبّى تطلّعاته، وعلى ما يمكن وصفه بالاندفاع المحسوب، وبالعقليّ الذي يفوق العقل، وبالبشريّ في الإلهيّ. ودفعه الساليزيّ على التوغّل في هذا الدرب، عندما عيّنه رئيسًا على فروع راهبات الزيارة في باريس. تلك الجمعيّة التي أسّسها الساليزيّ والتي كانت أغلى إنجازاته على قلبه.

كانت، إذن، خدمة الأب ڤـــنسان في رعيّتَي "كليشي" و"شاتيّون"، قد فتحت ذهنه على رسالة الخدمة الكهنوتيّة، وعلى رسالة خدمة الفقراء، ثمّ قذف به عمله لدى أُسرة "دي غوندي" في خضمّ مكافحة البؤس المادّيّ والروحيّ. ثمّ أدخلته علاقته الوجيزة والخصبة بالساليزيّ، في عالم الروح من بابه الواسع. وهو بجمعه بين هاتين الساحتين ابتدع مشاريع خدمةٍ مشبعةٍ محبّةً، تقرن بين معالجة الأجساد الوجيعة، وخدمة النفوس المهملة، وأسّس عقليّةً جديدةً يحرّكها فهمٌ مثاليٌّ للأخلاق المسيحيّة. وكان قد توطّد لديه اليقين بأنّ كلّ مسيحيٍّ هو رسول الإنجيل، فعليه أن يكون جديرًا بتبليغ نقاء رسالة الإنجيل، لكي لا يُحكمَ على الإنجيل من خلال رسُلٍ سيّئين. ولهذه الغاية وطّن العزم على إنشاء جيلٍ جديدٍ لائقٍ من الكهنة المخلصين لدعوتهم، والمُعَدّين لها، فضيلةً، وسلوكًا، وثقافةً دينيّةً.

وعى عظمة دعوته الكهنوتيّة، فاحتلّ الكهنوت مساحةً واسعةً من روحانيّته، وغدا من العوامل الأساسيّة في صوغ قداسته. وقد آمن أنّ لا كاهنَ إلاّ يسوع،

الوسيط الوحيد، والمخلّص الوحيد. وما خدّام كنيسته المكرَّسون سوى شركاء ليسوع في كهنوته، وأدواتٍ يستخدمها لإتمام عمله الخلاصيّ بأقوالهم وأفعالهم، ومنحِ أسراره الخلاصيّة. فعليهم، إذن، التشبّع بروحه، والتماهي به، والالتزام بقدوته، والتحلّي بأخلاقه وفضائله. وأكبّ، هو، على تحقيق هذا الهدف، ثمّ على تثقيف كهنةٍ على تمثيله بين إخوته. وقلّما توصّل مؤلّفون روحيّون إلى تعليمٍ يساوي تعليمه سموًّا وفاعليّةً، في ما يتعلّق بصورة الكاهن، وأساليب رسالته.

وآثر الأب ڤـــنسان خدمة الربّ في أحبّائه الفقراء والمعوزين والمرضى والمهمّشين، ووقف جوهر رسالته على اقتيادهم إلى أحضان حبّ يسوع، وإحلال يسوع في قلوبهم. وبتواضعٍ استوحى قول يسوع للمتعبين والمتألّمين، وناشدهم: "ها أنا آتٍ، يا متعبون، كي أريحكم، فلا تخافوا. فأنا وديعٌ ومتواضع القلب. أنا فقيرٌ مثلكم، وأنا شحّاذٌ من أجلكم".

فـــڤـــنسان ديـــپـــول، الذي وُلد في أحضان الفقر، قضى حياته، مثل مستأجرٍ في ديارٍ غريبةٍ. لم يأخذ لنفسه شيئًا، وأعطى كلّ ما حصل عليه. وهو، مذ تبيّن دعوته، لم يطمح لأيّ امتلاكٍ له أو لذويه، ونظير القدّيسين، لم يكن له جيبٌ ولا خزنةٌ.

وناشد مرسَليه وراهباته أن يسلكوا مثل سلوكه، مردّدًا: "يحقّ لكم أن تعيشوا وتلبسوا، وتأكلوا، وكلّ ما سوى ذلك هو ملك الفقراء". لقد علّمهم انتباذ العيش من أجل الذات، فلا عيلة لهم سوى المتألّمين، ولا فرح لهم إلاّ مواساة أحزان المحرومين، وتخفيف أعباء المرهقين، ولا راحة لهم إلاّ في إسعاد القانطين.

بفطرته أحبّ ڤـــنسان الفقراء، وبصفته مسيحيًّا، رأى الله في كلّ فقيرٍ، ووضع الفقير في صلب روحانيّته، وفي أساس سعيه إلى القداسة. فعدّ الفقراء أسيادًا ومعلّمين، لأنّهم يمثّلون يسوع الفقير، ولأنّ المسيحيّ يتّحد بفقر يسوع، وبيسوع نفسهِ، بقدر اتّحاده بفقرهم.

وعلّمته التجربة أنّ الفقير يضرم، حيثما يمرّ، نارًا لا تنطفئ، ويشدّ عزيمة الراغبين في تكريس ذواتهم لخدمة الفقراء، وفي تقديس خبز الجائعين. وكان الفقراء، دائمًا هم عيلته الكبرى، عيلةً لم تقتصر على المحتاجين إلى طعامٍ أو مسكنٍ، بل كانت كلّ آهة ألمٍ تمزّق قلبه، وكلّ دمعة حزنٍ تحرقه، وكلّ انتهاكٍ لكرامة إنسانٍ يوجعه ويستفزّه، فهبّ لتخفيف معاناة المحكومين بأشغالٍ شاقّةٍ في سجونهم المريعة، وفي قيودهم المذلّة، وفي تجذيفهم المنهك؛ وأضفى على معالجة المرضى في المستشفيات لمسةً إنسانيّةً. وانتشل من الموت والاستغلال أطفالاً أبرياءَ مرميّين، وأوكلهم إلى أُمّهاتٍ عطوفاتٍ. وأوجد للمسنّين واحاتٍ تقيهم الإهمال والوحدة والإذلال والسأم واليأس، وأتاح لهم تذوّق طعم الكرامة والتضامن حتّى النفَس الأخير؛ وانتشل منكوبي الحروب من كوارثهم، وأتاح لهم استئناف حياةٍ كريمةٍ.

ولكلّ ذلك سُمّي "قدّيس الفقراء".

وما انفكّ همّ أُمِّه الكنيسة يؤرّقه، ولا سيّما بعد أن شخّص عللها، وتبيّن أنّ تراخي الإيمان، ونأي العامّة والنخبة عن الله وتعاليم الإنجيل ناجمٌ، في المقام الأوّل، من فساد الإكليرُس. فكهنة الريف يفتقرون حتّى إلى فهم الدين المسيحيّ، وإلى مقوّمات العيش، وإلى الكرامة، وهم أشبه بمرتزقةٍ ينفّرون الرعيّة من الكنيسة؛ ومعظم كهنة المدن يسعون سعيًا محمومًا خلف المغانم المادّيّة، والمناصب التي تدرّ دخلاً مادّيًّا مجزيًا ينفقونه على متعٍ بهيميّةٍ مخزيةٍ، ويصرفهم عن مهمّتهم المقدّسة الأساسيّة. والمناصب الكنسيّة العليا تباع في سوق المزادات والمحسوبيّات، والإقطاعات، أو توقَف على حفنةٍ من الأُسر الكبرى والنافذة، وتُتوارث توارثًا معيبًا قد يوصل أطفالاً، أو ملحدين، أو ماجنين إلى سدّة الأُسقفيّة.

هذا ما دفع الأب "أولييه" (Olier) مؤسّس إكليريكيّة وجمعيّة "سان سولـــپـــيس" إلى مناشدته بحرقةٍ: "أين هو الرجل الذي سيحرّرنا؟ هذا ما تطلبه منك، أيّها الأب، الكنيسة والفئة السفلى من الإكليرُس، وهذا ما أطلبه أنا منك،

بيدين مضمومتين، أنا الذي يشرّفه أن يكون من هذا الإكليرُس. هذا ما أنتظره من شخصك: إنعاش الكنيسة، وحرّيّة الكهنة، ومجد الله الأعظم!".

ولم يقتصر الأب ڤـــنسان على تثقيف مرسَليه ورفاقه في الجمعيّة وبثّهم روحه الكهنوتيّ، بل أنفق جهودًا مضنيةً، وأموالاً طائلةً على إنشاء إكليريكيّاتٍ ومراكز لإعداد المرشّحين للكهنوت. ونظّم رياضاتٍ روحيّةً للمقدِمين على السيامة الكهنوتيّة في مقرّ القدّيس لعازر. ومن أجل إعداد قيادةٍ كنسيّةٍ حكيمةٍ، تتمتّع بالكفاءة والنصاعة، أنشأ ملتقى الثلاثاء الذي جمع ألمع لاهوتيّي ذلك العصر، فتبادلوا الآراء والخبرات والمشاريع، ومنهم انتُقيت باقةٌ من الأساقفة المتميّزين، الذين كانوا منارة الإصلاح الكاثوليكيّ.

وبغيةَ تعميم تجربته في خدمة الكنيسة، وإفادة أوسع الفئات منها، كوّن "نواةً صلبةً" من الكهنة المعاونين، اتّخذ من مقرّ القدّيس لعازر مشتَلاً لهم، وزوّدهم بمبادئه وروحانيّته وأحاديثه، ورسائله، وبقدوة سلوكه قبل إطلاقهم إلى الأرياف الفرنسيّة، ثمّ إلى رسالاتٍ خطيرةٍ، في أرجاء المسكونة كافّةً.

وإكمالاً لقاعدته وتمتينًا لها، دعم جمعيّة الرسالة، بجمعيّة "بنات المحبّة" من أجل غوث من أودت بهم ظروفٌ قاهرةٌ إلى وهاد البؤس والحرمان، والجهل، والمرض، والضياع الروحيّ والأخلاقيّ.

ومن أجل حمل رسالة الخلاص إلى جميع زوايا الريف الفرنسيّ وإلى الآفاق البعيدة، لم يتوانَ الأب ڤـــنسان عن استدرار سخاء الأغنياء، فسخّرهم، وسخّر دعم السلطات من أجل تخفيف آلام المحرومين، إيمانًا منه بأنّ هذا التخفيف هو السبيل الأمثل لتسريب رسالة المخلّص إلى نفوسهم.

وتقديرًا لهذه المبادرات، وتوخّيًا للانتفاع من تأثيره، واستقامته، وبعد نظره، دُعي الأب ڤـــنسان إلى المشاركة في عضويّة ما سمّي "مجلس الضمير"، بين عام ١٦٤٣ وعام ١٦٥٣، إلى جانب الملكة الأمّ: "آنّ النمساويّة"، والكردينال الوزير

ريشليو. فاستغلّ الأب هذه السانحة الثمينة من أجل تحرير مناصب الأسقفيّة، ورئاسات الأديرة، والأوقاف الكنسيّة، من التعيينات الفاسدة القائمة على المحسوبيّات، والتدخّلات السياسيّة، واحتكار الأُسَر الكبرى لها، وتوريثها وكأنّها ملْكٌ عائليٌّ، ولطالما حمى تلك المناصب من تعييناتٍ كارثيّةٍ. أمّا التي أخفق فيها، فكانت لإخفاقه عواقب وخيمةٌ. وما أكثر العداوات التي سبّبها له موقفه الحازم، في هذه المهمّة الدقيقة! وكان عدد الأعداء يتضخّم وتشتدّ العداوة سمًّا، بقدر رفعة المناصب، وكثرة الطامعين في نهبها. ولطالما أفقده رضى الحاكمين تنديده بالحروب التي كانوا يشنّونها مدفوعين بكبريائهم، ودفاعًا عن مناصبهم ومصالحهم الأنانيّة، فجرّوا على البلاد كوارث الدمار، وعلى الشعب مواكب البؤس والمآسي! غير أنّ الأب ڤـــنسان، بحزمه وجرأته أثبت أنّه خادم الربّ يسوع، قبل أن يكون خادم الملك والملكة والوزير، ولم يخَفْ من هزّ ضمائرهم بعنفٍ.

وقد أبرز لديه هذا الحرص الصارم على نصاعة الكنيسة، وعلى إصلاح أسقامها جرأةً نادرة النظير، تمثّلت، تمثّلاً رائعًا في هذه الحادثة: كان أحد كبار الدولة قد طلب تعيين قريبٍ له في منصبٍ كنسيٍّ رفيعٍ، وهو غير جديرٍ به، فعارض الأب ڤـــنسان تعيينه بحزمٍ، وعاتبه المسؤول بتعالٍ وازدراءٍ: "ماذا؟ أأنتَ، يا سيّد ڤـــنسان تعارضني؟!". وأجابه الأب بتهذيبٍ جمٍّ، وصلابةٍ لا تنثني: "تعرفون، سيادتكم، مدى احترامي لكم. ولكن، بنعمة الله، ليس لكم أيّة سلطةٍ على ضميري!".

كان ضميره هو الأنصع نقاءً، وكان مفهوم المطلق لديه، يرتدي، إلى جانب الصرامة، جلباب الرقّة. وظلّ ضميره المستقيم والجريء، حتّى نفَسه الأخير، ضمير فلاّحٍ اخترق نظره الثاقب خدَع الحياة الاجتماعيّة، ونفذ إلى صميم الإنسانيّة المنـــزّهة من كلّ زيفٍ وتمويهٍ.

بيد أن صرامة استقامته لم ترُقْ لخليفة ريشليو، أي الكردينال الوزير الماكياڤـــيليّ "مازاران"، فشرع بإبطاء أعمال مجلس الضمير، وحاول تنفير الأب من حضور جلساته بأساليب إهانةٍ حقيرةٍ، وأخيرًا أقصاه عنه. ولم يكن هذا

الإقصاء إلاّ حافزًا للأب على التوغّل ذودًا عن المحرومين والمظلومين الذين كانت مآسيهم تتفاقم إيلامًا. فقد كان يرى أنّ كلّ نفسٍ تستأهل قدرًا وافيًا من الكرامة الإنسانيّة التي تؤهّلها لتقبّل الإيمان، وكان يعدّ كلّ إساءةٍ إلى أحد إخوة يسوع، تحت أيّة حجّةٍ، إنّما هي فضيحةٌ مخزيةٌ، وجريمةٌ نكراء. وكان يرى في كلّ مريضٍ، وفقيرٍ، ومشرّدٍ، وكلّ سجينٍ ومحكومٍ، وفي كلّ فتاةٍ تائهةٍ وتائبةٍ، وكلّ طفلٍ مرميٍّ، نفسًا صُلِب يسوع افتداءً لها.

وفي سبيل إنقاذ هؤلاء وغوثهم، لم يضنّ بجهدٍ أو بتضحيةٍ، ولم يتوانَ حتّى عن تقديم ظهره للجلد، رأفةً بمحكومين مرهَقين، راجيًا أن يحفّز مثاله أعتى الضمائر انغلاقًا على الرأفة والمحبّة. ولم يكن الروح الرسوليّ الضاجّ في صدره يطيق أن يحيا بشرٌ ويموتوا، جاهلين الله الذي مات أدهى ميتةٍ من أجل خلاصهم.

وهو برقّته واستقامته، استنبط من عصره الجيّاش صفوته، وحوّل سيّداتٍ نبيلاتٍ وثريّاتٍ، وقرويّاتٍ بسيطاتٍ فقيراتٍ، إلى صانعات حضارةٍ، وبطلات محبّةٍ.

وهو الذي لم يخجل، يومًا، من وصف نفسه بابن فلاّحٍ وراعي الخنازير، أصبح أسطورةً شعبيّةً فذّةً، وقدّيسًا شعبيًّا يحتلّ هياكل الكنائس، ويسكن حبّات القلوب.

ومن المحقّق أنّه لم يكن لينجز ما أنجزه، لو لم يسُقْ حياةً روحيّةً كثيفةً، طافحةً بالقداسة، وبالفضائل السامية. فقد كان في المقام الأوّل، رجلَ صلاةٍ، مشبعًا بروح الإنجيل. وكان يوصي إخوته ومرسَليه وراهباته، قبل مباشرة أيّ عملٍ، أن ينهجوا نهجه، ويستغرقوا في الصلاة، والتأمّل، واستكشاف مشيئة الله، وتجنّب الاستعجال الذي كان يرى فيه تخطّيًا للعناية الإلهيّة.

وقد حملت أعماله وأقواله كلُّها دمغة الإنجيل. وكان الإنجيل يُقرأ على وجهه، وفي كلّ مسيرته ومشاريعه، حتّى بات، هو، إنجيلاً حيًّا. وقد شهد أحد معاصريه: "تشرّفتُ بمعرفته منذ أكثر من ثلاثين سنةً ولم أرَ فيه سوى القداسة والسموّ، وعددتُه، دائمًا، رسولاً عظيمًا مليئًا بروح الله، وقدّيسًا تجمّعت فيه الفضائل تجمّعًا فريدًا".

وكانت صلاته اتّحادًا وثيقًا بالله، ومحبّةً للإنسان، وسعيًا دؤوبًا إلى انتشال كلّ مُعانٍ من ورطاته المادّيّة والروحيّة. ولطالما ذكّر مرسَليه أنّ التبشير لا ينفصل عن مداواة الأمراض الجسديّة، فعليهم التبشير بالوعظ والتمريض، ففي أعماق روحانيّته، كان التبشير والمحبّة يسيران جنبًا إلى جنبٍ، ويدًا بيدٍ.

واتّحاده الوثيق بالله كان ثمرة تواضعه السحيق، فهو، بقدر ما كان جريئًا في تحدّي أصحاب السلطة ومصارحتهم، كان يستصغر ذاته، ولا يتوانى عن وصف ذاته بالخاطئ والجاهل، ملتزمًا المكانة الدنيا. كان يَعدّ ذاته، ويدعو مرسَليه إلى اعتبار ذواتهم، مقارنةً بالجمعيّات الأُخرى القديمة، بمثابة "عتّالين". وكان يسكنه الشعور بأنّ الله هو الذي بحث عنه، كما يبحث الراعي عن الخروف الضالّ، فيمعن تواضعًا.

كتب الأُسقف "أَبيلّي" (Abelly)، كاتب سيرته الأوّل:

« كان تواضعه من الصدق بحيث كان يُقرَأ على جبينه، وفي عينيه، وفي وقفته، ومسلكه، وكلّ مظهره. وكان تصاغره، واحتقاره لذاته نابعَيْن من أعماقه. وإنّما كان تواضعه السحيق هو الذي آتاه فيض الأنوار والنِعَم، التي بفضلها ازدهر كلّ شيءٍ بين يديه، وبقيادته ».

والتواضع علّمه النظر إلى الأحداث والأشخاص بواقعيّةٍ، وفضح كلّ كبرياءٍ، وكلّ ادّعاءٍ باطلٍ، ورسّخ لديه اليقين بأنّ الله هو صانع الأمور العظيمة، وأنّ اللهَ وحدَه يحوّل القلّة إلى وفرةٍ بلمسة يده.

وشهد الأُسقف "بوغو" (Bougaud):

« مع أنّه لم يكن يولي كبير اهتمامٍ بالقضايا النظريّة، لم يكن يخفى عنه أمرٌ، بل كان، بنظرةٍ خاطفةٍ، يرى المنافع والمضارّ، والتسهيلات والعوائق، ولم يعادله أحدٌ جرأةً في تنفيذ ما وطّن عليه عزمه. وقد أثبت المستقبل صواب الدروب الجديدة التي انتهجها ».

واقتاده التواضع إلى محبّةٍ فائقة الرقّة، وإلى الانحناء بعطفٍ على كلّ بؤسٍ، واستطاع أن يقول: "عندما قبّلت قيود المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ... أنصتوا إليّ".

وإذا كانت حياة الصلاة هي منبع المحبّة، ومحرّك العمل، فهذه الحياة لا تُصان إلاّ بالتواضع. ومن ثمّ ليس التواضع غايةً، بل هو وسيلةٌ إلى المحبّة، وشرطٌ لها. لأنّ الكبرياء تقتل المحبّة، وتسجن الإنسان في ذاته، وقد لا تقتل النشاط، ولكنّها تسمّمه، بجعلها الإنسان، لا الله وحدَه، هو غاية العمل. وبالتالي لم يكفّ الأب قنسان عن دعوة مرسَليه، دعوةً ملحّةً، إلى التواضع في كلّ ظرفٍ، وكلّ مجالٍ: تواضعٍ في العمل: أي تجنّب نَسْبِ النجاح إلى الذات، وتفادي الإحباط بسبب الفشل. فأمعن في ترسيخ التواضع لدى رفاقه، كما رسّخه في يقينه، إيمانًا بأنّهم، جميعًا، محض أدواتٍ في يد الربّ، وكان لا يني يردّد على مسامعهم: "هل يتباهى البغل بالزينة التي يُحاط بها، وهل تتباهى الفأس بقدرتها على الحفر والتحطيم؟!" ولطالما أطلق هتافاتٍ تعبّر عن عمق تواضعه، وعن البَوْن الشاسع اللامحدود الذي يفصلنا عن الله. وقد أَلِف إرفاق توقيعه بحرفيْن يعنيان "الكاهن غير الجدير"، اعترافًا بسموّ الكهنوت الذي أُنعم عليه به.

تواضع العقل: درءًا لتسلّل الكبرياء إلى محاولات الارتقاء إلى ذرى الصوفيّة. وهو ما انفكّ يحذّر رفاقه من التوغّل في ألغاز العلم، وتعرّجات السجالات اللاهوتيّة، ولطالما خشي أن يسرّب العلم إلى أذهانهم كبرياء العقل الكفيلة بصرفهم عن الرسالة التي انتُدبوا لها. فكان يناشدهم أن يرتقوا منبر الوعظ وكأنّهم يصعّدون على درب الجلجلة، بغية خلاص مستمعيهم لا رغبةً في إبراز علمهم وفصاحتهم. ولطالما ذكّرهم أنّ شعب الريف الفقير يموت جوعًا، ونفوسه تهلك، فلنزوّده بالتعليم المسيحيّ وبالخبز، فهذه هي دعوتنا، وهذه هي مهمّتنا، ولندَع العلم لأعضاء "الأوراتوار"، ولليسوعيّين. ولنمضِ، نحن، إلى الله ببساطةٍ، وسذاجةٍ، ورشاقةٍ، ولنعملْ. وكان يذكّرهم، بلا هوادةٍ، أنّ جمعيّة الرسالة لم توجد لكي تتألّق

في المدن، بل من أجل تبشير القرويّين. وبالإجمال حرص على أن يظلّ التواضع هو الدمغة المميّزة لجمعيّته، ولمشاريعها كلّها، ولفكره ولحياته، مثلما حرص على أن يزدهر حبّ الله، والعمل في سبيله، في جوٍّ من المحبّة المصان بالتواضع.

لا ريب أنّ الأب قــنسان قد ازدان بكلّ الفضائل الإلهيّة والبشريّة التي تصنع القدّيسين. غير أنّ التواضع والمحبّة كانا الفضيلتين الأثيرتَين على نفسه، وقد صبغتا روحانيّته، وكانتا العاملَيْن الأساسيَّين في قداسته.

وقد أنتج تواضعه موكب المحبّة المؤلّف من العطف، والرقّة والصبر، والحذر، والزهد، والبذل، والتضحية. وظلّ مثاله الأسمى في التواضع هو الربّ يسوع الذي خلّص العالم بتواضعه، وكانت حياته كلّها على الأرض ممارسات تواضعٍ، خلّدها بالصليب، الدليل الأنصع على تواضع الكائن الأسمى. وفي تيّاره نهجت أُمّه العذراء، التي بتواضعها أسهمت في عمله الخلاصيّ المستمرّ.

ولا جرمَ أنّ الأب قــنسان ديــپــول كان، في الميدان الاجتماعيّ، عملاقًا نادر النظير. بيد أنّ حجمه الروحيّ لا يتدنّى – بل يفوق – حجمه الاجتماعيّ، لأنّ إنجازاته الاجتماعيّة المذهلة كانت سابحةً في محبّة الله. وربّما حجبت هذه الإنجازات عن كثيرين جهده الدائم، في اقتفاء يسوع الناصريّ.

وسيظلّ قــنسان ديــپــول مثالاً فريدًا للقدّيسين الذين يستأهلون ترحيب الربّ بهم في ملكوته، لأنّه رآه، في إخوته الصغار، جائعًا فأطعمه، وعطشانًا فروى ظمأه، وعريانًا فكساه، ومريضًا فعاده، وعالجه، ولاطَفَه، ورآه سجينًا فزاره، وواساه، وأدخل إلى عتمة سجنه شعاع نورٍ، وإلى كآبته عزاءً، وإلى إرهاقه راحةً ونقاهةً، وإلى يأسه رجاءً.

الفصل الثامن

مقتطفاتٌ من خواطر القدّيس ڤنسان دي پول

باقاتٌ روحيّةٌ

في غمرة انشغالات الأب ڤـــنسان المتعدّدة، لم تتسنَّ له سانحةٌ لتدبيج بحثٍ، أو تأليف كتابٍ يَبسطُ فيه آراءَه ومبادئَه، بل إنّه، اقتداءً بمعلّمه الإلهيّ، علّم بمثال سلوكِه وبأقوالِه. وكانت واجباتُ إدارة مؤسّساته المتعدّدة، ومواكبته اليقِظة لكلّ ما يجري فيها وحرصه على إبقاء روح المحبّة والغيرة الرسوليّة متّقدًا في جميعها، قد فرضت عليه الإدمانَ على مراسلتها بانتظامٍ، مطّلعًا على أحوالها، رادًّا على تساؤلاتها، مرشدًا إلى حلّ مشاكلها الطارئة، باثًّا باستمرارٍ روحَه فيها، ومذكّرًا بالمبادئ المقدّسة التي ينبغي التزامُها في مختلف المجالات، وفي كلّ الظروف والأحوال.

هذه الرسائل كانت أدواتِ تواصله مع أعوانه، ورفاقِ دربِه، وأعضاء جمعيّاته، وكانت مرآةً صادقةً لما عَمرت به نفسه من فضائل راسخةٍ، ومن مقوّمات روحانيّته. وقد قُدِّر عدد رسائله التي نجت من التلف أو الضياع بنحو ثلاثين ألفًا، وجميعها تعكس صورة نفسٍ شفّافةٍ، وقداسةٍ راسخةٍ، وعزيمةٍ صُلبةٍ، وذهنٍ منظَّمٍ يحيط بكلّ تفصيلٍ.

وإلى جانب تلك الرسائل حملته واجباتُ قيادتِه إلى الإدلاء بأحاديث توجيهيّةٍ متواترةٍ، لأعضاء مؤسّساته، من مرسَلين، وسيّداتِ محبّةٍ، وبناتِ محبّةٍ، وقد تنبّه رفاقُه، في سنواته الأخيرة، إلى واجب تسجيل تلك الأحاديث، حرصًا على ما تضمّنته من كنوزٍ روحيّةٍ ثمينةٍ ونادرةٍ.

وقد عدّ الكاتب الفرنسيّ الأكّاديميّ البارع، ومؤرّخ الفكر والشعور الدينيّ في القرن السابع عشر، الأب "هنري بريمون" (Henri Brémond)، أنّ كتابات القدّيس ڤـــنسان هي من أعمق ما كُتِب، ومن أشدِّه تأثيرًا على عصره.

ومن هذا المنجم الغنيّ، يسرُّنا أن نختار فلذاتٍ ثمينةً، لعلّها تخصب نفوس مَن ما زالت تجتذبهم الخواطر السامية، التي تعكس لألاءَ ألماسةٍ روحيّةٍ نادرةٍ، متعدّدة الزوايا.

إِيمَـانٌ

- الحقائق الأبديّة كفيلةٌ بملء القلب، وباقتيادنا على دربٍ أمينٍ. فحسبُنا هذه الوسائل الإلهيّة لبلوغ الكمال في أمدٍ قصيرٍ.
- لا بدّ لنا، من أجل تقدّمنا، ومن أجل خلاص الآخرين، أن نستهدي في كلّ شيءٍ، بنور الإيمان الإلهيّ.
- إنّ شعارات الإنجيل تعارض شعارات العالم تعارضًا تامًّا.
- فلْنحذَر من تقييم الأشياء بناءً على مظاهرِها، بل فلنقيِّمْها وفقَ تقييم الله لها.
- لنعملْ دائمًا وفق تعليم يسوع المسيح الذي لا يخدع أبدًا، ولنتجنَّبِ السيرَ وفقَ شعارات العالم التي تخدعُ دائمًا.
- أعمالُ الله تتقدَّم، عمومًا، ببطءٍ. وعندما يدعونا الله إلى النهوض بها، فَلنحرَصْ على ألّا نستخدمَ سوى الأساليب التي يُلهمها روحُ يسوع، والمتوافقة مع شعارات الإنجيل، لا مع أحكامِ العالم الباطلة.
- تُسيل أنوارُ الإنجيل، دائمًا، إلى قلوبنا عذوبةً خَفيَّةً.
- قد نُقنعُ فكرَنا بحججٍ متينةٍ وروحيّةٍ، ولكن يجبُ أن تكونَ هذه الحجج خاضعةً لحقائق الإيمان.
- لا يكفي أن نقوم بأعمالٍ صالحةٍ، بل ينبغي إجادةُ فعلِها، تمثُّلًا بربّنا يسوع المسيح الذي أحسنَ فعلَ كلّ ما فعل. ولْنَحرصْ على إتمام أعمالنا بروح يسوع المسيح، أي وفقًا لطريقة عملِه، وبالكمال عينه، وابتغاءً للأهداف ذاتها التي ابتغاها من خلال كلّ أعماله. وإلّا فحتّى أعمالنا الصالحة ستجلب علينا عقابًا، لا مكافأةً.

- إنّ بطءَ التقدُّم في ميدان الفضيلة، والنجاحَ الضئيلَ في الأُمور التي تستهدف تمجيدَ الله، ناتجةٌ عن الانصراف عن الاعتماد على مبادئ الإيمان، والاقتصار على تعاليم العقل البشريّ.

الصَـلاة

- لا أجدى ولا أكثرَ ضرورةً من الصلاة الذهنيّة التي تقتضي إجادتُها حبًّا حقيقيًّا، وتركيزَ كلّ الاهتمام.
- لا غنَى عن الصلاة لدى العاملين على خلاص النفوس، سواءٌ من أجل إضرام رغبتهم في تقدّمٍ مستمرٍّ على درب التقوى والعبادة، أو من أجل إلهامهم الغيرة الرسوليّة، وجرأةً متجدّدةً في خدمة القريب.
- أليسَ الثباتُ في الدعوة، والنجاح في المهمّات، والتغلّب على مراودات التجارب، والتوبة إلى الله، عقبَ الكَبوات، والإقامة في نعمة الله، والظفر بالسعادة الأبديّة نتائجَ الصلاة، دونَ سواها؟
- الصلاة كتابٌ أساسيٌّ للواعظين؛ فمنه يستمدّون الكلمة الأبديّة، والحقائق النابعة منها، والعقائد المقدّسة التي يتوجّب عليهم التبشير بها.
- الصلاة هي من مستلزمات خدّام الهيكل، مثلما السيف من مستلزمات الجنديّ.
- أفضل المؤهّلات للصلاة والتأمّل، التواضعُ، واليقينُ ببطلان الذات، والتضحيةُ بالأهواء والميول الطبيعيّة الدافعة إلى الشرّ، والخشوعُ الداخليّ، وصفاءُ النوايا، وحضورُ الله، والتوافقُ التامّ مع مشيئته، وتوثّباتٌ متواترةٌ نحوَ العطف الإلهيّ.
- أثناء التأمّل يجب، دائمًا، اتّخاذُ مقاصد خاصّةٍ، والسعي إلى اجتثاث العادات السيّئة، وتوافقُ السلوك التامّ مع حياة يسوع، علمًا بأنّ ثمرة الصلاة الرئيسة ليست مجرّدَ خواطر ساميةٍ، وعواطفَ وديّةٍ، بل هي اكتسابُ فضائل، وممارسةُ أعمالٍ صالحةٍ.

- أثناء الصلاة ينبغي رفعُ الفكر نحو الله، والتسليم ببطلان الذات وانتظار أن يتنازلَ الله، ويكلّمَ قلبَنا بعبارات الحياة الأبديّة، إذ إنّ لفظةً واحدةً منه، أشدّ تأثيرًا من ألف استدلالٍ عقليٍّ، وألف خاطرةٍ من بنات فكرنا، ولا شيءَ قادرٌ على إفادة قلبنا إلّا ما يأتي من الله، وما هو يلهمنا إيّاه.
- فلنحرصْ على الصلاة بهدوءٍ، لكيلا نُرهقَ فكرَنا بجهدٍ عنيفٍ، وبإفراطٍ في الحذلقة.
- الإفراط مُلامٌ في كلّ أمرٍ، وهو ملامٌ، على نحوٍ خاصٍّ، في الصلاة التي ينبغي أن نمارسَها باعتدالٍ، محتفظين بسلام الذهن والقلب.
- الإسراف في إجهاد الفكر، من أجل تحسُّس القضايا الروحيّة، يُلهب الخيال، ويوجع الرأس، وكذلك تكرار أعمال الإرادة الممعنة في العنف تجفّف القلب وتضعفه؛ وإذن، يجب التزام الاعتدال في كلّ أمرٍ.
- كمال الصلاة، وكمالنا الداخليّ لا يتحقّقان في دعاءٍ سامٍ، بل في المحبّة.
- عندما يتعيّن علينا التداول مع آخرين في أُمورٍ روحيّةٍ، فلنبدأ بالتأهّب له مع الله، من خلال الصلاة، متخلّين عن آرائنا ومشاعرنا الخاصّة، لكي نمتلئ بالروح القدس الذي يستطيع، إنارتنا، وإلهاب إرادتنا.
- رجل الصلاة لا يعجز عن أمرٍ، ويستطيع أن يقول مع الرسول بجرأةٍ: "أستطيع كلّ شيءٍ بالذي يقوّيني".
- إذا كان علينا أن نسأل الله شيئًا، فلنسألْه روحَه، لأنّ الروح الإلهيّ هو حياة نفوسنا.
- لم يكتفِ ربُّنا، في سبيل خلاصنا، بتوظيف مواعظه، وأتعابه، وأصوامه، ودمه، وحياته ذاتها، بل أضاف إلى هذه كلّها صلواته، ليس لأنّ وسيلة

الصلاة كانت له ضروريّةً، بل توخّيًا منه تعليم الرؤساء التمثّل بـه، في هذا المضمار، ودعوتهم إلى الصلاة، ليس فقط من أجل ذواتهم، بل أيضًا من أجل جميع الذين عليهم أن يصبحوا، مع يسوع، مخلِّصين لهم.

- الصلاة درسٌ يجب أن يُلقيه كلٌّ منّا على ذاته، من أجل الاقتناع بضرورة اللجوء إلى الله، والتعاون مع نعمته، واجتثاث الرذائل من قلوبنا، وغرس الفضائل فيها.
- الصلاة حصنٌ منيعٌ، يحمي المرسَلين من كلّ الهجومات. إنّها مستودع سلاحٍ مقدّسٍ، يحتوي كلّ أنواع الأسلحة، لا المُعدّة فقط من أجل الدفاع عن ذواتهم، بل، أيضًا، من أجل الهجوم، وردّ كلّ أعداء مجد الله، وخلاص النفوس.
- يسمح الله أن نفقدَ الرغبة في الصلاة، وحتّى أن ننفر منها. وما ذلك سوى امتحانٍ يجب ألّا يُحزنَنا، وألّا يثبّطَ عزيمتَنا. فهناك نفوسٌ صالحةٌ تخضع لهذا الامتحان، وكذلك قدّيسون كبارٌ. ولكنّهم بوفائهم لله استفادوا منه للتقدّم في ميدان الفضائل.
- قيل لنا انشُدوا ملكوتَ الله... ونشدان الملكوت يعني الدأب على السعي من أجله، ونبذ كلّ جبنٍ وتراخٍ؛ والسهر على إعداد داخل النفس، والبحث عن الله فيها... لقد اعترف القدّيس أوغسطينُس أنّه طالما بحث عن الله خارجَ ذاتِه، لم يعثر عليه. فلا بدّ من سَوْق حياةٍ داخليّةٍ كثيفةٍ. ومن يفشل في هذا المضمار يفقد كلّ شيءٍ.
- لكي تُؤتي الصلاة ثمارَها يجب الاستعدادُ لها، لا الاكتفاءُ بإجرائها بدافع العادة، والتمثّل بالآخرين... فالصلاة هي الترقّي بالروح إلى الله كي نقدّمَ له احتياجاتنا ونلتمسَ عونَ رحمته، ونعمته. فلا بدّ من إعمال الفكر مليًّا في عظمة الكائن الذي سنتّصل به، وفي جلاله، وسموّه، وبما سنقدّمه له، وما

سنلتمسه منه. فلا بدّ من مكافحة شرود خيالنا، وخفّة فكرنا، وانتباذ الكسل والاستخفاف بما نقوم به، والنزوع إلى الاستعجال.

- من أهمّ عناصر الصلاة، اتّخاذُ مقرّراتٍ صالحةٍ، فهو أعظمُ شأنًا من الخطابات والخواطر. وثمرة الصلاة الرئيسة هي المقرّرات والنوايا الجيّدة، المبنيّة على أُسُسٍ متينةٍ، بقناعةٍ راسخةٍ، وباستعدادٍ حازمٍ لتنفيذها، وبتوقّعٍ للعوائق التي يتوجّب تخطّيها...

وما سبب إخفاقنا، غالبًا، في التقيّد بمقرّراتنا سوى إفراط ثقتنا بها، وبنوايانا الطيّبة، واعتمادنا على قوانا الخاصّة. ومن ثمّ علينا التمادي في الصلاة، والتماس نعمة الله بإلحاحٍ، والحذر من ضعفنا، وطلب النعَم الإلهيّة الضروريّة لجعل مقرّراتنا مثمرةً. وحتّى إذا أخفقنا، بعد ذلك، في تنفيذ نوايانا الصالحة، مرّةً أو مرّتين، أو على مدى فترةٍ طويلةٍ، فلا يسوغُ أن يدفعَنا هذا الفشل إلى الإحجام عن تجديد مقرّراتنا، وعن اللجوء إلى الرحمة الإلهيّة، والتماس أزر الله ونعمته. فمَن لا يستفيد من غذاءٍ لا يُضرب عن الطعام. بل ينبغي أن تحملَنا أخطاؤنا وإخفاقاتُنا على التواضع والندم، لا أن تودي بنا إلى القنوط. وأيًّا كان الخطأ الذي نتردّى إليه، لا يسوغ أن يُفقِدَنا ثقتَنا بالله، ولا عزمَنا على النهوض، ولا السهر على تجنّب الوقوع ثانيةً، بعون نعمته التي علينا التماسُها منه.

- بمعزلٍ عن الصلاة تحاكي النفس جسدًا بلا روحٍ، لا تشعر، ولا تتحرّك، ولا تحدوها سوى رغباتٍ زاحفةٍ نحو المتاع الفاني.

- والصلاة مرآةٌ ترى فيها النفس كلّ لوثاتها، وكلّ ما يُفقدها رضى الله؛ وبها ترى الله. ومن خلال الصلاة يبلّغنا الله ما يريد أن نفعلَه، وما يريد أن نتجنّبه. ولا شيء يعلّمنا، بوضوحٍ، مشيئة الله خيرًا من الصلاة.

- الآباء القدّيسون يرَون في الصلاة نبعَ فتوّةٍ تستعيد به النفس شبابَها، وقواها، بعد تحرّرها من عاداتها الذميمة، وبها تستعيد الرؤية إثر عمًى، وتستعيد السمع الذي كان مسدودًا دون سماع صوت الله، وتتفتّح مجدّدًا للإلهامات الصالحة، وبها يتلقّى القلب قوًى جديدةً، وإقدامًا غير معهودٍ من قبل.
- كيف لفتاةٍ قرويّةٍ قَدِمَت خَشِنةً، فَظّةً، أمّيّةً، مفتقرةً إلى التربية الدينيّة أن تصبح، في مدى فترة قصيرةٍ، مهذّبةً، متعلّمةً، طافحةً حبًّا لله، إلّا بالصلاة، نبع الشباب، حيث استعادت فتوّةً، واستمدّت نعمًا غامرةً؟
- ولِمَ يتكلّم أُمّيّون عن الله كلامًا رائعًا، ويفسّرون الأسرار بفهمٍ يفوق فهم الملافنة؟ إنّ الأستاذ الذي لا يملك سوى العلم الذي اكتسبه يتكلّم عن الله بطريقةٍ هزيلةٍ تتوافق مع ما لقّنه علمه المكتسَب، في حين أنّ الآخر، البسيط، يتكلّم وفقَ علمٍ مشبعٍ حبًّا، أُوتِيه من فوق.
- لنسألِ الله أن يهبَنا نعمتَه كي نتمكّن من مخاطبة جلالته الإلهيّة، معترفين بعجزنا التامّ، مستشفعين بحبّه الجمّ لنا، وبالعذراء كلّيّة القداسة، وبالقدّيسين.
- لا شيءَ يُرضي الله مثل شُكره عن نعمته.
- من أجل إتقان الصلاة، ينبغي أن نشرعَ بوضع ذواتنا في حضور الله، الذي يرى كلّ شيءٍ، ويرمقنا، مراقبًا خفايا قلوبنا، ونافذًا إلى طوايا ضمائرنا؛ أو أن نتأمّله في القربان المقدّس على الهيكل، فنهتف له: "يا مخلّصي، ها أنذا، الخاطئ الهزيل البائس، عند أقدام هيكلك. إحمني من كلّ فعلٍ لا يليق بقدسيّة حضورك، وانفذْ إلى أعماق كياني، وأقِمْ في أغوار قلبي".
- فلنُقبلْ، بعزيمةٍ، على ممارسة الصلاة، لأنّها مصدرُ كلّ خيرٍ. فبها نَثبتُ في دعوتنا، وبها تنجح مساعينا، وبها ننجو من الوقوع في الخطيئة، وبها نثابر على المحبّة، وبها، وبنعمة الله، نَخلُص.

- فلنُنَمِّ حياتنا الداخليّة، ولنملّكْ يسوع على نفوسنا. ولا نستسلمنَّ للتواني، والخَدَر، ساعين نحو الأُمور الدنيويّة والعالميّة التي تُرينا إيّاها حواسُّنا، مغفلين خالقَنا الذي صنعها، ومهملين الصلاة الكفيلة بتحريرنا من أَسْر المتاع الأرضيّ، بل ناشدين الخير الأعظم: مجد الله، وملكوت يسوع المسيح.
- يمكن معرفة مَن يحسنون الصلاة، ليس فقط من طريقة صلاتهم، بل، أيضًا، من خلال أعمالهم وسلوكهم، وثمار صلواتهم. وينطبق هذا المعيار، أيضًا، على مَن يسيئون الصلاة.

خشوعٌ

- إنّ دراسة العلوم تُخمِد، لدى كثيرين، حرارةَ الروح. فعلى الدارسين أن يحتاطوا، كي يحافظوا على العبادة، بواسطة ممارسات التقوى، وخاصّةً بواسطة التأمّل، بحيث يُكملون تهذيب ذهنهم بمعرفة الحقيقة. وفي الآن عينه تلتهب إرادتُهم حبًّا لله، مصدرِ كلّ علمٍ.
- فكرة حضور الله تجعلنا نعتاد أن نحقّقَ، في كلّ أمرٍ، مشيئته المقدّسة. وعلى هذه الفكرة أن تحتلّ فكرَنا بحدّةٍ، أكثر ممّا يحتلّه حضور جميع الخلائق مجتمعةً.
- لا قدرةَ للفلسفة واللاهوت والخواطر على التأثير في النفوس. ولكن لا بدّ من أن يعمل يسوع المسيح معنا، وأن نعمل نحن معه. وعلينا أن نتكلّم مثلما كان هو يتكلّم. وأن نكون متّحدين بروحه، مثلما كان متّحدًا بالله أبيه.
- الخشوع الداخليّ يحمي من التشتّت، أي من مصدر الفتور والتراخي، لدى جميع مَن تفرض عليهم وظيفتُهم أن يوحوا للآخرين، بلا انقطاعٍ، حرارة التقوى، ومخافة الله.
- كلٌّ منّا يحمل دمغة حماية العذراء مريم، التي يجب أن تكون لنا أُمًّا، عندما نرغب في أن نكون لها أبناءً.
- ملكوت الله يكمُنُ في السلام، والروح القدس يسود في قلبٍ يسوده السلام.

التقدّم الروحيّ

- فلنكرّمْ كمالات الله، ولنستهدِ، في كلّ أعمالنا، بأحد كمالاته التي تناقض نقائصَنا، مثل عطفه وحلمه في مواجهة نزعتنا إلى الغضب؛ وعلمه لمقاومة عمانا؛ وعظمته وجلالته اللامحدودين في مواجهة حقارتنا ودناءتنا، وطيبته اللامحدودة المناقضة لخبثنا.

- لا ينظر الله إلى ظاهر أعمالنا بقدر ما ينظر إلى مستوى الحبّ وطهر النوايا التي ترافقها. فالأعمال الصغرى المُؤدّاة إرضاءً لله ليست معرّضةً للتباهي الباطل، مثل الأعمال الباهرة التي تبدو أكثر إبهارًا ولكنّها تتبدّد، غالبًا، تَبدُّدَ الدخان... فإن كان علينا إرضاء الله بأعمالٍ عظيمةٍ، يجب أن نعتاد إرضاءَه بأعمالٍ صغيرةٍ.

- لنقاومْ طبيعتَنا بحزمٍ، لأنّنا عندما نتيح لها، مرّةً، أن تحتلّ منّا قَدَمًا واحدةً فهي لن تلبثَ أن تحتلّ أربع أقدامٍ. ولنتأكّد أنّ مقياس تقدّمنا في الحياة الروحيّة يعتمد على تقدّمنا في التمرّس بفضيلة التضحية.

- فلنقدّسْ كلّ أعمالنا بنشداننا الله فيها. ولنَقُمْ بها بغيةَ العثور على الله، أكثر من ابتغائنا إنجازها. فالله يطلب، قبل كلّ شيءٍ، أن ننشُدَ مجدَه وملكوتَه، وعدلَه. وفي سبيل ذلك فليكن رأسمال وجودنا الحياة الداخليّة، والإيمان، والثقة، والمحبّة، والممارسات الدينيّة، والصلاة، والتضحيات، وتقبّل المشقّات.

- صونًا لاستقامة تفكيرنا وصلواتنا، يجب أن نلتزم بقاعدةٍ لا نحيد عنها، فنحكم مثلما يحكم ربّنا، دائمًا، وفي كلّ أمرٍ، ونتساءل، في كلّ ظرفٍ: "كيف كان يحكم ربُّنا؟ كيف تصرّف في مثل هذا الظرف؟ وماذا قال؟". وبالإجمال يجب أن يتناغم سلوكُنا مع تعاليمه ومُثُله.

- الدليل على اتّباع الربّ هو ممارسة التضحية يوميًّا: فلا ندَعْنَ يومًا يمضي، ولا نفرض على ذواتنا ثلاث أو أربع تضحياتٍ. بذلك يتأكّد اقتفاؤنا خطى ربِّنا، وسيرنا على الدرب الضنك الذي يقود إلى الحياة الأبديّة. وبذلك يملك الربّ فينا، في هذه الدنيا، ونكون معه أبديًّا.
- مَن يبتغي التقدّم، بخطواتٍ واسعةٍ، في ميدان الفضيلة، عليه أن يقمعَ بشدّةٍ ميولَه الخاصّة. أمّا من يُحجم عن التضحيات التي تقتضيها الفضيلة الحقّة، ففضيلتُه وهمٌ.

التضحية

- مَن يُهمل التضحيات الخارجيّة بحجّة أنّ التضحيات الداخليّة هي الأكمل، يُثبِت أنّه لا يمارس لا تضحياتٍ خارجيّةً، ولا تضحياتٍ داخليّةً.
- لا بدّ من التضحية من أجل اكتساب الوداعة، ومن أجل التغلّب على المصاعب التي تواجهنا في ميدان خدمة الله.
- يكتفي كثيرون بالحوارات الرقيقة التي يعقدونها مع الله في الصلاة. ولكنّهم يفتقرون إلى جرأة التضحية، واحتمال الأمراض، والإهانات، والمصائب، بصبرٍ. لا نخدعنَّ، إذن، ذواتنا، فالرسول ينذرنا بأنّ أعمالَنا، وحدَها، هي التي سترافقنا إلى الحياة الأبديّة.
- علينا، ونحن نصلّي، مكافحة الأهواء، والميول الشرّيرة السائدة فينا، مكافحةً جادّةً، وبحرصٍ دائمٍ على مكافحتها، لأنّنا بقضائنا عليها، ننتصر بيسرٍ على كلّ العِلَل الأُخرى.
- لا يمكن اعتبار الفضيلة راسخةً في نفسٍ متمسّكةٍ بإرادتها الخاصّة.
- إن لم يكن روح التضحية هو حادينا (في الجمعيّة) فأنّى لنا أن نحيا معًا؟ ألا توجد، دائمًا، مبرّراتٌ للاعتراض؟ أليس هناك ما يصدمنا، في جميع الظروف التي نجتازها؟ فإن لم نتحلَّ بممارسة التضحية، سيكون دائمًا جدالٌ. إنّ الحياة الجماعيّة تقتضي التمرّس بفضيلة التضحية، وترويض حواسِّنا الداخليّة والخارجيّة عليها بقسوةٍ. والأمر هو ذاته في علاقتنا مع الآخرين. فالمرسَل لا يعرف أين سيقيم، وما عليه أن يفعل، وسيواجه ما لم يتوقّعه، وقد تقلب العناية الإلهيّة توقّعاته رأسًا على عقبٍ. ومن ثَمّ إنّ الرسالة والتضحية متلازمتان، بلا فكاكٍ.

عِرفانٌ بالجَميل

- يجب أن ننفقَ من الوقت لشكر الله عن نعمه، بقدر ما أنفقنا من وقتٍ في التماسها.
- العرفانُ بجميل النعَم المتلقّاة هو من أجدى وسائل الحصول على المزيد منها.
- النعَم التي يُغدِقها الله علينا، بلا حسابٍ، تُلزِمُنا بالإحجام عن السعي من أجل مجدنا الخاصّ، وبأن تستهدفَ أعمالُنا كلُّها تمجيدَ الله.
- لن يكفّ الله عن إغداق نِعَمه عمّن يبقى جديرًا بها.
- يجب أن نسارع، دائمًا، إلى غوث المحسنين إلينا في احتياجاتهم، وأن نعدّ ثروةً إفقارَ ذواتنا من أجل توفير البحبوحة للذين أحسنوا إلينا، يومًا. ونحن واثقون أنّ عطف الله سيسرُّه مدّ يد العون لنا، في مثل هذه الظروف، فلا نفتقرُ إلى شيءٍ.

الثقة بالله

- لا يمكن أن يكون الرجاء الحقّ مفرطًا، أبدًا، لأنّه مبنيٌّ على عطف الله، وعلى استحقاقات يسوع المسيح.
- في أشدّ حالات احتياجاتنا إلحاحًا، تتجلّى، بوضوحٍ، ثقتُنا بالله.
- إنّه لَأمرٌ رائعٌ أن نوجّهَ أفكارَنا إلى الله، وألّا نثقَ إلّا به، لأنّه، حينئذٍ، يهبنا كلّ ما وعدنا به، وكلّ ما نحتاج إليه.
- لا تتخلّى عنّا العناية الإلهيّة أبدًا، في الأعمال التي نُقدِم عليها بإيعازٍ منها.
- عندما ينيرنا الله، ويلهمنا العزم على مقاومة ميولنا، وإيثارنا ما هو الأكثر إرضاءً له، حينئذٍ يهبنا القدرة على ذلك.
- إنّ الذين لا يمتلكون سوى مواهب ضئيلةٍ وعاديّةٍ، هم، عادةً الأدواتُ الأوفر صلاحيّةً بين يدي الله من أجل تحقيق خلاص الشعوب، لأنّهم أقلُّ اعتمادًا على ذواتهم، ويلجأون إلى الله بمزيدٍ من التواضع، ولا يَعزون نجاح أعمالهم إلّا له وحدَه.
- فليوقنْ مَن أودعَ ثقتَه في الله أنّه، ولو قاومه العالم أجمع، لن يحدثَ له إلّا ما يشاؤه الله.
- المشاريع التي تبدأ بوسائل بسيطةٍ وعاديّةٍ، تحظى بدعم الله، أكثر من المشاريع التي تُوظَّف لها وسائل خارقةٌ وباهرةٌ.
- يُعَظَّم الله أقصى تعظيمٍ عندما نستسلم لمشيئته، غير ساعين إلى استبيان دوافعه، مكتفين بالإيمان أنّ دافعَه هو مشيئتُه، وأنّ مشيئتَه هي دافعُه.

- كلّ ما يهبُنا الله أو يأخذه منّا ينقلبُ دائمًا إلى خيرنا. فتلك هي مشيئته. وعلينا أن نستمدّ كمالَنا وسعادتنا من التوافق مع مشيئته.
- عندما يدعونا الله إلى الاضطلاع بمهمّةٍ شاقّةٍ، أو يسمح بمعاناتنا متاعب من أجل خدمته وتمجيده، فعنايته تبتغي، من ذلك، حمايتَنا ومؤازرتَنا.
- إذا كنّا أوفياء لله فلن ينقصَنا شيءٌ، لأنّه سيحيا فينا، وسيقودُنا، وسيدافع عنّا، وسينجّينا.
- يجب أن نحبّ الله حبًّا جمًّا، ونثق به ثقةً مطلقةً، وأن نحذر من ذواتنا.
- علينا الاستسلام، كلّيّةً، بين يدي الله، والإيمان بأنّ العناية الإلهيّة توجّه كلّ الأحداث من أجل خيرنا، وأنّها هي التي تسمح بكلّ ما يحدث لنا.
- الوسيلة الأكثر نجاعةً من أجل نجاح أيّ مشروعٍ هي الاستسلام التامّ للعناية الإلهيّة والخضوع المتواضع لتدابيرها.
- كنوز العناية الإلهيّة لامحدودةٌ، ووحدَها لامبالاتُنا تحدّها، وتحجب عن عيوننا ألقَها وقيمتَها.
- فلنثقْ بالله ثقةً تامّةً، ولنَثِقْ أنّه سيكمل العمل الذي بدأه فينا، وبنا.
- نحن فقراء وهزيلون، ونحتاج إلى الله في كلّ مكانٍ.

التوافق مع مشيئة الله

- التوافق مع المشيئة الإلهيّة هو علاجٌ فعّالٌ لجميع الشرور والعِلَل، ووسيلةٌ لإصلاح النفس من كلّ عيبٍ، وللتغلّب على جميع التجارب، وإبقاء السلام صامدًا في القلب.
- إنّ الربّ يتواصل باستمرارٍ مع النفوس التي تتوافق توافقًا تامًّا ودائمًا مع مشيئته الإلهيّة، ولا تلتمس سوى رضاه في ما تريد، وما لا تريد.
- كمال الحبّ الإلهيّ لا يكمنُ في الانخطافات أو في الكرامات فائقة الطبيعة، والرؤى، بل في تنفيذ مشيئة الله.
- إنّ التوافق، في كلّ شيءٍ مع المشيئة الإلهيّة يتمثّل في سَوْق حياةٍ ملائكيّةٍ. وهذا، بالتحديد هو الحياة على غرار حياة يسوع على الأرض.
- نبلغ الكمال عندما تتّحد إرادتُنا اتّحادًا كاملًا بإرادة الله، وعندما لا نبتغي إلّا ما يريده الله. وبقدر ما يتوغّل المرء في هذا التوافق، يكون مسيحيًّا أكثر كمالًا.
- الكمال هو الزهد بالذات، وحمل الصليب، واتّباع يسوع. ومَن يمعن في الزهد بالذات، ويحمل صليبَه على نحوٍ أفضل، هو مَن لا ينفّذ أبدًا مشيئته الخاصّة، بل ينفّذ، دائمًا، مشيئة الله.
- ما أقلّ ما يلزم الإنسان كي يكون قدّيسًا! فحسبُه أن يفعل، في كلّ شيءٍ، ما يريده الله.
- يجب الإحجام عن التقرير بشأن أُمورٍ خطيرةٍ، عندما نكون مندفعين أملًا ورغبةً. فإن كان نجاح المشاريع البشريّة يعتمد على النشاط والاندفاع اللذَين

يواكبان تحقيقَها، إلّا أنّ نجاح شؤون الله يعتمد على الخضوع المتواضع لمشيئته، وانتظار المواعيد التي حدّدها هو من أجل تنفيذ مراميه بسكونٍ.

- تنفيذ مشيئة الله في كلّ أمرٍ، وفي كلّ مكانٍ، وارتضاء الحياة والموت حيث هو يريد، هذا هو موقف خدّام الله الصالحين، والمرسَلين الحقيقيّين، والعلامة التي تميّز أبناء الله الأوفياء المتأهّبين دائمًا لتنفيذ مرامي أبٍ فائق الجلالة والعطف.
- التوافق مع المشيئة الإلهيّة هو كنز المسيحيّ الحقّ. وهو يتضمّن إلى حدٍّ كبيرٍ، التضحية، والخضوع التامّ، وإنكار الذات، والاقتداء بالمسيح، والاتّحاد بالله، وبالعموم جميعَ الفضائل التي يكسبُها التوافق مع مشيئة الله صفة الفضيلة. فهذا التوافق هو أساس كلّ كمالٍ، وقاعدته.
- الإرادة الذاتيّة هي التي تُفسِد أعمالَنا، وتوبتَنا، الخ... ومن ثَمّ، حؤولًا دون هدر وقتنا وأتعابنا سدًى، فلنحذَرْ من العمل بدافعٍ طبيعيٍّ، أو بدافع المصلحة والميل، والمزاج والنزوة، بل فلنعتَدْ فعلَ كلّ شيءٍ وفقًا لإرادة الله.
- التوافق مع مشيئة الله هو وسيلةٌ أمينةٌ وسهلةٌ من أجل الظفر بكنز نعمٍ جزيلٍ في هذه الحياة.
- إنّ الذين يُقيمون إقامةً وطيدةً في التوافق مع مشيئة الله، ينقادون، دائمًا، بحكمته. ويمكن القول إنّ الله يمسكهم بيده، واقيًا إيّاهم من السقوط. وهو يضيئهم بأنواره الإلهيّة، فينعمون، سحابةَ حياتِهم، بالسلام، والسكون التامّ، وينجزون تقدّمًا سريعًا في ميدان الفضيلة، ويظلّون، عاكفين على أعمالٍ مقدّسةٍ.
- من يسعَ إلى الخضوع لله في كلّ أمرٍ، يسكنْه اليقين بأنّ كلّ ما قد يفعله البشر، أو يقولونه ضدّه، سينقلب، حتمًا، لصالحه.

- يسبغُ الله قوّةً فريدةً على أقوال مَن ينفّذون مشيئتَه، ويغمر ببركاتٍ خاصّةٍ الأعمال التي يضطلعون بها إكرامًا له، ويبارك مشاريعهم المقدّسة. ومن ثمّ تسهم جميع أعمالهم في هداية كثيرين من الشاهدين عليها، إلى دروب الصلاح.
- مَن يخضعْ للمشيئة الإلهيّة يتغلّبْ على جميع الصعاب التي يواجهها في خدمة الله، ويحقّقِ الربُّ فيه كلَّ ما أعدّه له.
- استسلامٌ واحدٌ لمشيئة الله في كلّ ما يأمرنا به، وما يعارض رغباتِنا، خيرٌ من ألفِ نجاحٍ يلبّي إرادتَنا وأذواقَنا.
- التسليم بمشيئة الله، وتحمّل كلّ ما يروق له، طالما هو يروق له، هذا هو الدرس الذي يلقّننا إيّاه ابن الله. ومَن يحفظون هذا الدرس، ويحفرونه في قلوبهم، هم الأوائل في مدرسة يسوع المسيح.
- ليس أقدسَ وأسمى كمالًا من التسليم بمشيئة الله الذي يجرّدنا تجريدًا كلّيًّا من ذواتنا، ويلهمنا تقبّل كلّ الحالات التي نواجهها بموقفٍ ثابتٍ، لا يتمرّد على محنةٍ ولا ينتشي بنجاحٍ.
- خير تأهّبٍ للموت هو التسليمُ المطلقُ لمشيئة الله، أُسوةً بيسوع المسيح الذي، في صلاته ببستان الزيتون، استعدّ للموت وهو يردّد قول: "يا أبتاه! لِتَكنْ مشيئتُك، لا مشيئتي!"
- عندما يتعيّن عليكم القيام بعمل خيرٍ، اسألوا ابنَ الله: "يا ربّ، لو كنتَ في مكاني، كيف ستتصرَّف؟ وكيف ستثقّف هذا الشعب؟ وكيف ستواسي هذا الفقير روحًا وجسدًا؟".
- بلوغ القداسة لا يقتضي إلّا القليل: الوسيلة المثلى، وربّما الوحيدة، هي اعتيادُ تنفيذ مشيئة الله في كلّ أمرٍ.

- كم من كنوزٍ ثمينةٍ في العناية الإلهيّة، وكم يمجِّد ربُّنا أجملَ تمجيدٍ أولئك الذين يتبعونها، ولا يتخطّونها، ولا يعبرون فوقَها! أتقول إنّك من أجل الله تعاني المشقّات؟ إن كانت خدمة الله تسبّب لك معاناةً، فلستَ من أجل الله تعاني.
- عندما نتلقّى، بتسليمٍ تامٍّ، المِحَن التي يمتحننا بها الله، فهي ستصبح لنا نِعمًا وخيراتٍ، لأنّ التوافق مع مشيئة الله هو ربحٌ أثمن من كلّ المغانم الزمنيّة.
- نحن أبناؤك، يا ربّ، ونرتمي بين ذراعيك كي نتمثّل بسلوكك.
- من أكثر أعمالنا إرضاءً لله، هو أن نعدّ كلّ عملٍ نقوم به، وكأنّه عملنا الأخير في هذه الحياة الدنيا. وكلّما أقدمنا على فعلٍ، فلنتساءل: "إذا علمتَ أنّك ستموت بعد هذا العمل، هل ستقوم به؟ وهل ستؤدّيه كما أنت عازمٌ على تأديته الآن؟".

حبّ الله والقريب

- المحبّةُ هي روحُ الفضائل جمعاء.
- لن نكونَ مسيحيّين حقيقيّين، إلّا عندما نكون متأهّبين لفقدان كلّ شيءٍ، ولإعطاء كلّ شيءٍ، حتّى حياتنا، حبًّا وتمجيدًا ليسوع المسيح، ومعتزمين، أُسوةً بالرسول، إيثار العذابات، وحتّى الموت، على الانفصال عن محبّة المخلّص الإلهيّ.
- إنَّ مَن يحبّ إنسانًا يتمنّى له الخير. وحبُّنا للربّ يعني أن يكون اسمُه معروفًا ومنتشرًا في العالم أجمع، وسائدًا على الأرض، وأن تتحقّقَ مشيئتُه على الأرض مثلما هي محقّقةٌ في السماء.
- لا تسمح لنا المحبّة بالتواني، والبقاء مكتوفي اليدين، بل تلزمنا بخلاص الآخرين، وبمواساتهم.
- أَلا نكونُ غيرَ جديرين بالوجود الذي حبانا به الله، إن لم نستخدمْه في سبيل حبِّه، وحبِّ القريب. وطالما اعترفنا بتلقّي الحياة من كرم الله، أَلا نُذنِبُ عندما نأبى استخدامها وبذلها وفق مراميه، واقتداءً بابنه، ربِّنا؟
- الإكباب على تخفيف آلام المنكوبين، يروق لله. وما أكثر ما يرضيه هو العناية بالمجروحين في ذهنهم، إذ إنّ الطبيعة البشريّة لا تجد في هذا العمل أيّ رضًى، ولأنّه عملٌ يندرج، سرًّا، حيالَ أشخاصٍ لا يقدّرونه.
- الإحجامُ عن فعل الخير، وارتكاب الشرّ مدانان على السواء.
- إنّ حبّ الذات المموّه بحجاب المحبّة يوهمنا غالبًا أنّنا نخدمُ الله، فيما نحن نسعى إلى إرضاء ذواتنا.

- هل هناك أشدُّ بشاعةً، ووحشيّةً، وشيطانيّةً من الخلاف؟
- فلنسعَ إلى أن يسودَ الله فينا، قبل سعينا إلى سيادته في الآخرين.
- فلنحبَّ الله على حساب سواعدنا، وعَرَق جباهنا. فإنّ جميع أعمال المحبّة، والمجاملة، والعطف، وشتّى بوادر المودّة الأُخرى قد تطوف بقلبٍ رقيقٍ. وهي مع كونها صالحةً، ومرحَّبًا بها، غير أنّها مشوّهةٌ، إن لم تدفع إلى أعمال محبّةٍ مجّانيّةٍ.
- (من خطابٍ إلى بنات المحبّة):

« هل تظنَّنَّ، يا أخواتي، أنّ الله ينتظر منكنّ أن تقدّمنَ لفقرائه، فقط، كسرةَ خبزٍ، وقطعة لحمٍ، وحساءً ودواءً؟ كلّا، يا أخواتي، لم يكن هذا مبتغاه، عندما اختاركنّ من أجل خدمته في أشخاص الفقراء. بل هو يتوقّع منكنّ، أيضًا، السهر على احتياجاتهم الروحيّة، فضلًا عن احتياجاتهم الجسديّة. إنّهم يحتاجون إلى الزاد الروحيّ، وإلى روح الله. فمن أين ستمددْن هذا الروح كي تزوّدنَهم؟ إنّكنَّ تستمْدِدْنَه من المناولة المقدّسة. فعليكنّ الاستعداد، استعدادًا لائقًا، لتلقّي هذا الروح الإلهيّ بغزارةٍ.

ما هو الروح الذي ينبغي أن يحدوَ بناتِ المحبّة؟ إنّه، يا أخواتي، حبّ ربّنا. أليسَ طبيعيًّا أن تحبَّ البناتُ أباهنَّ؟ وإنّ لهذا الحبّ وجهَيْن، وجهًا عاطفيًّا، ووجهًا عمليًّا.

الحبّ العاطفيّ رقَّةٌ وحنانٌ، وعليكنّ حبّ ربّنا برقّةٍ، وتعلّقٍ مثل ولدٍ لا يطيق الانفصال عن أُمِّه، ويهتف لها: "ماما"، حالما تخطو بعيدًا عنه. هكذا هو شأن قلبٍ يحبّ ربّنا، ولا يطيق غيابه، ويتشبّث به بحبٍّ عاطفيٍّ، الذي ينتج حبًّا فعليًّا. فالحبّ العاطفيّ لا يكفي، ولا بدّ من الحبَّيْن معًا. وعلى الحبّ العاطفيّ أن يتحوّل إلى حبٍّ فعليٍّ، المتمثّل في ممارسة أعمال المحبّة، وخدمة الفقراء بفرحٍ، وجرأةٍ، ومثابرةٍ، وحبٍّ ».

- (من خطابٍ إلى المرسَلين):

« أيّها المخلّص الذي جاءنا بوصيّة محبّتِنا لقريبنا مثل محبّتِنا لنفسنا، لقد نفّذتَ، أنتَ، هذه الشريعة تنفيذًا كاملًا حيالَ البشر، ولكن ليس بطريقة البشر، بل بطريقةٍ منقطعة النظير. إنّنا نشكرُ لك دعوتَنا إلى هذا المسار، وإلى أن نكون، دائمًا، محبّين للآخرين، وأن يكون هذا الحبّ موضوع نذرنا وأن نكون عاكفين عليه الآن، وأن نكون جاهزين لفعله حتّى إذا اضطُرِرنا إلى العزوف عن كلّ مهمّةٍ أُخرى، من أجل الانصراف إلى أعمال المحبّة...

أيّها المخلّص، ما أسعدني بأن أكون في حالة محبّةٍ للقريب، حالةٍ تخاطبك تلقائيًّا، وتصلّي لك، وتقدّم لك باستمرارٍ ما أعمله محبّةً بالقريب. أنعم عليّ بمعرفة السعادة النابعة من هذه المحبّة، والفرح بهذه الحالة المباركة، وبالمساهمة في ترسيخ هذه الفضيلة في جمعيّتنا الآن، وغدًا، ودائمًا.

لا نقولنَّ، أبدًا، شرًّا في مَن يُعلنون عداءَهم لنا. بل فلنتقبّلْ، طَوعًا، الازدراء والخزي، من أجل صيانة شرف قريبنا.

الإحسانُ إلى القريب

- يقتضي الله منّا ألّا نقوم بعمل إحسانٍ رغبةً في تقدير الناس لنا. بل فلنستهدفْ الله وحدَه، في كلّ أعمالنا، ولنُحجِمْ عن أداء أيّ عملٍ بدافع الحياء البشريّ.
- يبدو أنّ الربّ قد شرّف وقدّس المِحَن البشريّة، بخضوعه لجميعها، باستثناء الجهل والخطيئة. وبذلك علّمنا ألّا نزدري من هم الأشدّ ابتلاءً بهما، وألّا نتوانى عن تخفيفهما.
- فلنسهرْ على مصالح الغير، مثل سهرنا على مصالحنا الخاصّة، ولنحرص، في كلّ ظرفٍ، على السلوك باستقامةٍ وأمانةٍ.
- الرقّة، ودعم القريب هما منبع سلامٍ، ورابط كمالٍ يجمع القلوب.
- لا يستطيع الذين تحدوهم محبّةٌ حقيقيّةٌ منعَ تجلّي هذه المحبّة للعيان. وعمومًا ليست المبادرات الخارجيّة إلّا براهين عن استعدادات النفس الداخليّة.
- المحبّة هي حبٌّ يفوق الحواسّ، والعقل نفسه، وبه نحن نحبّ إخوتنا البشر بالدافع عينِه الذي جعل يسوع المسيح يحبّهم، أي من أجل تقديسهم في هذه الدنيا، وتوفير السعادة لهم في الآخرة.
- عندما نُحجِم عن عملٍ خيريٍّ، يهجرنا الله، ويستنفر آخرين من أجل تنفيذ الخير الذي ابتغى تحقيقَه من أجلنا.
- يجب أن نكونَ لله وللقريب، بلا تحفّظٍ، وأن تُبقينا المحبّة جاهزين لفعل وتحمُّل كلّ ما هو ممعنٌ في الصعوبة. ولنشكرِ الله ونباركْه كلّما أفضى بنا عملُ محبّةٍ إلى تحمّل مشاقّ.

- يجب أن نعامل القريب بعطفٍ ورقّةٍ، وأن نحتملَ عيوبَه بصبرٍ، وأن نحاول اجتذابه إلى الفضيلة بالوسائل التي يُحسِن استخدامها قلبٌ رقيقٌ طافحٌ بالمحبّة المسيحيّة.

- فليحفظِ الله المحبّةَ الأخويّة، في قلوب جميع المسيحيّين. وحينئذٍ، بفضل المساعدات المتبادلة بينهم، سيساند الأقوياء الضعفاء، ويتحقّق عمل الله.

- فلنحذَرْ من أن تكون محبّتُنا للقريب محبّةً أرضيّةً، ناتجةً عن ميلٍ طبيعيٍّ يُؤتي من الأذى أكثر ممّا يؤتي من نفعٍ. ولا تستهدف محبّتُنا سوى الله، في مَن نحبّ.

- السكن في بيتٍ تسوده المحبّة الأخويّة هو مسكنٌ في الفردوس. فما من أمرٍ أشهى وأعذب من العيش مع مَن نحبّهم ويحبّونَنا.

- كما أنّ وظيفة النار هي الإضاءة والتدفئة، مهمّة المحبّة هي إشاعةُ أنوارها ولهيبها.

- علينا ألّا نرى سوى الله في جميع البشر، وأن نكرّمَ فيهم كمالاتِه الإلهيّة. وستملأ هذه النظرة قلبَنا حبًّا واحترامًا لجميع إخوتنا.

- لا يكفي أن تكونَ المحبّة في القلب والأقوال، بل يجب أن تتحوّلَ أعمالًا، وحينئذٍ تكتمل وتخصب، وتولّد الحبّ في قلوب مَن تتّجه إليهم، وتكتسب الجميع.

- إنّ ما يُعطى بدافع المحبّة يتقبّله الله نفسُه. وأليسَ سعادةً منقطعة النظير أن نعطيَ الله ما هو له، وما لم ننَلْه إلّا من عطفه؟

- خيرُ استخدامٍ لخيرات الأرض هو وضعُها في خدمة أعمال المحبّة، إذ إنّنا نعيدُها، بطريقةٍ ما، إلى الله، مصدرِها. فالله هو الغاية الوحيدة التي على جميع الأمور أن تؤول إليها.

موقف تَسليمٍ ومَساواةٍ وسَكينةٍ حِيالَ الأَفراح والشدائد عَلى السواء

- مفتاحُ الحياة الروحيّة هو تقبّلُ جميع الأحوال التي يضعُنا فيها الله. إذا انهالت علينا المِحَن، فلْنُبارِكِ الله، ولنباركْه، أيضًا، إذا غمرنا العزاء! وبذلك نكون متأهّبين لتنفيذ مشيئة الله في كلّ أمرٍ. لقد علّمنا الربّ أن نقول: "فلتكنْ مشيئتُك"، ودعانا إلى السلوك وفق هذا القول. وبقولنا "كما في السماء كذلك على الأرض" يعني أن ننفّذَ مشيئتَه مثلما ينفّذُها ملائكتُه، بسرعةٍ، وكمالٍ، واستمرارٍ، وحبٍّ، مردّدين، عند بدء كلّ عملٍ: "حبًّا بك يا الله سأُقدِم على هذا العمل، وحبًّا بك سأتخلّى عن هذا الأمر لآخر". والربّ نفسه قد ضرب لنا المثل في ذلك، فهو لم يأتِ إلى الأرض إلّا لكي ينفّذَ مشيئة أبيه بافتدائنا، وفي هذا التنفيذ كان يجد متعته.
- لدينا نزعةٌ فطريّةٌ تقتضي أن تتحقّق بسرعةٍ الأعمالُ المفيدة لنا. وعلينا قمع هذه النزعة، وممارسة الاستسلام المقدّس كي نتبيّن مشيئة الله، ونتيقّن أنّه عندما يريد إنجاح أمرٍ، لا تستطيع المواعيد إفشالَه، بل سيُحاط بحكمة الله وقدرته، بقدر ما يتضاءل تدخّلنا فيه.
- لا يكفي أن نعمل ما يطلبه الله منّا، بل ينبغي أن نفعله على خير وجهٍ، ومثلما نفّذ ربّنا مشيئة أبيه على الأرض.
- هل من إنسانٍ أكثر توازنًا، وحرّيّةً، واستعدادًا لإرضاء الله، وتمجيدًا له ممّن ينفّذ مشيئته في كلّ أمرٍ، غير مبالٍ بذاته وبرغباته.
- مَن كانَ متحرّرًا من شؤون الدنيا، ومتوازنًا وثابتًا حيال الأحداث، فالله هو له كلّ شيءٍ، وكلّ ما سواه لا شيء.

- ستضطرم قلوبُكم حبًّا لله، إذا انتشلها موقف الحياد الساجي الذي يساوي بين كلّ ما يصيبُنا من نجاحٍ أو فشلٍ، ومن دواعي فرحٍ أو غمٍّ. وستمتلئ نفوسُكم بحبّ الله، عندما ستعزفون عن حبّ كلّ شيءٍ آخر. وبذلك يضحي هذا الحياد مصدر كلّ الفضائل، ومقبرة كلّ الرذائل.

- فلنجهدْ للتمرّس بالحياد حيال الأحداث، من خلال تجرّدنا من أحكامنا، وإرادتنا وميولنا الخاصّة، ومن كلّ ما ليس الله. إنّ الحياد في مواجهة المِحَن والأفراح فضيلةٌ نشيطةٌ. وإن هي لم تكنْ فاعلةً فليست فضيلةً.

- من المحقّق أنّ أداء الأعمال بشريًّا، وبمعزلٍ عن أيّ هدفٍ نبيلٍ وسامٍ، مثل تنفيذ مشيئة الله، يقضي على هذه الأعمال بالموت. وحتّى حضور القدّاس، والتأمّل والوعظ، والعمل بمنأًى عن التوجّه إلى الله، جميع هذه الأفعال لا روح فيها، وعملةٌ مزيَّفةٌ، لأنّ الله لا ينظر إلّا إلى الأشياء المقدّمة له، والتي يرى فيها ذاته.

- تقبّل كلّ الأحداث بموقفٍ واحدٍ مستسلمٍ للمشيئة الإلهيّة هو الذي يحرّر الإنسان، فهو الفضيلة الوحيدة التي تحرّرنا من سيطرة الحواسّ، ومن حبّ المخلوقات. وهذا ما يضفي عليها عظمة شأنٍ، ويوجب علينا التمرّس بها، إذا كنّا راغبين في الانعتاق من عبوديّتنا لفطرتنا ولبهيميّتنا، إذ إنّ المرء الذي ينقاد للجزء الحيوانيّ منه هو بهيمةٌ ولا يستحقّ صفة الإنسان.

- ميزة هذا الموقف أنّه ينتزع منّا كلّ ضغينةٍ، وكلّ رغبةٍ، وينتشلنا من ذواتنا ومن كلّ الخلائق. تلك هي مهمّته، وهذه هي السعادة التي يسكبها علينا، شرط أن تكون فاعلةً، أي بشرط أن نمتحن ذاتنا متسائلين: "يا نفسي، ما هي رغباتك؟ ما الذي يأسرك؟ هل نحن ننعم بحرّيّة أبناء الله، أم نحن مقيّدون بمتاع الدنيا، وبمسرّاتنا، وبالأمجاد؟" علينا أن نتحرّى ذواتنا كي نكتشفَ قيودَنا، ونحطّمَها.

- الوسيلة المثلى للحصول على فضيلة التجرّد والسكينة، هي المثابرة على التضحية، داخليًّا وخارجيًّا.

- إنّ عدم ارتباطنا بأعمالنا وبنتائجها، مع حرصنا على إتقان فعلها، ليس فضيلةً ممتازةً فحسب، بل هو ضرورة قصوى للحياة الروحيّة، ولا سيّما للراغبين في خدمة الله خدمةً كاملةً. إنّه فضيلةٌ تفصم ارتباطَنا بالخلائق وتربطنا بمشيئة الله ارتباطًا من الحميميّة بحيث لا نرغب من ذواتنا شيئًا، ولا نفضّل شيئًا على آخر.

الكهنوت

- أيّتها الإفخارستيّا، أيّتها المؤسّسة الرائعة والسامية التي تتخطّى قدرات الإدراك البشريّ، والتي لا يسعُ الملائكة إلّا تأمّلها بدهشةٍ، والتي لا يقوى لسانٌ على التعبير عنها، ولا عقلٌ على فهمها، كم أنتِ جديرةٌ بأعظم تكريمٍ، فقد ارتضى إلهٌ لامحدودٌ التنازل حتّى الانطواء في مخلوقٍ محدودٍ، والذي لا تستطيع السماء احتواءه، وتحمله الريح على أجنحتها ارتضى أن يختزلَ عظمتَه الفائقة في نفسٍ فقيرةٍ هزيلةٍ، وارتضت الشمسُ إخفاء بهائها في غور مغارة صدرٍ بشريٍّ.

- "يا ربّ، أعطِنا روح الكهنوت الذي أفعم نفوسَ الرسل، والكهنة الأوّلين الذين اقتفوا خطاهم. هبنا روح القداسة الحقّ، العظيم، والإلهيّ الذي أسبغَته نعمتُك على صيّادي سمكٍ بسطاء، ومهنيّين، وقومٍ فقراء في ذلك الزمن. فنحن أيضًا لسنا سوى ضعفاء هزيلين، وقرويّين فقراء، وما أشسعَ البَوْن بيننا نحن البائسين، ومهمَّةٍ فائقة القداسة والسموّ والرفعة السماويّة!

ويا إخوتي كم علينا أن نصلّي من أجل احتياجات الكنيسة الكبرى! فالكنيسة يدمّرها، في أماكن عديدةٍ، سلوك الكهنة المخزي. هم الذين يقضون عليها، ويدمّرونها. ولا ريب أنّ انحلال أخلاق الإكليرُس هو سبب دمار كنيسة الله!".

- "فنّ الفنون هو العناية بالنفوس". هذا كان عمل ابن الله على الأرض. من أجله نزل من السماء، وُلد من عذراء، ووقف كلّ لحظات حياته، واحتمل موتًا أليمًا مُذِلًّا. ولذلك يجب أن تقيّموا، يا إخوتي، أعظم تقييمٍ، ما أنتم مدعوّون لعمله. ولكن ما الوسيلة لأداء هذه المهمّة، واقتياد النفوس إلى

الله، ودرءِ طوفان ذنوب البشر، وعيوب إكليريكيّاتٍ، وتسريب الفضائل المسيحيّة والكهنوتيّة إلى مَن أَوكلَت إليهم العنايةُ الإلهيّة الإسهامَ في خلاصهم وتقديسهم، وإيصالهم إلى الكمال؟ من المؤكّد أنّ لا وسيلة بشريةً توصل إلى هذه الغاية، سوى عمل الله. وهو عملٌ عظيمٌ، إنّه مواصلة أعمال يسوع المسيح. ولا تستطيع مهارة البشر سوى إفساد كلّ شيءٍ، ما لم يتدخّل الله في الأمر. فلا الفلسفة، ولا اللاهوت، ولا الخطابات تؤثّر في النفوس، ولا بدّ من أن يُعيننا الله، ومن أن نستعين نحن به. لا بدّ من أن نعمل فيه، ومن أن يعمل هو فينا، ومن أن نتكلّم مثله وبروحه، مثلما هو كان في أبيه... يجب أن تتجرّدوا من ذواتكم، وأن تلبسوا يسوع المسيح.

- السعي إلى إنشاء كهنةٍ صالحين... هو عمل يسوع المسيح، الذي، أثناء حياته على الأرض، جهد في إنشاء اثني عشر كاهنًا صالحًا كانوا رسله. ولهذه الغاية أقام ثلاث سنواتٍ معهم لكي يثبّتهم ويعدّهم لهذه المهمّة الإلهيّة.

- الواعظ الذي يدلي بأقوالٍ عظيمةٍ، وبأسلوبٍ فخمٍ، يخالف روح ربّنا... فالحكمة الإلهيّة تعلّمنا تجنّب الإبهار في الأعمال والأقوال، واستخدام أسلوب عملٍ وقولٍ سهلٍ ومألوفٍ، في حين أنّ إبليس يدفعنا بشدّةٍ إلى ابتغاء النجاح، ويحذّرنا من البساطة.

- المرسَل – أعني المرسَل الحقّ – إنسانٌ لا يتطلّع إلّا إلى الله فحسب. ولا يَنشُد سوى خلاصه وخلاص الآخرين، ولا علاقة له إلّا بما يوثّق اتّحاده الحميم بالله.

- تعلّمنا التجربة أنّ الواعظين الذين يكرزون وفقًا لأنوار الإيمان يؤثّرون في النفوس أكثر من أولئك الذين يحشون خطاباتهم خواطر بشريّةً، وحججًا فلسفيّةً لأنّ أنوار الإيمان تسيل، خفيةً، إلى قلوب المستمعين.

- يتوقّع الله من الكهنة أن يقفوا بينه وبين المساكين الخطأة، وكأنّهم موسى آخر، كي يُكرهوه على إنقاذهم من الشرور التي سبّبها جهلهم وخطاياهم، والتي ما كانوا ليُبتَلوا بها لو نالوا ثقافةً، ولو دأب آخرون على ردّهم عن غيّهم. هذه هي مهمّة الكهنة، فيما أولئك المساكين يهبوننا خيراتهم لكي نقوم بهذه المهمّة: ففيما هم يكدحون ويكافحون البؤس، نحن، على غرار موسى، علينا أن نظلّ رافعين أيدينا إلى السماء، من أجلهم. وإن هم عانوا من جرّاء جهلهم وخطاياهم، فنحن المسؤولون. وسنظلّ حاملين جريرة معاناتهم ما لم نضحِّ بحياتنا كلِّها من أجل تثقيفهم.
- عندما يدعونا الله إلى حيث يريدنا، يزوّد الوضع الذي دعانا إليه بالنعَم الضرورية لخلاصنا. ولكنّه يحجب هذه النعم إذا تخلّينا عن دعوتنا، ونهجنا دربًا آخر لم يدعُنا إليه.
- لا يسوغ لمن دُعي إلى خدمة القريب، في وضعٍ توافق عليه الكنيسة، التطلّع إلى وضعٍ آخر أكثر انعزالًا بحجّة صون عفّته من تهديد المخاطر، لأنّ ما من وضعٍ يجعل المرء في مأمنٍ من التجارب أكثر من الوضع الذي دعاه الله إليه. وإن هو لم يصُنْ عفّته فيه، فلن يصونها في أيّ مكانٍ آخر.
- السلوك الأمثل وأفضل ما يمكننا انتهاجه هو ارتضاء جميع الأوضاع التي يدعونا الله إليها، والثبات فيها، ما لم نتيقّنْ أنّ الله يدعونا إلى وضعٍ آخر.
- من العسير إصلاح كهنةٍ سيّئي السلوك، اعتادوا ممارسة الرذائل.
- لا يكفي أن تكون عفّة رجال الإكليرُس كاملةً، بل لا بدّ من ألّا يساور أشدّ المراقبين صرامةً أيّ ريبٍ في نصاعة سلوكهم. فعليهم، في حالاتٍ معيّنةٍ، الامتناع عن بعض أعمالٍ حميدةٍ، مثل عيادة مرضى، عندما يقتضي الحذر نأيهم عن أدنى ارتيابٍ قد يسبّبه قيامهم بهذه الأعمال.

- ما من حالٍ، في العالم يخلو من مرارةٍ ومنغّصاتٍ وأسباب نفورٍ. وليس من لا تخامره رغبةٌ في انتهاج دربٍ آخر.
- أعضاء الإكليرُس هم صوَرٌ حيّةٌ لقدرة الله، وعطف الخالق. فعليهم أن يتبادلوا مشاعر احترامٍ ومحبّةٍ متميّزةٍ.
- ينبغي أن يكون حديث الكاهن وقورًا، بسيطًا، منزّهًا من التصنّع الذي يُفسد، عمومًا، أحاديث الناس.
- إنّ إسراف الكاهن في التحدّث إلى ذويه يُفقِدُه تقديرَهم واحترامهم. فما من نبيٍّ في وطنه.
- بين جميع الوسائل التي يزوّد بها الله البشر من أجل تقويم أخطاء حياتهم، ليس أكثر إحداثًا لتأثيراتٍ باهرةٍ، ومتعدّدةٍ، ورائعةٍ، من الرياضات الروحيّة.

غِيرةٌ رَسوليّةٌ

- النفس الخاضعة دائمًا لروح الله تصبح قادرةً على تحقيق أعمالٍ خارقةٍ.
- الغيرة على خلاص النفوس هي محبّةٌ مضطرمةٌ، ورغبةٌ ملتهبةٌ في إيصالها إلى السعادة الأبديّة، وفاءً لخدمة الله.
- لا يقتضي منّا الله قوًى جسديّةً، بل استعدادًا صادقًا لاغتنام فرَص خدمته، وفقًا لمشيئته، ولما يدعونا إليه. وقد يقتضي منّا، إذا شاء، رغبةً حقيقيّةً في التألّم، بل في الاستشهاد.
- مَن يطيب له العمل في سبيل خلاص القريب، وفقط بُغيةَ مجد الله، وبالتوافق مع مثال يسوع المسيح، فليتيقّنْ أنّ الله سيكلّل أعماله بأروع نجاحٍ.
- يجب أن نمعن في العمل حبًّا بالله، غير عابئين بتقدير البشر، ولنعمل على خلاصهم غير ملتفتين إلى أقوالهم.
- علينا أن نكون لله وللقريب بلا تحفّظٍ. ويجب أن تجعلنا محبّتنا لهذا وذاك، دائبي الاستعداد لمواجهة وتحمّل أدهى المصاعب.
- إنّ خلاص نفسٍ من عظمة الشأن بحيث يقتضي تحقيقه المخاطرة لا بالممتلكات فحسبُ بل بالحياة أيضًا.
- الغيرة التي تواكبها نفحة النعمة والمحبّة تلطّف مرارة التوبة وتفيض العزاء في غمرة الآلام والجهود.
- ينبغي شدّ أزر الخطأة، وإنعاش ثقتهم، في حين أنّ إبليس يلجأ إلى الشدّة والقسوة مع بعضهم لكي يشيع في نفوسهم أعنف اضطرابٍ.

- قد تتلطّى دوافع بشريّةٌ تحت ادّعاء الغيرة وتمجيد الله، وتدفع إلى أعمالٍ لا تمتّ بصلةٍ إلى الله، ولا تكلّلها حكمته بأيّ نجاحٍ.
- الموت الذي يباغتنا ونحن ممتشقون سلاح خدمة ربّنا هو الأكثر مجدًا واشتهاءً.
- لا يجوز أن نتخلّى أبدًا عن نهج الرقّة والمحبّة، في العلن، أو على انفرادٍ، حتّى ونحن نتعامل مع خطأةٍ متصلّبين، والتحاشي دائمًا عن استعمال المسبّات والذمّ، والتأنيب، والكلام القاسي. فهذه كلّها لا تليق بمَن يسعى إلى إفادة قريبه، وهي، عوضًا من اجتذاب النفوس إلى الله، لا تفضي إلّا إلى إسخاطها، ودفعها إلى مزيدٍ من البعد عن الله.
- خلاص المسيحيّين يعتمدُ على عطف الكهنة وغيرتهم. الكاهن الصالح كنزٌ ثمينٌ.
- إنّ أسنى نتائج الغيرة على خلاص النفوس هي:
  - المخاطرة بالصحّة والحياة من أجل غوث النفوس.
  - التألّم الشديد لدى رؤية الإهانات المرتكبة حيال الجلالة الإلهيّة.
  - محاولة إصلاح مَن يهينون الله، بحضورنا، بمحبّةٍ وبمراعاة احتياجاتهم الخاصّة.
  - تثقيف الفقراء الذين نلتقيهم في أماكن نمكث فيها بعض الوقت.
  - والغيرة الرسوليّة على خلاص النفوس تدفعنا إلى:
    - أن نفرح بما يحقّقه آخرون من أعمالٍ عظيمةٍ في سبيل مجد الله، وخدمة القريب.
    - أن نعبّرَ عن تقديرنا، ونمتدحَ مَن يجهدون في أعمال الرسالة، وأن نصلّي بحرارةٍ من أجلهم، لكي يحفظَهم الله، ويجعلَهم يزدهرون، ويباركَ مساعيهم وينمّي أعمالهم.

- علينا أن نكون كلًّا للكلّ، لكي نأتي بالجميع إلى الله.
- لا نُكسبُ لله نفوسَ الأشدّ تصلّبًا في الخطيئة إلّا باللطف، والتعاطف مع عيوبهم، ومقاسمتهم مصائبَهم برقّةٍ.
- لم أُرسَل لكيّ أحبَّ الله فقط، بل أيضًا لكي أدعوَ إلى حبِّه.
- قد ينتج ثلاثة عمّالٍ أكثر من إنتاج عشرةٍ آخرين، عندما يضع الله يده في عملهم، ويقتضي منهم القيام بما يفوق قواهم.
- دعوتنا هي الطواف في المعمورة من أجل إلهاب قلوب البشر، وفعل ما فعله ابن الله الذي جاء كي يُضرمَ في العالم نارًا، ويلهبَه بحبّه. وما علينا إلّا ابتغاء أن تضطرمَ هذه النار، وتحرقَ كلّ شيءٍ.

الوعظ

- مع أنّه كان من اليسير على ربّنا أن يقدّمَ للشعب مواعظ ساميةً ومدهشةً، إلّا أنّه اختار تقديم أمثلةٍ عن العامل، والكرّام، والحقل، وحبّة الخردل، وما شابهها.
- يجب أن تُقدَّم المواعظ والتعاليم الدينيّة بأُسلوبٍ بسيطٍ ومألوفٍ، على غرار التعاليم التي تنازل ربُّنا فأدلى بها. لقد كان بوسع ذلك المعلّم الفذّ تفسير الأسرار الإلهيّة بعباراتٍ توازيها سموًّا، بما أنّه كان كلمة الله وحكمته. ومع ذلك لم يستخدم سوى عباراتٍ وتشبيهاتٍ مألوفةٍ لكي تكون تعاليمه بمتناول الشعب، ولكي يعطينا نموذجًا مثاليًّا لطريقة تفسير تعليمه الإلهيّ.
- قبل أن نعلّم الآخرين شيئًا يجب أن نكون قد مارسناه طويلًا. وبهذه الطريقة سيُثمر كلام الله الخارج من أفواهنا مئات الأمثال.
- عندما يعتمد رئيسٌ، أو واعظٌ، أو أُستاذٌ على سحر أقواله وحكمته، أو على علمه، وذهنه الخاصّ، ينسحب الله، ويدعه يعمل بمفرده. وحينئذٍ لا تؤتي كلّ جهوده ثمرةً. ويسمح الله بذلك لكي يرسّخ لديه اليقين أنّه، بذاته، غير كافٍ، وأنّ خبراتِه ومواهبَه، بمعزلٍ عن عون الله، لا طائل منها.
- ليست فخامة الخطاب هي التي تسهم في خلاص النفوس، بل البساطة والتواضع هما اللذان يُشرعان القلوب لعمل النعمة.
- كبرياءُ هي نشدان النجاح في كلّ مكانٍ، والتألّق على المنابر باختيار كلماتٍ جديدةٍ، سعيًا إلى ثناء الناس، وإعجابهم بنا، وتمجيدنا.

يا أيّتها الكبرياء الملعونة، ما أكثر مضارّك! فأنت تجعلين الواعظ يبشّر بنفسه بدلًا من التبشير بالمسيح، مغفلًا النفوس.

- مَن يعظ طمعًا في تصفيقٍ ومديحٍ، وتقديرٍ، إنّما يرتكب تدنيسًا. أفليسَ تدنيسًا استخدامُ كلام الله من أجل اكتساب التكريم والشُهرة؟

- حذارِ من روح التباهي الذي يدفع إلى استخدام خواطر رفيعة السموّ في الإرشاد في حين أنّ التواضع والنيّة الصافية في إرضاء الله هما وسيلة إنجاح ما يُعمَل لمجد الله.

- ملعونةٌ الرغبة في التألّق! فكم تُفسِد حسناتٍ، وكم تنتج شرورًا، لأنّها تجعل مَن واجبُه التبشير بيسوع يبشّر بذاته، فيدمّر عوضًا من أن يبني.

- الواعظون المتكلّمون بلغة الإنجيل يؤتون من الثمار أكثر، بلا قياسٍ، ممّن يملأون مواعظهم أقوالًا بشريّةً، وخواطر فلسفيّةً، لأنّ كلام الله مصحوبٌ دائمًا بنفحةٍ سماويّةٍ، تفيض، سرًّا، في قلوب السامعين.

- فلنقلْ ما يتوجّبُ علينا قولُه ببساطةٍ، ووداعةٍ، وتواضعٍ، ولكن بقوّةٍ، وبمحبّةٍ. ولا نسعيَنَّ إلى إرضاء ذواتنا بل إلى إرضاء الله. فكلّ ما سوى ذلك هو كبرياءُ باطلةٌ.

التواضع

- التواضع هو أساس الكمال الإنجيليّ، وعقدة كلّ حياةٍ روحيّةٍ، وهو فضيلة جمعيّة الرسالة، ولولاه لما حقّقنا أمرًا ذا بالٍ.
- لو امتلكتُ الفضائلَ كلَّها، وافتقرتُ إلى التواضع فليس لديّ سوى الخطيئة، ولستُ سوى فرّيسيٍّ متكبّرٍ، ومرسَلٍ بشعٍ.
- نحن لسنا سوى عتّالين لمواهبنا، ولا يحقّ لأحدٍ التباهي بذاته، وإذا حقّق الله بواسطة أحدنا أمورًا عظيمةً فعليه أن يزداد تواضعًا.
- فلْيقولوا عنّا ما يشاؤون، ولْيَنعتونا بالجهل ووضاعة المنشأ وحتّى بالنذالة وعلينا أن نتحمّل ذلك... أما قالوا أكثر من ذلك عن الرسل، وأَلَمْ يصفوهم بأشدّ النمائم قذارةً؟!
- لطالما كان العِلْم الخالي من التواضع وبالًا على الكنيسة. ومثلما أَسقطت الكبرياءُ الملائكةَ المتمرّدين، كذلك هي تفعل بالمزدهين بعلمهم. ومن المؤكّد أنّ أكثر الأبالسة جهلًا، يملك من العلم أكثر من أبرع فيلسوفٍ، ومن أعمق لاهوتيٍّ توغّلًا في علمه.
- لا يحتاج الله إلى علماء كي يُنجِح أعماله، بل هو يختار، غالبًا، من أجل ردّ البشر إليه، أشخاصًا بسطاء، مثلما كان رسله.
- أليس السعي إلى تقدير الناس تعبيرًا عن رغبةٍ في أن نُعامَل خيرًا ممّا عوملَ ابن الله؟ وأليسَ حماقةً إيثار تقدير العالم على تقديرك يا إلهي، وإيثارًا للظلّ على الواقع، والكذب على الحقيقة؟
- المتعلّمون المتواضعون هم كنز الجمعيّة.

- لا يصلح للقيام بأعمال الله إلّا مَن يتّصفون بتواضعٍ سحيقٍ، ويزدرون ذواتِهم بصدقٍ.
- وحدَه التواضع السحيق يؤهّلنا للاستفادة التامّة من النعَم الخاصّة، التي يتنازل الله ويُسبغها علينا. ولكن ينبغي أن يقترن هذا التواضع بثقةٍ لامحدودةٍ بالعطف الإلهيّ، وبتجرّدٍ تامٍّ عن كلّ ذواتنا، وعن كلّ ما نستطيع فعله بقدراتنا الذاتيّة.
- فَلْنكنْ صغارًا، وَلْنفرحْ بصِغَرنا، وإلّا فلن نكون تلاميذ كاملين ليسوع المسيح.
- من كلّ وسائل الحفاظ على الاتّحاد مع القريب، وعلى محبّته، الوسيلة الأوفر جدوى هي التواضع المقدّس، ووضع الذات تحت العالم أجمع، واعتبارها الأكثر سوءًا وحقارةً.
- عندما تفقد جماعةٌ التواضع، يُكبّ كلّ فردٍ على مصالحه الخاصّة، وتنشأ الانقسامات والشقاقات.
- البارّ الذي يتخلّى عن التواضع ينبذُه الله، رغم أنّ كلّ أعمالِه صالحةٌ. وما كان يبدو لديه فضيلةً يتحوّل إلى رذيلةٍ.
- الخاطئ الذي يأخذه تواضعٌ صادقٌ، يعترف أمامَ الله بهَوَانه، ويُبرَّر، أو، على الأقلّ، يجد في تواضعه، وسيلةَ خلاصٍ قديرةً، ويبرَّر من خطاياه. وبالمقابل الإنسان المتميّز بأخلاقٍ ملائكيّةٍ، والمزدان بالفضائل الأكثر ندرةً، والمتمرّس بها إلى أسمى درجةٍ، إذا هو افتقر إلى التواضع، فهو يحاكي أسوأَ منبوذٍ، لأنّ جميع فضائله تفتقرُ إلى قاعدةٍ تضمن لها الثبات.
- إنّ الله يمتحنُ بالمهانة مَن يبتغي ترقيتَهم. ولكي نستحقَّ نعمةَ عمله، علينا الإمعانُ في الصلاة، وفي ممارسة شتّى الفضائل، ولا سيّما الصبر والخضوع لمشيئة الله.

- قليلون هم الذين يمارسون التواضع ممارسةً صادقةً. لأنّ مَن يقتصر على تأمّل هذه الفضيلة يجدها جميلةً، محبوبةً، رائعةً. ولكن، عندما يشرع بممارستها تبدو له منفّرةً للطبيعة. فما تقتضيه لا يروق لنا، لأنّها تريد منّا أن نلتزم المكان الأخير، وأن نضع أنفسنا أوطأ مع جميع مَن نعيش معهم، حتّى إذا كانوا دوننا منصبًا، وأن نتحمّل، بلا شكوى، ما نُرشَق به من نمائم، وأن نرتضي الازدراء، ونحبّ التحقير، فيما نحن، بفطرتنا، ننفر من كلّ هذه المقتضيات. ومع ذلك لا بدّ لنا من تخطّي هذا النفور، ونجهد في ممارسة التواضع، واقعيًّا، وإلّا لن نكون أبدًا متواضعين.

- فلنرتضِ التحقيرَ الذي نُحاطُ به، على أنّه ملجأٌ أمينٌ ممّا تثيره فينا نزعتُنا الوبيلة إلى الكبرياء.

- لِنَدعْ لله كلّ مجدٍ، ولا نستَبْقِ لذواتنا إلّا الازدراء والخزي، فهذا فقط ما نستحقُّه.

- التواضع هو الفضيلة التي أحبّها ربُّنا حبًّا جمًّا، والتي جاء كي يلقّنها للعالم. وهو فضيلة أمّه القدّيسة، وفضيلة كبار القدّيسين.

- التواضع الصادق يجمع كلّ الفضائل ويُدخلُها جميعَها إلى القلوب.

- الشهرة باطلةٌ، إن لم تكنْ مرتكِزةً على الحقيقة. ولكنّها عندما تقوم على قاعدة الحقيقة فلا خوفَ من فقدانها.

- السلاح الأمضى لقهر إبليس هو التواضع.

- عندما نتبيّن أنّ كلّ ما هو فينا أرضيٌّ، ومَشوبٌ بالعيوب، تتوفّر لدينا أسباب تواضعنا أمامَ الله، وأمام البشر، وحتّى مَن هم أدنى منّا.

- فلنقلْ لله ولذواتنا: إذا راودتني خاطرتان، فلن أبوحَ إلّا بأدناها الكفيلة بدعوتي إلى التواضع، وأحبس أكثرهما جمالًا، كي أقدّمها لله ضحيّةً، في سرّ قلبي.
- في بساطة الأقوال والأفعال يقيم روح يسوع المسيح. ومن العبث البحث عنه في مكانٍ آخر.
- فلنرَ في الآخرين رؤساء لنا، ولنخضعْ لهم، حتّى إذا كانوا أدنى منّا منصبًا، ولنُحِطهم بكلّ مبادرات الاحترام والخدمات. وكم سيكون من دواعي فخرنا ومصلحتنا أن يتنازلَ عطفُ الله، ويثبّتَنا في هذه الممارسة.
- المتواضع الحقيقيّ يعدّ نفسه الأكثر نقصًا وذنوبًا، ويعدّ عمًى خفيًّا إخفاقَه في تبيّن عيوبه التي يراها الجميع.
- فَلْننصرفْ بعزيمةٍ، يا إخوتي، إلى التمرّس بالفضيلة، ولا سيّما فضيلة التواضع، التواضع، التواضع.
- إذا كافحنا الشرّير بروح الكبرياء والادّعاء، فلن نتمكّنَ منه، لأنّه يملك من الكبرياء والادّعاء أكثر منّا. ولكن إذا كافحناه بتواضعٍ، فسنقهره، لأنّ الشرّير لا يملك هذا السلاح، ولا يعرف استعمالَه.
- الوسيلة المجدية لصون تواضعنا: أن نشيح بأبصارنا عمّا فينا من خيرٍ، وأن نتبيّنَ دخيلتَنا، وكلّ ما فينا من شرورٍ وعيوبٍ.
- يملأ الله القلب الذي أُفرغ من ذاته، وأمسى له وحده، وهو فيه يُقيم، وفيه يعمل. وإنّما يفرغنا من ذواتنا ارتضاؤنا المهانة، والتواضع المقدّس، فحينئذٍ لن نكون نحن مَن نعمل، بل سيفعل الله فينا.

إنّ ذلك يعارض روح العالم وممارساته، وهو غريبٌ عن نزعات الإنسان، وعن طبيعة كلّ فردٍ، بحيث لم يكن ليرضى أحدٌ بسماعه، لو لم يقُلْه الله نفسه، ولو لم ينفّذه.

- ابدأوا بالزهيد، وارتضوا بالمهانة. هذه هي وسيلة استدرار النعَم.
- التواضع يردعنا عن نشدان أيّ تقديرٍ غير تقدير الله الذي يثمّن كلّ شيءٍ. وإنّه لجنونٌ أن نؤثرَ تقديرَ العالم على تقدير الله، لأنّنا، بذلك، نؤثر الخيال على الواقع، ونؤثر الكذب على الحقيقة.
- من يؤمن بيسوع المصلوب لا يضيره أن يُعَدّ، نظير يسوع، أدنى البشر بل أسوأَهم.
- التواضع هو تقبّل الازدراء، والرغبة في التعرّض للتحقير، والابتهاج به عندما يحدث من أجل حبّ الله. قد يكون ذلك صعبًا، ولكن ما الذي لا يقوى عليه الإنسان المدعوم بالنعمة؟ فلنرتضِ بأن نُعَدَّ هزيلي الفكر، مزعجين، مجرَّدين من الفضائل، مبتلين بكلّ أنواع النقائص، مستحقّين الشتيمة والنبذ، جهلاء، مذمومين، فاسدين، لا نُطاق.
- لا ريب أنّ ذلك شاقٌّ، ولكن عندما يتعيّن تقبّله حبًّا بالله، فالله وعد بمكافأة ممارسة التواضع بامتيازاتٍ جمّةٍ، رافعًا الأخيرين إلى المرتبة الأولى، ومرتقيًا بالمتصاغرين إلى أرفع المناصب.

الكبرياء

- الكبرياء لا تهادن أبدًا، وتهاجم كبار القدّيسين بشتّى الأساليب، فتغري بعضًا بأن يتباهوا، باطلًا، بما يفعلونه من خيرٍ، وتدفع آخرين إلى الاعتزاز بعلمهم؛ توهم هذا بأنّه الأسمى كمالًا، وتوهم ذاك بأنّه يفوق الجميع ثباتًا ومثابرةً.

- العُجبُ يسمّم النفسَ التي يتسرّب إليها. إنّه طاعونٌ يسرّب وباءه إلى أكثر الأعمال قداسةً، وينسينا الله بسرعةٍ. إنّه العيب الأدهى وبالًا على كلّ تقدّمٍ في الحياة الروحيّة وفي الكمال.

- خيرٌ لنا أن نُلقَى بأكملنا في النار من أن نعملَ بغيةَ إرضاء البشر.

- الكبرياء رذيلةٌ مُفسِدةٌ، وعلينا خشيتُها بقدر ما تدفعنا إليها ميولنا الطبيعيّة بقوّةٍ. وعلينا أن نظلَّ ساهرين على مقاومتها، والعملُ بخلاف ما ترغب الطبيعة الفاسدة.

- عندما تغرينا الكبرياء بالتعالي، علينا أن نتواضع. وعندما توحي إلينا أفكار تقديرٍ لذواتنا، ينبغي أن نُعمِل الفكر في وهننا وعجزنا. وعندما تدفعنا إلى إبراز ذواتنا، يجب أن ننأى عن كلّ ما يُظهِرنا، وإيثار الأعمال الوضيعة والحقيرة على الأعمال العظيمة الجديرة بالتكريم.

- حِيَل إبليس الماكرة تلهمنا تذوّق سماع الأحاديث عن الله، وبذلك تحملنا على التباهي بهذه الرغبة. إنّ المجرِّب يسمّم نفوس الذين من خلال هذه الحجّة يفتحون للشرّير أبوابَ قلوبهم.

الصبر

- ما من حالٍ في العالم، منزّهةٌ من المرارة والتقزّز، وتحول دون تطلّعنا إلى طريقة حياةٍ أُخرى.

- النميمة هي دعوةٌ لنا كي نشكرَ الله، وكي نبتهجَ لأنّنا لم نقُم بما نُسب إلينا. ونحن نَسعدُ عندما يُنعم الله علينا بالتألّم من أجل الحقّ، وارتضاء الازدراء والخزي، ومقابلة الشرّ بالخير.

- الكمال يتمثّل في إنكارنا لذاتنا، وفي حمل صليبنا، وفي اتّباعنا يسوع. وإنّما يمعن في إنكار ذاته، ويجيدُ حملَ صليبه، ويتبع يسوع عن قربٍ، ذاك الذي لا يحقّق، أبدًا، مشيئتَه الخاصّة، بل يحقّق مشيئة الله في كلّ حينٍ.

- يجب أن نتمثّل بيسوع المسيح، قدّوس القدّيسين، الذي ارتضى أن يُتَّهم بشرٍّ لم يقترفْه، ومع ذلك لم يتلفّظ بكلمةٍ تزيل عنه هذا العار.

- ما نتحمّله بصبرٍ، من أجل عملٍ صالحٍ، يكتسب لنا النعم الكفيلة بإنجاحه.

- لا مفرّ من المعارضات في أيّ مكانٍ. ويكفي أن يكون شخصان معًا كي تنشأ بينهما مناسباتٌ لممارسة الصبر. وحتّى إذا كان المرء وحيدًا فهو يحتاج إلى الصبر لأنّ حياتَنا البائسة زاخرةٌ بالصلبان.

- نفسٌ دائمةُ السكون تحاكي مستنقعًا راكدًا، يَأسَنُ ماؤُه، ويبعثُ روائحَ كريهةً، في حين أنّ النفسَ الخاضعة للتجارب تحاكي ماءً جاريًا، دائمَ الصفاء، ودائم العذوبة.

- في العواصف التي تثيرها فينا النميمة، وفي الشتائم التي ترهقنا بها، علينا، إذا كنّا صادقين في تطلّعنا إلى الكمال، العزوف عن السعي إلى تبرير ذواتنا، بل علينا تقبّل الخزي، وتحمّل كلّ شيءٍ بصبرٍ، والاستسلام لله، بانتظار أن تحين ساعته.

الفطنة

- الفطنـة، فـي أمـور هـذا العـالم، لا تُعنـى إلّا بالشـؤون الزمنيّـة، وهـي، غالبًـا، مشبوهةٌ، ولا تستخدم إلّا الوسائل البشريّة المريبة.

- إنّ الفطنـة المقدّسـة التـي ينصحنا بهـا يسوع فـي الإنجيل تسـتهدف، دائمًـا، غايةً إلهيّةً، وتستخدم الوسائل المتوافقة مع هذه الغاية.

ثمّة طريقتان من أجل اختيار الوسائل: أولاهما هي استشارة العقل، مـع أنّـه، عمومًا، واهنٌ، وثانيتهما هي استشارة الإيمان، والحِكَم التي لقّننا إيّاها يسوع المسيح، والتي لا تخطئ.

- لا شـيء أكثـر مقاومـةً للنجـاح مـن التسـرّع. والتمهّـل، عمومًـا، يـؤتي مـن الجدوى أكثر ممّا يؤتي ضررًا.

- الفطنـة المسيحيّة الحقّـة تـدفعنا إلـى إخضـاع فكرنـا لوصايا الإنجيل، بمعزلٍ عن خوف الخطأ، وتعلّمنـا الحكم علـى الأُمور مثل حكم يسوع عليهـا، وأن نتكلّم ونعمل مثلما كان يسوع يتكلّم ويعمل.

- مـن شـأن الفطنـة ضـبطُ الخطابـات والأعمـال، وتعلّمنـا الـتكلّم بحـذرٍ لائـقٍ، وبالأُسـلوب الـذي تقتضـيه ظـروف الزمـان والمكـان، والأشـخاص، وموضـوع البحث. وهي تحظر علينا كلّ خطابٍ يسـيء إلـى الله وإلـى القريب، وكلّ قـولٍ يمالق كبرياءنا، أو يستهدف غايةً ذميمةً.

- إنّ الذين، بدافع خوفهم المفرط من أدنى إزعاجٍ، أو ألَمٍ، يتجنّبون التعب، ويعدّونـه ضارًّا بصحّتهم، هم فطنون حسب الجسد، ولكنّهم أقزامٌ، وعبيد حواسّهم.

- يُخشـى أن تكـون النصـيحة المعطـاة بتسـرّعٍ، وبـلا تمعّـنٍ، آتيـةً مـن الـرأي الذاتيّ، لا من روح الله.

- الفطنة تجعلنا نعمل بحذرٍ، من أجل الغاية التي استهدفناها. الإنسان الفطِن يعمل وفقَ الطريقة الملائمة، وفي الوقت المناسب، ومن أجل الغاية اللائقة، أي إنّه يعمل من أجل الله ويستخدم الوسائل الأكثر صلاحيّةً، والطريق الأكثر استقامةً وسلامةً، من أجل بلوغ الغاية المنشودة.
- مَن يضع ثقته في البشر، ومَن يعتمد على مواهبه الطبيعيّة، أو على الموارد التي ينعمُ بها، لا يثق بالله، وينأى بنفسه عنه تعالى.
- فضيلة الفطنة ضروريّةٌ جدًّا للتوافق مع الوضع الماثل، ومع استعدادات جميع مَن ينبغي التعاطي معهم: فهي تعلّم الحذر في الأفعال، والأقوال، وتجنّب كلّ ما قد يُسيء إلى أيٍّ كان، وكلّ ما من شأنه جرح التواضع والمحبّة.
- لا تُخدَش السلطةُ المعطاة للرؤساء، عندما هم يستشيرون مرؤوسيهم، في الأُمور الجارية، لا بل، على نقيض ذلك، يفضي النجاح الذي يواكب هذه المبادرة إلى جعل سلطتهم أكثر محبّةً واحترامًا، ويباركها الله.
- عادةً تتحقّق أعمال الله تدريجيًّا، تبدأ ببطءٍ وتتقدّم. فلا نزعمنَّ قدرتنا على إتمام كلّ شيءٍ دفعةً واحدةً. ولا نظنَّنَّ أنّ كلّ شيءٍ قد أُضيع لأنّ النجاح يستلزم عنايةً وصبرًا. بل فلنسِرْ خطوةً، خطوةً، موجّهين كثيرًا من الدعاء إلى الله.
- ليس، دائمًا، مناسبًا أن نعمل كلّ ما نستطيع عمله، بل علينا الاكتفاء بما تقتضيه المحبّة، وما يتوافق مع مشيئة الله، متمثّلين بربّنا الذي لم يشأ أن يفعل كلّ ما كان بوسعه فعله.
- عندما يوقن الإنسان أنّه فعل كلّ ما هو مطلوبٌ منه من أجل إنجاح عملٍ، فليُقِمْ في الهدوء والسلام، مهما حدث.
- عندما تنتابنا رغبةٌ حادّةٌ في إتمام عملٍ هامٍّ، حتّى إذا كان مقدّسًا، علينا إرجاؤه إلى وقتٍ لاحقٍ، بانتظار أن يستقرّ السجوّ والتسليم في قلبنا لكي لا يدنّس حبّ الذات نقاء نوايانا.

المثابرة

- ليس أكثر مثابرةً وثباتًا في عمل الخير من الودعاء. أمّا الذين يستسلمون بسهولةٍ للغضب، فهم، عمومًا، متقلّبون، ويعملون وفق نزواتهم، ووفق دوافع الطبيعة. وهم يحاكون سيولًا لا تُظهر قوّةً واندفاعًا إلّا في حال طوفانها، وتخمد حالما تُفرِغ محتواها، في حين أنّ السواقي، التي تمثّل الودعاء، تسير بلا ضوضاءَ وبهدوءٍ، ولا تنضب أبدًا.
- لا يجوز التخلّي عن مشروعٍ استُهلَّ بعد تروٍّ، أيّةً كانت العقبات التي تعترض طريقه.
- إنّ ما نعانيه بصبرٍ، أثناء قيامنا بعملٍ خيريٍّ، يؤتينا النعم الضروريّة الكفيلة بقيادة العمل إلى النجاح.
- إنّ القرارات المتّخذة بعد إعمال فكرٍ مستفيضٍ، واستشاراتٍ وافيةٍ، هي مرضيّةٌ لدى الجلالة الإلهيّة، فينبغي مقاومة كلّ نزعةٍ إلى التوقّف عن إتمامها.
- عندما نتبيّن إرادةَ الله حول عملٍ، ينبغي متابعته بجرأةٍ، أيّةً كانت العقبات التي تنهض في وجهه، والمضيّ به إلى غايته مُبدين من الثبات والمبادرة، بقدر ما تكون العوائق جسيمةً.
- نعمة المثابرة هي من أجلّ النعَم، لأنّها تتويجٌ للنعَم جمعاء.

الفَقر

- ما أجمل أن نرى الفقراء كما يراهم الله، وأن نقدّرهم مثلما قدّرهم يسوع المسيح!
- يُسبغ الله علينا نعمةً كبرى عندما يحرمنا ممّا قد يجعلنا مختلفين عن يسوع المسيح، الذي لم يملك لنفسه متاعًا خاصًّا.
- يبلغ المرء ذروة الغنى عندما يتشبّه بيسوع المسيح الفقير.
- ننال السعادةَ عندما يضعنا الربّ في حالٍ يمكّننا من تكريم فقره بفقرنا. وحينئذٍ نواجه ضرورةَ الاعتماد، في كلّ شيءٍ، على العناية الإلهيّة. ويا لها من ضرورةٍ مباركةٍ! وما أكثر المناسبات التي تضطرّنا إلى التماس ألطاف تلك العناية، وإلى التعاطف مع بؤس الفقراء، وممارسة أعمال صبرٍ، وتواضعٍ، وتضحياتٍ، وتوافقٍ مع مشيئة الله!
- يساعدنا نور الإيمان على أن نكتشف، في الفقراء، صورة ابن الله الحقيقيّة، فهو لم يكتفِ بأن يكون فقيرًا، بل أراد أن يُدعى معلّم الفقراء، وطبيبهم، وأباهم.
- بقدر ما نتوغّل في الفقر يترتّب علينا الإمعان في الثقة بالعناية الإلهيّة، التي يجب أن نستسلمَ لها، استسلامًا تامًّا، سواءٌ من أجل الخيرات الزمنيّة، أو من أجل الخيرات الروحيّة.
- يحبّ الله الفقراء، وبالتالي يحبّ مَن يعاملون الفقراء بمودّةٍ. فمن يحبّ كائنًا يحبّ أصدقاءه وخدّامه.
- لا ريب أنّ مَن يوكلُ إليه الله إسعافَ فقراءَ، لا يتذوّق، في غوثهم، من المتعة، أقلّ ممّا يتذوّق أبٌ عطوفٌ، وهو يؤاسي أبناءَه.

- من أحبّ الفقراء، أثناء حياته، لن يرتعد وهو يشهد اقتراب موعد وفاته.
- فلنألفِ الوضاعةَ، ولنبتهجْ بفقرنا. وإلّا لما كنّا تلاميذ حقيقيّين ليسوع الذي قال: "طوبى للفقراء، لأنّ ملكوت الله لهم".
- بخدمتنا الفقراء، نخدم يسوع المسيح.
- تعود راهبةُ المرضى، عشر مرّاتٍ، في اليوم، وعشرَ مرّاتٍ في اليوم، تلتقي الله.
- يقول القدّيس أوغسطينُس: ما نراه ليس مؤكّدًا، لأنّ حواسّنا تخدعنا. ولكنّ حقائقَ الله لا تخدع. اِذهبوا وشاهدوا المحكومين بأعمالٍ شاقّةٍ، المقيّدين بالسلاسل، تجدوا الله. واخدموا الأولاد الصغار تجدوا الله، وعندما تمضون إلى بيوتٍ فقيرةٍ تجدون فيها الله.
- فَلْنحذرْ من تقييم فلاّحٍ فقيرٍ، أو امرأةٍ فقيرةٍ، وفق ظاهرهما، ولا وفق ما يتبيّن من قدراتهما الذهنيّة، ولا سيّما أنّهما، غالبًا، لا يُظهِران وجهَ بشرٍ عاقلين، ولا ذهنَهم، بسبب إغراقهم في الفظاظة والسوقيّة.
- يجب التعامل مع الفقراء بكثيرٍ من العطف والاحترام، وبرقّةٍ، لأنّهم هم من سيفتحون لنا باب السماء، ففتح باب السماء هو امتيازهم. والربّ قال: "اتّخذوا لكم أصدقاء بالمال الخدّاع، حتّى إذا أدركه الزوال، قبلوكم في المظالّ الأبديّة" (لوقا ١٦: ٩). علينا، إذن، معاملتهم برقّةٍ واحترامٍ، ذاكرين أنّنا، بخدمتهم على هذا النحو، إنّما نخدم ربّنا، الذي يعدّ كلّ ما يُقدَّم للفقراء تقدمةً له.
- المحبّة تعلو على كلّ نظامٍ، ويجب أن تخضع لها جميع الأنظمة. إنّها سيّدةٌ عظيمةٌ، وينبغي تنفيذ كلّ ما تأمر به. عندما يدعونا الله إلى الصلاة، وفي الآن عينه يدعونا إلى خدمة الفقير المريض، فهذا يُدعى ترك الله من أجل الله.

- التديُّن الحقيقيّ هو تديُّن الفقراء، الذي يُغنيهم الله بإيمانٍ حيٍّ، فيؤمنون، ويلمسون، ويتذوّقون كلمات الحياة. وفي ورطة عِلَلهم، وأحزانهم، وعوزهم، لا ترونهم أبدًا، أو ترونهم نادرًا، يضجّون نفاد صبرٍ، ويتذمّرون، ويشكون.
- المسيحيّون هم أعضاء جسدٍ واحدٍ، وأعضاءٌ بعضهم لبعضٍ، فعليهم أن يتعاطفوا. فالمسيحيّ الذي يرى أخاه مغتَمًّا، ولا يشاركه دموعه ومرضه، وهمومه، إنّما هو يفتقر إلى المحبّة، ومسيحيّته مجرّد طلاءٍ، وهو خالٍ من الإنسانيّة، وأسوأ من البهائم.
- فليهبْنا الله نعمةَ التوافق الدائم بين سلوكنا ومشاعرنا، وسلوكه ومشاعره... جميع المعمّدين يلبسون روحه، ولكن لا يفعل جميعهم أفعالَه. إذن، على كلٍّ منّا السعي إلى التوافق مع الربّ، لكيلا نكون مخلَّصين فحسب، بل أيضًا مخلِّصين على غراره، من خلال تعاوننا معه على خلاص النفوس.
- مَن تسكنُهم المحبّة الحقيقيّة، يُظهرونها في الخارج. فمن طبيعة النار أن تضيء وتدفئ ومن طبيعة المحبّة أن تسبغ احترامًا ولطفًا على الشخص المحبوب.
- من المؤكّد أنّ المحبّة، عندما تسكن نفسًا، تحتلّ كلّ طاقاتها، وتحرمها الراحة، لأنّها نارٌ دائمة الاضطرام، وتبقي النفس التي تلهبها في دأبٍ وقلقٍ مستمرَّيْن.
- قد يكون الشعور رائعًا، وشرارة إشعالٍ، ولكنّه ليس كلّ المحبّة، فالمحبّة الناضجة تقتضي توظيف كلّ طاقات الإنسان، توظيف المرء بكلّيّته.
- لقد وعد الربّ بمكافآتٍ أبديّةٍ من يعطون فقيرًا كأس ماء... وهذا الوعد هو مدعاةُ ثقةٍ كبرى. فإن كان الربّ يعطي سعادةً أبديّةً لمن يجودون بكأس ماءٍ، فما عساه يُعطي ابنةَ محبّةٍ تتخلّى عن كلّ شيءٍ، وتهب ذاتها لخدمة الفقراء مدى حياتها؟ لا يمكنها تصوّر ما سيعطيها، ويحقّ لها توقّع أن تكون في عداد مَن سيقول لهم، ولهنّ: "تعالوا يا مباركي أبي، وخذوا المُلْكَ المعدَّ لكم".

- لا يكفي أن نخدمَ الله، ونغيثَ الفقراء، بل ينبغي السعي إلى فعل ذلك، بطريقةٍ مثلى.

- على اليد أن تتوافق، بقدر المستطاع، مع القلب.

- وراء التصريحات العامّة والمجرّدة، لا يسوغ، أبدًا، أن ننسى أنّ هناك وجوهَ رجالٍ ونساءٍ، وجماعاتٍ بشريّةٍ لا يحيط بها إحصاءٌ، وكلُّ فردٍ منها هو فريدٌ، لا يمكن استبداله، ولن يوجد، يومًا، كائنٌ بشريٌّ آخر، مثيلٌ له.

- علينا معاملة الفقراء بجمٍّ من الرقّة والاحترام، متذكّرين أنّنا، من خلالهم، نخدم ربّنا نفسه... إذا كان مريضًا، فأنا، أيضًا، مريضٌ. وإن كان سجينًا فأنا، أيضًا، سجينٌ. وإذا كان مكبّلًا بقيودٍ، فأنا، أيضًا، مكبّلٌ بها.

- التعاطف هو الذي جاء بالربّ من السماء، لأنّه رأى البشر محرومين من مجده ولأنّه تأثّر بمعاناتهم. وعلى غراره يجب أن نرقَّ لقريبنا المفجوع، ونقاسمَه أساه. كم كنتَ متعاطفًا مع المعانين، أيّها القدّيس بولس! ويا ربّنا ومخلّصَنا الذي ملأ قلب رسوله بروحه وعطفه، اجعلنا نقول معه: "مَن يمرض ولا أمرض أنا؟".

- إنّ تبشير الفقراء هو، بامتيازٍ، عملُ ابن الله، ونحن تولّينا هذه المهمّة بصفتنا أدواتٍ يتابع بها ابن الله من السماء ما فعله على الأرض.

- نذرُ جمعيّتنا الرابع هو المثابرة على خدمة الفقراء.

- من أجدى وسائل اتّحادنا بالله ممارسة الفقر.

- أيّها المخلّص... ما تُرى يحلُّ بنا إذا كنّا متشبّثين بخيرات الأرض. وبعد أن شهدنا مثال فقر ابن الله، عسى أن يعزف مالكو الخيرات والثروات على الاستئثار بها. وعسى ألّا يرغب فيها مَن يفتقرون إليها.

- عمل الربّ الأوّل على الأرض كان الفقر، وتعليمه الأوّل كان: "طوبى للفقراء..."
- لا أحد، حتّى فرنسيس الأسّيزيّ، يضع يدَه بيد الفقر، تلقائيًّا، إن لم يجمعهما الله.
- الفقر هو الحصن المنيع الذي سيحفظ جمعيّتنا، بعون الله.
- نحن نحيا بإرث يسوع المسيح، وبعرق الفقراء. وعلينا أن نجيل في فكرنا، ونحن قاصدون المائدة: "هل استحققتُ بجهدي الطعام الذي سأتناوله؟". غالبًا ما يستحوذ عليّ الخجل، عندما أفكّر: "أيّها البائس، هل استحققتَ الخبز الذي ستتناوله، هذا الخبز الناتج عن عمل الفقراء؟". وإن لم نستحقّه، مثلهم، فلنصلِّ من أجل احتياجاتهم. إنّ البهائم تعرف الذين يطعمونها. والفقراء هم الذين يطعموننا، فلندْعُ الله من أجلهم. ولا يمرّنَّ يومٌ لا نقدّمهم فيه لله.

السيّدة الفقر

• منذ لحظاتٍ كنت أتساءل هل الفقر هو من الجمال الفائق بحيث كان القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ يدعوهُ سيّدتَه. ما أروع الفقر! يبدو لي أنّه يزدان بكلّ الامتيازات، ولو أُتيح لنا أن نراه عن كثبٍ، لعشقناه، ولما طِقنا، من بعدُ، الانفصال عنه، ولأحببناه أكثر من كلّ خيرات العالم. آه! ليت الله يميط الحجاب الذي يحول دون مشاهدتنا كلّ هذا الجمال! ولو بنعمة الله، أُزيحت كلّ الحجُب التي يضعها العالم، وتضعها أنانيّتنا أمام عيوننا، لسحرتنا مفاتن هذه الفضيلة، التي كانت فضيلة ابن الله الأثيرة، وهو أوّل من لقّنها، وابتغى أن يكون سيّدها.

من قبله كان الفقر مجهولًا، ولم يشأ الربّ أن نعرفَه عن طريق الأنبياء، بل احتفظ لنفسه بتلقيننا إيّاه. لقد جاء كي يعلّمناه، حين لم يكن أحدٌ يقيم للفقر وزنًا، أو يعرف أفضاله...

نصيبنا، إذن، أيّها السادة، ويا إخوتي هو الفقراء. ويا لها من سعادةٍ أن نعمل ما جاء ربّنا من السماء إلى الأرض من أجله، وها نحن نمضي من الأرض إلى السماء، كي نتابع عمل الربّ، الذي نأى عن المدن، وقصد القرى، بحثًا عن الفقراء. هذا، بالتحديد، ما يدعونا إليه نظام جمعيّتنا: إغاثة الفقراء، سادتنا ومعلّمينا. بورك نظام جمعيّتنا الذي يلزمنا بخدمتهم، والانصراف عن المدن، وهو أمرٌ غير مألوفٍ. وبورك الذين ينفّذون هذا النظام لأنّهم ينفقون حياتهم، وكلّ أفعالهم مع أعمال ابن الله وحياته... وفعل ما جاء ابن الله إلى العالم من أجل فعله. إنّ وجود جمعيّةٍ، وبالتحديد جمعيّة الرسالة، المؤلَّفة من فقراء لا همّ لها سوى الطواف في القرى، والدساكر، بعيدًا عن المدن، واقعٌ لم يحدث من قبل، من أجل التبشير بالإنجيل للفقراء فقط، وفق مقتضيات نظامنا.

تجرّدٌ

- لم يسمح يسوع للتلميذ الذي شرع يسير في إثره، بالذهاب من أجل دفن أبيه. والربّ لا يعدّ تلميذًا له مَن لا يترك أباه وأُمّه، ومن لا يتخلّى حتّى عن ذاته، من أجل الانقطاع للرسالة.
- الخطوة الأولى على طريق اتّباع يسوع هي التخلّي عن الذات، أي عن المشاعر والأهواء، والإرادة الخاصّة، وعن الحكم الذاتيّ، وعن كلّ النزعات الفطريّة.
- النفس التي ما برحت ممتلكةً ذاتها، ومتمسّكةً بإرادتها الخاصّة، تفتقر إلى فضيلةٍ متينةٍ.
- ما من كمالٍ أسمى، ولا أقدس من الاستسلام لمشيئة الله، الذي يقيمنا في تجرّدٍ تامٍّ عن ذواتنا، وفي تسليمٍ متساوٍ بكلّ الحالات التي قد نجد أنفسنا فيها.
- الفضول هو طاعون الحياة الروحيّة. ففضول أبينا الأوّل هو الذي أدخل إلى العالم الجوع، والأمراض، والموت وشتّى العلَل. فعلينا أن ننأى عنه بصفته مصدر كلّ الرذائل.

البساطة

- البساطة تتّجه صوب الله الذي يرنو إليها بعين الرضى. والبساطة تجعلنا شبهاء بالله، الكائن الأسمى بساطةً، والذي لا يرضى أن يخالطه شيءٌ.
- بما أنّ مكر البشر ومواربتهم سائدان، فمن واجبنا مكافحة هذين الشرّين وقهرهما، بروح يسوع المسيح، أي بالصراحة والبساطة، وبانتباذ كلّ ازدواجيّةٍ وخداعٍ، والعزوف عن الاتّكاء على نفاق البشر وسياساتهم.
- باعتمادنا البساطة، نسير مباشرةً إلى الله، مغفلين مصلحتنا الخاصّة، والحياء البشريّ، متكلّمين وعاملين بلا تنكّرٍ، ولا خداعٍ، وملتزمين بالحقيقة، وصفاء النيّة، ونائين بأنفسنا عن كلّ رياءٍ.
- البساطة تفرض توافق أقوالنا مع مشاعر قلوبنا. غير أنّها لا تلزمنا بإظهار كلّ أفكارنا الكمينة. فالبساطة لا تتعارض مع الفطنة، وهي تساعدنا على التمييز بين ما يتعيّن علينا قوله، وما ينبغي علينا السكوت عنه، وترشدنا إلى الوقت الملائم للكلام، والوقت الملائم للصمت.
- المشاريع التي تُباشَر بأساليب بسيطةٍ ومألوفةٍ تحظى بعطف الله أكثر من تلك التي تُستَخدم فيها وسائل خارقةٌ وباهرةٌ.
- روح يسوع هو روح استقامةٍ وصدقٍ. على المدعوّ إلى تمجيد هذا الإله المخلّص أن يقتدي بروحه.
- النفاق لا يروق لله. فعلى من ابتغى البساطة، حقًّا، ألّا يستهدف سوى رضى الله وحدَه.
- خير سلاحٍ للقضاء على الرياء والاحتيال هو الصراحة والبساطة.

- فلتَقُد البساطة أعمالنا، ولا نسعَ إلّا في سبيل الله، سواءٌ في الأُمور الزمنيّة، أو في ميادين التقوى، ساهرين على ألّا يشوبَها رياءٌ، أو ادّعاءٌ باطلٌ. أجل، فلنسعَ إلى خدمة الله وتمجيده، غير مبالين بما قد يقوله البشر أو يفعلونه.
- الوسيلة المثلى من أجل اجتذاب إلى الله أشخاصًا اعتادوا استخدام البراعة والحيلة هي التعامل معهم بأكبر قدرٍ من البساطة.
- بساطة المظهر، والقدوة الصالحة هما وعظٌ صامتٌ، ولكنّه جزيل الجدوى، وهو المعيار الذي يميّز بين مَن هم، جوهريًّا، خدّام الله، ومن هم عبيد حواسّهم.
- الشهرة باطلةٌ إن لم ترتكز على الحقيقة. ولكنّها عندما تقوم على هذه الركيزة، فلا خوف من فقدانها.
- الله بسيطٌ، لا بل هو البساطة عينها. ومن ثمّ حيث البساطة، هناك الله.

وداعَةٌ ورِقّةٌ ولطفٌ

- الخطوة الأولى في ممارسة الوداعة هي مقاومة ما يعارضها، مثل مقاومة الغضب، حالما نشعر به، أو ممارسة الغضب المقدّس ممارسةً لا تنزع عنه الرقّة...

والخطوة الثانية إظهار الكثير من المودّة ومن سجوّ النفس حيال المتّصلين بنا، بحيث نكون لهم مصدر عزاءٍ ومؤاساةٍ. أمّا الخطوة الثالثة فهي تجاهل الإساءة، والإحجام عن إظهار تأثّرنا بها، ومحاولة عذرها، داخليًّا، باعتبارها حدثت بلا قصدٍ من المسيء، وبردّ فعلٍ متسرّعٍ منه؛ وأخيرًا، إقصاء الأمر عن فكرنا، والسكوت عن أقوال المسيء الخبيثة، والامتناع عن الردّ عليها، والتظاهر بعدم سماعها.

- لا تدعونا الوداعة إلى غفران ما نتلقّاه من إهاناتٍ وظلمٍ فقط، بل تدعونا، أيضًا، إلى التعامل برقّةٍ مع مَن يهينوننا ويظلموننا، بأقوالٍ رقيقةٍ. وحتّى عندما تبلغ بهم الإهانة إلى صفعنا، فلنتقبّل الصفعة حبًّا بالله، وحتّى إذا أُلقي القبض على خادم الله المتمرّس بالوداعة، فهو يقدّم لله هذه المعاملة القاسية، ولا يتخلّى عن سجوّ نفسه.

- أظنّ أنّ النفوس المتمرّسة بفضيلة الوداعة هي التي تنفرد بنعمة تمييز الأُمور؛ فكما يفسد الغضب العقل، تنعم فضيلة مقاومته بالتمييز.

- الوداعة الزائفة رخوةٌ وجبانةٌ، ومستسلمةٌ. أمّا الوداعة الحقّة، فلا تنفر من الشدّة في عمل الخير، لا بل هي دائمًا ملتصقةٌ بها، كما أنّ جميع الفضائل الحقّة ملتصقةٌ بها.

- يُشاهَد، أحيانًا، أشخاصٌ يُظهرون وداعةً كبرى، في حين لا تكون وداعتهم سوى نتاج طبيعتهم المعتدلة، وفي حين هم مفتقرون إلى الرقّة المسيحيّة المتميّزة بقمع وخنق ثورات الرذيلة المناقضة للفضيلة. فليس عفيفًا من لا تساوره رغباتٌ عكرةٌ، بل العفيف هو مَن إذا ساورته هذه الرغبات يقاومها بحزمٍ.
- الرقّة ومساندة القريب هما منبع سلامٍ، ورابط كمالٍ يوحّد القلوب.
- الرقّة تتحمّل عيوب القريب، وجفاء معاملته، بغية اجتذابه إلى معرفة الله وحبّه، من خلال هذه المراعاة.
- من صفات روح الله العمل برقّةٍ وحبٍّ. والوسيلة المثلى لإنجاح ما نقوم به، هو التمثّل بهذا الروح.
- ألم ينصحْنا يسوع بالتمثّل بوداعته؟ إذن، علينا انتهاجُ درب الوداعة كي نمضي إليه، ونقود إليه الآخرين.
- الرقّة والمودّة هما فضيلتان فائقتا القدرة على اكتساب نفوسٍ لله.
- ينبغي شدّ أزر الخطأة، وإنعاش ثقتهم. فإبليس يستخدم، عادةً، شدّة بعض الأشخاص وقسوتهم، لكي يُغرق نفوسهم في الاضطراب.
- فلنقرنِ الحزم والثبات بالرقّة، تفاديًا لتنازلاتٍ قد تجرح ضميرًا رقيقًا. ولكن إن لم يكن ما نخشاه، في هذا السياق، فلنؤثر الرقّة لأنّها أقدر وأجدى من الشدّة والصرامة، من أجل التأثير على إرادات البشر.
- اللطف المقترن بالمحبّة هو الوسيلة الأوفر جدوى من أجل التأثير على أذهان البشر، ودفعهم إلى تقبّل الأمور الأكثر تنفيرًا للطبيعة البشريّة.
- يجب أن يكون المرء ودودًا على غير تملّقٍ، فليس أحقر، وأقلّ جدارةً بقلبٍ مسيحيٍّ، وليس أبغض في نظر متيني الورع، من المداهنة والتملّق.

- اللطف يجعلنا نحتمل بعضنا بعضًا، ونتقبّل أقوال الآخرين.
- يجب استخدام المودّة واللطف مع الفقراء، والأشخاص الأكثر تعرّضًا للازدراء، وتجنّب التعامل معهم تعاملًا فوقيًّا قهريًّا، فالتعالي يستدعي الثورةَ والتمرّد، في حين أنّ التعامل بلطفٍ يدفعهم إلى الامتثال وإلى استفادةٍ كبرى من النصائح التي يتلقّونها.
- على الرئيس أن يكون صلبًا على غير قسوةٍ، وأن يتجنّب كلّ وداعةٍ تافهةٍ، لا طائل منها، وعليه أن يعامل مرؤوسيه جميعهم بعذوبةٍ، واحترامٍ، وأن يلجأ، دائمًا، إلى الصلاة، والعبارات الرقيقة، وتفادي الخطاب المتعالي.
- مع أنّه ينبغي مخاطبة الجميع بعباراتٍ يمليها التهذيب، لا يسوغ امتداح أشخاصٍ بحضورهم، إلّا إذا اتّضح أنّ هذا المديح يسهم في دفعهم إلى متابعة أعمالٍ صالحةٍ بدأوها، أو من أجل تشجيع نفوسٍ يقيّدها الخجل.

العفّة

- طهارة الجسد لا تعني، بالضرورة، عفّةً. بل إنّ ما يصنع العفّة هو طهر الفكر، وهو جوهرها وكمالها. فهو يطرد عن الذهن، والذاكرة، والرغبات، كلّ الخواطر الرديئة، ويقتلعها من القلب. وقد أولى ربّنا من الشأن للعفّة، بحيث غيّر نظام الأشياء، وابتغى أن يولدَ من عذراء.
- التواضع هو الوسيلة المثلى للتمرّس بالعفّة. ووسيلة الحفاظ على العفّة هي تجنّب البطالة والفراغ، فالفراغ، في ذاته، شرٌّ مريعٌ... صدّقوني، عندما يعثر إبليس على إنسانٍ بطّالٍ يستطيب امتحانه، ومراودته برذيلة الدنس... ومن المؤكّد أنّ الدأب على العمل يضعف أسر التجارب.
- أُمّ وسائل مكافحة الدنس هي اللجوء إلى ربّنا يسوع، في كلّ مناسبةٍ، وكلّ ساعةٍ، والاستشفاع بطهره وطهر أُمّه العذراء.
- كيف يستطيع ممارسة فضيلة العفّة من لا رغبة له إلّا في الملذّات والمتعة، والنشوة؟
- كما أنّ التربة، حتّى إذا كانت خصبةً، إذا أُهملت، ولم تُحرَث وتُزرع، لا تلبث أن تنتج أشواكًا، كذلك النفس المستسلمة للفراغ، ستجتاحها التجارب، وتدفعها إلى الشرّ.
- العلاجات الأساسيّة لمقاومة ثورات حواسّنا هي:
  - صلاةٌ مستمرّةٌ، تواكبها تضحياتٌ كبرى في المأكل والمشرب،
  - مواظبةٌ ثابتةٌ على أداء واجبات دعوتنا،
  - تواصلٌ صادقٌ مع من يدير قلبنا وروحنا،
  - ثقةٌ بنويّةٌ في عون الله، وفي قدرة شفاعة السيّدة العذراء،

ولكنّ جميع هذه الوسائل لن تجدي نفعًا إن لم ننأَ، في جميع الأحوال، عن المناسبات الخطيرة.

آلامٌ ومِحَنٌ

- **الويل لمن لا يسعى إلّا إلى إرضاء ذاته! الويل لمن يهرب من الصلبان، لأنّه سيلقى صلبانًا ترهقه بثقلها.**
- **من أجل تمجيدنا، يسمح الله، أحيانًا، أن نُشتَم، ونُضطهَد، بلا سببٍ. فهو، بذلك، يجعلنا نتشبّه بابنه الذي قُذِف بافتراءات الفتنة، والطمع، وبسكنى الشيطان فيه.**
- **كلّما حلّت بنا أحداثٌ غير متوقّعةٍ، مثل أحزانٍ، وأسباب عزاءٍ روحيّةٍ أو جسديّةٍ، فلنتقبّلها بشعورٍ متساوٍ، موقنين أنّ جميعها آتيةٌ من يد الله.**
- **ليس الإنسان أكثر غنى ممّا يكون وهو متشبّهٌ بيسوع المسيح.**
- **الأحزان هي الدليل الأصدق على حبّ الله لنا.**
- **إنّ المتألّم من أجل الله هو الأشدّ إرضاءً للجلالة الإلهيّة، بما أنّ ابن الله نفسَه ابتغى أن يُتوِّج حياتَه البطوليّة بآلامٍ من الشدّة بحيث أودت به إلى الموت الشنيع.**
- **بمثاله علّمنا يسوع المسيح كم تستطيع الآلامُ تمجيدَ الله، والإسهام في تقديسنا.**
- **إنّ الله يدمغ النفس التي يعدّها لمصيرٍ عظيمٍ، بامتحانها بأحزانٍ تعقبها أحزانٌ، وبمشقّاتٍ تعقبها مشقّاتٌ.**
- **إنّ الموعد الأكثر مناسبةً لقياس تقدّم نفسٍ في مضمار الفضيلة، هو عندما تُصارع التجربة.**

- إنّ التسليم بكلّ ما يريده الله، وطول الوقت الذي يريده، هو الدرس الأبلغ الذي يعطيناه ابن الله. ومَن يجيدون حفظه، ويحفرونه في قلوبهم، يحتلّون المرتبة الأولى في مدرسة يسوع المسيح.
- مثلما نتناول أشدّ الأدوية مرارةً، من أجل الحفاظ على صحّة الجسد، علينا أن نتقبّل بطيبة خاطرٍ المشقّات، مهما كانت منفّرةً للطبيعة البشريّة واعتبارها أدويةً جزيلة الجدوى، يستخدمها الله من أجل تطهير نفسنا، وإيصالها إلى الكمال الذي يدعوها إليه.
- فلنشكر الله ونباركْهُ، كلّما تعرّضنا لمشقّةٍ أثناء قيامنا بعمل محبّةٍ.
- لو استطعنا رؤية الاضطرابات بعيونٍ مسيحيّةٍ حقّةٍ، ولو تحرّر فكرنا من شعارات العالم، التي تقاوم، مثل سُحُبٍ قاتمةٍ، أشعّة الإيمان، حائلةً دون تسرّب النور الإلهيّ إلى أعماق نفسنا، لكُنّا سعداء جدًّا بما يلحق بنا من افتراءاتٍ، وبأن يُنظر إلينا، ليس فقط كأنّنا بطّالون وعديمو النفع، بل أيضًا، كأنّنا أوغادٌ وفاسدون.
- إنّ الافتراءات والاضطهادات هي نعَمٌ يهبها الله لمن يخدمونه بأمانةٍ. وهي وسائل تستخدمها الحكمة الإلهيّة لكي تكمِل تقديس نفوسنا، ولكي تنتشلها من كلّ ما يحول بها دون الاتّحاد بها اتّحادًا كلّيًّا.
- إنّ الأحزان التي يرسلها الله لنا، والتي نتقبّلها بتسليمٍ تامٍّ، تمسي لنا نعمًا، وخيراتٍ، بما أنّ التوافق مع مشيئة الله هو ربحٌ أسمى من جميع المغانم الزمنيّة.
- اعتاد الله امتحان خدّامه، وإصلاح من يحبّهم بعقاباتٍ.
- بقدر ما ينمو حبّ الله في نفسٍ، يتنامى فيها حبّ الآلام والإهانات.

- يرسل لنا الله مشقّاتٍ وأحزانًا، امتحانًا لصبرنا، ولكي يعلّمنا التعاطف مع آلام الآخرين.

- كثيرون هم الذين يقتصرون على الظهور بمظهر البساطة، ويغذّون في داخلهم، مشاعر ساميةً نحو الله. ولكن عندما يتعيّن عليهم أن يحتملوا في سبيل الله متاعب كبرى، وأن يتألّموا، ويضحّوا، وأن يتقبّلوا الأمراض بحبٍّ، وأن يواجهوا الافتراءات والنكبات، ينهارون، ويتبخّر كلّ ما كانوا يعدّونه درعًا.

- قال المخلّص: "طوبى لكم إذا اضطهدكم الناس، وقالوا عنكم كلّ شرٍّ". وإنّها لسعادةٌ كبرى أن نُعامَل كما عومل مخلّصنا يسوع المسيح.

- المرض هو المكان الأمثل لممارسة الإيمان. ففيه يتألّق الرجاء، وفيه يجد حبّ الله، والتسليم لمشيئته، وسائر الفضائل، مساحةً شاسعةً للترسُّخ. وفيه تتّضح صفات كلّ امرئٍ. وهو المعيار الأصدق لسبر عمق فضيلته. وإنّ خادمَ الله الصالح هو مَن يجعل من سرير مرضه عرش استحقاقٍ ومجدٍ. وعلينا، نحن، أن نعدّ إخوتنا في الجمعيّة المبتلين بأمراضٍ، برَكةً للجمعيّة.

- التجارب حدثٌ إيجابيٌّ. ويومٌ مليءٌ بالتجارب خيرٌ من شهرٍ خالٍ منها.

- لا نطلبنَّ من الله أن يمنع عنّا التجارب، بل أن نُحسن الاستفادة منها، وأن يحمينا من السقوط فيها... وأن تتكاثر تجاربنا بقدر ما نتقدّم في الفضيلة، ونشكر الله عنها.

- يختبر الله نفوسًا بحالاتٍ صعبةٍ، وبأفكارٍ سوداء بشعةٍ، وبنوبات يأسٍ، كي ينمّيها في الفضيلة.

- الدليل القاطع على اختيار الله نفسًا، لغاياتٍ ساميةٍ، هو عندما يضيف إلى أحزانها أحزانًا، وإلى جفافها جفافًا.

- ما من إنسانٍ، في العالم، لا يشكو من وضعه، حتّى إذا بدا هنيًّا. وإنّما الوضع الأمثل هو الذي يجعلنا شبيهين بربِّنا، معرَّضين للتجارب، دائبين على الصلاة، عاملين ومتألّمين.
- الحياة كفاحٌ، والكفاح وقايةٌ من الهزيمة. والله لا يسمح بأن نُجرَّب بما يفوق طاقاتنا.
- إنّنا نحاكي صخرةً، يُراد أن يُصنَع منها تمثالٌ. فما الذي يفعله المثّال، في هذا السبيل؟ إنّه يتناول مطرقةً، ويزيح بها عن الصخرة كلّ نتوآتها، بطَرقاتٍ قويّةٍ، ولكأنّه يبتغي تفتيتها. وبعدئذٍ يعمل بمطرقةٍ صغيرةٍ، ثمّ بإزميلٍ، ويشرع في إظهار الشكل، بجميع تفاصيله، وأخيرًا، يستخدم أدواتٍ صغيرةً دقيقةً كي يصقل التمثال، ويوصله إلى الكمال.

هكذا يعمل الله بنا. فالمرسَل، أو بنت المحبّة، يبدوان، في البدء حَجَرةً خشنةً، ويريد الله أن يبتدع منها تمثالًا جميلًا، فيُعمل فيها مطرقته بقسوةٍ، ويمتحنها بأقسى المشقّات، ويبدو أنّ المرسل أو الأُخت يتألّمان. ولكن مَن يتحقّق من غرض الله يتبيّن أنّ ضربات إزميل الله تُكمِل شكلًا رائعًا. وما المِحَن الجسديّة والروحيّة إلّا وسيلةٌ لإزالة خشونة النفس بفضل ممارستها الصبر، حيالها.

- لم يأتِ ابن الله إلى العالم فقط كي يخلّصنا بموته، بل لكي يحقّق كلّ مرامي أبيه، ولكي يجتذبنا إليه بمثاله... فقد وُلد خارج بلدته، في قسوة الشتاء، وفي فقرٍ مدقعٍ. وهربًا من اضطهاد هيرودس اضطرّ إلى المنفى متحمّلًا منغّصات الغربة والتشرّد، والتعاطف مع المصاعب التي تحمّلتها أُمّه العذراء، وتحمّلها يوسف، من أجل إنقاذه. ولمّا عاد إلى الناصرة عاش في الخفاء، كي يكون قدوةً للمدعوّين إلى الحياة الخفيّة.

- يرتكب خطأً جسيمًا من لا يصبر على الأمراض التي يُمنى بها.
- ليست الأمراض شرورًا نخشاها، بل هي وسائل جزيلة الجدوى من أجل تقديسنا. وما التذمّر عندما يمتحننا الله بها إلّا اعتراضٌ على الخير الذي يُنعم به علينا.
- في حالة المرض علينا استخدام العلاجات التي أُثبتت صلاحيّتها للشفاء، وتسبيح الله الذي خلق شتّى النباتات، ومنحها القدرة الشفائيّة. ولكن يجب تجنّب الإشفاق المفرط على ذواتنا، والسعي إلى تخفيف أدنى وجعٍ قد ينتابنا.
- الأمراض تطهّر النفس، وهي وسيلةٌ فعّالةٌ من أجل تذكيرنا بالفضيلة التي غفلنا عنها، وهي تشرّع للمرضى حقلًا رحبًا لممارسة الإيمان، والرجاء، والخضوع لمشيئة الله، وسائر الفضائل.
- عندما نعتلّ نعرف ذواتنا أفضل ممّا نعرفها، ونحن ننعم بالعافية... وما أسعدنا، إذا تمكنّا من اكتشاف الكنز المخفيّ في الأمراض!

.../...

- عندما يحرم الله إنسانًا من قواه الجسديّة، يبتغي إعلامه أنّه اختار وسائل أُخرى من أجل تحقيق مراميه.
- الوضع المَرَضيّ مزعجٌ، وقد لا تطيقه الطبيعة البشريّة. غير أنّه أحد أقدر وسائل الله في إدخالنا إلى الواجب، وانتزاعنا من ميولنا السيّئة، وإغداق نعمه علينا.
- أنأبى الأسقام الجسديّة عندما يمتحننا الله بها؟ أنرفض سعادته؟ أوليست الآلام مدعاة سعادةٍ لأنّها تقدّس النفس؟

من صَلَوَاتِهِ

- "هبني، يا إلهي، نعمة التألّم، وأنا أحبّك، ونعمة حبّك وأنا أتألّم. أُحبُّك، يا مخلّصي لأنّك صُلبتَ من أجلي، وأُحبّكَ، يا إلهي، لأنّك تصلبني في هذه الدنيا، من أجلك...

هَبني نعمةَ الموت، وأنا أُحبّكَ، شاعرًا بحبّي لك...

* * *

"يا إلهي، أهبك قلبي، كما هو.
وحبًّا بك أعبد قرارات عنايتك الأبديّة.
أيّها العطف الأسمى، الذي يريد أن يحبّه الخطأة،
هَبني أن أُحبَّكَ، وحينئذٍ اقتضِ منّي ما تشاء..."

- صلاةٌ من أجل جمعيّة الرسالة

"يا مخلّصي، لقد انتظرتَ ١٦٠٠ سنةٍ، من أجل استنهاض جمعيّةٍ تلتزم، علنًا، بمواصلة العمل الذي أوكلَه إليك الآب، على الأرض، جمعيّةٍ تستخدم الوسائل عينها التي استخدمتَها، ناذرةً الفقر، والعفّة، والطاعة. يا مخلّصي، لم أُقدّم، بعدُ، لك الشكر عن ذلك. وها إنّي الآن أشكرك، باسم جميع الحاضرين والغائبين. فقد أعددتنا لهذه المهمّة، في مراميك الأزليّة، فأعنّا على أن نقوم بها خير قيامٍ بنعمتك المقدّسة. ولكن مَن هم هؤلاء الذين تستخدمهم، يا مخلّصَ نفوسنا، من أجل ردّ العالم إليك، ومواصلة رسالتك؟ يا لضآلتنا، ويا لدواعي خجلنا!

يا ربّ، هَبنا نعمة أن نكون جديرين بهذه المهمّة، وبدعوتنا، وهَبنا القدرة على مكافحة الرغبة في متاع الدنيا ومُتَعها، وأمجادها، بممارستنا الفقر، والعفّة، والطاعة، وامتشاقنا، دائمًا، سلاح التضحية الماضي، كي نتغلّب على هذه كلّها، ونكون للأجيال القادمة مثالًا وقدوةً.

وفي الختام

وأنا أطوي هذا الكتاب، أُشيرُ إلى أنّني، كلّما أبحرتُ في استقراء سِيَر القدّيسين، ألمحُ شبكةً سرّيّةً تنتظمهم، وأنّ شراكةً خصبةً تجمعهم، جيلاً فجيلاً، بقيادة الروح القدس.

فما تميّز به القدّيس فرنسيس الأسّيزيّ بإنعاشه روح الإنجيل في الكنيسة، وإيقاظه، لدى خدّامها، روح الفقر والزهد، والتضحية بالذات من أجل غوث الربّ في الفقراء والمهمّشين والمحرومين، ورفع الضيم عن المظلومين، وإعادة الكرامة إلى المُذَلّين؛ وما حقّقه في ميدان الرسالة من أجل إسكان الله في قلوب مَن يجهلون حبّه لهم، وإعادتهم إلى ظلّ جناحَي رحمته ورعايته، كلّ ذلك استعاده، وطوّره، ومضى به قُدُمًا، أشواطًا شاسعةً القدّيس ڤنسان ديپول.

ومن مدرسة الأَسّيزيّ وديپول تخرّج خوري أرس، وطائفةٌ من التلاميذ النجباء، والقدّيسين الرائعين، نذكر منهم الأب "جوزيف بينوا كوتّولينغو"، والأب پيير، والأُخت إيمانويل، وجان ڤانييه، وقدّيسة المحبّة الكبرى، الأُمّ تيريزا الكلكتّاويّة، ولفّت جميع هؤلاء بشفاعتها وردة القداسة الفوّاحة تيريزا الطفل يسوع.

وفي فَلَك القدِّيسَين فرانسوا الساليزيّ وڤنسان دي پول، والقدِّيستَين جّان دي شانتال ولويز دي ماريّاك، حلّقت كوكبةٌ من القدِّيسين، أبرزهم الرائيتَان راهبَة المحبّة، القدّيسة كاترين لابوريه (١٨٠٦-١٨٧٦)، التي حقّقت رغبة العذراء، وزرَعت في العالم أجمع الأيقونة العجائبيّة، وراهبَة الزيارة، ابنة مريم، القدّيسة مرغريت ماري ألاكوك (١٦٤٧-١٦٩٠)، التي عمّمت التعبّد لقلب يسوع. ولا بدّ من ذكر القدّيس جان أويد (Jean Eudes)، الذي كان له إسهامٌ فاعلٌ في إصلاح الإكليرُس، وأسوةً بالقدّيسة مرغريت ماري نشرَ التعبّد لقلبَيْ يسوع ومريم الأقدسَين.

وقد هزَّت نفسي، منذ بضعة أيّامٍ، مفاجأةٌ أدهشَتني وأسعدتني، عندما شرعتُ أُعدّ كتابًا عن القدّيس "جوزيف بينوا كوتّولينغو"، الذي أَسّس في مدينة "تورينو" الإيطاليّة، مركزًا استشفائيًّا خيريًّا عملاقًا، تحوّل خلالَ سنواتٍ معدوداتٍ إلى مدينةٍ طبّيّةٍ معجزةٍ، وقد أَطلق عليه، يومَ تأسيسِه عام ١٨٣٢، اسم "بيت العناية الإلهيّة الصغير، برعاية القدّيس ڤــنسان دي پــول"، الذي كان قد انقضت على وفاته مئةٌ واثنان وسبعون عامًا.

ولّما ازدهر ذلك المركز أسّس الأب القدّيس "كوتّولينغو"، من أجل خدمته وإدارته جمعيّةً رهبانيّةً أَطلق على راهباتها اسم "الـــڤـــنسانيّات"، ثمّ أسّس، للغاية عينها، جمعيّةَ إخوةٍ ابتدع لهم زيًّا خاصًّا مكوّنًا من صايةٍ سوداء يشدّها زنّارٌ قماشيٌّ، ويزيّن صدرَها قلبٌ من صوفٍ أحمر يحمل كلمتَيْ "محبّة" و"القدّيس ڤــنسان". وقد أخضع جميع مؤسّساته للنظام عينه الذي ساس جمعيّات القدّيس ڤــنسان، حتّى بدت كلّ المؤسّسات الكوتّولينغيّة امتدادًا للمشاريع الــڤنسانيّة.

وبذلك أثبت قدّيسنا أنّه، ما زال، من قبره، بل من فردوسه، يستنبتُ أبطالاً وقدّيسين يتابعون مشاريع المحبّة التي وُلِدت من روحه، ونمت بفضل تنظيمه، وقداسته، واتّكاله الكلّيّ على العناية الإلهيّة.

وأودّ أن أذكر أنّ الطوباويّة الأُخت أنّا كاتارينا إيمّيريك، إذ كانت تشهد، في إحدى رؤاها، إيفاد يسوع رسلَه لتبشير العالم، أشفقت على وهن الرسل حيال مهمّةٍ تفوقهم، فذكّرها الربّ بأنّه دائمًا معهم، وأنّه في ذلك اليوم عينِه يرسل كاهنًا ضئيل زاد العلم إلى رعيّةٍ سيحقّق فيها معجزاتٍ، وكان، جان ماري ڤــيانّي في ذلك اليوم، قادمًا لاستلام رعيّة أرس.

وبذلك، أكّد الربّ أنّه دائمًا يزوّد، بعونِه وقوّته، خدّامه الأوفياء لإنجيله، وأنّه بتلك الشبكة من القدّيسين الذين يستنبتُهم، جيلاً فجيلاً، يصون مناعةَ كنيسته، المهدّدة من كلّ جانبٍ.

المصادر

- Mgr. Louis ABELLY: La Vie du vénérable serviteur de Dieu, Vincent de Paul, 1664, Paris
- Mgr. Jean CALVET: Saint Vincent de Paul Éd. Albin Michel, Paris, 1948.
- Pierre MIQUEL: Vincent de Paul Fayard, 1996.
- Marie JOËLLE GUILLAUME: Vincent de Paul, un grand saint, au grand siècle, Éd. Perrin, 2015.
- Bernard PUJO: Vincent de Paul, le précurseur, Éd. Albin Michel, 1998.
- André FROSSARD: Votre très humble serviteur, Vincent de Paul, Téqui, 1957.
- Domicique ROBIN: Saint Vincent de Paul, l'amour est un feu, Médiospaul, 2010.
- Jean-Yves DUCOURNEAU: Vincent de Paul, l'amour à l'infini, Médiaspaul, 2010.
- Mathieu BAUMIER: Saint Vincent de Paul, le grand œuvre catholique, Pygmalion, 2008.
- Luigi MEZZARDI: Petite vie de Saint Vincent de Paul, Éd. Ortége, 2017.
- André DODIN: Saint Vincent de Paul et la charité, Seuil, 1960.
- André DODIN: L'esprit Vincentien, le secret de Saint Vincent de Paul, Desclée de Brouwer, 1981.
- Robert P. MALONEY: un Chemin vers les pauvres, Desclée de Brouwer, 1994.
- Michel RIQUET: Saint Vincent de Paul ou le réalisme de la Charité, J. Gabolada - Paris, 1960.
- Guillaume HÜRENMAN: Saint Vincent de Paul, le père des pauvres, Salvator, 2018.
- M. Leuret DUPANLOUP: le Cœur de St. Vincent de Paul, P. Lethielleux, 1971.
- André MÉNABRÉA: Saint Vincent de Paul, le maître des hommes d'états, La Colombe, Paris, 1944.

الفهرس

تقديم – الأب علَم علَم ٧

الفَصْلُ الأوّل

مسيرةٌ شاقّةٌ نحو الكهنوت........ ١٣
نشأته: الراعي الصغير ١٤
ڤنسان الطالب ٢٠
الطالب الإكليريكيّ........ ٢٤

الفَصْلُ الثّاني

خطفٌ، وعبوديّةٌ، وتلمّس طريقٍ ٣١
الأسير ٣٢
خبرةٌ رومانيّةٌ ٣٦

الفَصْلُ الثّالِث

تلمّس الدعوة ٤١
عودةٌ إلى فرنسا........ ٤٢
مِحَنٌ مستمرّةٌ ٤٦
لمحةٌ عن الأوضاع السياسيّة والدينيّة في ذلك العهد ٤٨

الفَصْلُ الرّابع

مسيرةٌ بطوليّةٌ نحو القداسة........ ٥١
پيير دي بيرول........ ٥٢
خادم رعيّة "كليشي" ٥٦
لدى أسرة "دي غوندي" (de Gondi) ٥٩
راعي "شاتيّون"، وولادة أخويّات المحبّة ٧١

الفَصْلُ الخَامِسُ

مرحلة المشاريع الطليعيّة ٨٣
عودةٌ حافلةٌ بالإنجازات ٨٤
التقاء قدّيسَيْن: فرانسوا الساليزيّ ٩٠
زيارته لذويه ١٠١
مرشد السجون ١٠٣
حربٌ على التسوّل ١١٢
تأسيس جمعيّة الرسالة – "اللعازريّة" ١١٥
تنظيم الرسالات ١٢٣
الاعتراف الرسميّ بجمعيّة الرسالة ١٢٨
إصلاح الإكليرُس ١٣٣
لقاء الثلاثاء ١٤٠
الأب ديپول في مجلس الضمير (le Conseil de Conscience) ١٤٩
الأب ديپول و"الجنسينيّة" (le jansénisme) ١٥٦
مقرّ القدّيس لعازر ١٦٠
لويز دي ماريّاك ١٦٥
ولادة جمعيّتي "سيّدات المحبّة" و"بنات المحبّة" ١٨٠
اللقطاء ٢٠٠
"دار اسم يسوع" ٢١٢
أبو الوطن: في مواجهة كوارث الحروب ٢١٤
الأب ديپول وثورات "المقلاع" (la fronde) ٢٢٨
توسّعٌ وانتشارٌ ٢٤٤
رسالة پولونيا ٢٤٩
رسالاتٌ في الجزر البريطانيّة ٢٥٣
رسالة مدغشقر ٢٥٦
رسالاتٌ في أفريقيا الشماليّة ٢٦٣

الفصل السادس

غروب حياة عملٍ وقداسةٍ ٢٦٥
شيخوخةٌ وجيعةٌ ونشيطةٌ ٢٧٢
رسائله ٢٧٧
أحاديثه إلى مرسَليه ٢٨٠
أحاديثُه إلى بنات المحبّة ٢٨٣
أحاديثه إلى سيّدات المحبّة وإلى راهبات الزيارة ٢٨٦
إدارته ٢٨٨
نهاية حياة قدّيسٍ ٢٩٢
الساعات الأخيرة ٢٩٥

الفصل السابع

رائدٌ وقدّيسٌ ٣٠٧
ملامح ٣٠٨
بطل عملٍ ٣١١
البذرة الصغيرة نَمَت ٣١٨
عملاق المحبّة ٣٢٦
رجل المفارقات ٣٣١
ڤنسان القدّيس ٣٣٦

الفصل الثامن

مقتطفاتٌ من خواطر القدّيس ڤنسان دي پول ٣٤٩
باقاتٌ روحيّةٌ ٣٥٠
إيمانٌ ٣٥١
الصلاة ٣٥٣
خشوعٌ ٣٥٩
التقدّم الروحيّ ٣٦٠

التضحية ٣٦٢
عرفانٌ بالجميل ٣٦٣
الثقة بالله ٣٦٤
التوافق مع مشيئة الله ٣٦٦
حبّ الله والقريب ٣٧٠
الإحسان إلى القريب ٣٧٣
موقفٌ روحيٌّ ثابتٌ حيالَ الأفراح والشدائد ٣٧٥
الكهنوت ٣٧٨
غيرةٌ رسوليّةٌ ٣٨٢
الوعظ ٣٨٥
التواضع ٣٨٧
الكبرياء ٣٩٢
الصبر ٣٩٣
الفطنة ٣٩٤
المثابرة ٣٩٦
الفقر ٣٩٧
السيّدة الفقر ٤٠٢
تجرّدٌ ٤٠٣
البساطة ٤٠٤
وداعةٌ، ورقّةٌ، ولطفٌ ٤٠٦
العفّة ٤٠٩
آلامٌ ومِحَنٌ ٤١٠
من صلواته ٤١٥

وفي الختام ٤١٦

المصادر ٤١٨

الفهرس ٤١٩

صدر للمؤلّف

أ – منشورات المكتبة البولسيّة – جونية – لبنان

مؤلّفات متفرّقة

١ – قدّيسة من بلادنا: الطوباويّة الأخت مريم يسوع المصلوب – **١٩٩٠**

٢ – يسوع في إنجيله – **٢٠٠٦**

٣ – يسوع في حياته – الجزء الأوّل – **٢٠٠٦**

٤ – يسوع في حياته – الجزء الثاني – **٢٠٠٦**

٥ – أمّ الله أمّنا – **٢٠٠٩**

٦ – مختارات مريميّة – **٢٠٠٩**

٧ – أمّ الرحمة – **٢٠١١**

٨ – باقاتٌ من حدائق رابندرانات طاغور – **٢٠١٦**

٩ – الأخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك» (١) السيرة – **٢٠١٩**

١٠ – الأخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك» (٢) الرؤى * – **٢٠١٩**

١١ – الأخت «أنّا كاتارينا إيمّيريك» (٣) الرؤى ** – **٢٠١٩**

سلسلة النوابغ

١ – السياسيّ القدّيس: المهاتما غاندي – **١٩٩٢**

٢ – فرنسيس... أصلح كنيستي – **١٩٩٢ و ٢٠٠٨**

٣ – صوتُ من لا صوتَ لهم: الأب پيير – ١٩٩٧

٤ – حتّى يوجعَ العطاء: الأمّ تيريزا الكلكتّاويّة – ١٩٩٨ و ٢٠٠٣

٥ – أنا الأخت إيمّانويل، أشهد – ١٩٩٩

٦ – بولس، رسول يسوع وقلبه ولسانه – ٢٠٠٣

٧ – جان ڤانييه وسفينته – ٢٠٠٣

٨ – سيرة المسيح (مترجم عن جيوڤانّي بايپيني) – ٢٠٠٣

٩ – البابا القدّيس يوحنّا بولس الثاني – ٢٠١٥

١٠ – الكاهن القدّيس جان ماري ڤيانّي «خوري أرس» – ٢٠١٩

سلسلة الظهورات

١ – ظهورات لورد – ٢٠١١

٢ – ظهورات فاطمة – ٢٠١١

٣ – ظهورات الصوفانيّة – ٢٠١١

٤ – ظهورات مديوغوريه – ٢٠١١

٥ – ظهورات لاساليتّ وظهورات الإسكوريال – ٢٠١٢

٦ – ظهورات كيبيهو وظهورات غوادالوپّي – ٢٠١٢

٧ – ظهورات العذراء لكاترين لابوريه (الإيقونة العجائبيّة)
وألفونس راتسبون – ٢٠١٢

٨ – ظهورات لوس وغيتشڤاود – ٢٠١٢

٩ – لمَ تبكي العذراء؟ – ٢٠١٢

١٠ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (١) – ٢٠١٢

١١ – الأمّ السماويّة تجوب العالم (٢) – ٢٠١٣

١٢ – ظهورات غَرَبَندَل وظاهرة سان داميانو – ٢٠١٣

١٣ – ظهورات في فرنسا – ٢٠١٣

سلسلة صفحات روحيّة

١ – أبانا – **٢٠٠٥**

٢ – كتاب الحكمة والفضائل المستعادة (مترجم) – **٢٠٠٧**

٣ – العذراء في حياتنا (مترجم) – **٢٠٠٥** و **٢٠٠٧**

٤ – المسيحيّة في نظر رابندرانات طاغور وصلوات شاعر (مترجم) – **٢٠١٥**

٥ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل، الرحلة إلى لورد وخواطر مختارة (مترجم) – **٢٠١٦**

كتب مترجمة

١ – يد اللّه – **١٩٨٨** (سلسلة الشهود)

٢ – ثلاث عشرة قصّة – **١٩٩٠** (سلسلة الوداع)

٣ – أيدٍ ملطّخة بالدم – **١٩٩٥** (سلسلة الوداع)

٤ – اذكروا اللّه: تأمّلات من وحي رسائل الصوفانيّة – **١٩٩٥**

٥ – حدّثني عن الحبّ (طبعة ثالثة) – **٢٠٠٥** (سلسلة الشباب مستقبل الغد)

ب – دور نشر أخرى

١ – على درب الحياة مع ألكسي كاريل (مطبعة الأديب – دمشق) – **١٩٨٤** و **٢٠٠٠**

٢ – حدّثني عن الحبّ (مطبعة اليازجي – دمشق) – **١٩٩٨** و **٢٠٠٠**

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان

المطبعة البولسيّة
جونيه – لبنان